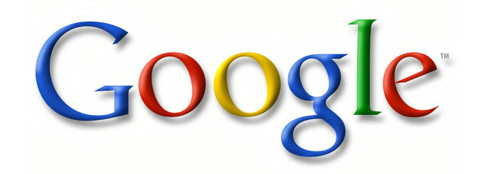
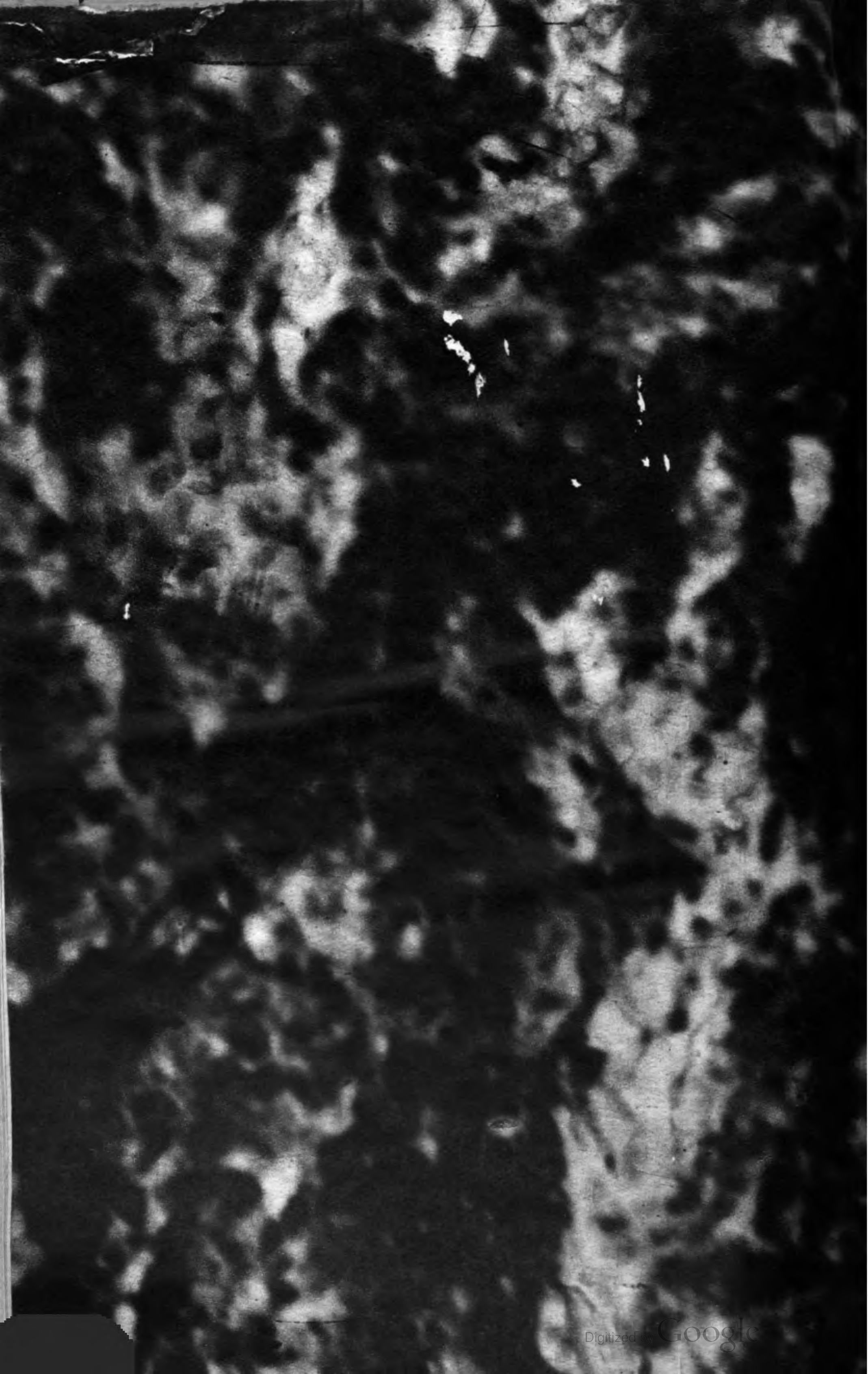





HDI
HW 72K1 -



هـــــــــــــــذا

كتاب الروض الازهر

فى تاريخ بطرس الاكبر

ايمبراطور الموسقو ترجمة

احمد افندى عبيد

بقلم الترجمه

م ،

فهرست كتاب الروض الازهر فى تاريخ بطرس الاكبر

وذكر

صحيفه

المقالة الثالثة

الفصل

صحيفه

بيان الخطأ والصواب من كتاب الروض الازهر * في تاريخ بطرس الاكبر

خطا	صواب	صحيفه	سطر
السابع	الثامن	٤١	٤
الذين قطنوا	الذي قطن	٥	٢٣
الصقالبة	والصقالبة	٧	١٦
هاتين الطائفتين	هؤلاء المتدينين الفاتحين	٨	١٧
غير معلوم	حديث بالكلية	١٠	١١
تجاورتهم	تجارة اهل ايطاليا	١١	٩
صغيرا يسمى	صغيرا حديثا يسمى	٢٥	١٦
كان يلزم	لزم	٣٤	١٧
لانقدا	صنفا لانقدا	٣٧	١
هذه	هذا	٣٨	٣
السابع	السادس	٣٩	٤
ومن المعلوم	ومما ينبغي معرفته	٤٨	٧
القيصر	الجنار	٤٨	١٩
قطلبت	عرضت	٤٩	١٦
لاحد	على احد	٤٩	١٧
السنة التي بعدها	سنة ١٦٧١	٥٠	٢٢
عمروا اهل	عمر	٥٣	٣
سنة ١٦٨٦	سنة ١٦٨٢	٥٤	٢٣
من السفارة	مع السفارة	٧٥	١٠
سنة ١٦٧٦	سنة ١٦٩٦	٧٩	٤
الجوية	البحرية	٨١	١٩
الاتسعة آلاف من غير زيادة	تسعة آلاف	١٠٦	٢٥
اخر	الثاني عشر	١١٧	٧

خطا	صواب	صحيفه	سطر
السابع	السادس	١١٩	٥
٣	٣٠	١٢٠	٤
مملكته	مملكة	١٢٦	١
ستين	اربعة وستين	١٢٨	٦
موسوقتين بجبا	معدتين لضرب الجيب	١٢٨	٦
طليعة	ساقة	١٤٤	٢٠
آخر اقتره	آخر يسمى سوروپاسكى اقتره	١٤٦	٢٥
عليه	على صورته بالشنق	١٤٧	٣
طليعة	ساقة	١٤٧	١١
بخمسين	بعشرين	١٤٨	١٣
خشية أن يخاطر بنفسه	لطلب ما يقتات به	١٤٩	٣
فهل	فهلا	١٤٩	١٨
ظهر	هجم	١٥٦	٦
فهلا يقال ان كرلوس	فلذا قيل فى حق كرلوس انه	١٥٦	٧
مترد عات	امثال من تعرض لهم اريوست فى اشعاره	١٥٨	٣
ينضموا الى حزب من الاحزاب ويؤثروه على غيره بتعضيده والاخذ بناصره	يقدموا على فعل اى شئ كان	١٥٨	٢٢ و ٢٣
كما انهم اضمحلوا سابقا وتمزقوا	برسم كونهم اهالى بلدة موسقوبية نزعت من هذه الدولة سابقا وتمزقت منها	١٦٤	١٦
الطمع فيها او تمكين احد من نفسها او وقوعه فى مصائد غرامها او مكائد عشقها	حسدها ولا تعرض احد لمقاصدها ولم توش باحد	١٧٠	٢٥
ستة	عشرة	٢٠٣	٢١

خطا	صواب	صحيفه	سطر
غادو بوسك	دستامبوك	٢٠٨	٤
ودن	ودون	٢٦٦	١٩
المبطلة	المبلطة	٢٧٦	٢٤
بنرنطيا	بيزانطيا	٣١٨	٢٥
كل شيء الا	كل شيء ل	٣١٨	٢٣
اشهادات	الشهادات	٣٢٣	٩
سمعوا	وسمعوا	٣٢٣	١٠
لحقها	حقها	٣٢٣	١٨
للدولة الجارية	للدولة الجارية ومنظوم ايضا فى سلك الرعية	٣٢٤	٨
مشتار	مستشار	٣٢٤	٩
اضرة من تقديم	اضمره من تقويم	٣٢٦	١٧
التتار	اوالتتار	٣٣٠	٢٠
البيكار	والبيكار	٣٣٠	٢٥
كان يخالط	وانما كان يخالط	٣٣١	١٨



ان احسن ما شمر له النجيب ذراعه * ومد لحيازته الاديب باعه * واجل
ما اقتناه من درر اللطائف * واودعه من غرر الاعمال فى بيض الصحائف *
الفوز بحمد اله ازلى تنزه عن ان يكون له اول فيؤرخ * اوآخر حتى يمر بمر
الدهور وينسخ * وصلاة وسلام على من له فى محاسن السيرا جل سيره *
وفى احاسن رياض الاسرار اطيب سريره * وعلى آله واصحابه * وانصاره
واحزابه * ما نسخ شرائع الاوائل قلم ناسخ * ورسخ فى علوم الاواخر قدم راسخ *
امابعد فيقول راجى غفر المساوى * احمد بن محمد عبيد الطهطاوى *
انى لما اغتنمت يد الفخار والعز * من الزمان فرصة منتهز * القتنى بمدرسة
الالسن التى انشأها صاحب السعادة * قطب دائرة اهل السماح والسيادة *
الذى ملك رقابنا بآلائه * واسر قلوبنا بتفضله ونعمائه * فخر ولاة الامور

الاواخر والاوائل * واسطة عقد نظام ارباب الفضائل والفواضل * من ثبت
له المجد وعن غيره تلاشى * افندينا الحاج محمد علي باشا * لا زال يرفل في حلل
المفاخر * ويسمو على الافلاك السبعة الزواهر * فكنت تحت ارشاد مدير
اشغالها * ونامج منوالها * حضرة المولى الذى شهدت برفعته غرر
الكواكب * ونطقت بوافر فضله السنة المناقب * المؤيد برعاية الملك المبدى *
السيد رفاعة بدوى رافع افندى * لا برحت ايامه بسعوده مبتهجه * وقلوب
العدا النحوس بصولته مختلجه

(شعر)

واحسن القول ما امتدحت به * مولى اقرت بفضله الملل

فاجاد تربيتي كغيرى * حتى حسن حالى وسيرى * وتعلمت بارشاده
من اللغتين الفرنساوية والعربية ما يحتاج اللبيب الى معرفته *
ويزيل به عن عين بصيرته غين رعونته * فبعد ان رأى في التعليم حسن
حالى * واجتهادى في نيل المعالى بين امثالى * اقتضى رايه المؤيد * وحزمه
المعضد * ان اترجم كتابا من كتب التاريخ * فاختار تاريخ ملك من ملوك
الافرنج تعلو همته بينهم على المريخ * وهو تاريخ بطرس الاكبر * الذى فضله
بين ممالك اوروبا اشهر من ان يذكر * فاخذت امره بالطاعة والانقياد *
وشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد * وشرعت في نقله من الفرنساوية الى العربية
مع اعانته لى في حل مشكلاته * وما عسر علىّ من غوامضه ومعضلاته *
لاسيما ومؤلفه من كبار الفلاسفة الافرنجيه * وهو الفيلسوف الشهير المسمى
ولتير الذى غاص من بحار الفلسفة اى لجه * ويعد بين اكابرهم اعظم حجه *
وان كان عن الاديان بعيد المحجه * فجاء التعريب بحمد الله على احسن حال *
واتم منوال * وسميته بالروض الازهر * في تاريخ بطرس الاكبر * وعلى الله
اعتمادى * واليه تفويضي واستنادى

(قال المؤلف)

تاريخ دولة الروسيا في زمن بطرس الاكبر

(وفيه مقالتان)

المقالة الاولى وفيها مقدمة وعدة فصول

(المقدمة)

اعلم ان عامة الناس فى السنين الاول من القرن السابع عشر كانوا لا يعرفون بلاد الشمال الافرنجية بطلا شجاعا الا كرلوس الثانى عشر ملك اسوج فان همته الذاتية التى كانت اقرب الى العسكرية من كونه ملكا منوطا بالادارة الداخلية وكذلك رونق نصراته وسوء حظه كل ذلك اورث العجب العجاب لمن يأخذ بظاهر تلك الحوادث الحسية ولا يلتفت الى الاشغال العظيمة النافعة وكان الاجانب لا يجزمون بدوام مشروعات بطرس الاكبر ولا بتكميلها مع انها استمرت وتقوت فى زمن الايمبراطور تين حانه وايليزابيطة ولاسيما فى مدة كاترينة الثانية التى رفعت دولة الروسيا الى أوج الفخار حتى صارت تلك الدولة منظومة فى سلك الدول الزاهرة الفاخرة والممالك المتمدنة العامرة و بطرس المذكور معدود من عظماء مقننى القوانين ومع ان مشروعاته كان يشهد بعظمها واستقرار ظفرها اولوا الالباب ممن وقع عنهم فى الوقائع السياسية الحجاب من غير ان يستندوا فى شهادتهم الى ثبوت نجاحها فنجاحه قد بد فخره عند ذوى العقول الراجحة وقد حكم اهل عصرنا بان كرلوس الثانى عشر كان جديرا بان يكون اول عسكرى فى الميدان عند بطرس المشار اليه بالبنان فان كرلوس اباد العباد ودمر البلاد بخلاف الثانى فانه عمر ملكه ومدنه وادخل فيه الرفاهية المستحسنة وقد مضى على ثلاثون سنة من حين الفت تاريخ كرلوس وانا اقول بذلك فى حقه وما وصل الى من اللوائح وفتشته فى شأن دولة الروسيا اكسبنى قوة على التصدى لبيان احوال تلك الدولة التى اهلها من اقدم الامم وقوانينها واخلاقها وفنونها حديثة جديدة وشتان بين تاريخى كرلوس وبطرس فان تاريخ الاول يتسلى به الواقف عليه وتاريخ الثانى يستفيد منه من التفت اليه

(الفصل الاول فى الكلام على تخطيط دولة الروسيا)

اعلم

اعلم ان اراضى ممالك الروسيا هى اوسع ممالك الكرة الارضية فانها تمتد من
المغرب الى المشرق بمسافة تزيد على الفى فرسخ معتاد من الفراسخ الفرنساوية
وعرضها الاعظم ينوف عن ثمانمائة فرسخ من الجنوب الى الشمال وتتصل
بمملكة لهه وبالبحر المنجمد وكذلك بمملكتى اسوج والصين وطولها من جزيرة
داغو فى غربى اقليم ليوونيا الى نهاية حدودها جهة الشرق يشتمل
تقريبا على مائة وسبعين درجة بحيث ان وقت الزوال فى غربيها يكون تقريبا
نصف الليل فى شرقيها وعرضها من الجنوب الى الشمال يبلغ ثلاثة آلاف
وستمائة ورستو وذلك مساو لثمانمائة وخمسين فرسخا فرنساويا معتادا
وقد كنا فى القرن السابق نعرف حدود هذه البلاد معرفة هينة حتى اننا
فى سنة ١٦٨٩ كنا نعد فى مبدء الامر من قبيل الخرافات ما كان يبلغنا
من ان اهل الصين والروسيا كانت تقع بينهم الحروب وكان كل من سلطان الصين
كاميها وملكى الموسقو ايوان و بطرس يرسلون رسالات الى حدود
المملكتين التى هى على البعد من مدينة پكين كرسى مملكة الصين بثلثمائة
فرسخ لايقاع الصلح وانهاء الشقاق بينهم
وذلك ان الاقاليم المسماة الآن ممالك الروسيا هى اوسع مما عداها من ممالك
اوروبا مجتمعة فهى اوسع مما كان فى ملك الرومانيين ومن سلطنة العجم
فى زمن دارا التى تغلب عليها الاسكندر لما ان مملكة الموسقو تشتمل على
ما ينوف عن مليون ومائة الف فرسخ فرنساوى فى مثلها بخلاف ما كان
فى ملك الرومانيين وملك الاسكندر فكلاهما لا يشتمل الا على نحو خمسمائة
وخمسين الف فرسخ مربع وليس باوروبا مملكة تساوى نصف سدس المملكة
الرومانية ولاجل ان تكون دولة الروسيا من جهة الاهالى والخصوبة وتعدد
المدن كالبلاد الجنوبية ببلاد اوروبا يلزم تداول قرون كثيرة وملوك عظام مثل
بطرس الاكبر وقال الجى من الجيات الانكليز الذين قطنوا بمدينة بتربرغ
سنة ١٧٣٣ ميلادية وكان قبل ذلك بمدينة مدريد دار مملكة اسبانيا
فيما قرره فى سياحته المكتوبة بالقلم انه فى اسبانيا التى هى اقل ممالك اوروبا

اهلا وعمارا يخص كل ميل مربع اربعون نفسا بخلاف بلاد الروسيا فانه
لا يخص كل ميل منها الا خمسة انفس انتهى وسيأتى فى الفصل الثانى ما يظهر به
ما قاله هذا الاجلى هل هو من قبيل المبالغة ام لا وفى الكتاب المسمى بالديم
المكذوب على المرشال ووبان ان كل ميل مربع من مملكة فرانسا يشتمل
على مأتى نفس تقريبا بمعنى ان ما ينقص من احدها يوجد فى الآخر وهذه
التقاويم غير صحيحة الا ان الغرض منها بيان الفرق الكبير الحاصل بين اهالى
كل بلدة واخرى ولنذكر لك هنا انه من مدينة بترپورغ الى مدينة پكين
دار سلطنة الصين قل ان يجد الانسان فى طريقه جبلا كبيرا شاهقا وان القوافل
تسير اليها من طريق بلاد التتار المستقلة فى سهول بلاد القلموق وصحراء كوبيا
الكبرى ومما ينبغى التنبيه عليه ايضا انه من مدينة ارقنجل الى مدينة
بترپورغ ومنها الى الطرف الشمالى من فرانسا اذا سلك الانسان طريق
دنتزيق وهمبرغ وامستردام قل ان يصادف فى طريقه تلا مرتفعا ولو
يسيرا وهذه الملاحظات ربما اوجبت الشك فى صحة المذهب القائل بان الجبال
لم تكن متكونة الا من دوران امواج البحر على القول بان ما هو الآن ارض قارة
كان بحرا فى الزمن القديم فيقال لصاحب هذا المذهب لم لم تكون الامواج
التى فرضت انها كونت جبال الپه وجبال البرنات وجبل طورس
ايضا جبالا مرتفعة من اقليم النرمندية الى بلاد الصين فى اتجاه
ذى تعاريج قدره ثلاثة آلاف فرسخ فبحث الجغرافيا فى ذلك وملحوظاتها
بهذه المثابة ربما يعود منها على الطبيعة معارف جلية او وقع الشك
فى مباحث الطبيعة المسلمة وكان الفرنساوية يسمون الروسيا سابقا باسم
الموسقوبية لان مدينة موسقوه التى هى تخت هذه الدولة كانت دار اقامة
كبار دوقات الروسيا واما الآن فغلبت التسمية القديمة على الجديدة
ولا مقتضى هنا للبحث عن تسمية الاقاليم الممتدة من اقليم اسمولنسكو الى
خلف مدينة موسقو بالروسيا البيضاء ولا عن علة تسمية المؤلف هبنير
اياها بالروسيا السوداء ولا عن سبب كون اقليم كيوويا يستحق ان يسمى

بالروسيا الحمراء

ولامانع من ان ماديس التتارى الذى اغار على آسيا قبل التاريخ المسيحى بنحو سبعة قرون اغار ايضا على هذه الاقاليم كما وقع ذلك من الملك جنكيزخان وتيمورلنك وكما وقع مثل ذلك ايضا قبل ماديس المذكور بمدة طويلة كما هو الظاهر وليست كل امة قديمة تستحق لان نبحث عنها بخلاف اهل الصين والهند والعجم والمصريين فى قديم الزمان فلا بأس بالبحث عن احوالهم لان هذه الممالك فيها من الآثار الشهيرة المرغوبة مايدل الباحث عنها على حالها القديم وهذه الآثار تستلزم آثارا اخرى اقدم منها لانه لابد لكل امة من مضى عدة قرون حتى يمكنها تحويل افكارها من امر الى آخر وتغييره بعلامات ودلائل صالحة للدوام والاستمرار ولابد ايضا من مضى عدة قرون لاجل احداث لغة منتظمة ذات قواعد مرتبة ولكن مثل هذه الآثار لا توجد باوروبا التى هى الآن مهذبة متمدنة فان فن الكتابة مكث زمنا طويلا مجهولا فى جميع بلاد الشمال فقد قال البطرق قسطنطين الذى الف تاريخ اقليم كيووبا باللغة الروسية ان هذه البلاد كانت فى القرن الخامس من الميلاد لاتعرف فن الكتابة اصلا

وقد تركنا لغيرنا من المؤلفين البحث عن كون الهونية الصقالبة والتتار ذهب منهم فى سابق الزمان عشائر رحالة نزالة قد الجأهم السغب والمجاعة الى جهة منبع برسطين الذى هو نهر الدنيبر فان الغرض لنا انما هو بيان مافعله الملك بطرس لا البحث عما وقع فى الاحقاب الخالية من الحوادث اذ لاطائل تحته وايضا ينبغى للانسان ان يعتقد انه ليس ثم عشيرة من العشائر على وجه الارض تعرف على وجه الحقيقة اوائل جدودها فبالضرورة لايمكن لامة من الامم ان تعرف مبدء اصلها والى من تعزى وتنتسب وقد اطلقنا فى كتابنا هذا اسم الروس على سكان ممالك الروسيا العظيمة ثم ان اسم روكسلان الذى كانوا يسمون به قديما انسب فى اللفظ غير انه ينبغى لكل مؤلف ان يسلك على طبق ماجرت به العادة فى اللغة التى يتصدى للتأليف بها فان الكازتات

واللوائح وغيرها تستعمل منذ مدة طويلة لفظة الروسيان لكن لما كانت هذه الكلمة قريبة جدا من كلمة پروسيان اخترنا ان نطلق عليهم كلمة الروس المستعملة عند جميع مصنفى الفرنساوية منعا للبس بين الكلمتين المتقاربتين وقد ظهر لى ان هذه الامة التى بلادها اوسع بلاد الارض يلزم ان تكون معروفة باسم تمتاز به امتيازا كاملا عن جميع ما عداها من الامم ويلزم اولا لقارئ هذا التاريخ ان تكون الخارطة الجغرافية بيده ليكون على بصيرة من هذه الدولة المنقسمة الآن الى ست عشرة حكومة كبيرة وتنقسم الى اكثر من ذلك اذا كثرت اهاليها بالشمال والشرق

وها هى الست عشرة ولاية التى تشتمل عدة منها على اقاليم عظيمة الاقليم الاقرب لمملكة فرنسا هو اقليم ليوونيا وهو احد اقاليم الشمال الخصبة جدا وكان اهله فى القرن الثانى عشر عبدة اوثان لجأ اليه جماعة من التجار من مدينتى بريمة ولوبك ليتجروا فيه وانضمت طائفة من النصارى كانت تسمى باسم حاملى السيف الى الطائفة التوتونيكية ببلاد البروسة وتغلبوا على هذا الاقليم فى القرن الثالث عشر حين كان النصارى الافرنجيون مشغولين بالغزوات مع سلاطين الاسلام بالمشرق وكانت حميتهم تحملهم على قتال من لم يكن متمسكا بدينهم وصار ألبيرت وهو حاكم اقليم برندبورغ ورئيس هاتين الطائفتين ملكا على اقليم ليوونيا والبروسة البرندبورغوازية وكان ذلك سنة ١٥١٤ من الميلاد ومن ذلك الوقت تنازع اهل الروسيا واللاهيون هذا الاقليم وبعده بقليل دخل فيه الاسوجيون فمكث مدة طويلة ميدانا للحروب بين تلك الدول ثم تغلب عليه ملك اسوج المسمى غسطاوواداف فترك للاسوجيين سنة ١٦٦٠ من الميلاد بموجب مصالحة اوليو الشهيرة ثم اخذه بطرس الاكبر من الاسوجيين كما سيأتى ذلك فى محله

واما اقليم كرلند المتصل باقليم ليوونيا فكان دائما تابعا لمملكة له يدفع لها الخراج ولكن كان له تعلق كثير بدولة الروسيا فهذان الاقليمان هما الحدود

الغربية

الغربية لهذه الدولة التى باوروبا النصرانية وعلى البعد من هذين الاقليمين جهة الشمال ايالة رويل واسطونيا وقد بنى مدينة رويل الدانيمارقيون فى القرن الثالث عشر وتغلب على اقليم اسطونيا الاسوجيون منذ دخول هذه البلاد تحت حمايتهم فى (سنة ١٥٦١) من الميلاد ثم استولى عليه بطرس ايضا وفى ساحل اسطونيا خليج فنلندة وفى شرقى هذا الخليج الكبير فى محل اتصال نهر نوى ببحيرة لادوغا مدينة بتربرغ التى هى احدى مدن بلاد الروسيا واظرفها بناها بطرس مع ما كان عليه من العوائق الكثيرة التى كانت تمنع من تأسيسها وهذه المدينة على خليج كرنستاد فى وسط تسعة فروع من النهيرات التى تفصل اخطاطها وبمركز هذه المدينة سراية فى جزيرة متكونة من مجرى نهر نوى العظيم وتجد بها سبعة خلجان خارجة من النهيرات المذكورة متصلة باسوار سراية هنالك وباسوار ديوان البحرية وترسانة السفن الصغيرة وعدة معامل ايضا وفى هذه المدينة خمس وثلاثون كنيسة من الكنائس العظيمة وهى زينة هذه المدينة منها خمسة للغربا سواء كانوا قاثوليقية رومانيين اوقاثوليقية مصححين اومتمسكين بمذهب لوتير فهذه الخمسة المعدة لعبادة الغرباء تدل على رخصة التدين واباحته لتكون موعظة لما عداها من الملل الاخرى التى لا تبيح ذلك وبها ايضا خمس سرايات احداها السراية القديمة وتسمى سراية الصيف وهى على نهر نوى ويكتنفها درابزين عظيم من الاحجار الجيدة وهى ممتدة بطول شاطئ النهر والثانية سراية الصيف الجديدة بقرب باب هنالك يسمى باب النصر وهى من ابهى العمارات بناء باوروبا ومن زينتها ايضا مبانى ديوان البحرية والتلامذة المعدين لان يكونوا ضباطا ومبانى المدارس السلطانية واكدمية العلوم ومبانى سوق المعاملة ومخزن البضائع ومخزن ادوات السفن فهى ايضا عمارات فاخرة وكذلك الضابطخانة والاجزاخانة العامة التى جميع اوانيها من الفرفور ومخزن بيت الملك ودكمخانة والترسانة والقناطر والاسواق وغيرها والميادين

للعامة والقشلات المعدّة للوردبان السوارى والبيادة فهذه الاشياء تفيد
زينة المدينة وامنها ويوجد بها الآن وقت تأليفنا لهذا الكتاب اربعمائة
الف نفس وفى ضواحيها بيوت النزهة التى حسنها ورونقها يروق ابصار
السياحين ومن جملتها بيت نافورة فسقيته اعظم مما فى مدينة ورسيليا
فى فرنسا وفى (سنة ١٧٠٢) من الميلاد لم يكن بها شئ من تلك الاشياء
وانما كانت بطيحة متسعة غير مطروقة فهذه المدينة اى بتربرغ معتبرة
كأنها تحت اقليم انغريا الذى هو اقليم صغير تغلب عليه بطرس الاكبر
واما اقليم ويبرغ الذى تغلب عليه ايضا الملك المذكور وجزؤ فلندة الذى
خسره الموسقو وتركه الاسوجيون (سنة ١٧٤٢) من الميلاد فهما
ولاية اخرى

وابعد من ذلك جهة الشمال اقليم ارقنجل وهو اقليم غير معلوم عند الملل
الجنوبية من بلاد اوروبا وسمى بهذا الاسم نسبة الى الملك ميكائيل لانه
يسمى بالفرنساوية ارقنج ومعناه ملك رئيس لانه من رؤساء الملائكة الكرام
وانما نسب اليه هذا الاقليم واشتق اسمه منه لانه كان تحت حمايته بعد ان دخل
دين النصرانية ببلاد الروسيا بزمن طويل وان لم يتمسكوا به الا فى ابتداء
القرن الحادى عشر ولم يعرف هذا الاقليم عند الملل الاخرى الا فى اثناء
القرن السادس عشر وذلك لان الانكليز فى (سنة ١٥٣٣) من الميلاد
بحثوا عن ممر ببحر الشمال وبحر الشرق ليصلوا به الى شرقى بلاد الهند
فاستكشف كنشلور وكان قبطانا على سفينة من السفن التى تجهزت لهذه
الارسالية مينا ارقنجل فى البحر الابيض الموسقوبى وكان هذا الاقليم
خرابا لا يوجد فيه سوى دير وكنيسة صغيرة للملك ميكائيل الرئيس

فلما ركب الانكليز نهر دوينا من المينا المذكورة وصلوا الى وسط الاراضى
القارة ثم الى مدينة موسقو واستولوا بالسهولة على تجارة الروسيا
التى كانت تبعث برا الى مدينة نوغرود ونقلوها بحرا الى مينا ارقنجل
المذكورة نعم هذه المينا وان كان لا يمكن ان يرسى عليها فى مدة سبعة اشهر من
السنة

السنة الا انها صارت اكثر نفعا واعظم فائدة من اسواق مدينة نوغرود العظيمة التي اضمحلت بالحروب التي وقعت بين اهل تلك النواحي والاسوجيين فنال الانكليز من الموسقو بيين رخصة التجارة في هذه المدينة من غير ان يدفعوا شيأ من العوايد * وعلى هذا الوجه ينبغي ان تكون معاملة جميع الملل مع بعضها فعما قليل اتى الفلمنك وتقاسموا مع الانكليز رخصة تجارة ارخنجل التي لم تكن معروفة عند الامم كما سبق وقبل ذلك بزمن طويل كان قد رتب الجنويزيون والبنادقة تجارة مع الموسقو بواسطة مصب نهر طنايس حيث بنوا به مدينة تسمى طنا ولكن منذ اغارة تيمورلنك على هذا الاقليم انقطعت تجارتهم من هذه البلاد ومكث الانكليز والفلمنك يربحون ربحا عظيما من تجارة ارخنجل الى ان تغلب بطرس الاكبر على بحر بلطق وسارت به سفنه

وفي ايالة اقليم ارخنجل على غربيه لابونيا الروسية التي هي ثالث قسم من الدولة الروسية لان لابونيا ثلاثة اقسام منها القسم المذكور لدولة الروسيا والقسمان الاخران ينتسبان لبلاد اسوج ودانيمرقة وارض لابونيا كبيرة جدا شاغلة نحو ثمان درجات من الطول وتمتد في درجات العرض من الدائرة القطبية الى الراس المسماة راس الشمال والامم التي تسكنها كانت تسمى عند القدماء باسم طرغلوديت (اي سكان المغارات) وبغمات الشمال (اي يأجوج ومأجوج) وهذه التسمية في محلها حيث ان اغلبهم كان طوله ثلاثة اذرع ويسكنون المغارات وهم الآن كما كانوا سابقا والوانهم قريبة من لون الجلود المدبوغة مع ان من عداهم من الامم الشمالية بيض الالوان وترى اغلبهم قصير القامة بخلاف مجاوريهم من الامم واهل جزائر اسلنده التي هي تحت الدائرة القطبية فانهم طوال القامات فكان الحكمة في خلقهم خفافا قصارا عظام البنية هي كون اراضيهم جبالا فكانت جلودهم صلبة لتقوى على تحمل البرد وكانت سيقانهم وافخاذهم رقيقة وكذلك اقدامهم ليكون لهم قوة على سرعة الجري في وسط الصخرات المشحونة بها اراضيهم ولهم

محبة شديدة فى هذا الوطن الذى لا يحبه غيرهم بل لا يمكنهم المعيشة فى غيره وقد قيل نقلا عن اليوس ان هذه الامم اصلهم من فنلندة وانهم هاجروا الى اقليم لابونيا وفيه تغيرت قاماتهم وتصاغرت ولكنه يقال رداعليه لم لم ينتخبوا لانفسهم ارضا اقل بعدا جهة الشمال حتى تكون معيشتهم بها ارغد واهنأ ولاى شئ كانت صورهم ووجوههم والوانهم مخالفة بالكلية لاهل فنلنده الذين هم آباؤهم على زعم هذا القائل فعلى هذا يليق ان يقال ان الحشائش التى تنمو فى بلاد لابونيا منقولة من حشائش دانيرقة وان اسماك بحيراتهم آتية من اسماك اسوج والظاهر ان اهل لابونيا ليسوا مهاجرين بل متأصلون كما ان حيواناتهم متولدة ببلادهم لا منقولة اليها وان طبيعة الاقليم وفقت بينهم وبين حيواناتهم

واما القاطنون جهة فنلندة فقد مرت لهم بعض الفاظ من لغة جيرانهم كما يقع ذلك بين جميع الامم واذا كان هناك امتان كلتاهما تسمى الادوات الضرورية والاشياء التى تكون دائما نصب اعينها باسماء تباين ما سمت به الاخرى مباينة كلية كان ذلك اقوى دليل على ان احدى هاتين الامتين ليست متفرعة عن الاخرى وهاجرت عنها وذلك لان الفنلديين يسمون الدب كارو واللابونيين يسمونه موريات ويقال للشمس بلغة فنلندة اورنغا وبلغة لابونيا بيوه فلا تجد فى ذلك ادنى مشابهة بين الفاظهما وكان اهل فنلندة ولابونيا الاسوجية يعبدون فى سابق الزمان وثنا يقال له عندهم اوما لاق

ولما ظهر غسطاوة ادولف وادخل عندهم من دين النصرانية مذهب لوتير الذى سموا لاجله باللوتيريين سموا سيدنا عيسى عليه السلام بابن اوما لاق واما اهل لابونيا الموسقوبيون فانهم الآن متمسكون بمذهب الكنيسة اليونانية بخلاف الامم الهاجة جهة الجبال الشمالية من رأس الشمال فانهم اقتصروا على عبادة الله الواحد على وجه خشنى غير مستحسن كما جرت به العادة قديما عند جميع الامم

ومثل

ومثل هؤلاء القبائل القليلة الاهالي عقولهم قاصرة جدا وما اوفر حظهم بجهلهم لانهم لو اتسعت دائرة عقولهم لاحتاجوا الى امور جديدة لا يمكنهم تحصيلها فتراهم دائما خلي البال لا تعتريهم امراض لكونهم لا يشربون في الغالب الا الما مع برودة قطرهم جدا و يعمرون عمرا طويلا ولعل ما يقال في حقهم من ان لهم عادة غريبة وهي انهم يترجون الغربا آن يشرفوا نساهم و بناتهم بالوقاع ناشئ عن اعتقادهم ان الغرباء احسن منهم شكلا وجنسا و بنية فيرون في ذلك اصلاحا لعيوب تركيب نسلهم وهذه العادة كانت جارية بين اهالي لقدمونيا ببلاد اليونان مع انهم معدودون من الامم اولى الفضائل فكان الرجل منهم اذا رأى شابا جميلا سأله ان يواقع زوجته لتلد له ولدا حسنا يتبناه ولكن الغيرة البشرية والشريعة الالهية لا يسوغان لار بابهما مثل هذا الامر الذميم غيران اللابونيين لم تكن لهم شريعة تزجرهم عن ذلك وكذلك لم يكن فيهم غيرة تحملهم على اجتنابه كما هو الظاهر

واذا ركب الانسان نهر دوينا من الشمال الى الجنوب وصل الى مدينة موسقو التي مكثت كرسيا لدولة الموسقو زمنا طويلا قبل ان تتسع المملكة من جهة الصين والعجم

وهذه المدينة في الدرجة الخامسة والخمسين ونصف من العرض وارضها اقل بردا واكثر خصوبة من مدينة بتربرغ وهي في وسط سهل لطيف المنظر على نهر موسكا ونهرين آخرين صغيرين يجتمعان مع هذا النهر في نهر اوكه ثم يجري ماؤها حتى يصب في نهر الاتل وهذه المدينة لم تكن في القرن الثالث عشر الاجمع اخصاص يسكنها اناس مساكين كان يحكمهم ذرية جنكيزخان حكومة ظلمية

واما ما هو بمدينة موسقو من خط كريملينا الذي كان دار اقامة كبار دوقات الروسيا فلم يحدث الا في القرن الرابع عشر لان مدن بلاد الموسقو ليست قديمة وهذا الخط بناه مهندسون من ايطاليا كما بنوا عدة كنائس على

مقتضى الرسم القديم القوطى الذى كان العمل عليه وقتئذ فى جميع اوروبا ومن هذه الكنائس كنيستان بناهما مهندس شهير من بلاد له يسمى ارسطو كان له صيت فى القرن الخامس عشر واما بيوت الاهالى فلم تكن الا اخصاصا متخذة من الخشب

واولياريوس هو اول مؤلف عرفنا مدينة موسقو فانه سافر اليها (سنة ١٦٣٣) من الميلاد مع الجى مرسل من طرف احد دوقات هلستين بابهة عظيمة مع ان الغرض من ارساليته امر هين ولا غرو فيما وقع من مثل هذا المؤلف الهلستينى من تعجبه من عظم اتساع تلك المدينة ومن اسوارها الخمسة واتساع الديوان الملوكى وما كان فيه اذ ذاك من البهجة والرونق الذى على نسق ترتيب ممالك اسيا لان مثل ذلك لم يكن له وجود ببلاد النمسا التى هى وطنه بل وليس بها مدينة تقرب من تلك المدينة فى الاتساع والعمار بخلاف قونتة كرليسل الذى ارسله اليها كرلوس الثانى (سنة ١٧٧٣) من الميلاد بوظيفة الجى الى الملك الكسيس فانه قال بعكس ذلك حيث ذكر فى رحلته المكتوبة بالقلم انه لم يجد بمدينة موسقو شيأ يستميل النفس ويسر القلب ولا منزلخانة بالطريق ولا شيأ مما يستعين به الانسان فالاول ذهب فى حكمه عليها مذهب رجل نمساوى من البلاد الشمالية والثانى ذهب مذهب رجل انكليزى فحكم كل منهما بالنظر لبلاده فالانكليزى سخط على بلاد الموسقو لانه رأى ان اغلب اكابرها كانت فرشهم الواحا او دككا من الخشب يفرش الانسان عليها جلدا او حراما كما هى عادة قدماء الامم فكان معظم بيوتهم من الخشب وكانت خالية عن الاثاث والمتاع وكان اغلب سفر الاكل ليس عليها غطاء من القماش وكانت الحارات غير مبلطة وبالجملة فكان لا يوجد فيها شئ يسر الناظر ويروق الخاطر وكان بها قليل من ارباب الصنائع والحرف ومن كان بها منهم لا يحسن الصناعة الخشنية ولا يشتغلون الا الاشياء الضرورية التى لا بد منها ولو كانت هذه الامة ارباب قناعة لقلنا انهم من اهل اسبرطة ولكن ما كان يقع

فى ديوانهم

في ديوانهم ايام المواسم من الابهة والزينة كان قريبا مما يقع في ديوان ملك من ملوك العجم فقد قال قونتة كرليسل انه لا يرى على ملابس ملك الموسقو وخاصته الا الذهب والجواهر ولم تكن مصنوعة في بلاده لكن من المعلوم ان اهل الموسقو كانت فيهم صلاحية لان يكونوا من ارباب الحرف والصنائع فانه سبك بمدينة موسقو قبل ذلك بزمن طويل في عهد الملك بوريسغودون اكبر ناقوس ظهر ببلاد اوروبا وكان يشاهد في كنيستهم البطرقية انواع الزينة والزخارف المتخذة من الفضة التي تقتضي صناعتها بذل الجهد والهمة ولكن هذه الاشياء وان كانت من صنع اهل الموسقو تحت ملاحظة النمساوية والايطاليانية الا انها كانت قليلة جدا بحيث لا تدل على مهارتهم وتقدمهم فانه انما يثبت تقدم الملة ومهارتها بما يتجدد عندها كل يوم من الفنون والصنائع وبلاد له اذ ذاك وما جاور بلاد الموسقو من الممالك لم يكن اعلا من الموسقو ولم تكن الفنون اليدية اعظم من ذلك في شمال المانيا وكذلك الفنون المستظرفة لم تكن في اثناء القرن السابع عشر متقدمة ببلاد المانيا اكثر من بلاد الموسقو .

ومع ان مدينة موسقو لم يكن بها وقتئذ من الرفاهية والفنون ما كان يوجد بالمدن الكبيرة من اوروبا الا انها كانت منظومة في سلك المدن العظيمة باتساع محيطها حيث كان يبلغ عشرين الف خطوة وبما فيها من الجزء المسمى بالمدينة الصينية الذي كان يوجد به غرائب بلاد الصين وبحظ كريملينا المتسع الذي به سراية ملوك الموسقو وبعض قباب مذهبة وبروج عالية غريبة الشكل وكذلك عدد سكانها الذي يبلغ خمسمائة الف نفس فهذا كله يدل على عظم تلك المدينة وكان لبطرس الاكبر اخ اكبر منه يقال له تيودور ويسمى ايضا فودور قد شرع في تمدين مدينة موسقو وحسن تربيتها حيث بنى فيها عدة بيوت عظيمة بالاحجار وان لم تكن منتظمة البنيان ورغب اكابر ديوانه في البناء واقرضهم ما يلزم لذلك من الاموال واعطاهم ايضا المهمات اللازمة وهو اول من اهتم بانشاء اصطبلات للخيول الجياد وبعض

تحسينات نافعة واما بطرس الذى تصدى لجميع الاشياء مع كونه بنى مدينة بتربورغ لم يهمل مدينة موسقو بل بلطها وزينها وجلب اليها الثروة بما احدثه فيها من العمارات والقبر يقات حتى ان بعض حجاب بنته الايمبراطورة ايليزابيطة انشا فى تلك المدينة منذ قليل من السنين جمعية علماء وهو الذى استفدت منه جميع مواد هذا الكتاب فكان احق منى بتأليفه ولو باللغة الفرنساوية فان جميع ما افاد فى اياه يدل على ان تركه لى تأليف هذا التاريخ انما هو من باب التواضع منه

وفى غربى دوقية موسقو دوقية اسمولانسكو وهى جزء من سرماسيا القديمة الافرنجية ومن هاتين الدوقتين تكونت الروسيا البيضا وكانت دوقية اسمولانسكو المذكورة سابقا من حكومات كبار دوقات الروسيا ثم تغلب عليها دوقة لوتانيا الاكبر فى اوائل القرن الخامس عشر من الميلاد ثم اخذها اصحابها الاول بعد ذلك بمائة سنة ثم استولى عليها ملك له المسمى جيسمند الثالث (سنة ١٦١١) من الميلاد ثم ارجعها الملك الكسيس والد بطرس تحت حكمه (سنة ١٦٥٤) من الميلاد ومن هذا الوقت صارت من دولة الموسقو وقد قيل فى مدح بطرس الاكبر وقرئ فى مدينة باريس بجمعية العلوم ان اهل الموسقو قبل بطرس الاول لم يكن لهم فتوحات جهة الغرب ولا جهة الجنوب وقد فهمت مما تقدم ان هذا خلاف الواقع وان من ادعاه قد اخطأ

وبين مدينة بتربورغ واسمولانسكو اقليم نوغرود الذى قيل انه اول محل توطن به قدما السلاو ولكن لا يدرى من اين جاء هؤلاء السلاو الذين اتسعت لغتهم فى الشمال الشرقى باوروبا واصل كلمة سلاو سلا وهى كلفظة مولى تطلق على السيد وعلى العبد المنسوب للسيد ونهاية ما يعرف فى شأن هؤلاء السلاو القدماء انهم ارباب فتوحات بنوا مدينة نوغرود الكبيرة على نهر يمكن السير فيه من جهة منبعه وقد مكثت زمنا طويلا ناجحة التجارة وكانت لقوتها متعاهدة مع المدن التجارية وفى (سنة ١٤٦٧) من الميلاد تغلب عليها

الملك

الملك ايوان باز يلو يتز واخذ منها اموالا ساعدت في زخرفة ديوان مدينة موسقو الملوكي وزينته وكان الى ذلك الوقت لم يعلم مثل هذه الزينة بتلك المدينة

وفي جنوب اقليم اسمولنسكو اقليم كيوويا الذي هو الروسيا الصغيرة ويقال له ايضا الروسيا الحمراء ويقال لها اكرينا ويشق هذا الاقليم نهر الدنيبر الذي تسميه اليونان بورسطين والفرق بين كلمتي دنيبر وبورسطين وهو ثقل اولاهما على اللسان وخفة الاخرى يفيدنا كغيره من الادلة الكثيرة يبوسة الفاظ قدماء الامم الشمالية ورقة الفاظ اللسان اليوناني وقاعدة هذا الاقليم هي كييو وكانت تسمى سابقا كيوويا بناها ملوك القسطنطينية وجعلوها محل هجرة لقبائلهم والى الآن يرى فيها الانسان آثارا يونانية مضى عليها من السنين الف ومائتان ولا وجود للآثار القديمة اليونانية بغير هذه المدينة من بلاد تلك الجهة حيث ان هذه البلاد مكثت بها الناس عدة قرون ولم يحدثوا فيها جدرانا وكانت هذه المدينة في القرن الحادي عشر دار اقامة كبار دوقات الموسقو قبل استرعاء التتار على هذه الدولة الموسقوبية

ثم ان الاكرانيين ويقال لهم القزاق هم اخلاط طوائف متجمعة من قدماء الركسلانيين والسرماتيين واخلاط التتار وكان اقليمهم جزأ من اسقيطيا القديمة ولا يمكن ان نسوي مدينتي رومة والقسطنطينية اللتين كان لهما الحكم على كثير من الممالك باقليم اكرينا بالنظر الى الخصوبة فان طبيعة الاقليم قابلة للخير حيث ان ارضهم على غاية من الخصوبة الا انهم لا يعتنون بها بل كانوا يقتاتون من محصولاتها التي كانت تخرج منها بدون حراثة لكثرة خصوبتها وكان اغلب اقتياتهم من السلب والنهب وكان لهم شغف شديد بتحصيل خير عظيم ينبغي ايثاره على غيره وهي الحرية فكانوا يرجحونها على غيرها من الاغراض المرغوبة لكنهم دخلوا بالتعاقب تحت حكومة بلاد له والترك وكان آخر امرهم ان سلموا انفسهم (سنة ١٦٥٤)

من الميلاد للموسقوبيين لكن لم ينقادوا اليهم بالكلية حتى ادخلهم بطرس تحت طاعته وجبرهم على الانقياد

وكان غير هذه الامة يمتاز بالانقسام الى مدن وقرى تمتاز اكرينا المذكورة بانقسامها من جهة الاهل الى عشر فرق كان يحكمهم سابقا رئيس يسمى اتمان ينتخب لهذا المنصب بموجب رأى الجمهور ولم يكن القائد الاهلى مطلق التصرف فيهم واما الآن فرئيسهم كبير يبعثه ديوان ملك الموسقو وهو فى الحقيقة كعمال بعض اقاليم من فرانسا لم يزل لهم الى الآن بعض من ايالة وخصائص وان كان يقال له اتمان

وفى مبدء الامر لم يكن بذلك الاقليم غير عبدة الاوثان والمسلمين فلما دخلوا فى خدم اللاهيين تنصروا وتمسكوا بمذهب الكنيسة الرومانية ثم تمسكوا بمذهب الكنيسة اليونانية من حين دخولهم تحت حكم الموسقوبيين الى الآن ومنهم القبائل المسماة قزاق الزاپورانيين الذين لهم شبه قريب فى حركاتهم وافعالهم بارباب الصيال البحرية القديمة المسماة بالزمنطوط حيث انهم قطاع طرق او باب شجاعة والذى يميزهم عن غيرهم من الامم هو كونهم لا يطيقون سكنى النساء فى مجوعهم وهذا نظير ما قيل ان النساء المسترجلات فى قديم الزمان لا يطقن اصلا الرجال عندهن ولا يقبلنهم فى بيوتهن واما نساؤهم اللواتى يلدن منهم فهن قاطنات بجزائر مخصوصة فى النهر المتقدم ولا يعرفون عقد النكاح ولا العائلة وكانوا ينظمون الذكور من اولادهم فى سلك عساكرهم الغير المنتظمة ويتركون الاناث عند امهاتهن وكثيرا ما يفحش الاخ باخته وتلد منه وكذلك الاب بينته ولم يكن عندهم شرائع ولا قوانين اصلا وانما لهم عوايد تبعثهم عليها الحاجة ومع ذلك فقد جاء اليهم بعض قسوس من نصارى الاروام ومن منذ مدة من الزمن بنيت قلعة مارى ايليزابيطة على نهر الدنيبر وكان الغرض من بنائها قمع هؤلاء الناس وادخالهم تحت الطاعة فصاروا يستخدمون فى الجيوش بوظيفة عساكر غير منتظمة فالويل كل الويل لمن يقع تحت ايديهم

واذا

واذا رجعت وصعدت الى الشمال الشرقي من اقليم كيوويا بين نهر الدنيبر ونهر الدون وجدت ولاية بلغورود وهي كولاية كيوويا في الاتساع وهي احدى الاقاليم المخصبة ببلاد الموسقو فانه يخرج منها للمملكة له مقدار جسيم من المواشي الكبيرة المعروفة باسم اثوار مملكة اكرينا وهاتان الولايتان في امن من اغارات التتار الصغيرة بواسطة مافيهما من الاسوار الممتدة من نهر الدنيبر الى نهر الدون والمحصنة بالقلاع والابراج

واذا صعدت ايضا الى الشمال واجتزت نهر الدون وجدت حكومة ورونيزا وهي ممتدة الى سواحل بحر ازاق وبقرب قاعدتها المسماة ورونيزا انشأ بطرس الاكبر في مصب نهر يسمى ورونيزا يصب في نهر الدون اول عمارة سفن وكان الى ذلك الوقت لم يخطر ببال ملك من ملوك هذه الممالك المتسعة ان يجدد عمارة مثل هذه ثم تجد بعدها حكومة نجغورود التي هي كثيرة الحبوب ويشقها نهر الاثل

ومن هذا الاقليم تجد جهة الجنوب مملكة ازدراهان وقطرها من الطف الاقطار في الاعتدال ومبدأه من الدرجة الثالثة والاربعين ونصف من العرض ومنتهاه الى الدرجة الخمسين تقريبا ودرجات طولها قدر درجات عرضها تقريبا ويتصل بها من احدى الجهات بحر الخزر وجبال الچركس من جهة اخرى وهي ممتدة ايضا خلف بحر الخزر على امتداد جبلي قوقازة ويرويها نهر الاثل الكبير وكذا نهر جايق وعدة نهيرات اخرى زعم المهندس الانكليزي المسمى پري انه يمكن حفر ترع بينها تكون مجاري للمياه عند فيضانها فيترتب عليها من الثمرات ما يترتب على ترع وادي النيل من المصر ولكن كان التتار يحضرون على ميمنة نهري الاثل وجايق وميسرتهما هذا القطر الظريف عوضا عن كونهم يعمرونه فاقاموا بهذه الاراضي مدة حياتهم كالاجانب ولم يعتنوا بعمارة الارض ولا بزراعتها وكان بطرس الاكبر قد اقام المهندس پري في هذه الاقاليم فوجدها

صحارى متسعة مشحونة بالمروج والبقول واشجار الكريز واللوز واغناما وحشية سمينة ترعى الكلا فى هذه البرارى وكان يلزم الاعتناء بقمع هؤلاء الناس وتمدينهم وتربيتهم ليقوموا بخدمة ما خصتهم به القدرة الالهية من الاراضى وتحسينها والقيام بزراعتها لاجل اعانة طبيعة الاقليم كما حصل فى مدينة بتربرغ

ومملكة آزدراهان هذه هى جزء من ارض قبجاق القديمة التى فتحها جنكيزخان ثم فتحها بعده تيمرلنك فاتسعت حكومة التتار الى مدينة موسقو فلما حكم ملك الموسقو المسمى حنا بازيليدس وهو حفيد ايوان بازيلويتز وكان اعظم فاتح بلاد الموسقو انقذوطنه من اسر التتار فى القرن السادس عشر من الميلاد وضم مملكة ازدراهان الى بلاده التى استولى عليها وكان ذلك (سنة ١٥٥٤) ميلادية

وازدراهان هذه هى الفاصلة بين اسيا واوروبا فيمكنها ان تتاجر مع كليهما بان تنقل فى نهر الاتل البضائع التى تأتيها من بحر الخزر وكان ذلك من اعظم مآرب بطرس الاكبر وقد ادرك بعضه حتى ان بعض ضواحى هذه المملكة يسكنه الهنود الى الآن

وفى الجنوب الشرقى من مملكة ازدراهان تجد واديا صغيرا يسمى اورمبورغ وقد بنى فيه (سنة ١٧٣٤) من الميلاد على شاطئ نهر جايق مدينة سميت باسمه اى الوادى وهو مضرس بشعاب كوه قاف المسمى بجبل قوقازه وهناك قلاع مشيدة متباعدة تحمى الجبال والنهيرات النازلة من تلك الشعاب ثم ان هذا القطر الذى لم يكن معمورا سابقا يأتى اليه الآن الاعجام ويدعون فيه امتعتهم التى تسلم من الحروب الداخلية اتقيها من نهب قطاع الطريق وبذلك صارت مدينة اورمبورغ ملجأ للاعجام ولاموالهم فكانت مصائبهم فوائد لها وصارت مركزا لتجارة اسيا لما ان اهل هندستان وبخارى الكبرى يأتون اليها بقصد التجارة

وفى

وفي خلف نهري الاتل وجايق بجهة الشمال تجد مملكة قازان التي وقعت كمملكة ازدراخان في نصيب احد اولاد جنكيزخان ثم وقعت في نصيب احد اولاد تيمرلنك ثم تغلب عليها دولة الموسقو في ايام حنا بازيليدس ملك الموسقو وهي معمورة ايضا بكثير من التتار المسلمين وتمتد هذه الولاية العظيمة الى بلاد سبير ومن المحقق انها كانت سابقا زاهية مزهرة كثيرة الاموال والثروة ولم يزل اثر ذلك فيها الى الآن وكان بعض اقاليم هذه المملكة الذي كان يسمى سابقا برميا الكبرى ثم سليكام مركز التجارة الفرس وفرآء التتار وقد وجد بهذا الاقليم مقدار عظيم من السكة عليها طرة الخلفاء الاول وبعض اصنام للتتار وهذه الآثار الدالة على ثروتها قديما عثر عليها في ايام خراب تلك البلاد وفاقة اهلها ولم يكن اذ ذاك للتجارة فيها اثر لان انقلاب الاحوال في بلدة من البلدان يكثر حصوله مع السهولة والسرعة في البلاد العقيمة كيف لا وقد حصل في اخصب البلاد

ثم ان الاسوجي الشهير المسمى استرالبرغ لما صار اسيرا في تلك البلاد المتسعة اشتغل في مدة اسره بالبحث عن احوالها مع امعان النظر وتدقيق الفكر فكان اول من قرب للعقول تصديق حكاية تتعلق بتجارة هذه الاقطار قديما كانت تستبعدها العقول اولا وذلك ان بلينياس وبمبنيوس ميلا ذكرا ان بعض ملوك السويويين بعث الى ميتلوس سلير في عهد اغسطوس جماعة من الهنود قذفتهم الرياح العاصفة على السواحل المجاورة لجزيرة البه فان كان كذلك في الواقع فكيف يتيسر لسكان الهند الملاحة في البحار الجرمانية فاستغرب هذه الحكاية وهي منظومة في سلك الخرافات عند جميع المتأخرين من اهل عصرنا الاسيما من عهد تغيير طريق تجارة الدنيا القديمة عند كشف راس عشم الخير ولكن كان في سابق الزمان لا يستغرب مشاهدة هندي يبيع ويشتري بالبلاد الشمالية من بلاد المغرب اكثر من استغراب مشاهدة روماني يسافر الى الهند من طريق بلاد العرب فان اهل الهند كانوا يذهبون الى بلاد الفرس ويركبون بحر ارقانيا ثم يصعدون

على نهر رها وهو نهر الاثل حتى يصلوا الى برميا الكبرى بواسطة نهر كاما ومنه يمكنهم ركوب البحر الشمالى او بحر بلطق فيعلم من ذلك ان الناس من قديم الزمان كان فيهم من يتصدى للمشروعات الجسيمة وعظائم الامور فان الصوريين كانت سياحاتهم اعجب من سياحات الهنديين

واذا نظرت الى الجهة الشمالية بعد اطلاعك على هذه الاقاليم المتسعة وجدت حدود بلاد اوروبا مختلطة بحدود بلاد اسيا وكان يلزم أن يسمى هذا الجزء العظيم من الدنيا باسم جديد يخصه وقد قسم القدماء الدنيا المعروفة عندهم الى ثلاثة اقسام وهى اوروبا واسيا وافريقة ومع ذلك كانوا لا يعرفون منها العشر وهذا هو السبب فى كون الانسان اذا جاوز بحر ازاق لا يعرف منتهى اوروبا ولا مبدء اسيا وجميع البلاد التى خلف جبل طورس كانت تسمى باسم سيطيا وهو اسم مبهم ثم سميت بلاد التتار واظن انه كان الاولى أن يسموا البلاد الممتدة من بحر بلطق الى حدود الصين بالاراضى القطبية اوالاراضى الشمالية كما سموا بالاراضى الجنوبية البلاد المتسعة التى تحت القطب الجنوبى المقابلة للاراضى القطبية الشمالية

ثم ان بلاد سبير والاراضى التى خلفها تمتد جهة الشمال من حدود اقليم ارقنجل وربزان وازدراهان الى بحر يابونيا وتتصل بجنوب بلاد الموسقو بواسطة جبل قوقازة وبين هذا المحل وبلاد قميتقا نحو الف ومأتى فرسخ فرنساوى ومن بلاد التتار الجنوبية التى هى حد تلك المملكة الى البحر المنجمد الشمالى نحو اربعمائة فرسخ وهذا اقل اعراضها ومنها تخرج الفرآء النفيسة وهذا هو الباعث على كشفها (سنة ١٥٦٣) من الميلاد وذلك ان رجلا من اطراف حكومة ارقنجل يقال له انيقا من اغنياء اهل بلدته رآى فى القرن السابع عشر فى عهد الملك ايوان بازيليدس لا فدورايوانو ويتز جماعة من الناس باقليم ارفنجل لهم سحنة عجيبة وملابسهم مجهولة اذذاك فى هذه الحكومة ولغتهم لا تفهم وكانوا كل سنة

ينحدرون من نهير يصب في نهر دوينا ويأتون معهم الى اسواقها بفراء السمور والثعالب السود ويقايضون عليها بالمسامير وقطع الزجاج كما كان يفعل نظير ذلك خشنيو امريقة في اعطائهم الذهب لاهل اسبانيا فامر اولاده واتباعه أن يقفوا اثرهم حتى يصلوا الى وطنهم فتبين انهم السمويد وهم قبائل لهم شبه باللابونيين الا انهم ليسوا من جنس واحد فكانوا مثلهم لا يعرفون الخبز ويستعينون على جر عرباتهم الصغيرة بالحيوانات المسماة رينة التي تشبه الايل ويسكنون المغارات والاخصاص في وسط الثلوج غير ان المولى سبحانه وتعالى جعل بين هذا الجنس واللابونيين فرقا مبينا فقد اخبرت خبرا صحيحا ان فكهم الاعلى بارز عن انوفهم وآذانهم مرتفعة جدا وانهم رجالا ونساء لا شعر لهم ماعدا رؤسهم وحلمات ثديهم كخشب الابنوس في السواد بخلاف اللابونيين ذكورا واناثا فليس فيهم شيء من ذلك وقد عرفت من الاخبار المرسلة الي من تلك الجهات المعروفة قليلا لاغلط من الف كتاب التاريخ الطبيعي لانه عند كلامه على كثير من غرائب النوع البشري لم يفرق بين اللابونيين والسمويد بما يميز كلا عن الآخر واصناف الناس شتى لا يمكن حصرها ويظهران السمويد والهوتنتوت نهايتا الارض القارة القديمة فاذا نظر الانسان الى سواد اثدنساء السمويد والى الستر اللحمي الذي خلقه الله تعالى في نساء الهوتنتوت النازل على ماقيل الى انصاف افخاذهن او رئه ذلك بعض الالمام بما في النوع البشري من الاختلاف المجهول في مدن الفرنج التي لا تعرف من الاشياء الا ما كان نصب اعينها

وللسمويد غرائب عجيبة في اخلاقهم كما ان خلقهم وبنية ابدانهم من العجائب فانهم لا يعبدون الذات العلية وانما يقربون في ديانتهم من المانوية بل ربما يصح أن يقال انهم في الغالب لا فرق بين دينهم ودين المجوس القديم حيث يقولون بوجود اصلين اصل الخير واصل الشر والظاهر ان هذه العقيدة التي هي موجودة من قديم الزمان عند كثير من الامم ولا يقول بها عادة الا الفرق

الجهلة او المصابون بالشقاء نشأت لهم من فطرهم الردئ المزاج ولا يعرف عندهم قتل النفس ولا السرقة لما انهم كانوا يكونون منزهين عن الشهوات النفسانية فلا يعرفون الظلم والاجحاف وليس فى لغتهم من الالفاظ ما يدل على الرذيلة او الفضيلة ولبقائهم على اصل الفطرة لا يوجد عندهم من المعارف كبير شئ بل حركاتهم وافعالهم انما هى بموجب الطبيعة الغريزية والبواعث الوجدانية ولعل هذا برهان قاطع يدلنا على ان كافة الناس يميلون باصل طبيعتهم الى العدل مالم تحملهم شهواتهم الخبيثة على العدول عنه

وقد حمل بعض الناس جماعة من هؤلاء الامم المتوحشين على الذهاب الى مدينة موسقو فلما وصلوا اليها صاروا يتعجبون من كل ماراوه فيها غاية العجب حتى اعتبروا ملك الموسقو كأنه الههم ونذروا انهم يدفعون له كل سنة فروى سمور عن كل انسان من الاهالى وعما قليل استوطنت منهم بعض قبائل خلف نهر اوبى ونهير ارتيش بل وبنوا فى هذا المحل حصونا وفى (سنة ١٥٩٥) من الميلاد بعث ملك الموسقو رئيسا من القزاق مع عدة قليلة من العساكر والطوبجية ليغزوا بلاد السمويد فاستولى عليها كما ارسل فرديننذ كورينز من طرف اسبانيا الى بلاد مكسيك بسفن هينة وعساكر قليلة لكن لم تكن بلاد السمويد المذكورة حينئذ فى الغالب الاصحارى

واذا صعد الانسان فى نهر اوبى ووصل الى مجمع نهرى ارتش وطبول وجد ارضا صغيرة صالحة للعمارة عمرت وسميت مدينة طبلسك وهى قاعدة بلاد سبير وقد صارت الآن مدينة كبيرة ومن ذا الذى يعتقد ان هذه الولاية مكثت مدة طويلة مقاما الامة الهونيين الذين خربوا البلاد ووصلوا الى مدينة رومة تحت قيادة اتيلا واتوا من شمال بلاد الصين وقد خلفهم فى هذه الاراضى تتار الازبك ثم خلف الروسيون هؤلاء التتار وقد وقعت المنازعة بين الناس فى شأن الاستيلاء على هذه الولاية المتوحشة

كما

كما دلك الناس بعضهم بعضا في شأن الاستيلاء على الاقطار الخصبة وكانت هذه البلاد سابقا كثيرة الاهالي اكثر مما هي عليه الآن لاسيما من جهة الجنوب والدليل على ذلك وجود المقابر بها والرسوم

ثم ان هذا الجزء الممتد من الدرجة الستين او ما يقاربها الى الجبال الجليدية التي هي حد بحار الشمال لا يشبه في شيء اقطار المنطقة المعتدلة فان نباتاتها وحيواناتها التي على الارض واسماك بحيراتها ونهيراتها مخالفة لما يوجد في تلك الاقطار

ويجد تحت ولاية السويد ولاية الاستيالك على امتداد نهر اوبي ولا مشابهة اصلا بين اهل هاتين الولايتين الا في كونهم رعاة وارباب صيد في البر والبحر كالامم القريبة العهد بالخليقة وذلك ان السويد لادين لهم لعدم اجتماعهم وتأنسهم واما الاستيالك الذين هم متكونون من قبائل وطوائف فترى عندهم نوعا مخصوصا من العبادة وهو انهم يعبدون ما كان ضروريا لهم في معيشتهم فيقال انهم يعبدون جلود الضأن لان هذا الحيوان هو اشد الاشياء لزوما عندهم كما ان قدماء المصريين الزراعين كانوا ينتخبون لانفسهم عجلا يعبدونه على سبيل الرمز والكناية بمعنى انهم ينظرون فيه الى القدرة الالهية التي اوجدته لنفع الانسان وزعم جماعة من المؤلفين ان الاستيالك يعبدون جلد الدب لانه يقيهم في الشتاء اكثر من جلد الضأن هذا ويحتمل انهم لم يكونوا يعبدون شيأ منهما

وللاستيالك معبودات اخرى منشأها وعبادتهم اياها وكيفيتها لا تستحق الالتفات اليها كما ان من يعبدونها كذلك وقد تنصرت منهم طائفة (سنة ١٧١٢) من الميلاد وهؤلاء النصارى لا يعرفون ما هم عليه كفلاحي الفرنج الدشنيين وزعم جماعة من المؤلفين ان هذه الامة اصل منشأها برميا الكبرى ولكن برميا هذه صحارى مقفرة فلاي شيء استوطن هؤلاء الامم في تلك المواضع البعيدة وهي على هذه الحالة الرديئة ولكن مثل هذا الامر ليس جديرا بالبحث عنه فان كل امة لم تمارس العلوم والفنون ينبغي أن تماقب

بجهل الناس بها وعدم البحث عنها

ويوجد غالبا مدفونا بتلك الاراضي خصوصا عند الاستيالك ومن بجوارهم وهم المبورات والياكوت عاج لم يقف احد على حقيقة اصله بوجه من الوجوه فذهب بعض الناس الى انه عاج معدني وذهب بعض آخر الى انه سن نوع من الفيلة قد اندثر ولم يبق له اثر ولا غرابة في ذلك فان لكل بلدة من المحصولات الطبيعية ما يبهر العقول ويعجز الحكماء والفلاسفة

وبهذه الولاية عدة جبال مملوءة بحجر الفتيلة وبالكتان الغير المحترق ويصنع منه في بعض الاحيان اقمشة وتارة يتخذ منه ورق

وفي جنوب بلاد الاستيالك يوجد البيرات وهم امة اخرى لم تتنصر الى الآن وفي غربي هذه القبيلة اقوام لم يمكن لاحد أن يدخلهم تحت طاعته بالكلية وليس لاحد من هؤلاء الامم معرفة بتقويم السنة وانما كانوا يعدون اعوامهم بالثلوج ولا يعدونها بسير الشمس الظاهري ولكون الثلج لا ينقطع من عندهم اصلا ويمكث مدة طويلة في كل شتاء تراهم يقولون اذا سئل احدهم عن عمره انا لي كذا وكذا من الثلوج كما نقول كذا وكذا من السنين

ولا بأس بان نورد هنا ما حكاه بعض ضباط الاسوجيين المسمى استرالمبرغ وكان ممن اسر بمدينة بلطاوى ومكث خمس عشرة سنة ببلاد سبير وطاف جميع اكنافها حيث قال انه لم يزل بها الى الآن آثار امة قديمة اجسادها منقطة بالوان مختلفة مشوهة وذكر انه شاهد اناسا من هذا الجنس وقد اوقفني على حقيقة ذلك جماعة من اهل الموسقو مولودون بمدينة طبلسك والظاهر ان اختلاف الانواع البشرية نقص عما كان عليه نقصا بينا حيث انه يندر الآن وجود هذه الاجناس العجيبة التي تغيرت باختلاطها مع غيرها من الامم كما هو المتبادر للعقل بمثلا هنالك بعض افراد قلائل من المغاربة البيض او الالبينوس باقية على اصل خلقتها وقد احضر احدهم لديوان العلوم بباريس ورايته بعيني راسي ومن هذا القبيل ايضا بعض الحيوانات النادرة الجنس واما البوروندبون الذين تكرر ذكرهم في الكتاب المسمى تاريخ بستان ملك

فرنسا

فرنسا المشبع فى ذكر المواليد هان اللوائح التى نقلت عنها تنكر وجودهم بالكلية

ويسكن جنوب تلك البلاد اقوام عديدة من التتار منهم قدماء الترك الذين خرجوا من بلاد التتار ليتغلبوا على البلاد التى هى الآن بايديهم وكذلك القلموق والمغول فهم عين السيتيين اى التتار الذين قادهم مديس واستولوا معه على آسيا العليا وانتصروا على سياكزاريس ملك اذربيجان وهم الذين قادهم ايضا الملك جنكيزخان واولاده بعد ذلك الى بلاد النمسا واحدثوا سلطنة المغول تحت حكم تيمورلنك وهذه الامة تعد من العبر العظيمة بالنظر لما عرض لسائر الملل من التغيرات والتقلبات حيث تغيرت احوال عدة طوائف منها وصارت تابعة لدولة الموسقو بعد أن كانت مهابة

وهذا ما عليه طائفة من القلموق ساكنة بين بلاد سبير وبحر الخزر وقد وجد هنالك (سنة ١٧٢٠ من الميلاد) بيت من الحجر تحت الارض وبه قوارير ومصابيح واقراط وتمثال امير من امراء المشرق على فرس وعلى راسه عصابة ملوكية وامرأتان جالستان على سريرين من الاسرة الملوكية وصرة فيها عدة نسخ مكتوبة بالقلم ارسلها بطرس الاكبر لاكدمة النقوش القديمة بباريس واستبان انها بلغة التبت وهذه كلها ادلة غريبة تدل على ان الفنون كانت موجودة بهذه البلدة التى هى الآن خشنية متوحشة وبراهين جلية لما قاله بطرس الاكبر غير مرة من ان الفنون قد عمت سائر الدنيا

وآخر اقليم من هذه البلاد هو اقليم قمجتقا وهو ابعد اقاليم الارض القارة جهة الشرق وفى شماله توجد الفراء اللطيفة التى هى لباس الاهالى فى زمن الشتاء واما فى الصيف فتراهم مجردين عن الملابس بالكلية وقد تعجب السياحون حين وجدوا فى الاجزاء الشمالية من ابتداء بلاد السمويد الى مصب نهر امور رجالا لحاهم ليست اكبر من لحى اهل امريقة

ومن هنا يعلم ان دولة الموسقو فيها اجناس مختلفة وغرائب واخلاق شتى لا توجد بارض من اراضى الدنيا

وقد افادتنى اللوائح الجديدة ان هذه الامة الوحشية يوجد فيها علماء لاهوتيون يقولون بان سكان هذه الجزيرة متولدون من ذات علية انهم يسمونها باسم كونو لكن فى هذه اللوائح ما يدل على انهم لا يعبدونها اصلا وانه ليس لهم رغبة فيها ولا رهبة منها

فان صح ذلك ساغ أن يقال ان لهم جاهلية وخرافات ولا دين لهم وربما كان هذا القول صحيحا وان استبعده العقل كل الاستبعاد لان الخوف من طبيعة البشر وقد قيل انهم فى اعتقاداتهم الفاسدة واوهامهم الكاسدة يقولون بتحليل اشياء وتحريم اخرى فما احلوه قضاء جميع شهواتهم ومما حرموه سن المدية اوالبلطة فى السفر وانقاذ الغريق وكذلك انقاذ الجار من الهلاك فهم بذلك مباينون لجميع الامم الذين يميلون بالطبع لاسعاف امثالهم من الآدميين واغاثتهم مالم يكن هناك سبب قوى يغلب على هذا الميل الطبيعى ويزيله من قلوبهم والظاهر ان مثل انقاذ الغريق من الامور الضرورية الواجبة على كل انسان وجرت به العادة كثيرا حتى لا يعد من الفضائل ولا من الكبائر الا عند اهل الزيغ والبدع والاوهام من الفلاسفة حيث يقولون ان فى ذلك معارضة للقضاء والقدر وانه حيث جرت المقادير الالهية بالغرق على انسان لا ينبغى لاحد ان يعارض القضاء والقدر بالسعى فى انقاذه ونجاته ولكن مثل هذه الفلسفة وان كانت من قبيل الالحاد والزيغ الا انها بمعزل عن مثل هؤلاء الامم المتبربرة الخشنية فلا تصل اذهانهم اليها وليس فى عقولهم صلاحية لادراكها

ولكن قد قيل ان لهم موسما عظيما يقال له بلسانهم عيد التطهير واتى ام التطهير حيث يمصون كل شئ وما الداعى للتطهير حيث لا يخشون الههم كونو ولا يحبونه

فلاريب ان عقائدهم متناقضة كغيرهم من اغلب الامم غير ان معايبهم ناشئة

عن

عن قلة عقولهم بخلاف الامم المتمدنة فنالبهم ناشئة عن تجاوزهم للحدود لان من تجاوز الحد رجع الى الضد

وكما انهم يعتقدون ان هنالك الهاموجودا يعتقدون ايضا وجود الشياطين وكذلك يوجد عندهم سحرة كما كان عند اعظم الملل تمدنا وسحرة هذه الجزيرة من عجائز النساء كما كان ببلاد الفرنج قبل أن تشرق فيها شموس علم الطبيعة ومن هنا يعلم ان من خصوصيات العقول البشرية أن يكون لها اعتقادات فاسدة مبنية على عجز الانسان وتولعه بمعرفة الاشياء التي لا يصل ذهنه الى ادراكها ولاهل قمجتقا ايضا عرافون يؤولون الاحلام كما كان ذلك ببلاد اوروبا منذ مدة يسيرة

وقد دخل الدين النصرانى الرومى عند هؤلاء الامم من حين ادخلتها دولة الموسقو تحت حكمها بواسطة خمس قلاع شيدتها ببلادهم وقد اخبرنى احد بيكزادات الموسقو ممن من ذوى المعارف انهم يوردون ايرادات قوية من جملتها ان ديانة الموسقو لا تليق بهم حيث ان الخبز والنبيذ امران ضروريان للدين النصرانى الرومى وهما مفقودان ببلادهم

وبالجملة فهذه الامم ليست جديرة بالتدقيق فى البحث عن حقيقتها ولا نذكر فى شأنها الا ملحوظة واحدة وهى ان الانسان اذا نظر الى ثلاثة ارباع امريقة والى الجزء الجنوبى من افريقة والى بلاد الشمال من بلاد لابونيا الى بحار يلبونيا رآى ان نصف النوع البشرى ليس ارقى من اهل قمجتقا

وايضا قد سافر بعض ضباط القوزاقيين (سنة ١٧٠١) من الميلاد من بلاد سيبير يا الى جزيرة قمجتقا بامر من بطرس الاكبر الذى لم يزل بعد الواقعة المهولة التى حصلت فى مدينة نروة يبذل جهده ويسعى فى تحسين سواحل بالبر البعيد عن البر الذى فيه بلاد الموسقو ولم يكترث بالمسافة بين البرين ثم ارسل (سنة ١٧٢٥) من الميلاد قبل أن يفجأه الموت بيسير وهو مشغول بالمصالح العظيمة والمشروعات الجسيمة القبطان الدانيمرقى المسمى بهرنغ

وامره أن يذهب بحر قمچتقا الى اراضى امريقة ان امكنه ذلك فلم ينجح
بهرنغ فى هذه الارسالية التى هى اول سفراته البحرية الى تلك الجهة وفى
(سنة ١٧٣٣) من الميلاد ارسلته الايمبراطورة حانة ثانيا الى هذه الاراضى
وكان معه فى هذه السياحة القبطان اسپانجبرغ وكان قد خرج قبله من
قمچتقا ولكن لم يمكنه النزول فى البحر الا (سنة ١٧٣٩) ميلادية لكونه مكث
مدة طويلة وهو مسافر حتى وصل الى الميناالتى ركب منها وجدد بها سفنا
للحاجة اليها وجمع فيها الاشياء اللازمة والامور الضرورية ثم سافر حتى وصل الى
شمال يابونيا ببوغاز متكون من عدة جزائر متواصلة متتالية ثم رجع
من هذه الاراضى ولم يستكشف منها غير هذا البوغاز
وفى (سنة ١٧٤١) من الميلاد طاف بهرنغ هذا البحر ومعه الفلكى الشهير المسمى
ليسل دولكروبير وهو من عائلة ليسل التى ظهر منها علماء ماهرون فى علم
الجغرافية وذهب قبطان آخر من جهة اخرى لاستكشاف تلك الاراضى
فوصل كل من بهرنغ وهذا القبطان الى سواحل امريقة من جهة
شمال بحيجزيرة كاليفرنيا واستكشفا هذا الممر الذى سمى بوغاز بهرنغ
وكان الناس قد مكثوا يبحثون عنه مدة طويلة فى البحار الشمالية غير انهما
لم يجدا بهذه السواحل القفرة ما يقوم بمؤنتهما الا ان الماء العذب نفد منهما واهلك
داء الاسقربوط بعض الرجال الذين كانوا معهما من البحارة ورأوا السواحل
الشمالية من بحيجزيرة كاليفرنيا وهم بالبعد عنها بمائة ميل ورأوا
قوارب متخذة من الجلد عليها اناس يشبهون اهالى كندا ولم يترتب على ذلك
كله ثمرة ومات القبطان بهرنغ بجزيرة سميت باسمه واما القبطان الثانى فانه
لما رأى انه اقرب لجزيرة كاليفرنيا من جزيرة بهرنغ اخرج الى البر
عشرة رجال من جماعته فلم يعودوا اصلا فجبر على أن يعود ثانيا الى بحيجزيرة
قمچتقا بعد أن انتظرهم مدة فلم يرجعوا اليه واما العالم بالنجوم
ليسل دولكروبير فانه مات بمجرد خروجه الى البر وهذه المصائب هى عادة
قسمة من يكون اول مخاطر بنفسه فى السياحة بالبحار الشمالية والى الآن

لا يدرى

لايدرى ماثمرة هذه الاستكشافات الشاقة الخطرة جدا

والى هنا انتهى جميع ماتتركب منه دولة الموسقو عموما من فنلدة الى بحر يابونيا وكانت قد انضمت اجزاء هذه المملكة العظيمة الى اصلها في ازمنة مختلفة كما حصل ذلك في غيرها من سائر ممالك الدنيا وبها الآن طوائف من التتار والهونيين والمساجيتيين والسلاويين والسمبريين والجيتيين والسرماثيين وجميعهم الآن رعايا الملك الموسقو واهل الروسيا الحقيقيون هم قدماء الركسلانيين اوالسلاويين

واذا تأمل الانسان رأى ان اغلب الممالك الاخر بهذه المثابة مؤلفة من عدة طوائف اجنبية كبلاد فرنسا فانها مؤلفة من طوائف غوطيين ودانيمرقيين سموا بالترمنديين ومن جرمانيين شماليين وهم المسمون بالبرغونيين ومن افرنك ونمساويين وبعض رومانيين مختلطين بقدماء السلتيين ويوجد بمدينة رومة وبلاد ايطاليا كثير من العائلات المتولدة من الامم الشمالية وليس فيها عائلة من قدماء الرومانيين المتأصلين بل البابات في الغالب من نسل البنادقة اللنبرديين اوالغوطيين اوالتوتونيين اوالسمبريين وكذلك اهل اسبانيا فنهم عرب مغاربة وقرطاجيون ويهود وصوريون ووسيغوطيون ووندليون انضموا الى اهالى اسبانيا المتأصلين بها وصاروا جزأ منهم ولكون الامم اختلط بعضها ببعض على هذا الوجه كان يلزم لهم زمن طويل حتى تمدنوا وتصيرلهم لغة مخصوصة فنهم من تمدن في اقرب مدة ومنهم من يتأخر ولايخفى ان التمدن والفنون مما يصعب انشاؤه ويشق تجديده واحداثه وفي الغالب تحدث تقلبات كبيرة ينشأ عنها تخريب ماشيده البشر والعجب كل العجب كون اغلب الملل تمدنت مع ذلك ولبثت باقية متبربرة كالتتار

(الفصل الثاني)

في بقية تخطيط دولة الموسقو وفي اهاليها وبيت مالها اوجيوشها وعوايدها ودينها اوالحالة التي كانت عليها قبل بطرس الاكبر

لا يخفى ان عمران البلاد وكثرة اهاليها انما يكون على قدر تمدنها فلذا كانت بلاد الصين والهند اكثر الممالك عمرانا لما ان اهلها بعد التقلبات الكثيرة التى غيرت شكل الارض هم اول من احدث فى ممالكهم التمدن والتمصر كما نعهده فانه قد مضى على دولتهم من الاقدمية ما ينيف على اربعة آلاف سنة ويفهم منه كما قيل انهم سعوا واجتهدوا فى القرون المتقدمة فى التمهيد لذلك واما اهل الموسقو فانهم جاؤا اخيرا وادخلوا عندهم الفنون وهى فى درجة كمالها ففى ظرف خمسين سنة حصلوا بواسطة غيرهم اكثر مما تحصله امة اخرى وحدها بدون واسطة فى ظرف خمسمائة سنة ومملكة الموسقو قليلة الاهالى بالنسبة الى اتساعها ويلزم مضى مدة مديدة حتى تكون هذه المملكة معمورة على قدر اتساعها لكنها مع ماهى عليه الآن فيها من الرعايا بقدر ما فى غيرها من الممالك النصرانية

وقد تحقق عندى بعد الاطلاع على دفاتر فردة الروس وعدد البياعين وارباب الحرف والصنائع والذكور من الفلاحين الزراعين ان بلاد الموسقو الآن بها اربعة وعشرون مليونا من الاهالى لو اكثروا غالبهم ارقاء كاهل مملكة له وعدة اقاليم من بلاد النمسا وكما كان سابقا فى اغلب بلاد اوروبا ولا تعرف ثروة البيكزادة او القسيس ببلاد الموسقو ومملكة له بكثرة ايراده من النقود بل يعرف ذلك بكثرة ارقائه

وهاك مجموع عدد الافراد الذكور الموجودين (سنة ١٧٤٧) من الميلاد الذين كانوا يدفعون فردة الروس

اسماء الطوائف	عدد اهل الحرف
البياعون	١٩٨٠٠٠
الشغالون	١٦٥٠٠
الفلاحون المنضمون الى البياعين والشغالين	١٩٥٠
الفلاحون المسمون بالادنسك وهم المنوطون بتحصيل لوازم الجند	٤٣٠٢٢٠

الفلاحون

الفلاحون الآخرون الذين ليسوا منوطين بذلك	٢٦٠٨٠
شغالون من حرف شتى لم يعلم لهم اقارب	١٠٠٠
شغالون آخرون ليس لهم دخل فى رتبة ارباب الحرف والصنائع	٤٧٠٠
فلاحون مشتغلون باشغال الملك خاصة نحو	٥٥٥٠٠٠
مستخدمون بمعادن الايمبراطور نصارى ومسلمون وعبدة اوثان	٦٤٠٠٠
فلاحو الايمبراطور الذين يشتغلون فى معادن خواص الناس وفبريقاتهم	٢٤٢٠٠
المتمسكون بمذهب الكنيسة اليونانية عن قريب نحو	٥٧٠٠٠
تتار واستياك عبدة اوثان	٢٤١٠٠٠
مرسيون وتتار ومرديات وغيرهم ما بين عبدة اصنام ووثنان مستخدمون بالترسانة	٧٨٠٠
تتار يدفعون الخراج يسمون تارة باسم تبتزير وتارة بوبلتز	٢٨٩٠٠
ارقاء لعدة تجار وغيرهم من ارباب المزايا الذين لهم ارقاء وان لم يكن لهم ارض	٩١٠٠
فلاحو الاراضى المعدة للوازم ديوان الملك	٤١٨٠٠٠
فلاحو اراضى خصوص الايمبراطور بقطع النظر عن حق التاج	٦٠٥٠٠
فلاحو الاراضى المأخوذة قهرا من الاهالى للتاج الملوكى	١٣٦٠٠
ارقاء البيكزادات	٣٥٥٠٠٠٧
ارقاء القسوس الملزومون بمصاريفهم	٣٧٥٠٠

ارقاء الاساقفة	١١٦٤٠٠
ارقاء الاديار التي نقص عددها بطرس الاكبر تقصا بينا	٧٢١٥٠٠
ارقاء الكنائس الكبيرة والصغيرة	٢٣٧٠٠
فلاحون مشتغلون باشغال ديوان البحرية او بغيره من الاشغال الميرية	٤٠٠٠ تقريبا
شغالون في معادن الاهالي وفبريقاتهم	١٦٠٠٠
فلاحون يزرعون الاراضي المعطاة لاعيان اسطاوات الورش	١٤٥٠٠
شغالون في معادن التاج الملوكي	٣٠٠٠
اللقطاء الذين يكفلهم القسوس	٤٠
ارباب المذاهب المسمون باسم راسكلنيكي	٢٢٥٠
	٦٦٤١٣٩٠

فهذه ستة ملايين وستمائة واحد واربعون الف نفس بحذف الكسور من الذكور كلهم يدفعون فردة الرؤس ويدخل في هذا العدد الصبيان والشيوخ واما البنات والنساء فلسن معدودات فيه وكذلك الغلمان الذين يولدون منذ افتتاح سجل العوايد الى عمل سجل آخر فاذا ضاعفت عدد الذين يدفعون الفردة ثلاثة اضعاف حيث ادرجت النساء والبنات وجدت بها ما ينيف على عشرين مليونا

ويلزم ان تضم الى ذلك العساكر الذين يبلغ عددهم ثلثمائة وخمسين الفا ولا يدفع عند الموسقو هذه الفردة بيكزادات الدولة بتمامهم ولا طائفة القسوس والجميع يبلغ عددهم مائتي الف نفس وجميع من في الدولة من الغرباء معافى من ذلك ايا ما كانت حرفته او بلدته واما سكان الاقاليم التي فتحها ملوك الموسقو وهي اقليم ليوونيا واسطونيا وانغريا وكاريلا وجزء من بلاد فنلندة واقليم اكرينة وقوزاق نهر الدون والقلموق وغيرهم من التتار والسمويد واللابونيين والاسفياكيين وجميع عبدة الاوثان

بسبير التي هي اعظم من بلاد الصين فليسوا مندرجين في هذا العدد وبهذا الاحصاء يتعين ان سكان بلاد الموسقو اربعة وعشرون مليونا فاكثر وهذا ابالنظر الى (سنة ١٧٥٩) من الميلاد حين ارسلت الي من مدينة بتربرغ اللوائح المنقولة من سجلات الدولة فبموجب هذا العدد يخص كل ميل مربع ثمانية انفس واما الاجي الانكليزي الذي تكلمنا عليه فيما سبق فلم يجعل لكل ميل الا خمسة انفس ولكن لا شك انه لم يكن عنده لوائح صحيحة مضبوطة كاللوائح التي ارسلت الي

فحينئذ تكون ارض بلاد الموسقو من جهة الاهالي اكثر من اسبانيا اربع مرات فهي تقريبا من جهة العمار كفرنسا والنمسا ولكن اذا اعتبرنا عظم اتساعها كان عدد من فيها من الاهالي اقل من هاتين المملكتين بثلاث وثلاثين مرة

وهنا امر ينبغي التنبيه عليه في هذا العدد وهو ان ستة الملايين والستمائة والاربعين الفا الذين يدفعون الفردة منهم نحو تسعمائة الف تجبي فردتهم للقسوس الموسقو وليس منهم قسوس البلاد المستولى عليها ولا قسوس اقليم اكرينة ولا سبير فبناء على ذلك يكون لحرفة القسوس من كل سبعة اشخاص تدفع الميري شخص واحد وهذا اي كونهم لهم سبع الاشخاص لا يوجب كونهم يحظون بسبع محصولات الدولة كما هو جار في كثير من الممالك الاخر فان القسوس بها الاقل من ان يكون لهم سبع جميع الاموال وكيف ذلك مع ان فلاحيهم يدفعون الفردة للملك واذا نظرت الى محصولات كثيرة لملك الموسقو خاصة لا تأخذ القسوس منها شيأ ثبت لك ان ما يصل اليهم لا يصل الى سبع محصولات الدولة

وهذا الاحصاء مخالف بالكلية لاحصاء جميع من تكلم على بلاد الموسقو من المؤلفين فان الاجية الاجانب الذين ارسلوا اللوائح لملوكهم وقعوا جميعا في الخطا فيلزم مراجعة دفاتر المملكة والاطلاع عليها

والظاهر ان بلاد الموسقو كانت معمورة سابقا اكثر مما هي عليه الآن قبل

أن تخرب بدآء الجدرى الذى اتى اليها من بلاد العرب وبدآء الافرنجى المهول الذى اتى اليها من امريقة فان اهاليها اخذت فى التناقص والقلة بعد أن تمكن من اقاليمها هذان الدا آن اللذان كان لهما فى هلاك العالم مدخلية اكثر من مصائب الحرب وكان السبب فى ظهور احد هذين الدآءين بتلك البلاد انتشار العرب الاسلاميين وفتحهم للبلاد والآخر كان سببه كرستف كلب حين فتح امريقة واما الطاعون الذى منشاؤه من افريقة فكان يندر ظهوره وتتنذ بالاقطار الشمالية وبالجملة فام الشمال من بلاد سرماتيا الى التتار الذين هم خلف السور الاعظم الصينى شنوا الغارة على جميع الدنيا فمن ذلك نقصت الذرارى القديمة نقصا بينا

وفى هذه البلاد المتسعة نحو سبعة آلاف وار بعمائة راهب ويوجد بها ايضا خمسة آلاف وستمائة من الراهبات مع ان بطرس الاكبر كان قد اهتم بتقليل عددهم ولا يستغرب صدور هذه الهمة من مثل هذا المرتب للقوانين فى دولة يقل فيها كل شئ خصوصا النوع البشرى

فهؤلاء الثلاثة عشر الف نفس الماكثون فى الاديار الذين لم يعد على الدولة منهم نفع كان لهم كما يطلع عليه كل قارئ سبعمائة وعشرون الف رقيق لزراعة اراضيهم ومن المعلوم ان هذا كثير جدا وهذا الافراط العام المضر بكثير من الممالك لم ينزع خلله الا الايمبراطورة كاترينة الثانية فانها تجاسرت على الانتقام منهم فى رهبانيتهم وشدة حميتهم الدينية حيث حرمت طائفة القسوس والرهبان من الثروة المضرة التى لا يرضاها احد وجعلت لهم مرتبات تصرف من خزينة الدولة وصيرتهم نافعين للدولة حيث اضعفت شوكتهم ومنعتهم عما يضر بالدولة

وقد عثرت على جدول يتضمن ايراد دولة الموسقو فى (سنة ١٧٢٥) من الميلاد ويشتمل ايضا على فردة قبائل التتار وجميع الغرامات والعوايد التى تؤخذ نقدا فوجدتها تبلغ ثلاثة عشر مليونا من الروبل وذلك يساوى خمسة وستين مليونا من فرنكات فرنسا وهذا غير العوايد التى كانت

لا نقدا وكان هـذا المقدار اليسير يكفى وقتئذ فى القيام بضروريات ثلثمائة وتسعة وثلاثين الفا وخمسمائة من العساكر البحرية والبرية وفى ذلك الوقت ازدادت الايرادات والجنود

ثم ان العوايد والملابس والاخلاق ببلاد الموسقو كانت دائما اقرب شبها لما فى بلاد المشرق مما فى دول اوروبا النصرانية فكان من عوايدهم القديمة انهم يأخذون ما على الامم من الخراج من المأكولات ومنها ايضا قيامهم بمصاريف الاجنبية مدة ظعنهم واقامتهم ومنها التجرد عن السلاح عند دخول الكنيسة او عند التمثل بين يدى الملك وهذه عادة مشرقية مباينة بالكلية لعوايد الفرنج الرديئة الخشنية حيث يذهبون الى الكنائس ويقفون بين يدى الله عز وجل وأمام الملوك وعند اصدقائهم ونسائهم ومعهم سلاح طويل من الاسلحة المعدة للقتال يضربهم الى ما تحت سوقهم وكان من عاداتهم ايضا انهم يلبسون فى ايام المواسم والاعياد ملابس طويلة والظاهر انها اشرف من الملابس القصيرة التى تلبسها الملل القاطنة فى غربى اوروبا فكانوا يلبسون فى تلك الايام الحافلة جبة مبطنة بالسمور وفرجيات طويلة مرصعة بالجواهر ويتعممون بالعمائم التى من شأنها رفع قامة الانسان ولا شك ان مثل هذه الملابس يظهر فى رأى العين احسن من الشعور المستعارة والملابس المقمطة واليق منها بالنسبة الى الاقطار الباردة الا ان هذه الملابس التى كانت مستعملة عند جميع الامم قديما تظهر انها اقل لياقة من غيرها بالنظر الى الحرب واكثر مشقة عند الشغل وما عدا ذلك من عوايدهم كان اغلبه خشنيا ولكن ذلك لا يستلزم خشونة الاخلاق كما زعمه كثير من المؤرخين فقد ذكر المؤرخ البيركزنت ان دولة ايطاليا ارسلت مرة الجيا الى بعض ملوك الموسقو فسمر برنيطة هذا الالجى على راسه لكونه لم يخلعها حين خاطبه انتهى ونسب بعض الناس هذه الحكاية لبعض التتار وبالجملة فقد ذكرت هذه الحكاية ايضا فى شأن الجى من فرنسا

وذلك ان اولياريوس قد زعم ان ملك الموسقو المسمى ميخايل فيدوروويتز

نفى الى بلاد سبير احد امراء آكسدوليا وكان الجيا لهنرى الرابع ملك فرنسا مع ان هنرى المذكور لم يرسل قط الجيا الى مدينة موسقو ومما ينخرط فى هذه السلك القول بوجود ارض بورنديا التى تكلم عليها السياحون فانه لا وجود لها اصلا وزعموا انهم تعاملوا مع سكان زبلة الجديدة مع انه قل ان كانت معمورة وانه وقعت المخاطبة بينهم وبين السويديين كانهم يعرفون لسانهم فلو حذف من مصنفات السياحة المطنبة ما اثبتوه فيها من الاخبار الباطلة التى لا طائل تحتها لكانت هذه المصنفات مقبولة عامة النفع

ثم ان الحكومة الموسقوبية كانت تشبه حكومة الدولة العثمانية من حيث وجاق عساكر الاسترليج الذين كانوا فى بعض الاحيان يتصرفون فى التاج الملوكى ويوقعون الخلل فى هذه الدولة على قدر ما يمكنهم كما كان يفعل ذلك العساكر الانكشارية ببلاد الدولة العثمانية وكان عدد اهل ذلك الوجاق يبلغ اربعين الفا ومن كان منهم متفرقا فى الاقاليم كان يتعيش من السلب والنهب واما القاطنون بمدينة موسقو فكانوا فى معيشتهم كبقية الاهالى يبيعون ويشترون وكانوا لا يخدمون اصلا بل يسيؤن الناس كل الاساءة ويرتكبون من المظالم ما لا يرضاه احد فكان ابطال هذا الوجاق مما يجب لاجل نشر الامن والاطمئنان ببلاد الموسقو ولكن الاقدام على ابطاله كان اصعب شئ مع انه اوجب الاشياء ازالة

ولم يكن ايراد الدولة فى القرن السابع عشر من الميلاد يبلغ خمسة ملايين من الربلات (وذلك يساوى خمسة وعشرين مليونا من الفرنكات الفرنساوية) وكان هذا الايراد كافيا لمصرفها وقت استيلاء بطرس على كرسى الدولة لو بقيت على حالتها القديمة من الاقتصاد والتوسط ولكن من حين الخروج من تلك الحالة ودخولها فى سلك الدول العظام من بلاد اوروبا كان لا يفى بالمصاريف وكان اغلب الغرامات الميرية يدفع من المأكولات والملبوسات على حسب عادة بلاد العثمانية وهى اقل ضررا على الاهالى من دفعهم ذلك

من

من صنف النقود

ثم ان ملك هذه الدولة يقال له كزار ولعله مأخوذ من لفظة تزار او چار التي هي لقب لكل من تملك على قازان وذلك ان حنا باز يليدس المسمى ايضا ايوان وهو ملك الموسقو لما تغلب في القرن السابع عشر على مملكة قازان التي كان جده قد تغلب عليها ايضا وضاعت منه لقب بهذا اللقب ثم صار يلقب به من خلفه في الحكم من الملوك وكان ملوك الموسقو قبل ايوان باز يليدس المذكور يلقبون بلقب وليكى كنيس (ومعناه امير كبير او ملتزم كبير او رئيس كبير) وقد ترجمته الملل النصرانية بالدوق الاكبر ثم ان الكزار المسمى ميخاييل فيدوزوويتز لقب نفسه في الغزوة الفلستينية ببلاد دانيمرقة بالملتزم الاكبر والكنيس الاكبر محافظ دولة الموسقو وامير ولدمير وموسقو وايالة نوغروفد وتزار مملكة قازان وازدراهان وسبير ويؤخذ من ذلك ان لفظة تزار كان يلقب بها ملوك بلاد المشرق والمتبادر انها مأخوذة من لفظة تزاس التي يلقب بها ملوك الفرس لا من لفظة قيصر التي يلقب بها ملوك الروم ويظهر ان تزارات سبير لم يسمعوا لفظة قيصر على شواطئ نهر اوبي

ثم ان اللقب وان بلغ ما بلغ لا يعد شيأ ما لم يكن الملقب به عظيما في ذاته فلفظة ايمبراطور التي معناها بحسب الاصل سر عسكر صارت علما على رؤساء الجمهورية الرومانية وتطلق الآن على ملوك الموسقو وهم احق بها من غيرهم نظرا الى اتساع ممالكهم وقوة شوكتهم

ثم ان اهل هذه الدولة كانوا من القرن الحادى عشر متمسكين في ديانتهم بمذهب الاروام المقابل لمذهب اللاطينيين ولكن كان فيها من المسلمين وعبدة الاوثان اكثر مما كان بها من النصارى فمن مبدء بلاد سبير الى الصين كلهم عبدة اوثان وهنالك اكثر من اقليم لا يعرف اهله دينا من الاديان

وقد ذكر المهندس يرى والبارون استرالمبرغ اللذان مكثا زمنا طويلا ببلاد الموسقو انهما وجدا في عبدة الاوثان من سلامة الباطن وخلوص

الطوية والاستقامة اكثر مما وجداه من ذلك فى غيرهم وهذه الفضيلة فيهم ليست ناشئة عن عبادتهم للاوثان بل لما كانوا ناهجين فى معيشتهم منهج الرعاة مجتنبين معاشرة الناس ومخالطتهم سالكين فى ذلك مسلك الصدر الاول من الخليقة خالين عن الشهوات النفسانية الكبيرة كانوا بالضرورة من اخيار الناس واحسنهم

ولم يدخل الدين النصرانى بلاد الموسقو وغيرها من الدول الشمالية الا فى الزمن الاخير وقد زعم بعضهم ان اميرة تسمى أولها ادخلته فى هذه الدولة فى آخر القرن العاشر كما ان كولوتيدا بنت اخى امير اريانى من المتمسكين بمذهب اريوس ادخلته عند قدماء الفرنساوية وكذلك زوجة ميسيز لاس دوق بلاد له اتت به عند اللاهيين واخت الملك هنرى الثانى ادخلته فى بلاد المجار ولا غرابة فى ذلك فان النساء من طبعهن تصديق القسوس وامناء الدين واخذ اقوالهم قضية مسلمة ويدخلنها فى قلوب الناس ويحملنهم على اعتقادها والعمل بها

وقد قيل ان الاميرة اولها او اولغا تنصرت وتعمدت فى مدينة القسطنطينية وسميت هيلانة ومن يومئذ شغف بحبها الايمبراطور حنازيمسيس والظاهر انها كانت ارملة لكنها لم ترض بهذا الايمبراطور ولم يقتد بها اولا فى التنصر كثير من الناس حتى ان ابنها الذى حكم بعدها زمنا طويلا لم يحذ حذوها ولم يخطر بباله ما خطر ببالها ولكن حفيدها المسمى ولوديمير وهو ابن حظية قتل اخاه ليستولى على المملكة عوضا عنه واراد مصاهرة ايمبراطور القسطنطينية المسمى بازيل فلم ينل ذلك الا بدخوله فى دين النصرانية حيث شرط عليه ذلك اولا فكان اول دخول الدين الرومى ببلاد الموسقو فى هذا العصر (سنة ٩٨٧) من الميلاد وقد اتفق ان بطرقا من بطارقة القسطنطينية يقال له كريزوبرغ ارسل من طرفه اسقفا ليعمد ولوديمير ليدخل فى بطرقيته بلاد هذا الملك التى هى جزء عظيم من اجزاء الارض

وقد انهى

وقدانتهى ولوديمير ماشرعت فيه جدته واول بطرق تولى ببلاد الموسقو كان روميا فلذا استعمل الموسقوبيون في لغتهم حروفا هجائية اخذوا بعضها من اللغة اليونانية وكانوا يستفيدون من هذه اللغة الان اساس لغتهم المأخوذ من اللغة السلاوية بقي على ما كان عليه ماعدا بعض كلمات تتعلق بامورهم الدينية ووظائفهم القسيسية فانها تغيرت الى اللغة اليونانية وكان احد بطارقة اليونان المسمى يرميا له قضية بديوان القسطنطينية فاتى الى مدينة موسقو يطلب الاعانة والامداد ثم تخلى بموجب مشارطة انعقدت اذذاك عن حقوقه في الحكم على كنائس الموسقو واقام مطران نوغرود المسمى يوب بطرقا عليها عوضا عنه وكان ذلك (سنة ١٥٨٨ ميلادية)

ومن وقتئذ صارت كنيسة الموسقو قائمة بنفسها كايمبراطورية الموسقوبية وفي الواقع لو بقيت هذه الكنيسة تابعة لكنيسة الروم التي هي في قبضة العثمانية لاورثها ذلك العار والفضيحة وكانت به عرضة للخطر فمن يومئذ صار تنصيب البطارقة الموسقوبية من طرف الاساقفة الموسقوبية لا من طرف بطريق القسطنطينية وصارت رتبته في الكنيسة الرومية تلي رتبة بطريق بيت المقدس لكنه في الواقع ونفس الامر كان مطلق التصرف في اموره ذا شوكة وصولة فلم يكن في الحقيقة بطريق سواه واما بطارقة بيت المقدس والقسطنطينية وانطاكية واسكندرية فليسوا الارؤساء مستخدمين محتقرين وكنيستهم تحت قبضة العثمانية بل بطارقة انطاكية وبيت المقدس لم يكونوا في الحقيقة معتبرين كغيرهم من البطارقة ولم يكن لهم من نفوذ الكلمة الا كما كان لخاخامات معابد اليهود هنالك

وكان بطرس الاكبر من نسل رجل تولى منصب البطرقية على بلاد الموسقو بتمامها وبعد أن صار بطارقة هذه الدولة قائمين بانفسهم ارادوا أن يشركوا ملوكها في الحكم ولم يكفهم كون الملك يمشي في يوم من السنة بين يدي البطرق مكشوف الراس قائدا فرس ذلك البطرق وممسكا بزمامها

ومثل هذا التعظيم البارز الى حيز الوجود لم يترتب عليه الا ازدياد رغبتهم وشدة ميلهم الى الحكم الملوكى ونشأ عن ميلهم الى الحكم المذكور فتن وانقلابات كما حصل فى غير هذه الدولة

وذلك ان البطرق نيقون الذى يعده الرهبان من زمرة القديسين وتقلد منصب البطرقية فى عهد ألكسيس والد بطرس الاكبر اراد أن يجعل تخت البطرقية اعلى مقاما واعز سلطانا من سرير الملك فلم يكفه أن افتات وجعل لنفسه حقا فى الجلوس بقرب الملك فى المشورة الملكية حتى زعم انه لا يمكن عقد حرب اوصلح الا بعد رضائه ولما كانت شوكته معضدة بثروته ودسائسه وانضمام القسوس والاهالى اليه جعل ملك الموسقو الذى له السيادة عليه فى حالة تشبه أن تكون حالة اسر واسترقاق بالنسبة اليه حتى انه تجاسر على طرد جماعة من ارباب المشورة توقفوا معه فى افراطه وتجاوزه الحد وانتهى الامر ان الملك الكسيس لما رأى انه غير مقتدر على عزله بنفسه جبر على أن يعقد جمعية من الاساقفة فادعت على هذا البطريق انه اخذ اموالا من اللاهين على سبيل الرشوة وحكمت عليه بالنفى فى دير مدة حياته وانتخبت بطريقا غيره

ومن حين ظهور دين النصرانية ببلاد الموسقو كان بها مذاهب دينية متفرقة كغيرها من الممالك الاخر لان تعدد المذاهب فى الممالك يكون فى الغالب ناشئا عن جهل اهلها جهلا بسيطا او مركبا وهذه الدولة وان كانت بمفردها هى الدولة الكبيرة النصرانية لم يترتب على ظهور الدين بها حروب مدنية داخلية كما وقع فى غيرها من الدول وانما ترتب عليه بعض فشل ونزاع

ثم ان مذهب الفرقة الرسكلنيسقية الذى تبلغ عدة مقلديه الآن نحو الفى رجل كما ذكرناه فى الجدول السابق هو اقدم المذاهب لانه ظهر فى اوائل القرن الثانى عشر بواسطة جماعة ذوى حمية دينية كان لهم بعض معرفة بالعهد الجديد وهم كباقى مقلدى المذاهب الدينية يزعمون انه ينبغى التمسك بهذا

المذهب مع غاية التدقيق وان من عداهم من النصارى الاخر لااعتناء لهم بالديانة وانهم يتساهلون فيها ويرون ان القسيس اذا شرب الخمر لا يصلح لتعميد الاطفال ويقولون كما قال عيسى عليه السلام ان النصارى على حد سواء لا مزية لاحدهم على الآخر وان النصراني أن يقتل نفسه في حب المسيح الذي تجاهه واتقذه من الغي والضلال ويعدون من الكبائر قول الحمد لله ثلاث مرات فلا يسوغ قولها على مذهبهم الا مرتين فقط ولا يجوز عندهم رسم الصليب الا بثلاثة اصابع ومع ذلك فليس هنالك اصعب من أتباع هذا المذهب في الاخلاق ولا اكثر منهم في الانتظام فهم في معيشتهم كالقواقير بين بلاد الانكليز الا انهم يخالفونهم في انهم لا يقبلون احدا ممن عداهم من النصارى في جمعياتهم وهذا هو الذي حمل غيرهم من النصارى على أن ينسبوا اليهم جميع القبائح التي نسبها المشركون الى قدماء الغاليليين والغاليليون المذكورون نسبوها الى التوستيك والآن ينسبها القاثوليقيون الى البروتستانيين وكثيرا ما قيل في شأنهم انهم يذبحون طفلا ويشربون دمه وانهم في محافلهم الدينية السرية يختلطون رجالا ونساء ويقع بينهم من الفواحش ما يقع من غير أن يعتبروا درجات القرابة والسن ولا حال الذكورة والانوثة وقد اتفق ان غيرهم اراد ان يتتبعهم بالتعذيب فاحتجبوا في ضياعهم واضرموا في بيوتهم النيران وألقوا انفسهم في لهيبها وقد سلك بطرس الاكبر مسلكا حسنا يحملهم على العدول عما كانوا عليه حيث جعلهم في عيشة راضية مع الامن والهدء فبهذا رجعوا عن حالتهم الاصلية

وبالجملة فليس بهذه الدولة المتسعة من التخوت الاسقفية الا ثمانية وعشرون تختا وفي زمن بطرس كان لا يوجد بها غير اثنين وعشرين وربما كانت قلة هذه التخوت من الاسباب التي جعلت الكنيسة الموسقوبية في الصلح والاطمئنان ولا يخفى ان هذه الكنيسة كانت قليلة المعارف جدا حتى ان الملك فودور اخا بطرس الاكبر هو اول من أدخل

فيها ما يرتل عادة فى الكنائس

وكان يستوى عند الملك فودور وكذلك اخوه بطرس فى جيوشهما وقوانينهما التمسك بالمذهب اليونانى واللاطينى واللوتريانى (اى مذهب لوتير) والكلونيستى (اى مذهب كلوان) حيث رخص كل منهما لكل انسان أن يعبد الله عز وجل على ما تطمئن اليه نفسه ويختاره اهما من تلك المذاهب لكن بشرط أن يؤدى ما يجب عليه للدولة حق التأدية فكان لا يوجد فى هذه الدولة التى يبلغ امتدادها الفى فرسخ كنيسة لاطينية غير ان بطرس حين انشأ فى ازدراهان معامل جديدة وجذبها لمحو سبعين عائلة قاثوليقية يرشدهم جماعة من القابوشيين (وهم قسوس من طائفة سنت فرنسيس) ولكن لما اراد اليسوعيون الدخول فى دولة بطرس الاكبر صدر منه فرمان بطردهم فى شهر نيسان (سنة ١٧١٨) من الميلاد وكان لا يتضرر من اقامة القابوشيين بدولته لانهم كالرهبان لا بطش لهم ولا صولة واما طرده لليسوعيين فلانه كان يراهم ارباب سياسة تخشى منهم على الدولة وكان استيطان هؤلاء اليسوعيين ببلاد الموسقو (سنة ١٦٨٥) من الميلاد ثم طردوا منها بعد ذلك باربع سنوات ثم عادوا اليها ثم طردوا مرة اخرى

ثم ان ارباب الكنيسة الرومية يفتخرون بانتشار مذهبهم فى هذه الدولة التى تبلغ مساحتها الفى فرسخ بخلاف الكنيسة الرومانية فان اراضيها ببلاد اوروبا لا تبلغ نصف ارض بلاد الموسقو

وكان اصحاب المذهب الرومى يحاولون دائما ابقاء مساواتهم لارباب المذهب اللاطينى فى الشوكة وكانوا دائما يخشون سعى الكنيسة الرومية فى توسيع دائرتها لانهم كانوا يرون ان ذلك من باب الحرص والطمع ولما كانت الكنيسة الرومانية فى الواقع ونفس الامر ضيقة الدائرة ببلاد اوروبا وكانت تزعم ان دينها مشروع لكافة الناس ارادت ان تحقق هذه الدعوى العريضة

وتستولى على سائر البلدان . . .

وليس لليهود ببلاد الموسقو بيع كمالهم في كثير من ممالك اوروبا من مدينة القسطنطينية الى مدينة رومة لان تجارة اهل الموسقو كانت مقصورة عليهم وعلى الملل المقيمة عندهم وقد اختصت كنيسة الموسقوبية من بين الكنائس الرومية بانه لا يوجد بجوارها كما بيع لليهود

وقد جعل بطرس الاكبر لدولة الموسقو شوكة عظيمة في مصالح اوروبا لم تسبق بمثلها من حين دخلها دين النصرانية فانها قبل ذلك كانت تركب البحر الاسود وتفعل بسواحله ما كان يفعله النرمنديون في الجهة الافرنجية بسواحل البحر المحيط الغربي فقد جهزت في عهد هرقل اربعين الفا من القوارب الصغيرة لمحاصرة القسطنطينية والزمت قياصرة الروم بدفع الخراج غيران ولدمير ملك الموسقو لما كان مشتغلا بنشر دين النصرانية في ممالكه ولحقه التعب من الثقل الذي كان في عائلته سلك في دوله مسلكا عاد عليها بالضعف والاضمحلال حيث مزقها وقسمها بين اولاده فكادت تصير كلها غنيمة للتتار لانهم استعبدوا الموسقو بين مدة مائتى سنة وبعد ذلك انقذها ايوان باز يليدس من ورطة الرق ووسعها لكن خربتها بعده الحروب الاهلية

وشتان بين الحالة التي كانت عليها دولة الموسقو قبل بطرس الاكبر والحالة التي هي عليها الآن من الشوكة والاراضي المزروعة وكثرة الاهالي والايرادات فلم يكن لها قبل بطرس الاكبر شيء باقليم فنلندة ولا باقليم بلاوونيا الذي هو الآن بمفرده احسن من بلاد سبير بتمامها بالنظر الى حالتها القديمة التي مكثت عليها زمنا طويلا ولم يكن القوزاق اذذاك تحت حكومة الدولة الموسقوبية وكان اهل ازدراهان لا يطيعونها حق الطاعة وكانت تجارتها اذذاك الهينة لا ربح فيها لان البحر الابيض الموسقوبي وبحر بلطق والبحر الاسود وبحر ازاق وبحر الخزر لم يكن لها وقتئذ نفع بالكلية لهذه الدولة حيث لم يكن لها شيء من السفن اصلا بل لم يكن في لغتهم كلمة موضوعة على الدونغا

فان قيل ان اهم الاشياء الدولة المذكورة حينئذ هو تفوقها على التتار والقبائل الشمالية الى بلاد الصين قلنا انها نالت هذه المزية وحظيت بها وانما كان المهم لها اذ ذاك هو أن تساوى ما عداها من الدول المتمدنة وان يكون لها من القوة ما تفوق به ذات يوم عدة منها وكان يظهر ان ذلك متعذر لا يمكن حصوله حيث لم يكن لها فى البحار شئ من السفن ولم يكن لها اصلا معرفة بالتعليمات العسكرية برا وكانت فبريقاتها وورشها ساذجية كاسدة لا اعتناء لها بالشغل وكانت الزراعة التى عليها المعول فى جميع الامور وبها قوام الدولة مطروحة فى زوايا الاهمال فكان يلزم الحكومة أن تبذل فى ذلك غاية جهدها فان الانكليز لاعتنائهم بامر الزراعة اكتسبوا من محصولات غلالهم من الغنى والثروة ما لم يكتسبوه من محصولات اصوافهم

ثم ان ممارسة الموسقو بين للحرف والصنائع الضرورية لما كانت قليلة بهذه المثابة دلتنا على انه لم يكن لهم المام بالفنون المستظرفة التى تكون لازمة للحكومة ايضا بعد اتقان غيرها وكان يمكنهم أن يرسلوا جماعة من الرعايا الى البلاد الاجنبية ليتعلموا فيها الفنون ولكن كانت مخالفة لسانهم ودينهم واخلاقهم لمن عداهم مانعة من ذلك بل كان لهم قانون من قوانينهم السياسية والدينية يتمسكون به ولا يخرجون عنه وان كان مضرا بهم حيث كان يمنعهم من الخروج من وطنهم فكانه كان يوجب عليهم ما يقتضى الاقامة على الجهل على تداول الازمان وكانت مملكتهم اوسع ممالك الدنيا ومع ذلك كانت خالية عن كل شئ مما كان يقتضيه الحال ويحتاج للاحداث والتجديد فلما ظهر بطرس الاكبر نسخت صورة بلاد الموسقو وانتظمت فى سلك الدول المتمدنة المترفهة

فما اسعد بطرس المذكور حيث انفرد من بين مقننى القوانين بمعرفة الناس لتاريخه حق المعرفة بخلاف تواريخ غيره كالشهير تيزه ورملوس واضرابهما ممن كان دونه فى الدرجة وكذلك تواريخ مؤسسى الدول الكبيرة المتمدنة فانك تراها مشوبة بالخرافات الفاسدة والترهات الكاسدة التى يستبعدها

النقل اويحيلها واما مانحن بصدده الآن فهو من اليقينيات التي لولم تكن معضدة بالادلة الباهرة والبراهين الجلية لعدت من الحكايات الموضوعة والخرافات والخزعبلات

(الفصل الثالث)

(في الكلام على سلف بطرس الاكبر وجدوده)

كان مبدء استيلاء عائلة بطرس الاكبر على التخت الملوكي (سنة ١٦١٣) من الميلاد وكانت دولة الموسقو قبل ذلك قد اعتراها تغيرات وانقلابات منعت من اصلاح حالها وتهذيب اخلاقها وادخال العلوم والفنون بها على ماجرت به العادة عند جميع الطوائف البشرية غيران هذه الانقلابات المهولة لم يسبق مثلها في دولة من الدول وذلك لان الملك المسمى بوريس غودونو قتل (سنة ١٥٩٧) من الميلاد من كان له الحق في ارث تخت المملكة بموجب القوانين الملكية وهو دمتري الذي تسميه الفرنساوية دمتريوس واستولى على المملكة بمحض الافتيات والتعدي ثم ظهر شاب من الرهبان سمى نفسه دمتريوس وزعم انه نفس الملك المستحق للمملكة وانه فر من ايدي من ارادوا قتله وعضد دعواه اللاهيون وجم غفير ممن كان يبغض الظالمين اولى الافتيات فطرد بوريس الظالم المذكور عن المملكة ولبس تاجها بمحض البهتان والعدوان وبمجرد استيلائه على الملك ظهر منه التعصب والتحزب حيث فعل ما اغضبهم فقتلوه فتعاقب بعده على الكرسي ثلاثة ملوك يزعم كل منهم انه دمتريوس وهذه الدعاوى الباطلة المتكررة تدل على اختلال هذه الدولة وعدم انتظامها وذلك ان الناس كلما قل تمدنهم سهل اغراؤهم وغشهم ولايخفى ماترتب على دعوى هؤلاء المزورين من ازدياد اختلال دولة الموسقو وسوء حال الهاتفات اللاهيين الذين هم اول من اضرم نيران الفتن بتنصيبهم لاول مدع انه دمتريوس توصلوا الى أن صاروا قريبين جدا من الاستيلاء على بلاد الموسقو وتقاسم الاسوجيون جزأ من الدولة المذكورة جهة فنلندة بل زعموا ان لهم حقا في الكرسي الملوكي فتطلبوه

فكانت الدولة حينئذ مشرفة على الخراب والدمار

وفى اثناء هذه المصائب انعقدت جمعية من اكابر الموسقوبيين (سنة ١٦١٣) من الميلاد وانتخبت شابا عمره خمس عشرة سنة وقلدته بالمنصب الملوكى ولم يظهر ان ذلك وسيلة كافية فى قطع عرق الفشل والشقاق وهذا الشاب هو ميخائيل رومانوف وهو جد الامبراطور بطرس وابن مطران رستو الملقب فيلاريت وامه راهبة لها قرابة من جهة النساء لقدماء ملوك الموسقو ومن المعلوم ان هذا المطران كان من الملتزمين اصحاب الشوكة والقوة وان الطاغية بوريس جبره على الترهب كما جبر زوجته المسماة شرمنتو على ذلك ايضا وألبسها قناع الترهب وهى عادة قديمة عند ملوك المغرب النصارى اللاطينيين واما نصارى الاروام فكانت عادتهم فى ذلك فقأ عينى من يترهب ثم ان الملك دمترى ولى فيلاريت مطرانا على رستو وأرسله الى مملكة له بوظيفة الجى فسجنه اللاهيون لانهم كانوا وقتئذ فى حرب مع دولة الموسقو ولا غرابة فى ذلك فان هؤلاء الامم كانوا لا يعرفون ما للدول على بعضها من الحقوق والرسوم وكان انتخاب الشاب رومانوف ابن هذا المطران ملكا على دولة الموسقو فى مدة سجن ابيه ببلاد له ففدى والده باسرى اللاهيين الذين كانوا عند الموسقوبيين وبمجرد فك سجنه ولاه ابنه بطرقا وكان هذا الشيخ الهرم هو الملك فى الواقع ونفس الامر وانما كان لابنه مجرد الاسم فقط

فاذا ظهر للناس ان مثل هذه الحكومة يعد من الغرائب فان زواج القيصر ميخائيل رومانوف اغرب من ذلك لان ملوك الروس باوروبا وآسيا كانوا لا يتزوجون بنساء الدول الاجنبية منذ (سنة ١٤٩٠) ميلادية والظاهر انهم من حين استيلائهم على قازان وازدراهان كادوا يتخلقون بجميع اخلاق بلاد المشرق لاسيما فى العادة الجارية عندهم من ان الملك لا يتزوج الا من رعاياه

ومما يشبه العوائد القديمة التى كانت ببلاد المشرق شبها تاما هو ان الملك اذا اراد

الزواج

الزواج يؤتى الى سرايته بابدع بنات الاقاليم فى الحسن والجمال فتتلقاهن سيدة نساء السراية و تنزل كل واحدة منهن فى محل على حدتها و تجمعهن عند الاكل على مائدة واحدة فعند ذلك يشاهدهن الملك متنكرا اوغير متنكر وكان يعين لعقد النكاح يوما قبل أن ينتخب منهن من يريد زواجها فاذا جاء اليوم المعلوم خلع على التى وقع عليها الانتخاب سرا خلعة العرس ثم تفرق ثياب اخرى على باقى البنات ويؤمرن بالانصراف الى منازلهن ولم يقع زواج ملوك الموسقو على هذا الوجه الا اربع مرات

وعلى الوجه المذكور كان زواج ميخاييل رومانوف لادكسا وهى بنت رجل من البيكزادات كان فقير الحال يقال له استرسنو فبينما هو يشتغل بزراعة ارضه مع خدمه اذحضر اليه جماعة من الحجاب ارسلهم اليه الملك بالهدايا واخبروه ان بنته تزوجها الملك ولم يزل اسم هذه الملكة محترما عند الموسقوبيين محبوبا لديهم ولا وجود لشئ من ذلك فى اخلاق الفرنساوية ومع ذلك فلا لوم عليه حيث انه من الرسوم

ومما ينبغى التنبيه عليه هنا انه قبل انتخاب رومانوف للتولى على المملكة انتخب حزب عظيم من بلاد الموسقو الامير لادسلاس بن سيجسموند الثالث ملك له وكانت الاقاليم المجاورة لمملكة اسوج قد تطلبت التاج الملوكى لاحد اخوة غسطاوة ادولف فمن ثم كانت حالة دولة الموسقو كالحالة التى عرضت كثير البلاد له من ان انتخاب الملك كان يترتب عليه فى هذه الدولة حروب داخلية وقيام الرعية بعضها على بعض غير ان الموسقوبيين لم يتأسوا قط باللاهيين فى كونهم يكتبون وثيقة على من ينتخبونه للتملك عليهم فانهم وان كانوا قدشربوا كاس الظلم والعدوان وذاقوا مضارته الاانهم انقادوا لهذا الشاب من غير أن يلزموه بشئ يعمل بمقتضاه

ولم يكن تنصيب الملك ببلاد الموسقو انتخابيا لكن لما لم يبق احد من ذرية ملوكها الاقدمين من المذكور وهلك فى الفشل الذى حصل بها اخيرا ستة من ملوكها المستحقين او المتغلبين عليها اقتضى الحال انتخاب ملك آخر كما سبق ذلك فترتب

على هذا الانتخاب حروب جديدة مع اللاهيين والاسوجيين لان كلا منهم كان يزعم ان له الحق فى الاستيلاء على كرسى دولة الموسقو ومن المعلوم ان من اراد الحكم على مملكة من الممالك بدون حق لا تساعده الاحوال على ذلك مدة طويلة فان اللاهيين بعد أن اغاروا على الموسقو وتوغلوا ببلادهم حتى وصلوا الى مدينة موسقو وسلبوا ونهبوا كما هى العادة فى الحروب وقتئذ عقدوا مهادنة مدتها اربع عشرة سنة وبموجبها صارت مملكة له مستولية على دوقية السمولنسكو الخارج منها نهر الدنيبر واما الاسوجيون فانهم عقدوا الصلح مع الموسقويين وصار اقليم انغريا تحت قبضتهم وحرموا المسقويين من التجارة ببحر بلطق فمن ثم مكثت دولة الموسقو مدة طويلة منفردة عن باقى ممالك اوروبا

وبعد هذا الصلح مكث ميخاييل رومانوف ملك الموسقو حاكما مع الراحة والاطمئنان ولم يعرض لدولته من التغيرات ما يفسد ادارتها او يصلح حالها ولما مات (سنة ١٦٤٥) من الميلاد ورثه فى الملك ولده المسمى ألكسيس ميخايلوويتز وهو ابو بطرس وابن ميخاييل وكان قد بلغ من العمر ست عشرة سنة فتقلد الملك بحق الوراثة والظاهر ان البطرق هو الذى كان يضع فى ذلك الزمن التاج الملوكى على راس ملوك الموسقو كما هو مقتضى بعض مذاهب كنيسة القسطنطينية (اى كنيسة الاروام) ولذلك كان يجلس البطرق مع الملك فى مجلس واحد ويظهر التساوى بينه وبين الشوكة الملوكية

وقد سلك ألكسيس فى الزواج مسلك ابيه حيث انتخب اظرف البنات اللاتى احضرن له فتزوج باحدى بنتى رجل من اكابر الموسقو يسمى ملسلسكى (سنة ١٦٤٧) من الميلاد ثم تزوج فى السنة التى بعدها بامرأة نارسكانية وتزوج نديمه المسمى مروسو الثانية من بنتى الامير ملسلسكى فعلى هذا الايلايم مروسو المذكور من الالقاب غير تلقيبه بوزير لانه كان مطلق التصرف فى هذه الدولة حتى انه ترتب على اتساع قوته

عصيان

عصيان الاستربليج والرعايا كما وقع ذلك غير مرة بمدينة القسطنطينية وفي عهد ألكسيس حصلت فتن داخلية وخارجية سفكت فيها دماء كثيرة وذلك ان استنكوراز ين الذي كان من رؤساء قوزاق نهر طنايس اراد ان يتملك على ازدراهان فاوقع الفزع في دولة الموسقو زمنا طويلا لكن آل امره الى أن انهزم وقبض عليه وقتل كامثاله ممن يؤل امرهم اما الى الظفر بمقصودهم و استيلائهم على التاج او الى ضرب اعناقهم ويقال ان نحو اثنى عشر الفا من اضراب هذا الرجل شنقوا على قارعة طريق ازدراهان ولما كان اهل هذه الدولة قد طبعوا على الخروج وعدم الانقياد وقلة تهذيب الاخلاق كانوا يزجرون بالقصاص والعقوبات المهولة التي كان يترتب عليها الاسترقاق والاصرار على اخذ الثار

وقد حارب ألكسيس اللاهيين فظفر بهم واعقب هذا الحرب صلح اكسبه الاستيلاء على اسمولنسپو وكيوويا وأوقرينه واما قتاله مع الاسوجيين فكان طالعه نحسا حيث لم يظفر بهم فلم تزل حدود الدولة ضيقة من جهة بلاد اسوج

وكان وقتئذ يخشى من الدولة العثمانية فانها اغارت على مملكته وكانت تهدد بلاد الايمبراطور بطرس الاكبر المجاورة لتتار القرم فاخذت (سنة ١٦٧١) من الميلاد مدينة كاميدس العظيمة وجميع ما كان لمملكته باوقرينة ولما كان قوزاق اقليم اوقرينة اذ ذاك يستنكفون ان يكون لهم رئيس ينقادون اليه كانوا لا يعرفون يومئذ هل هم اتباع الدولة العثمانية او اللاهيين او المسقوبيين وقد طلب السلطان محمد الرابع الذي انتصر على اللاهيين وضرب عليهم الجزية من الايمبراطور بطرس ان يتخلى له عن جميع ما يملكه من البلاد باقليم اوقرينة وسلك في طلبه هذا مسلك ما طبع عليه بنو عثمان من الكبر والتعاظم لا سيما وكانت له النصرة والغلبة فابى بطرس ان يجيبه لما طلب وسلك في الاباء ما سلكه السلطان في الطلب من الكبر والتعالي وكان الناس يومئذ لم يصلوا الى درجة كونهم يتسترون في كبرهم

بما يدل على الاحترام والاعتناء وذلك ان السلطان المذكور خاطب ايمبراطور الموسقو في الرسالة التي ارسلها اليه في هذا الشأن بما معناه ينهى الى الصنجق النصراني من حضرة صاحب الشوكة سلطان سلاطين العالم وخاقان خواقين الامم سلطان البرين وخاقان البحرين فما كان جواب الايمبراطور بطرس الأن قال كذا وكذا ما معناه لا يليق بي ان انقاد لكلب من كلاب المسلمين وان حسامي لحسام هذا السلطان حدّا وجوهرا

ثم ان الكسيس عزم على نية يتراى منها انه سيكون لدولة الموسقو ذات يوم شوكة باوروبا النصرانية وذلك انه ارسل رسلا للبابا واغلب اكابر ملوك اوروبا ماعدا مملكة فرنسا لانها كانت وقتئذ متعاهدة مع الدولة العثمانية يدعوهم جميعا الى التعصب والتحزب معه على الدولة المذكورة فلم ينجح رسله في ذلك بمدينة رومة وانما حصل لهم الاكرام بكونهم لم يقبلوا اقدام البابا وبنيلهم منه دعوات صالحة لا تجدى شيأ ولما كان بين ملوك النصارى يومئذ نزاع وتفاقم لم يمكنهم التحزب على الدولة الاسلامية المعادية للملل النصرانية وفي (سنة ١٦٧٤) من الميلاد امتنع اللاهيون من دفع الجزية للدولة العثمانية فشرع السلطان في تهديدهم بالتغلب على بلادهم فاعانهم عليه الايمبراطور ألكسيس والدبطرس الاكبر من جهة بلاد القرم وقد طهر جنرال الدولة المسمى حناسو بيسقى ما كان قد لحق وطنه من الدنس بسفك دم الاتراك في واقعة كوكزيل الشهيرة وتلك الواقعة هي التي فتحت له طريقا وصل منها الى الجلوس على سرير مملكة له فنازعه في ذلك ألكسيس المذكور وطلب ان يضيف ممالكه المتسعة الى مملكة له كما اضاف الباجو ليون اليها دوقية لاسونيا ولكن لم يفز من مطالبيه الجسيمة الا بالبسير وكان ألكسيس جديرا بالاستيلاء على هذه المملكة الجديدة اعني مملكة له نظرا الى ما كان يسلكه في حكم ممالكه وسياستها من الطرق المستحسنة فانه اول من وضع دستورا للشرائع والقوانين وان لم يف بجميع الاحكام وأدخل في ممالكه صنائع الاقمشة والحرير وان كانت في الواقع

ونفس الامر لم تمكث زمنا طويلا لكن يكفيه فضلا وشرفا كونه انشأ ذلك وجدده وقد عمر واهل الاماكن القفرة القريبة من نهري الاثل وكاما حيث انزل بها قبائل لسيانية ولاهية وتتارية كان قد اسرهم في غزواته معهم وكانت العادة في الزمن السابق ان الاسارى يكونون ارقاء لمن وقعوا في اسره فلذلك جعل الكسيس من اسرهم لزراعة الاراضي وبذل جهده في ادخال التربية العسكرية في جيوشه وبالجملة فهو جدير بكونه والد بطرس الاكبر غير انه لم يكن معه فسحة من الزمن يكمل فيها ما ابدعه في مملكته بل مات ولم يطل عمره حيث اخترمته المنية وله من العمر ست واربعون سنة وكان ذلك في اوائل (سنة ١٦٧٧) ميلادية حسبما تقتضيه التقويمات الفرنساوية التي تزيد على التقويمات الموسقوبية احد عشر يوما

وبموته اختل نظام الاشياء كلها وكان قد أعقب من اول زوجة له ولدين وست بنات فتتوج بتاج الملك ولده الاكبر المسمى فدورو وكان عمره اذ ذاك خمس عشرة سنة وكان ضعيف البنية كثير الامراض الا ان فضله كان لا ينزل على ضعف جسمه وكان والده أ لكسيس قبل موته بسنة قد جعله ولي عهده وهذه العادة كانت جارية عند ملوك فرنسا واستمرت من عهد هوغس كابيت الى لويز الشاب وغيرهما من الملوك

واما ولده الثاني المسمى ايوان ويقال له جان اي حنا فقد نغص الدهر عليه حياته وكدر عيشه اكثر من اخيه فدور فانه كاد يكون اعمى ابكم ضعيف البنية جدا لانه كان يعتريه داء التشنج في اغلب اوقاته واما البنات الست فكان اشهرهن باوروبا الاميرة صوفية التي امتازت على غيرها بفطنتها ووفور عقلها واشتهرت بذلك لكنها اشتهرت ايضا بشهرة اخرى غلبت عليها وهي انها ارادت اضرار بطرس الاكبر

وكان لالكسيس زوجة اخرى غير زوجته وهي بنت احد عماله حاكم نارسكان اعقب منها بطرس والاميرة نتاليا وكانت ولادة بطرس المذكور في ٣٠ من شهر ايار الافرنجي (سنة ١٦٧٢) من الميلاد

على حسب التقويم القديم واما اذا تطرنا الى التقويم الجديد فتكون ولادته
فى اليوم العاشر من شهر حيزران فعلى هذا يكون عمره وقت موت والده
اربع سنين وستة اشهر ولكن كان اولاده من المرأة الثانية غير محبوبين عند
الناس فكان لا يخطر ببال احدان بطرس يتولى مملكة الموسقو
وكانت عائلة رومانوف ترغب دائما فى تهذيب اخلاق الدولة وتمدنها
كما هو دأب فدور فقد اسلفنا لك عند الكلام على مدينة موسقو انه
اعان اهلها على بناء عدة بيوت من الحجر ووسع هذا التخت ويقال انه ادخل فيه
بعض قوانين تتعلق بالضبط والربط والسياسة العمومية لكن لما اراد النقض
والابرام فى امر آء دولته غضبوا منه ولم يقبلوا منه صرفا ولا عدلا ولم يكن له
من المعارف والهمة ما يكفى فى التصميم على احداث تغيير عام فى الدولة لاسيما
وكان الحرب اذ ذاك حاصلا بينه وبين الدولة العثمانية وفى الحقيقة انما كانت بينه
وبين تتار القرم ولم تظهر النصرة لهم فكان لا يمكنه التصدى لمثل هذا
المشروع الجسيم خصوصا وقد كان ضعيف البنية وقد تزوج كاسلافه بامرأة
من رعاياه كان اصلها من ضواحى مملكة له فلما ماتت بعد مضى سنة تزوج
(سنة ١٦٨٢) من الميلاد مرت ماتيونا بنت ابركسان كاتب سره
وبعد ذلك بعدة اشهر مرض مرضا افضى به الى الموت ولم يعقب ذرية
وحيث كان ملوك الموسقو يتزوجون النساء من غير أن يلتفتوا لحسبهن
ونسبهن كان يمكنهم أن ينتخبوا من يتولى على الدولة من غير أن يلتفتوا ايضا
الى درجات السن (وان لم يكن جرى عندهم العمل بذلك فى زمن من الازمان
فلا اقل من أن يعملوا به فى هذا الوقت لفقد النسل الملوكى) فكما كانت
درجات النساء وولاية العهد عندهم ثمرة الفضل والمعرفة وبهذا كانت دولة
الموسقو تفوق غيرها من الدول المتمدنة
وفى شهر نيسان (سنة ١٦٨٦) ميلادية حين رأى فدور قبل وفاته
ان اخاه المسمى حنا او ايوان لا يصلح للحكم لما كان قائما به من الامراض
اوصى بوراثة المملكة لاخيه الثانى بطرس ولم يكن لسن العمر اذ ذاك

الا عشر سنين ومع ذلك كانت له مقاصد عظيمة وآمال جسيمة

وكان العادة في بلاد الموسقو من ان ملوكها يتزوجون من رعاياهم كانت ملايمة جدا لمزاج النساء كان هنالك عادة اخرى صعبة جدا وهي ان بنات الملوك كان يندر في ذلك الوقت زواجهن فكان اغلبهن يقضي حياته بالترهب في الاديار

وكانت الاميرة صوفية التي هي ثالثة بنات اول زوجة للملك أآلكسيس ذات قريحة عالية وذات خطر عظيم على المملكة فلما علمت ان اخاها فدور لم يبق من حياته الامدة قليلة خرجت من الترهب ورأت ان اخويها لا يمكنهما الحكم لعدم صلاحية احدهما له ولصغر سن الآخر فعزمت على أن تأخذ بزمام الدولة وارادت في اواخر عمر الملك فدور أن تصنع باخيها بطرس ما صنعته بلشير سابقا مع اخيها الامبراطور تيودوز او تاودسيوس من اشراكها له في الحكم

(الفصل الرابع)

في الكلام على ايوان واخيه بطرس والفتنة التي احدثها وجاق الاسترليج

لما مات فدور وجلس على سرير الملك بطرس وكان عمره اذ ذاك عشر سنين وحرم الاخ الاكبر من التاج واخذت اختهما صوفية تضرم نيران الدسائس والفتن وقع في وجاق عساكر الاسترليج فتنة كبيرة سفكت فيها دماء كثيرة ولم يقع قط قديما ولا حديثا من وجاق الحفر البريطورياني ولا من الانكشارية من الخشونة والتبر بر مثل ماوقع من هؤلاء الاسترليج في هذه الفتنة وذلك انهم بعد مضي يومين من جنازة الملك فدور اسرعوا متسلحين الى السراية الملوكية المسماة كيرملينا واخذوا يتشكون من تسعة اشخاص من امراء الالايات بانهم لم يدفعوا لهم مرتبهم على التمام فاقتضى الحال عزل التسعة المذكورين ودفع الدراهم التي طلبها الاسترليج فلم يكتفوا بذلك بل ارادوا أن يسلم لهم في هؤلاء الضباط فاجيبوا لذلك وحكموا عليهم

بما اقتضته آراء الجمهور منهم وهو أن يعاقبوا بالعقاب المسمى بالنوغ ولنذكر لك كيفية هذا العقاب فنقول

كيفيته أن يجرد المرء عن ملابسه و يلقى على بطنه و يقوم جلادان فيضربانه على ظهره بالدبابيس حتى يقول الحاكم كفى ولم يكتفوا بمعاقبتهم بذلك بل جبروا بعد الفراغ على أن يأتوا بما يدل على شكر عساكرهم كما هو العادة الجارية عند المشرقيين فى شأن المذنبين من انهم بعد العقاب يقبلون ايدى حكامهم وزيادة على ذلك دفعوا مقدارا من الدراهم للعساكر المذكورين وكان هذا زيادة على العادة الجارية ببلاد الموسقو فى ذلك الوقت

وبينما كان هؤلاء الاستراليج قد شرعوا فى القاء الرعب فى قلوب الخلق كانت الاميرة صوفية تحرضهم سرا على الازدياد فى الذنوب والقبائح وجمعت عندها جمعية من الاميرات اللواتى كن من العائلة الملوكية ومن جنرالات الجيوش والحكام والبطارقة والاساقفة بل ومن اعيان التجار وأبدت لهم ان الامير ايوان لكبر سنه وفضله هو الاحق بالحكم على المملكة وهى فى الواقع تود أن يكون زمام المملكة بيدها ولما انفضت مذاكرة هذه الجمعية وعدت الاستراليج بزيادة مرتباتهم واتحافهم بالهدايا النفيسة وكان لها رسل يطوفون على الاحزاب فأثار واغضب هؤلاء العساكر على عائلة نارسكان خصوصا على اخوى الملكة الشابة الارملة والدة بطرس الاكبر وقد بلغ الاستراليج ان احد هذين الاخوين المسمى حنا اخذ ثوب الملك بطرس وجلس على سرير الملك واراد أن يخنق الامير ايوان وان بعض اشقياء حكماء الفلمنك المسمى دانيال ونغاد قد سم الملك فدور وبالجملة فقد اعطت الاميرة صوفية للاستراليج دفترا مشتملا على اربعين شخصا من الملتزمين زعمت انهم اعداؤها واعداء الدولة وانه ينبغى ذبحهم ولاشك ان ذلك افظع واشد مما وقع من سيلا وقضاة رومة الثلاثة وقد فعل نحوهم فى هذا الامر الشنيع الملك خرسترن الثانى بدانيمرقة واسوج ويؤخذ من ذلك ان مثل هذه الامور المستبشعة قد حصل بجميع البلدان فى ازمان الفتن

والتعكيرات وخلو الدول عمن يحكمها ويقوم بادارة مصالحها

فالقى كل من الاميرين دلغروفى ومافو من الشبابيك فتلقاهما الاستراليج على اسنة رماحهم وجردوهما مما كان عليهما وسحبوهما الى الميدان الاكبر وبادروا بدخول السراية فوجدوا بها احد اخوال الملك بطرس وهو اثناز نارسكان اخو الملكة الشابة والدة بطرس فذبحوه وقصوا ظهرا ابواب الكنيسة المجاورة للسراية وكان بها ثلاثة رجال ملتجئون فاخرجوهم من محاريبها وسلبوا ما كان عليهم وصاروا يضربونهم بالمدى حتى هلكوا

ولشدة غضبهم وحيتهم عميت بصائرهم حتى انه مر عليهم امير شاب من عائلة سلتيكوف التى كانوا يحبونها ولم يكن مكتوبا فى دفتر المحكوم عليهم بالقتل فاعتقد جماعة منهم ان هذا الشاب هو حنا نارسكان الذى كانوا يبحثون عنه فبادروا بقتله ومما يدلنا على اخلاق اهل ذلك الزمن كون هؤلاء العساكر لما تبين لهم خطأهم فى قتل هذا الشاب وانه ليس هو يحنا نارسكان الذى كانوا يبحثون عنه حملوا جثته الى ابيه ليدفنها فكافأهم والده السيء الحظ على كونهم حملوا اليه جسم ابنه الملوث بالدم عوضا عن كونه يتشكى ويتظلم منهم غلامته زوجته وبناته وزوجة ولده على هذا الضعف فاجابهن هذا الشيخ الهرم بقوله لنصبر حتى يأتى زمن الانتقام فلما سمع ذلك جماعة من الاستراليج دخلوا عليه اوضته وقد بلغ منهم الغضب منتهاه وجذبوه من شعره وذبحوه على باب داره

وذهبت جماعة اخرى منهم الى سائر الاماكن يبحثون عن الحكيم الفلمنكى المتقدم فقابلوا ولده فى الطريق فسألوه عن والده فاجابهم وقد داخله الرعب والفزع بقوله لا ادرى فعند ذلك ذبحوه ووجدوا حكيما آخر نمساويا فقالوا له انت حكيم فان لم تكن سممت ملكنا فدور فقد سممت كثيرا غيره فانت مستحق للموت وقتلوه فى الحال وقصارى الامر انه وجدوا الحكيم الفلمنكى الذى كانوا يبحثون عنه وكان متنكرا فى صفة شحاذ فسحبوه امام السراية فابصره

الاميرات اللواتى كن يحببن هذا الرجل الجليل القدر ويثقن به فطلبن له العفو منهم واخبرنهم بانه كان فى الواقع حكيما ماهرا سالك فى معالجة فدور اخيهن احسن الطرق فاجابهن الاسترليج بانه ليس مستوجبا للقتل بوصف كونه حكيما فقط بل بوصف كونه ساحرا ايضا وذلك لانهم وجدوا عنده ضفدعة كبيرة يابسة وجلد ثعبان وقالوا ايضا انه لابد أن يسلم لهم الشاب ايوان نارسكان وكانوا قد بحثوا عنه منذ يومين فلم يقفوا له على اثر وجزموا بانه متوار فى السراية وانه ان لم يسلم لهم يوقدوا النار بها فقامت اخت ايوان نارسكان المذكور وقام معها الاميرات الاخر وهن فى وجل شديد وذهبن الى المحل الذى كان به ايوان المذكور فدنا منه البطرق وتلا عليه ما يقال فى الاعتراف ومسحه المسحة المقدسة ثم اخذ صورة العذرآء التى كانت عندهم بمنزلة خوارق العادات وناوله اياها فتقدم الى الاسترليج وكشف لهم عن تلك الصورة والاميرات حوله فى البكاء والنحيب جاثيات أمام العساكر ويتوسلن اليهم بالعذرآء فى العفو عن قريبهن فجذبه هؤلاء العساكر من ايديهن حتى اتوا به تحت السلالم مع ونغاد الحكيم وعقدوا فى شأنهما مشورة وكان لا احدهم معرفة بالكتابة فكتب قضيتهما وحكموا عليهما بانهما يقطعان بالبلط اربا اربا كما هو عادة اهل الصين والتتار فيمن قتل اباه اومن له الفضل عليه ويسمونه عقاب عشرة الالاف قطعة فبعد أن عوقب نارسكان وونغاد بهذا العقاب رفعت رؤسهما وارجلهما وايديهما على اسنة حديد درابزين كان هنالك

وبينما كان بعض هؤلاء العساكر يشفى غليله أمام الاميرات كان البعض الاخر مشتغلا بذبح من كان عدوا له ومن كانت صوفية تسيء بهم الظن

وفى شهر حيزران (سنة ١٦٨٢) ميلادية انتهت هذه العقوبات المهولة بجعل الاميرين ايوان وبطرس ملكين واختهما صوفية شريكة لهما فى الحكم بطريق الوكالة فاستصوبت حينئذ جميع مافعله العساكر من تلك الذنوب والجنايات وكافأتهم على ذلك وضبطت جميع اموال المقتولين

واملاكهم

واملاكهم واعطتها للاستراليج بل واذنت لهم بتشييد عمارة ينقشون عليها
جميع اسماء من قتلوا اعقابا لهم فى نظير خياناتهم لوطنهم واعطتهم مكاتيب مختومة
تتضمن شكر صنيعهم على غيرتهم واماناتهم

(الفصل الخامس)

فى استيلاء الاميرة صوفية وفى المشاجرات الدينية
الغريبة وفيما حصل من التعصبات والفتن

يؤخذ مما ذكرناه ان الاميرة صوفية استوت على كرسى دولة الموسقو
ببلوغها درجات عديدة من غير أن تبايع على المملكة ولا يخفى ايضا ما كان نصب
عين بطرس الاكبر فى مبدء امره فقد حظيت تلك الاميرة بما يكون للملك
من انواع التشريف والافتخار حيث كان تمثالها يرسم على المعاملة وكان
امضاؤها يكتب على جميع اوامر الدولة وكان لها اول موضع فى مجلس المشورة
وصار لها الكلمة العليا وبت الاحكام وكانت بمكان من الفطانة والبراعة
وكانت كاتبة شاعرة فصيحة ذات منظر جميل ووجه حسن ازدادت به معارفها
بهجة غير أن طمعها كان سببا فى ذهاب بهجتها
وقد زوجت اخاها ايوان على حسب العادة التى تكلمنا عليها فيما سبق فانه
تزوج بفتاة سلتيكوفية اى من عائلة سلتيكوف الذى قتله الاستراليج
وكانت تلك الفتاة بمدينة فى وسط بلاد سيبر لان والدها كان محافظا فى قلعة
هنالك فانتخبت لتقدم الى الملك ايوان بمدينة موسقو فغلب بجمالها
على سعى اقرانها من البنات فى زواج هذا الملك وكان زواجه بها (سنة ١٦٨٤
من الميلاد فكما تتأتى تاريخ زواج كل ملك من ملوك الموسقو نقرأ تاريخ
اسوبروس ملك العجم او تاودسيوس الثانى قيصر الرومان
وفى اثناء هذا العرس اثار الاستراليج فتنة جديدة تتعلق بالعقائد الدينية
ومن ذا الذى يخطر بباله ان مثل هؤلاء يقع منهم فتنة فى هذا الشأن ولو كانوا
مجرد عساكر لما تيسر لهم أن يجادلوا فى الدين لكنهم كانوا ايضا اهالى مدينة
موسقو كابناء البلد فلا غرابة فى ذلك فانه من داخل بلاد الهند الى اطراف

بلاد اوروبا كان كل من تجاسر من النصارى وألقى هيبته فى قلوب العوام اخترع مذهبا كما هو معهود فى سائر الازمان لاسيما من حين ما صار ارباب الجمعية الدينية سلاحهم الدين وصار اهل السخافة والغفلة اسراء التقليد فقد حصل عدة فتن ومشاجرات ببلاد الموسقو حين وقع النزاع فى رسم الصليب هل يكون بثلاثة اصابع او باصبعين وكان اذ ذاك رئيس من رؤساء القسيسين يقال له اباكوم احدث مذهبا بمدينة موسقو فاجتهد فى تفسير روح القدس الذى به تستضئ قلوب المؤمنين بعيسى عليه السلام وفى مساواة اهل الصدر الاول من ابناء النصرانية وعدم الترجيح بينهم وفى تفسير قول سيدنا عيسى عليه السلام فى ذلك الوقت يكون لا اول ولا آخر (فى ١٦ من شهر تموز سنة ١٦٨٢ من الميلاد) فقلد جماعة من الاهالى ومن الاستراليج قول اباكوم المذكور فعظمت احزابه وكثرت اصحابه وكان رئيس هذه الطائفة يقال له رسبوب وكان من امرهم انهم وصلوا الى الكنيسة الكبرى التى كان البطرق وجماعته يقومون فيها بالواجبات الدينية وصاروا يرمونهم بالحجارة حتى اخرجوهم منها واقاموا فيها بدلا عنهم لينزل عليهم روح القدس وكانوا يلقبون البطرق بالذئب المغتال فى الزريبة وكانت الطوائف القسيسية دائما تلقب بعضها بهذا اللقب فبادر بعض الناس الى الاميرة صوفية والملكين اخويها واخبرهم بما وقع من الخلل وبلغ باقى الاستراليج الذين كانوا يعضدون مذهب الجماعة ان العائلة الملوكية والكنيسة فى خطر عظيم فحضروا وانضموا الى الاهالى الذين كانوا من حزب البطرق المطرود واخذوا يقاتلون حزب اباكوم ثم بطل القتال بين الفريقين وانحط الرأى على عقد مشورة قسيسية فى هذا الشأن فاجتمعت القسوس فورا فى ديوان كبير من السراية الملوكية من غير أن يكون فى ذلك عسر لانهم كانوا يحضرون بها كل من صادفوه من القسوس فاخذ البطرق وبعض القسوس يناظرون رسبوب ويجادلونه ويبرهنون على بطلان مذهبه وانه معتزل لا اعتداد به وعند اقامة ثانى برهان صاروا يرجمون بعضهم بالاحجار على

وجوههم ثم انتهت الجمعية بضرب اعناق رسبوب وجماعة من اصحابه الذين كانوا على عقيدته و رأيه وكان ذلك باوامر الملوك الثلاثة صوفية وايوان و بطرس

وفي مدة هذا الفشل كان هنالك امير يسمى كونسكوا وكان ممن سعى في تولية الاميرة صوفية فطلب ان تكافئه على هذا السعي بأن تشركه معها في المملكة فلم ترض بذلك وخاب امله فيها ومن يومئذ دخل في زمرة اصحاب رسبوب وحرض جماعة من الاسترليج والاهالي على الخروج والعصيان زاعما ان ذلك لمحض وجه الله عز وجل فاضطرمت نيران الفتنة اكثر مما كانت عليه مدة حياة رسبوب صاحب هذا المذهب وذلك لان من المعلوم ان المنافق الطامع يسلك في اموره مسلك الافراط والتغالي اكثر من المشدد في الدين فان كونسكوا لم تنقطع آماله من تطلب الدولة والاستيلاء عليها وليكون مأمون العاقبة بحيث لايخشى عروض شئ يعكر عليه في المستقبل عزم على ذبح الملكين واختهما والاميرات الاخر اللاتي من نخذ المملكة وجميع من كان يلوذ بالعائلة الملوكية فاضطر كل من الملكين والاميرات الى الالتجاء بدير هنالك يقال له دير الثالوث وهو على البعد من مدينة موسقو باثني عشر فرسخا وكان ديرا وسراية وقلعة في آن واحد كبعض اديار بهذه المثابة من اديار نصارى الملة اللاطينية وكان ذلك الدير معدا لخصوص كبار الرهبان ويكتنفه خنادق متسعة واسوار مبنية بالآجر وموضوع عليها مدافع عديدة وكان لرهبان هذا الدير حوله من الارض اربعة فراسخ فلما التجأت اليه العائلة الملوكية صارت آمنة مطمئنة بتحصينه اطمئنانا عظيما وكذلك بوثوقها ببركته وكان ذلك (سنة ١٦٨٢) من الميلاد وقد تداولت الاميرة صوفية مع كونسكوا المذكور في شأن المصلحة وهي مقيمة في ذلك الدير وخادعته حتى اذا بلغ نصف الطريق امرت بضرب عنقه وعنق احد اولاده وسبعة وثلاثين رجلا من الاسترليج كانوا معه فلما بلغ الاسترليج هذا الخبر تسلحوا وتأهبوا للهجوم على دير الثالوث

وكان يتراءى من حالتهم وقتئذ انهم يريدون تدمير الدولة عن آخرها ومحو اثرها بالكلية فتحصنت العائلة الملوكية وسلح اكابر الدولة اتباعهم وتسابق الى ذلك الاكابر والامراء افواجا افواجا فوقع حرب داخلي مهول سفكت فيه دماء كثيرة الا ان البطرق اخذ يسكن غضب الاسترايج لاسيما وكان قد اتى لمقاتلتهم جيوش عديدة من سائر الجهات فداخلهم الرعب والفزع وفترت هممهم فتبدل غضبهم خوفا ثم آل امرهم الى الطاعة والانقياد ومثل هذا التغيير امر عادي لاخلاط الناس المجتمعة وصورة الانقياد ان ثلاثة آلاف واربعمائة من الاسترايج تطوقوا حبلا ونساؤهم واولادهم خلفهم وتوجهوا على هذه الحالة الى دير الثالوث مع انهم كانوا قبل ذلك بثلاثة ايام يريدون حرقه فذهب هؤلاء الاشقياء الى الدير المذكور مثنى اثنين اثنين ومع كل واحد منهم بلطة وقرمة من الخشب فلما وصلوا اليه خروا سجدا يظهرون الطاعة والامتثال وصاروا ينتظرون صدور الامر بتعذيبهم فعفي عنهم وعادوا الى مدينة موسقو يثنون على ملوكهم الثناء الجميل مع العزم على تجديد الخروج عن الطاعة عند الفرصة

وبعد هذه التقلبات صارت الدولة آمنة مطمئنة لا تخشى سطوة الدول الاجنبية ولم تزل للاميرة صوفية الكلمة العليا في الدولة وتخلت عن ايوان لعدم صلاحيته للمنصب الملوكي وقصرت وكالتها ووصيتها على بطرس وادخلت في الحكم معها الامير بازيل غاليتزين طالبا لازدياد صولتها وتقوية شوكتها وجعلته سرعسكر ومدبر الدولة وامين المهر وكان ابرع ديوان الموسقو في كل فن وكان مؤدبا ظريفا لا يتشبث الا بالمعالي وعظائم الامور وكان اعلم اهل الموسقو قاطبة لانه تربى تربية احسن من تربيتهم بل كان له معرفة باللسان اللاطيني مع انه اذ ذاك كاد يكون مجهولا بالكلية في بلاد الموسقو وكان دائما شغال الفكرة كثير الاجتهاد فاق اهل عصره بقريحته وفضلهم بذكائه وفطنته وكان له اقتدار على تغيير صورة بلاد الموسقو لو وجد من الفرصة والشوكة ما يكون على طبق مرامه وبغيته

وقد مدحه بذلك لانويل وكان اذذاك الجيامن بلاد له الى بلاد الموسقو وقد جرت العادة ان مدح الاجانب لانسان يوثق به اكثر من مدح ابناء جنسه وملته

وهذا الوزير هو الذى قمع الاسترليج واذلهم حيث وزع اصحاب الفتنة والعصيان منهم على الجنود التى كانت يومئذ باقليم اوقرينة وقازان وسبير وفى مدة وزارته نزل اللاهيون للدولة الموسقوبية عن جميع حقوقهم فى اقليمى اسمولنسكو واوقرينة الكبيرين وكان ذلك (سنة ١٦٨٦) من الميلاد وهو اول من ارسل الجية الى بلاد فرنسا (سنة ١٦٨٧) ميلادية وكانت هذه المملكة قدمضى عليها عشرون سنة وهى فى فخار عظيم بسبب فتوحات لويز الرابع عشر وماابدعه فيها من المبانى الجديدة وغير ذلك خصوصا باستكمال الفنون فيها فانها لولا ذلك لكان عظمها خاليا عن الفخار ومزيد الاعتبار والى ذاك الوقت لم يكن وقع بين دولة فرنسا ودولة الموسقو تعارف قط بل كان الفرنساوية يجهلون هذه الدولة فاشهرت جمعية الآثار القديمة بالديار الفرنساوية تلك الارساليات حين قدومها بنشان فخار على صورة النقود مكافاة لها حتى كأنها قادمة من بلاد الهند القاصية عنهم لكن مع ذلك فالالجى دلغوروكى الذى كان رئيس الارسالية المذكورة خابت آماله ولم ينجح فيما ارسل بصدده بسبب اساءة سلوك خدمه واتباعه فى هذه البلاد وكان الاولى للدولة الفرنساوية أن تغضى عما وقع من هؤلاء الناس ببلادهم من الامور المخلة ولكن كان لايخطر اذذاك ببال ارباب ديوان لويز الرابع عشر ملك فرنسا ان دولتى الموسقو وفرنسا يأتى عليهما زمن يكون فيه ايقاع الالفة والتعاهد بينهما مما يعود عليهما بالمنفعة

وكانت دولة الموسقو اذذاك خالية من الحروب الداخلية وكانت حدودها لم تزل ضيقة من جهة بلاد اسوج ومتسعة من جهة بلاد له التى كانت قريبة عهد بمعاهدتها وكانت ايضا لم تزل فى النزاع والمخاصمة مع تتار القرم

وفى الفشل والشقاق مع دولة الصين فى شأن الضواحى والرساتيق ومما كانت تأباه هذه الدولة ولا تطيقه مما يدل على انها كانت الى ذلك الوقت لم تصل فى حسن السياسة والانتظام الى الدرجة القصوى هو ان خان تتار القرم كان يطلب منها جزية سنوية يبلغ مقدارها ستين الف ربل كما ان الدولة العثمانية ضربت على مملكة له جزية مثلها

وبلاد تتار القرم هى عين خرسونيز توريك المشهورة سابقا بمخالطة اليونان وخرافاتهم وهى مملكة خصبة الا ان اهلها لم يزالوا على التوحش والخشونة وانما لقبوا بالقرم نسبة الى سلف خاناتهم اى ملوكهم حيث كانوا يلقبون بلقب قريم قبل أن يفتحها اولاد جنكيزخان (سنة ١٦٨٧) و (سنة ١٦٨٨) من الميلاد وقد ذهب ذلك الوزير الاكبر الذى هو غالتزين بنفسه يقود جيشا جرارا الى بلاد القرم ليطهر الدولة الموسقوبية مما لحقها من الدنس والعار بضرب الجزية عليها وكانت جيوش تلك الدولة فى ذلك العصر لا تشبه فى شئ الجيوش التى ببلاد الموسقو فى عصرنا هذا فانها كانت خالية عن التربية العسكرية والضبط والربط وعن الالايات الجيدة التسلح ولم يكن للعساكر طقوم الاى بل لم يكن عندهم اتحاد ولا انتظام فى الملابس ولئما كانوا فى الواقع ونفس الامر متعودين على الشغل ومكابدة مشاق المخمصة والمجاعة لكن كان يرى معهم كثير من المهمات العسكرية التى لا يوجد مثلها فى جيوش عصرنا هذا ذات الزخرفة والرفاهية ولما كانت عرباتهم التى حملوا عليها مهماتهم ومؤناتهم الى هذه البلاد الخربة والبوادى كثيرة جدا اضرت بمشروعاتهم فى شأن بلاد القرم المذكورة وذلك انهم لما وصلوا الى البرارى المتسعة على نهر سامار لم يجدوا مخازن يضعون فيها ذخائرهم ومهماتهم وقد فعل غالتزين فى هذه البرارى بحسب الظن ما لم يسبق لغيره فى اماكن أخرى فانه استعمل ثلاثين الف رجل فى بناء مدينة على النهر المذكور ليجعلها مخزنا لمواد غزوة اخرى وكان تمام بنائها بعد مضى سنة وثلاثة اشهر وكانت كلها من الخشب ماعدا بيتين من الآجر

وكان

وكان مضروبا حولها اسوار من الحشائش ومع ذلك وضع عليها مدافع وضعا جيدا بحيث تمكن المدافعة بها وهذا ما وقع من الامور الغريبة في هذه الغزوة التي ذهب من اجلها امور كثيرة ومع ذلك فلم تزل صوفية ملكة ولم يكن لايوان من الالقاب الا كلمة جار فقط وكان عمر بطرس اذذاك سبع عشرة سنة وكان اهلا لان يكون جارا وفي ذلك الوقت كان رسول مملكة له المسمى لانويل قاطنا بمدينة موسقو وكان مشاهدا لما كان يقع فيها فزعم ان صوفية والامير غالتزين جبرا رئيس الاسترليج الجديد على قتل الجار الشاب لاجل ما ولم يتحقق ذلك وانما المحقق ان ستمائة من طائفة الاسترليج كانوا مأمورين بالقبض عليه وما وصل الجي من ديوان الموسقو من اللوائح السرية يدل على ان الجماعة المذكورة قد كانت متهيئة لقتل بطرس ولو وقع ذلك الامر الذي كاد أن يقع لحرمت بلاد الموسقو الى الابد من الخيرات العظيمة التي عرضت لها مدة حكمه فصار بطرس المذكور مجبورا على ان يلتجئ في دير الثالوث وهو الملجأ الذي جرت العادة بالهروب فيه لمن كانت تهدده العساكر الغير المنتظمة من العائلة الملوكية وأحضر بهذا الدير امير آه حزبه من الموسقويين وجمع فيه ايضا عساكر غير منتظمة وتكلم مع رؤساء من الاسترليج ودعا اليه جماعة نمساوية كانت قاطنة بمدينة موسقو منذ مدة طويلة وكان كل يميل اليه لذاته ولانه كان يوامي الغرباء ويودهم ثم تفاوض معهم في هذا الشأن واما صوفية وايوان فكانا مقيمين بمدينة موسقو وتبايعا مع وجاق الاسترليج على ان لا يخونوهما ومع ذلك فبطرس الذي كان يشكي من قصد تعدي الاسترليج عليه وعلى والدته ومنعه حقه انتصر على الاميرة صوفية واخيها ايوان الذي كان منظره مستبشعا تنفر منه القلوب وعوقب جميع المذنبين باشد العقوبات الجارية وقتئذ بتلك المملكة كان التعدي والاغتصاب كان ايضا جاريا ومتواترا عندهم فمنهم من ضربت عنقه بعد أن قاسى المحن بالضرب بالاسواط على ظهره كما فعل برئيس الاسترليج ومنهم من قطع لسانه وهم الذين كان

يظن ان لهم دخلا فى تلك الفتنة

واما الامير غالتزين فكان له قريب بمعية بطرس فلذا فاز بالنجاة لكن سلبت جميع امواله الجمة العظيمة ونفى الى محل على طريق ارخنجل وكان لانويل رسول اللاهيين حاضرا ذلك الهول الشديد فقال ان الامر الذى صدر لغالتزين بالنفى نصه قد امر لك الجار الرؤف الرحيم بان تنتقل الى كرغا وهى مدينة بالقطب الشمالى وتمكث فيها مدة حياتك واقتضت شفقته أن رتب لك على سبيل الانعام ثلاثة صلديات فى كل يوم (خمس عشرة بارة) انتهى

وقوله بالقطب غير مسلم فانه لا يوجد بالقطب مدن اصلا واما مدينة كرغا التى ذكرها فهى فى الدرجة الثانية والستين من العرض وابعد من مدينة موسقو جهة الشمال بست درجات ونصف فالذى نطق بهذا الحكم جاهل بعلم الجغرافيا وبمعرفة اوضاع الاماكن وقيل ان لانويل وقع فى الخطا بناء على اطلاعه على عبارة غير صحيحة

وقصارى الامر ان الاميرة صوفية بعد ان حكمت مدة طويلة اعادوها الى ديرها بمدينة موسقو وهذا عقاب شديد يكفيها فى جزائها ومن هذا الوقت تولى الحكم بطرس ولم يبق لاخيه ايوان دخل فى الحكومة الا مجرد وضعه اسمه فى المصالح الميرية وقضى حياته محروما من المنصب الملوكى ومات (سنة ١٦٩٦) ميلادية

(الفصل السادس)

فى الكلام على استيلاء بطرس الاكبر على المملكة واوائل ما حصل بدولته من النقض والابرام والتغيرات العظيمة

كان بطرس الاكبر طويل القامة معتدل القد حسن الشكل عليه سيما الاكابر حاد البصر صحيح المزاج قوى البنية لا يكل عزمه ولا تمل همته موصوفا باصابة الرأى التى بواسطتها يكون الانسان متبحرا فى جميع المعارف الحقيقية وكانت فكرته دائما شغالة فكان يتصدى لجميع المقاصد العظيمة والمشروعات

الجسيمة

الجسمية وكان يلزم لتربيته امور كثيرة حتى تكون حاله مطابقة لكمال قريحته
غيران اغراض الاميرة صوفية كانت تقتضى بقاءه على الجهالة والانهماك
على الشهوات واللذات التى تستدعيها الشبوبية والبطالة والامارة
وفى شهر خيزران (سنة ١٦٨٩) ميلادية تزوج على عادة ملوك الموسقو
بنت احد رعاياه وهى بنت ميرالاى يقال له لابوشين لكنه لما كان صغير السن
ولم يكن للجلوس على سرير الملك عنده مزية الا الانهماك على اللذات لم يجد
الزواج معه شيأ حيث لم يرجع عما كان عليه بالكلية وما كان يصدر منه على
المائدة مع بعض الغرباء الذين كان يجلبهم الوزير غالترين الى مدينة موسقو
من انواع الحظ والفكاهة لم يترتب عليه وقوع الاصلاح فى الدولة وجبر خللها
ومع ما كان عليه من الحظوظ وغيرها من الامور الذميمة كان متولعا بالفنون
العسكرية وسياسة الدولة فمن ثم وجب الاذعان بانه عظيم الشان جليل القدر
وكان لا يظن بمثل هذا الامير الذى كان كثير الجزع حتى كان يتصبب عرقا
باردا ويعتريه من شدة الفزع تشنج الاعصاب حين يركب نهرا انه على ممر الزمان
يصير ذات يوم من عظماء الملاحين ومهرة البحارة ببلاد الشمال وذلك انه اخذ
فى معالجة هذا الداء حيث غلب على نفسه وجبرها على التعود على ذلك بقذفه
نفسه فى الماء حتى انتهى امره أن صار ركوب البحر احب الاشياء اليه
وكان يلحقه خجل شديد من كونه نشأ فى الجهالة فحمله ذلك على أن يتعلم وحده
ما يكفيه فى معرفة اللسان النمساوى والفلمنكى من غير كبير احتياج الى معلم
يعلمه ذلك فبلغ فيهما درجة بحيث كان يمكنه التكلم والكتابة بهما على وجه صحيح
مفهوم وكان يعتقد ان النمساويين والفلمنكيين هم اكثر الامم تأدبا وتربية
حيث ان النمساويين كانوا قبله يستعملون بمدينة موسقو جزأ من الفنون
التى كان عازما على ادخالها بمملكته وكان للفلمنكيين براعة فى فن البحرية الذى
كان يراه من اهم الفنون واعظمها
فبهذا تأهل بطرس الاكبر فى ذلك الوقت مع حداثة سنه ولكن كان
يتحزب عليه احزاب يخشى عليه منها الخطر وكان مصرا على قمع الاسترليج

وزدهم عن الخروج عن الطاعة الذى كان دأبهم وعادتهم كما كان مذعنا على قتال تتار القرم ومحاربتهم فشن عليهم الغارة وكان انتهاء ذلك الحرب (سنة ١٦٨٩) من الميلاد بمهادنة لم يجر العمل عليها الامدة يسيرة وفى ظرف هذه المدة تحصن بطرس وتقوى قاصدا بذلك جلب الفنون والمعارف الى وطنه

وكانت مقاصد ابيه الكسيس مثل مقاصده الا ان الدهر والاحوال لم تساعده على ذلك بل كانت قريحة بطرس الموروثة له عن والده اوسع دائرة من ابيه وكانت له فى المشكلات شدة عجيبة وقوة عقل غريبة وذلك ان الكسيس كان قد احضر من بلاد الفلمنك رجلا يعرف صناعة انشاء السفن ومد المراكب يقال له بوتلير وكان رئيس سفينة واحضر معه عدة نجارين وملاحين وصرف عليهم مصاريف جسيمة فدوا على نهر الاثل قرقاطة عظيمة وسفينة اخرى صغيرة وركبوا هذا النهر وساروا حتى وصلوا الى اقليم ازدراهان وكان الغرض من هذين السفينتين وغيرهما من السفن التى يجددونها بعد ذلك هو التجارة الرابحة والاخذ والعطاء مع العجم بواسطة بحر الخزر فعند ذلك رفع لستنكورازين (لعله حاكم ازدراهان) اعلام العصيان فدمر هاتين السفينتين وكان يلزمه حفظهما لنفسه وذبح القبطان وفر من بقى من الملاحين الى بلاد العجم ومنها وصلوا الى محال الجمعية التجارية الفلمنكية ببلاد الهند فلم يبق ببلاد الموسقو غير استاذ نجار ومعمار مكث مدة طويلة مجهول الحال يسمى الاستابران

واتفق ذات يوم ان بطرس كان يتمشى فى اسمعيل اوف وهو احد منازل جده فرأى فيه على بعد من جملة الامور الغريبة صندلا انكليزيا مهجورا فسأل تيرمان النمساوى وكان استاذه فى العلوم الرياضية لم كانت صناعة هذا الصندل مخالفة لما شاهدته فى نهر موسكا فاجابه ان هذا الصندل صنع لاجل السير بالشراع والمجاذيف معا فاراد هذا الامير الشاب ان يجرب فى الحال هذا الصندل غير انه كان محتاجا للتعمير والاصلاح

فاحضروا له المعمار الذی سبق ذکره وهو بران وکان مقیما بمدینة موسقو خاملا فاصلح هذا الصندل وانزله فی نهر یوزا المتصل بضواحی مدینة موسقو

ثم ان بطرس امر بنقل هذا الصندل الی بحیرة عظیمة بجوار دیر الثالوث وامر بران المذکور بمد فرقاطتین وثلاثة مراکب وجعل نفسه رئیسا علیها وبعد ذلک بمدة طویلة (سنة ١٦٩٤ سنة) میلادیة ذهب الی ارقنجل وامر بران ایضا بانشاء سفینة صغیرة فی مینا هذا الاقلیم ثم رکب البحر المنجمد الشمالی ولم یتفق لغیره من الملوک قبله الاطلاع علیه وکان معه فی هذا المشروع علی سبیل الخفر غلیون حربی فلمنکی لاجل الحراسة یقال لقبطانه بولسون وکان وراء هذا الغلیون جمیع السفن التجاریة التی کانت راسیة علی مینا ارقنجل وکان بطرس وقتئذ مشتغلا بتعلم الحرکات العسکریة البحریة وکان جلساؤه ایضا مجتهدین فی الاقتداء به فی التعلم ومع ذلک کان ابرعهم وامهرهم

وکما انه کان یصعب فی ذلک الوقت تجدید جیوش قزابة منتظمة کان یصعب ایضا الانشاء دونما حربیة واما تجاربه البحریة الاولیة التی صدرت منه قبل رحلته الی ارقنجل فانما کانت مجرد حظوظ صادرة عن شاب ذی قریحة عظیمة وکذلک ماوقع منه فی مبدء الامر من احداث الجیوش والعساکر فانه کان من قبیل الزینة والزخرفة واللعب وکان ذلک مدة نیابة صوفیة ولو استشعروا ان مافعله من ذلک من قبیل الجد وانه صادر عن قصد نافع لامکن ان یفضی به الی الخطر

وقد استأمن فی اموره انسانا اجنبیا وهو لوفورت الشهیر وکان من عائلة قدیمة ذات حسب ونسب کانت اولا باقلیم پیومونت بایطالیا ثم هاجرت منه منذ قرنین الی مدینة جنیوة بایطالیا ایضا حیث حظیت فیها باعلی المراتب واسنی المناصب ثم اراد اهله ان یعلموه التجارة التی صارت بها مدینة جینیوة عظیمة جدا بعد ان کانت دون غیرها مشهورة بالمشاجرات

الدينية

وكان لوفورت صاحب قريحة عظيمة تحمله على الاقدام على الامور الجسيمة فمن ذلك انه ترك بيت والده حين بلغ من العمر اربع عشرة سنة وخدم بقلعة مدينة مرسيليا اربعة اشهر فى العسكرية ثم انتقل الى بلاد الفلمنك وخدم مدة فى العسكرية متطوعا وجرح فى محاصرة مدينة غراوة سولموزة اى التى على نهر موزة وهى مدينة حصينة منيعة اخذها امير اورنجة من لويز الرابع عشر (سنة ١٦٧٤) ميلادية وذلك الامير المذكور هو الذى صار من ذلك الوقت ملكا على بلاد الانكليز ثم سعى لوفورت فيما يكون به تقدمه ورفعة مقامه فى سائر الجهات التى كان يرشده اليها امله وقوة جنانه فركب البحر (سنة ١٦٧٥) من الميلاد مع مير الاى نمساوى يقال له ورستين وكان قد وكله الجار ألكسيس والد بطرس فى تحصيل بعض عساكر من البلاد الواطمية وان يأتى بهم الى مينا ارقنجل فلما وصلا الى هذه المينا بعد اقتحامهما اخطار البحار لم يجدا الجار ألكسيس بل وجدا الحكومة قد تغيرت بما كان فيها يومئذ من الفشل و الشقاق وقد ترك حاكم ارقنجل كلا من ورستين ولوفورت وجنودهما فى اسوء حالة حيث هددهم بنفيهم الى آخر بلاد سبير فهربوا جميعا الى جهات مختلفة كل على حسب ما امكنه فلما انسدت على لوفورت جميع الطرق ذهب الى مدينة موسقو وحضر بين يدى الجى مملكة دانيمارقة المسمى هورن فجعله كاتب سره فتعلم اللسان الموسقوبى وبعد ذلك بمدة اغتنم الفرصة فى ان يتمثل بين يدى الجار بطرس لان اخاه الاكبر وهو ايوان لم يكن على طبق مرامه فاختبره بطرس فوجده ملايما لحالته فجعله اولا قائدا لبلوك من القرابة وعند دخوله فى الخدمة لم يكن عالما لانه لم يتمكن من اى فن من الفنون غير انه كان رأى الوقائع كثيرا وكان يحسن ادراك ما رآه وسبب ملاءمته لبطرس الاكبر انما هو كونه صاحب قريحة وعقل بديع زيادة على ما كان له من معرفة لغتى الفلمنك والنمسا اللتين كان يتعلمهما بطرس لكونهما لغتى المملتين اللتين كان يعول

عليهما

عليهما في تجهيز اغراضه ومقاصده فبذلك صار لوفورت مقبولا عند بطرس محبوبا لديه مسموع الكلمة وكانت المحبة سبب ابتداء حظوته عند الجبار ثم تأكدت الحظوة بمعارفه ودرايته فكان امين سره وبلغ في ذلك أن اطلعه بطرس على اشد ما آربه خطرا حيث اخبره بانه يريدان يتأهب ذات يوم لابطال عساكر الاسترليج لما ان تلك الطائفة هي التي كانت تضرم نيران الفتن لكن يكون ذلك على وجه لايصير به عرضة للخطر لما ان السلطان عثمان بادشاه العثمانية لما اراد ابطال العساكر الانكشارية لفضى به ذلك الى القتل ومع ما كان عليه بطرس من حداثة السن سلك في ذلك مسلكا انفع مما سلكه السلطان عثمان وذلك انه في مبدء الامر جمع في منزله الذي كان في الخلاء المسمى پريوبازنسكي بلوكا قدره خمسون نفسا من اعظم شبان غلمانه وانتخب جملة من اولاد امرآء الموسقوبيين وجعلهم ضباطا عليهم ورقاهم بالتدريج الى جميع الرتب ليعوّدهم على مالم يكونوا يعهدونه من الضبط والربط وكان هو بنفسه قدوتهم في ذلك حيث جعل نفسه في مبدء الامر طرنبيطيا ثم عسكريا ثم چاويشا ثم ملازما ثم وان كان هذا الامر في غاية من الغرابة الا انه كان من اعظم الاشياء نفعا لان الموسقوبيين كانوا يسلكون اولا في محاربتهم مسلك الفرنساوية في عهد الحكومة الالتزامية حيث كان الامرآ يقودون الى الحروب اتباعهم من غير انتظام ولا تجربة ولا حسن تطقيم ولا ضبط وربط ولا شك ان هذه طريقة خشنية تكفي في مقاومة من يكون بهذه المثابة من العساكر ولا تجدي نفعا في مصادمة الجيوش المنتظمة بل تعجز عن مقاومتها

وهذه الاورطة التي ابتدءها بطرس بنفسه قدازداد عددها بعد ذلك بيسير وصارت من هذا الوقت الالاي خفر پريوبازنسكي وقد اخترع ايضا بلوكا آخر على هذا المنوال صار فيما بعد الالاي المسمى سمونوسكي وتجدد عنده ايضا الاي كان يركن اليه ويثق به وكان عدده خمسة آلاف رجل جدده الجنرال غردون الانكليزي الايقوسي وكان معظمه من الغرباء واما لوفورت فانه

فان لم يمكث فى العسكرية الامدة قليلة الا انه كان له استعداد لكل شئ فتعهد بجمع الالاى قدره اثنا عشر الف رجل ونجح فى هذا المقصد وصار تحت رياسته خمسة من امراء الالايات فلم يشعر الا وهو سرعسكر على هذا الجيش الصغير دفعة واحدة وكان هذا الجيش معدا لمقاومة الاسترليج وغيرهم من اعداء الدولة الموسقوبية

ومما ينبغى التنبيه عليه ويفيدنا خطأ من زعم ان ابطال مجلس مدينة نفته الذى كان نصف ارباب بروتستانية والنصف الآخر قاثوليقية يتحزن فيه مصالح البروتستانية لم تخسر فيه مملكة فرنسا من رجالها الا القليل ولم تعد عاقبة ابطاله بالضرر عليها هو ان ثلث هذا الجيش الموسقوبى الذى كانوا يسمونه الايا كان مجتمعا من الفرنساوية الهاربين وقد بذل الجنرال لوفورت جل همته ووسعه فى تعويد هذا الالاى الجديد على التعليمات العسكرية وصرف همته فى ذلك حتى كانه لم يكن اشتغل قبل ذلك طول عمره بغير فن العسكرية

ثم ان بطرس اراد ان ينظر الحرب والقتال وان يرى عرضيا كالعراضى التى تجددت فى الدولة زمن الصلح فامر ببناء حصن واناط فرقة من الجيوش الجديدة بمحافظته وامر فرقة اخرى بالمهاجمة عليه فكان الفرق بين هذا العرضى وغيره من العراضى الاخر هو انه عوضا عن ان يكون صورة حرب ظاهرى لقصد الفرجة والتعليم صار حربا حقيقيا حيث هلك فيه بعض عساكر وجرح كثيرون حتى جرح لوفورت جرحا بليغا وكان هو رئيس الفرقة المهاجمة ومثل هذه الالعاب التى ادت الى سفك الدماء لابد وان يؤول امرها الى تمرين العساكر وتعويدهم على الفنون الحربية غير انه كان يلزم لذلك اشغال طويلة واخطار متكررة هذا وقد ضم بطرس هذه الالعاب الحربية الى ما كان مهتما به من تجديد البحارة والسفن الحربية فجعل لوفورت قبطان باشا على البحارة من غير ان تسبق له رياسة اى سفينة كانت كما جعله سرعسكر العساكر البرية من غير ان يكون سبق له خدمة ضابط غير ان بطرس كان يرى فيه صلاحية لهذين الامرين مع انه كان قبطان باشا من غير

عمارة

عمارة سفن تستحق هذه الرتبة وسرعسكر من غير عساكر الالايه (فلم يكن له في هاتين الوظيفتين الا مجرد الاسم)

وكانوا قد اخذوا في اصلاح ما كان في العسكرية من الخلل على التدريج وهو استقلال اكابر الموسقو حيث كانوا يجلبون للجيوش عساكر غير منتظمة من فلاحيهم وهذا اشبه شيء بحكومة الفرنك والهونيين والغوطيين والونداليين وهم امم انتصروا على دولة الرومان عند ضعفها ولو كانت حروبهم هذه مع الالايات الرومانية القديمة المتعلمة للحروب اومع جيوش عصرنا هذا لاهلكوا عن آخرهم

وبعد ذلك بمدة صار للقب قبطان باشا ثمرة حيث امر الفلمنكيين والبنادقة بعد مراكب طويلة بل امرهم بعد سفينتين تسع الواحدة منهما نحو ثلاثين مدفعا وكان مدهما في مصب ورونيرا وهو نهر يصب في نهر تن صو بي ولم يكن هنالك ما يمنع من انحدار هاتين السفينتين في النهر المذكور ليمنعا تتار القرم من التعدى على الموسقو لان العداوة بينهم وبين هؤلاء الامم كانت لم تزل تتجدد بتجدد الايام وكان لبطرس في سنة ١٦٨٩ ميلادية حاجة الى الحرب مع الدولة العلية والاسوجيين واهل الصين وكان مترددا في تقديم الحرب مع اى ملة منهم على الاخرى ولنبين لك هنا ما كان عليه مع اهل الصين ومشارطة الصلح الاولى التي انعقدت بينهم وبينه فنقول

الفصل السابع

في الجمعية المعينة في حصن نيبكو لعقد مجلس مرخص اربابه من الموسقوبية والصينيين وفي بيان ما وقع بين السلطنتين من المشارطات

ينبغي اولا ان يقف الانسان على حدود كل من سلطنتي الصين والموسقو فنقول اذا خرج الانسان من بلاد سبير الاصلية وتباعد الى الشمال عن جهة الجنوب التي بها طوائف التتار والقلموق البيض والقلموق السود واسلام المغول وكفارهم قرب من درجة مائة وثلاثين من الطول ودرجة اثنين وخمسين من العرض وذلك على نهر امور ورأى في شمال هذا النهر سلسلة جبال

عظيمة نهاية امتدادها الى البحر المنجمد الشمالى وخلف الدائرة القطبية وطول مجرى النهر المذكور خمسماية فرسخ ببلاد سبير والتتار الصينية ويصب بعد تعريجات كثيرة وانعطاف وازورار فى بحر قمجتقا ويقال ان بمصب هذا النهر فى البحر المنجمد الشمالى يصاد فى بعض الاوقات اسماك عجيبة تفوق الواحدة منها فرس نيل مصر وسنها اشد متانة وعظما من سن العاج ويقال ان اهل تلك البلاد كان فى قديم الزمان لهم فيه تجارة عظيمة وكانوا ينقلونه الى البلاد الاجنبية من طريق بلاد سبير فلذا وجد منه بعض قطع مدفونة فى فلوات تلك البلاد وهو عين العاج المعدنى الذى اسلفنا الكلام عليه ولكن زعم بعضهم انه كان ببلاد سبير فى قديم الزمان فيلة وان التتار الذين انتصروا على اهل الهند جلبوا معهم الى بلاد سبير جملة من هذه الحيوانات التى عظامها باقية مدفونة فى ارض تلك البلاد ويقال لنهر آمورا المذكور عند التتار المنجو النهر الاسود وعند الصينيين نهر دراغون اى نهر التنين

وكان الصينيون والموسقوبيون يتنازعون ببلاد سبير التى مكثت مجهولة الحال زمنا طويلا حدود ممالكهم فاما الموسقوبيون فكان لهم بعض حصون على نهر آمور على البعد من السور الاعظم ببلاد الصين بثلاثمائة فرسخ فتولد من هذه الحصون عداوة عظيمة بين الصينيين والموسقوبيين وآخر الامر نظر كل من المملكتين الى نفعه ومصلحة بلاده فآثر كاميه ففغفور الصين الصلح على الحروب التى لا طائل تحتها وذلك انه ارسل سبعة من السفراء الى مدينة نيبكو وهى احدى الحصون المتقدم ذكرها واخذ هؤلاء السفراء معهم نحو عشرة آلاف رجل من جملتهم حراسهم وخفراؤهم وهذا على عادة بلاد المشرق من المباهاة والافتخار اذ من المعلوم انه لم يسبق لدولة الصين مثل هذه السفارة حسبما تدل عليه تواريخها واغرب من ذلك كون الصينيين لم يسبق لهم عقد مشارطة صلح اصلا منذ تأسيس سلطنتهم لانهم لما اغار عليهم التتار وادخلوهم تحت طاعتهم مرتين كفوا عن الحرب مع من عداهم من الامم الا بعض طوائف رحالة نزالة فانهم حاربوها فكانوا تارة يظفرون بها فى مدة يسيرة وتارة يتركونها

من

من غيران يعقدوا مشارطة بينهم وبينها ويوخذ من ذلك ان هذه الامة الشهيرة بعلم السلوك والاخلاق لم تكن تعرف ما يسمى رسوم الملل والدول اى الاصول الغير المستقرة على حال واحدة المرتبة ما يجب للملل بعضها على بعض اعنى قوانين الحرب والصلح التى ترتب بحسب مقتضيات الاحوال وحقوق سفراء الملوك وصيغ الشروطنامة وما يترتب عليها من الواجبات والالزامات والمنازعات فى شأن من يستحق الصدارة والتقدم فى الشرف

فان قيل كيف انعقدت المشارطة بين اهل الصين والموسقوبيين فى وسط الصحارى والفلوات مع ان كلا لا يعرف لسان الآخر قلنا انه كان هناك رجلان من طائفة القسوس اليسوعية احدهما برتغالى يسمى بريرا والاخر فرنساوى يسمى جربلون سافرا من مدينة بكين من السفارة الصينية فترجما بين الفريقين فكانا يعبران عن الشروط باللسان اللاطينى مع رجل نمساوى من الارسالية الموسقوبية كان يعرف ايضا اللسان الموسقوبى وكان غالوان حاكم سبير هو رئيس تلك الارسالية فظهر بمظهر عظيم من الابهة فضل به على الصينيين حيث ابدى فى علو شأن بلاده ودولته ما ازال به وهم الصينيين الذين كانوا يعتقدون انهم اعظم اهل الارض بأسا وشوكة

ثم ان الترجمانين اليسوعيين المذكورين بينا حدود كل من المملكتين فنصبت علاماتها على نهر كربيش قريبا من المحل الذى عقدت فيه هذه الجمعية فكان الجنوب للصينيين والشمال للموسقوبيين ولم يخسر الموسقوبيون فى ذلك الا حصنا صغيرا خلف هذه الحدود وتحالفوا على دوام الصلح بينهما حيث اقسم كل منهما بعد الجدال والمنازعة على ايقاع الصلح وكانت صيغة اليمين الصادرة من الفريقين نقسم بالله انا لا ننقض هذا الصلح وكل من اضمر الغدر وقصد اضرام نار الحرب فنسأل الله رب العالمين العليم بما فى الصدور ان يجازى هذا الخائن بموت الفجاءة

وهذه الصيغة التى اشترك فيها الصينيون والنصارى تدل على امرين مهمين الاول ان الصينيين ليسوا مشركين ولا وثنيين كما اتهمهم بذلك كثير من المؤلفين

فى عبارات متناقضة والثانى ان مثل هذه الامة التى تمارس العلوم والمعارف تعبدا لها واحدا وان اختلفوا فى تأدية العبادة بما يرد على عقولهم من الزيغ والضلال وكان تحرير هذه الشروط باللغة اللاطينية فى نسختين واول من وضع امضاءه الالچية الموسقوبية على النسخة التى اخذوها وكذلك الصينيون فى نسختهم كما هى العادة الجارية عند اهل اوروبا بين الملوك واجروا فى ذلك ايضا عادة اخرى عليها عمل الامم المشرقية من الصدر الاول وهى ان تنقش الشروط على قطعتين كبيرتين من الرخام و يجعلا حدا بين المملكتين و بعد ذلك بثلاث سنين ارسل الچار بطرس رجلا دانيمارقيا يقال له لبريد فى سفارة الى بلاد الصين ومن وقتئذ صارت المعاملة والتجارة بينهما مع النجاح واستمر ذلك حتى نقضت تلك المشارطة سنة ١٧٢٢ ميلادية و بعد هذا الفسخ رجعت صورة التجارة الى ما كانت عليه واجريت المشارطة بغاية الدقة والمحافظة

الفصل الثامن

فى الكلام على الغزوة التى ارسلت جهة بحر ازاق والاستيلاء على بحر ازاق وعلى ارسال بطرس علماء بالدول الاجنبية لاجل التعليم واكتساب المعارف

كان يعسر عقد المصالحة مع آل عثمان فى ذلك العصر لانه كان يظهر اذ ذاك ان الدهر كان يعاندهم ولا يريد مسالمتهم بابقاء انتظام دولتهم وذلك ان بلاد البنادقة التى سلك معها العثمانيون مسلك الظلم اخذت تحاربهم حتى ان نفس الامير مروزونى حاكم ونديق الذى كان اعاد لهم جزيرة كريد اخذ منهم جزيرة موره فمن ثم لقب بالموره لى والتقليد بهذا الفخر يذكرنا زمن الجمهورية الرومانية وكان ليوبولد ايمبراطور المانيا قد ظفر بآل عثمان فى بلاد المجار وكان اهل مملكة له يدفعون اغارة تتار القرم الذين كانوا تابعين للدولة العلية فاغتنم بطرس فرصة هذه الاحوال واخذ يمرن جيوشه على الحرب والقتال ليأخذ فى اسباب الاستيلاء على البحر الاسود اذا تيسر له ذلك

فارسل

فارسل الجنرال غردون فسار في امتداد نهر تن جهة مدينة ازاق ليستولي عليها وامره على الاي كبير يبلغ خمسة آلاف رجل فسار هذا الجنرال الى تلك الجهة محاذيا نهر تن وبعث ايضا الجنرال لفورت مع الايه الذي هو اثنا عشر الفا وارسل كذلك فرقة من الاستراليج قائدها شرمتوف وجان وهما بروسيا الاصل وكان معهما ايضا فرقة من القوزاق وجماعة من الطوبجية فكل هؤلاء تجهزوا لهذه الغزوة وكان ذلك (سنة ١٦٩٤) ميلادية

وكان قائد هذا الجيش العظيم السرعسكر شرمتوف فسار في اوائل فصل الصيف (سنة ١٦٩٥) من الميلاد جهة مدينة ازاق عند مصب نهر تن وعند نهاية بحر ازاق وكان بطرس بنفسه في هذا الجيش بصفة متطوع وكان غرضه منذ مدة ان يحوز فضيلة تعلم العسكرية قبل الامارة وفي اثناء سيرهم تغلبوا عنوة على برجين بناهما الاتراك على شاطئ نهر تن

وكان الامر المشروع فيه وهو اخذ قلعة ازاق لا يدرك الا بصعوبة ومشقة لما ان هذه القلعة كانت جيدة التحصين وكان عليها جم غفير من المحافظين ولم تحصل المبادرة بتجهيز السفن المسقوبية المستطيلة التي صنعها البنادقة على شكل السفن التركية المسماة بالقايق وكذلك السفينتان الحربيتان الصغيرتان الفلمنكيتان المحضرتان من نهر ويرونيجه وحيث لم تتجهز هذه السفن لم يمكن دخولها ببحر ازاق ومن المعلوم ان جميع الاشياء في مبدئها صعبة التجهيز لقيام الموانع التي تعطل اجراآها وكان الموسقوبيون الى ذلك الوقت لم تقع منهم محاصرة منتظمة فمن ثم خاب سعيهم في هذه الغزوة

وكان مدير الطوبجية يقال له يعقوب وهو بروسي الاصل من اقليم دنزيق وكان تحت حكم الجنرال جان البروسي لان اغلب كبار الطوبجية والمهندسين ورؤساء السفن كانوا من الغرباء ثم ان هذا الجنرال حكم على يعقوب المذكور بعقاب الباتوك وقد سبق ذكره ومثل هذا التشديد يدل على ان الحكم يومئذ زادت قوته واشتدت صولته حتى انقاد اليه الموسقوبيون واذعنوا اليه

مع ان دأبهم العصيان والمخالفة فكانوا بعد العقاب الشديد يوفون بخدمهم ويطيعون الطاعة الكلية وصار ذلك عادة لهم ولم يسلك يعقوب المذكور هذا المسلك فانه خطر بباله خلاف ذلك حيث عزم على الانتقام فسمر المدافع ونهض الى مدينة ازاق ودخل في دين الاسلام ودافع عن هذه القلعة فنجح في ذلك ولم يقدر الموسقو على اخذها وهذا مما يدل على ان الشفقة بالعباد والرفق بهم كما هو الجاري الآن ببلاد الموسقو اولى مما كان عليه قدماؤهم من القساوة والجبر وادعى الى طاعة الخلق الذين لحسن تربيتهم تعودوا على المعاملة الجليلة والصفات الجميلة وصاروا اصحاب عرض وشرف نفس ولكن كان التشديد اذذاك مما لابد منه بالنسبة الى رعاع الناس فلما تغيرت الاخلاق والعوايد سلكت الايمبراطورة ايليزابيطه في انهاء ما كان شرع فيه والدها مسلك الحلم والعدل الذي لم يتفق لامة من الامم وذلك لانها اخذت على نفسها عهدا وميثاقا انه لا يعاقب احد بالموت في مدة حكمها ووفت بذلك فهي اول ملكة احترمت النفوس البشرية وحقنت دماءها فكان كل من اقترف ذنبا عظيما او فعل فعلة غير مرضية يحكم عليه بالشغل في المعادن وغيرها من الاشغال المبرية فكان في عقوبتهم بهذه المثابة نفع للدولة ولا يخفى ان هذا القانون ملحوظ فيه الشفقة والرأفة كما هو ملحوظ فيه العدل والحكمة فانه فيما عدا هذه الدولة لا يعاقب الجاني الا بالقتل على رؤس الاشهاد ومع ذلك فلم يكن في تلك العقوبة زجر للغير عن الوقوع في المآثم ولعل وجه ذلك ان هول القتل لا يبلغ في التأثير عند شرار الناس المتكاسلين درجة العقاب بالاشغال الشاقة التي تتوارد عليهم كل يوم بخلاف الموت ففيه الراحة

ولنرجع الى الكلام على محاصرة قلعة ازاق التي كان المعول فيها على الامير شرمتوف رئيس الجيوش في هذه الواقعة فنقول انهم هجموا على تلك الجهة ولم يجد ذلك شيأ بل بعد أن فقدوا كثيرا من العساكر امسكوا عن الحصار وقد تعود بطرس على اقتحام الاخطار بسبب تجلده وثباته في كل ما يتصدى اليه من المشروعات وذلك انه قاد جيشا اعظم من السابق وسار به جهة

بحر

بحر ازاق في فصل الربيع من (سنة ١٦٧٦) ميلادية وفي ذلك الوقت مات اخوه الجار ايوان ولما لم يكن له من المنصب الا مجرد اللقب كانت حياته لا تضيق على بطرس في اطلاق التصرف في شيء وانما كانت الرسوم تقضي ببعض مضايقة وبعد موته انضمت مصاريف منزله الى ما يصرف في مرتبات العساكر فكان ذلك اعانة لهذه الدولة التي لم يكن لها وقتئذ ايراد جسيم كما لها الآن فكتب بطرس للايمبراطور ليوبولد وللاقاليم المجتمعة الفلمنكية وبمنتخب برندبورغ ليطلب منهم مهندسين وطوبجية وبحارة واستخدم جماعة من فرسان القلموق الذين كان لهم نفع عظيم في حربه مع تتار القرم الذين كانوا ايضا فرسانا

واعظم نجاح حصل للجار بطرس هو نجاح دونمته الصغيرة حيث كملت على ما ينبغي وصارت على غاية من الضبط والربط والحكم فكان لها النصرة على السفن التركية الواردة من اسلامبول حيث اخذت جملة منها ووقعت المحاصرة على وجه منتظم بواسطة الخنادق والاستحكامات وان لم تكن صناعتها موافقة بالكلية للصناعة الفرنساوية حيث كانت اعمق منها بثلاث مرات واعلى منها اسوارا وطوابي وبالجملة ففي (سنة ١٦٩٦) سلم المحصورون في ٢٨ شهر تموز على مقتضى التقويم الجديد ولم يخرجوا بشرف الحرب بل تركوا اسلحتهم وذخائرهم لاعدائهم وجبروا ايضا على تسليم يعقوب الذي كان التجأ عندهم للموسقو

ثم ان بطرس اراد ان يحصن بحر ازاق حيث احدث فيه قلاعا ومينا عظيمة تسع السفن الكبيرة قاصدا بذلك الاستيلاء على بوغاز كفه الذي هو باب البحر الاسود والذي هو محل شهير بتجهيز متزيدات ملك هذه الناحية السفن فيه سابقا وقد جعل بطرس امام بحر ازاق اثنتين وثلاثين سفينة وكان غرضه بذلك تجديد دونمة لحرب الدولة العثمانية تكون مركبة من تسع سفن تحمل الواحدة منها ستين مدفعا ومن احدى وار بعين سفينة منها ما يحمل ثلاثين مدفعا ومنها ما يحمل اكثر من ذلك الى خمسين وطلب من كبار الملتزمين واغنياء

التجار بدولته ان يساعدوه فى ذلك ولما رأى ان اموال القسيسين والبطارقة والرهبان ينبغى ان يكون لها مدخل فى المصلحة العامة وان يستعان بها فى مثل هذا جبرهم على ان يساعدوا باموالهم فى هذا المشروع الجديد الذى تصدى له لاجل فخار وطنه ومصلحة دين النصرانية وقدامر القوزاق ان يبنوا سفنا كالسفن المستعملة عندهم يمكنها السير بالسهولة قريبا من سواحل القرم فداخل الدولة العثمانية من هذا الاستعداد رعب عظيم حيث انه اول استعداد لم يسبق بمثله فى بحر ازاق وكان الغرض من ذلك كله طرد التتار وآل عثمان من بلاد القرم طردا مؤبدا وتسهيل التجارة مع العجم من طريق كرجستان وهذه التجارة هى عين التجارة التى كانت تتجرها اليونان فى قديم الزمان مع اهل بلاد طرابزان و بلاد القرم التى يترآى من حال بطرس انه يريد تسخيرها وادخالها تحت طاعته

فلما انتصر على الاتراك والتتار اراد ان يعوّد رعيته على ان يسلكوا مسالك الظهور والفخار كما كان يحب تمرينهم على الكد والاشغال فدخل مدينة موسكو بجيشه المنصور مع الابهة والاحتفال ومر به تحت اقواس النصر وهم يطلقون البارود من سائر الجهات ويصنعون جميع مافيه تزيين هذا الموكب ورونقته وكان فى صدر هذا الموكب العساكر الذين قاتلوا آل عثمان فى السفن البندقية وكانت فرقة مستقلة وكان المرشال شرمتوف وغردون وجان ونومورت قبطان باشا وغيرهم من الجنرالات سائرين فى هذا المحفل امام الجار بطرس الذى كان يقول انى الى الآن لم اتاهل لان يكون لى مرتبة فى الجيش وكان قصده بذلك ان يفهم اشراف دولته انه ينبغى للانسان ان يجتهد حتى يصير اهلا لكسب الرتب العسكرية فيتمتع بها

وكان هذا الاحتفال يشبه من بعض الوجوه احتفالات قدماء الرومانيين لاسيما فى كون المنتصرين يأتون الى مدينة رومة بالمغلوبين و يحضرونهم امام الرعايا وربما قتلوهم بمرأى منهم فان الموسقوبيين جاؤا ايضا بمن اسروه فى هذه الغزوة وكانوا يجعلونهم فى السير على اثر الجيش واما يعقوب الذى

خان الموسقو فجعلوه في عجلة ونصبوه فيها مشنقة وعلقوه فيها بعد أن قاسى العذاب الشديد من عقاب العجلة وهو ان يطرح الانسان على الارض ويداس عليه بعجل العربات

وفي ذلك الوقت صنع اول نشان الافتخار ببلاد الموسقو وكتب على احدى دائرتيه ما صورته بطرس الاول ايمبراطور الموسقو عظيم دائما وعلى الاخرى ازاق مع هذه الكلمات منصور بالنيران والمياه اه اي والضمير راجع لبطرس في الجهة الاولى

وقد تأثر بطرس من هذا النجاح وحصل له غم شديد حيث رأى ان سفنه الشادرغة التي ببحر ازاق لم تكن من صنيع قومه بل انما هي من صنيع الاجانب وكان له رغبة شديدة في انشاء مينا على بحر بلطق والبحر الاسود فبعث في شهر مارث سنة (١٦٩٧) ميلادية ستين شخصا من شبان الموسقو انتخبهم من الالاي لوفورت الى مملكة ايطاليا فذهب اكثرهم الى مدينة البنادقة وبعضهم الى مدينة ليغورنا لتعلم الفنون البحرية وانشاء السفن الشادرغة وارسل اربعين شابا آخرين الى بلاد الفلمنك ليتعلم بعضهم فبريقاتها والبعض الاخر التعليمات العسكرية في السفن الكبيرة الحربية وارسل ايضا طائفة الى بلاد النمسا ليتعلموا حركات الجيوش البرية ويتمرنوا على التعليمات العسكرية النمساوية وقصارى الامر انه عزم ان يتغرب عن دولته مدة سنوات قاصدا بذلك ان يتعلم من الممالك الاجنبية حسن الادارة والتدبير وكان له ولع شديد بمشاهدة التعليمات البحرية والفنون التي كان يريد احداث مثلها في وطنه ومباشرتها بنفسه فعزم على السفر متخفيا الى مملكة الدانيمارقة واقليم برندبورغ وبلاد الفلمنك ومدينة ويانة ومدينة البنادقة ومدينة رومة ولم يعزم على الذهاب الى مملكة فرانسا ولا الى اسبانيا لان ما كان يطلبه اذ ذاك من الفنون كان مهملا باسبانيا ومتروكا بالكلية واما فرانسا فلان الفنون التي كانت بها اذ ذاك كانت موسسة على الاتساع والزينة ولما ان ملكها لويز الرابع عشر كان فيه من الانفة والكبر ما اثر

فى كثير من الملوك فكانت حالته منابذة لحالة بطرس ومباينة لها بالكلية حيث انه كان مرامه ان يسلك فى سفره مسلك السهولة والبساطة والبحث عن الزينة والرفاهية فرأى انه لا يليق ان يرتحل الى هذه المملكة وزيادة على ذلك كان له تعلق شديد وارتباط اكيد باغلب الممالك التى كان عازما على التوجه اليها ماعدا مملكة فرانسا ومدينة رومة وكان لم ينس ما صنعه معه لويز المذكور من عدم قيامه بحقوق السفارة التى ارسلها اليها سنة (١٦٨٧) ميلادية حتى خابت آمالها ولم تنجح فى مآربها مع اشتهار تلك السفارة وكان فى نفسه من ذلك شئ وبالجملة فكان قد انضم الى حزب اغسطوس منتخب سكس الذى كان يريد برنس دى كنتى ان يأخذ منه تاج مملكة له وكان برنس دى كنتى من العائلة الملوكية الفرنساوية

(الفصل التاسع)

(فى سياحة بطرس الاكبر)

لما عزم بطرس على السياحة بقصد أن يرى عدة ممالك متخفيا كآحاد المسافرين جعل نفسه من اتباع ثلاثة من الالجية كما فعل نظير ذلك عند دخوله منصورا بمدينة موسكو حيث تأخر خلف امرآء عساكره وهؤلاء الالجية الثلاثة هم الجنرال لوفورت والبيكزادة الكسيس غلووين وكيل عموم الجيوش وحكمدار بلاد سبير وهو الذى عقد مشارطة الصلح المستمرة مع المرخصين من طرف ملك الصين وعين حدود تلك الدولة والثالث هو دوونتسين ديالك كاتب السر الذى مكث مدة طويلة مستخدما فى دواوين الدول الاجنبية وكان معهم فى هذه الغزوة اربعة كتاب سر روسا واثنا عشر كشى زادة واثنان من اغاوات الاندرون لكل الجى وكان معهم ايضا بلوك قدره خمسون نفرا مع ضباطهم لاجل الخفر وكانوا كلهم من الاى پريوبازنسكى فكان مجموع الحواشى يبلغ مائتى نفر ولم يكن مع الجار من الخدم الافراش واحد وقواس ورجل قصير القامة جدا لاجل السخرية واختلط بطرس مع هؤلاء الجماعة بحيث لم يظهر من بينهم ومثل هذا الامر

لم يسبق

لم يسبق نظيره فى تاريخ الدنيا فانه فى غاية الغرابة كون ملك بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة يخرج عن ممالكه لاجل حسن الادارة والتمكن من الاستيلاء فيما بعد وما وقع له من نصرته على الترك والتتار ودخوله منصورا فى مدينة موسكو مع الابهة والاحتفال وكثرة جيوشه الاجنبية التى فى خدمته وكذلك موت اخيه ايوان وسجن الاميرة صوفية فى الدير وتعظيم جميع الناس له بالخصوص كل ذلك يوجب ان تكون ممالكه مدة غيبته فى هدء والطمئنان لا يلحقها تعكير ولا اختلال وقد اناب عنه اثنين من كبار الدولة وهما استركنيف وكنيس رومادونوسكى وامرهما ان يتذاكرا مع غيرهما من امراء الدولة فى المصالح المهمة

ثم ان الجيوش التى جددها الجنرال غردون مكثت بمدينة موسكو ابقاء للامن والطمانينة بهذا التخت واما عساكر الاستراليج التى كان يخشى منها التكدير فقد توزعت على حدود بلاد القرم لاجل محافظة مدينة ازاق التى تغلب عليها الجار ومنع اغارات التتار ولم يبقهم فى المملكة لانه كان يخشى منهم ايقاع الفتن والشقاق بها وبعدان دبر ذلك شرع فى انجاز ما ربه من السياحة والتعليم

وقد كانت هذه السياحة فرصة اوتمهيدا للعرب الذى سفكت فيه دماء كثيرة وعطل مآرب بطرس الاكبر العظيمة مدة طويلة ثم حصلت به الاعانة على تتميمها ونشأ عنه عزل اغسطوس ملك له وتولية استانسلاس وعزله ثانيا وصار به كرلوس الثانى عشر ملك اسوج اعظم فاتح ببلاد الشمال مدة تسع سنين ثم عاد الى كونه اسوأ جميع الملوك حظا مدة تسع سنين اخرى فوجب ان نذكر هنا حالة بلاد اوروبا وقتئذ لنكون على بصيرة فى تفاصيل هذه الحوادث فنقول كان المتولى على سلطنة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت هو السلطان مصطفى الثانى وكان ضعيف الادارة والسياسة فلم يكن له بطش ولا صولة على ليوبولد ايمبراطور النمسا فانه انتصر عليه ببلاد المجر ولا على بطرس فانه اخذ منه مدينة ازاق وكان يخشى منه

الاستيلاء على البحر الاسود ولا على بلاد البنادقة فانهم استولوا على بلاد المورة بتمامها من يد الدولة العثمانية

ثم ان حنا سوبيسكى ملك له الذى لا تنسى شهرته بنصرة كوكزيم وبانقاذه مدينة بج اختومته المنية فى ١٧ من شهر حيزران سنة (١٦٩٦) ميلادية فتنازع مملكته كل من اغسطوس منتخب سكس وارمند امير كنتى من العائلة الملوكية الفرنساوية وحظى بها الاول واما الثانى فلم ينل الاشرف كونه صار انتخابه للمملكة ولم يتول عليها

وفى شهر ابريل سنة (١٦٩٧) ميلادية مات كرلوس الحادى عشر ملك بلاد اسوج فلم يحزن عليه اهلها كثيرا لانه كان اول ملك اظهر اطلاق التصرف حقيقة فيها وخلفه عليها ملك من صلبه زاد عليه فى اطلاق التصرف وهو ابنه كرلوس الثانى عشر وكان عمره وقتئذ خمس عشرة سنة وكان فى موت ذلك الملك وتولية ابنه بحسب الظاهر اعانة عظيمة للجار على تحصيل ما عزم عليه فانه كان يظن انه يمكنه اذذاك ان يوسع مملكته من جهة خليج فنلنده ومن جهة ليوونيا ولم يكفه انه كان متتبعا آل عثمان ومريدا اخذ قلاع البحر الاسود ولم يكتف بما كان له من العمارات على بحر ازاق وجهة بحر الخزر فى تمييز اغراضه البحرية والتجارية والملكية بل كانت سائر الاشياء الفاخرة التى يرغب فيها لاجل اصلاح الدول وتمدينها لا توجد لها بما اخذه او جاوره من بلاد الفرس او بلاد الترك وانما كانت توجد ببلاد اوروبا الافرنجية حيث تخلد فيها اعظم انواع المعارف المختلفة واينعت فيها ثمار الفنون وبالجملة فكان بطرس لا يريد ان يدخل فى ممالكه اخلاق الترك ولا اخلاق العجم وانما كانت رغبته مقصورة على ان يدخل فيها عوائد الممالك الافرنجية المتمدنة

وكانت اذذاك دولة النمسا فى حرب مع كل من الدولة العثمانية والدولة الفرنساوية ومعاهدة لدولة الاسبانيول والانكليز والفلمنك وكل هذه الدول متعصبة على لويز الرابع عشر وكانت وقتئذ قد اشرفت على عقد الصلح

مع النمسا واجتمع لهذا الغرض وكلاء الدول المرخصون فى سراية ريسويك بمدينة هايه

فانتهز بطرس ومن معه هذه الفرصة وسار فى شهر ابريل سنة ١٦٩٧ ميلادية من طريق مدينة نوغرود الكبيرة ثم سلك طريق استونيا وليوونيا وكان قد تنازع هذين الاقليمين سابقا الروس والاسوج واللاهية وآل امرهما أن تغلب عليهما الاسوج بالحرب والقتال

فلما رأى بطرس خصوبة اقليم ليوونيا وحسن موقع مدينة ريغا التى هى قاعدة هذا الاقليم تحركت عنده دواعى الطمع والرغبة فى تلك الارض واقل ما هنالك انه رغب فى مشاهدة ما فى قلاعها من الاستحكامات والتحصينات فحاوله قونتة دى ألبرغ حاكم هذه المدينة ولم يمكنه من مرامه بل ظهر منه عدم الاعتناء بهذه السفارة ومع ذلك فلم يزل بطرس على ما كان عليه من الطمع فى هذا الاقليم ولم تفتر بذلك همته فى هذا المطمع بل مازال مؤملا انه يكون ذات يوم صاحب هذين الاقليمين

ثم سار بجماعته من اقليم ليوونيا الى البروسة البرندبرجوازية وهى التى كان قدماء الوندال يشغلون جزأ منها فى قديم الزمان واما البروسة اللاهية فكانت من سرماسية اوروبا وكانت بلاد البروسة البرندبرجوازية فقيرة قليلة العمران الا أن منتخب حكومتها الذى كان اولا يلقب بالمنتخب كاسلافه ثم لقب نفسه من هذا الوقت بالملك جدد فى ديوانه رونقا ورفاهية واسرف فى زينته اسرافا يؤدى الى الاضرار بمملكته ولكنه تلقى بطرس واصحابه بما يليق بالملوك من الابهة والافتخار والزينة فى مدينة كنيغبرغ وهادى كل منهما صاحبه بهدايا نفيسة وكان اهل ديوان مدينة برلين دار مملكة البروسة لابسين ملابس فرنساوية مزينة وكانت ملابس الموسقو ثيابا طويلة على شكل ملابس اهل المشرق وقلنسوات مرصعة باللآلى والجواهر وسيوفهم مرسلة على احزمتهم فنشأ عن تفنن هذه الملابس المتنوعة منظر عجيب ورونق غريب وكان بطرس وقتئذ على زى النمساوية ومعه امير

كوربجى لابس ملابس العجم فازداد بذلك رونق هذا المنظر وبهجته وهذا الامير هو الذى وقع اسيرا بواقعة نروا عند اهل اسوج ومات ببلادهم وكان بطرس يزدرى مثل هذه الابهة ولا يعتنى بشأنها فيا ليته كره ما كان عليه اذ ذاك اهل النمسا من التفاخر والتأنق فى الموائد والاطعمة فقد اتفق ذات يوم انه كان يأكل على مائدة من الموائد التى جرت بها العادة وقتئذ وكانت مضرة بالصحة والاخلاق فسل خنجره على خصيصه لوفورت ولكن تأسف بعد ذلك غاية التأسف من هذا الغضب الوقتى كما وقع مثل ذلك لاسكندر الرومى فى قتل كاوتوس واستسمح بطرس لوفورت وقال له انى ارغب فى اصلاح رعيتى مع انى لم استطع اصلاح نفسى الى الآن ومع ذلك فقد اطنب هذا الجنرال اعنى لوفورت فى مدح بطرس فى كتابه المسطر بخط اليد حيث اثنى على اخلاقه وطبيعته اكثر من لومه على عيب حدته وغضبه

ثم قصد اهل السفارة طريق اقليم بوميرانيا وبرلين ثم افترقوا فذهب بعضهم من طريق مغدبورغ وبعضهم من طريق همبرغ وهى مدينة كانت يومئذ قوية بسبب تجارتها العظيمة الا انها لم تكن اذ ذاك ذات ثروة وسعة ولا تأنس وتمدن كما حدث فيها ذلك كله فيما بعد ثم انعطف الجماعة الى مدينة مندان واجتازوا اقليم وستفاليا حتى وصلوا الى مدينة امستردام من طريق مدينة كليوه

وكان بطرس قد سبقهم الى هذه المدينة قبل وصولهم اليها بخمسة عشر يوما فنزل اولا بدار كمبانية الهند ومكث بها يسيرا ثم انتقل الى منزل صغير انتخبه لنفسه فى الترسانة البحرية وتزيا بزى رئيس مركب وذهب بجماعته الى قرية سردام حيث كانوا ينشؤن بها سفنا اكثر من وقتنا هذا وكانت هذه القرية كبيرة عامرة ذات ثروة ونظافة ككثير من المدن ذات الثروة فتعجب من كثرة ارباب الاشغال بها ومن مواظبتهم على اشغالهم وسرعتهم فى انشاء السفن وتطقيمها بجميع موادها ولوازمها فى اقرب وقت وتعجب ايضا من المخازن العديدة

التى

التى يستبعدها العقل ومن الآلات التى بواسطتها يسهل العمل وتكون بها الصناعة فى غاية من الاحكام والاتقان فبادر بشراء مركب وكان صار بها مكسورا فاصلحه بنفسه ثم اخذ فى تعلم صناعة اجزاء السفن وصار يشتغل بذلك وسلك فى معيشته مسلك الشغالين بهذه القرية فكان مثلهم فى المأكل والملبس واشتغل معهم فى ورش الحديد والحبال والطواحين الكثيرة التى كانت محيطة بالقرية المذكورة وكانت هذه الطواحين معدة لنشر اخشاب الراتنج والصنوبر ولعصر الزيت وصناعة الورق وعمل السلوك من المعادن المتطرقة بل تقيد فى دفتر الترسانة فى جملة الشغالة مسميا نفسه بطرس ميخاييل وكان معروفا عندهم بالاوسطه بطرس ولم يكن للشغالة به فى مبدأ الامر مخالطة بل كانوا يهابونه لكونهم رأوا ملكا من الملوك قد صاحبهم فى اشغالهم ثم آل الامر الى أن تعودوا عليه وتأنسوا به وصار كواحد منهم

وبينما هو مشتغل فى قرية سردام بصناعة السفن علما وعملا اذ بلغه خبر صحيح بأن مجلس حكومة له قد انعقد ووقعت المذاكرة على انتخاب ملك فافترق اهل المجلس فرقتين احداهما اختارت اغسطوس منتخب سكس والاخرى اختارت الامير دوكونتى الفرنساوى فبمجرد ما بلغه هذا الخبر وعد اغسطوس أن يمده بثلاثين الفا من العساكر وكتب وهو فى الورشة امرا الى جيوشه بالتوجه لاعانة اغسطوس وكانت يومئذ مجتمعة فى اكرينة لقصد قتال العثمانية

وكانت تلك الجيوش فى شهر يوليه سنة ١٦٩٦ ميلادية قد حازت النصرة على التتار بقرب بحر ازاق وكان قائدها فى ذلك الجنرال شين والامير دلغوروكى بل وانتصروا ايضا على فرقة من الانكشارية كان قد ارسلها السلطان مصطفى هذا ولم يزل بطرس مستمرا على تعلم فنون عديدة بقرية سردام وذهب منها الى مدينة امستردام لتعلم فن التشريح على رويش وكان من مشاهير علماء هذا الفن فعمل عمليات جراحية صار له بها استعداد بحيث ينفع نفسه اوضباطه

عند الحاجة وكان يتعلم علم الطبيعة والمواليد فى منزل برغمستروستان وهو
رجل من الاهالى حاز الشهرة بسبب حبه لوطنه وبذله للاموال الجسيمة
فى تحصيل ما يكون به النفع العام وبارساله فى جميع الاقطار رجالا من ارباب
المهارة والنجابة ينفق عليهم الاموال الجمة للبحث عما يوجد فيها من الغرائب
وبارساله سفنا يدفع اجرتها من ماله لاجل استكشاف اراض جديدة
ومازال بطرس مستمرا على الاشغال حتى سافر الى مدينتى اوترشت وهايه
بغير احتفال يليق بمنصبه الملوكى قاصدا رؤية غليوم ملك الانكليز ورئيس
جمهورية الاقاليم الفلمنكية المجتمعة فلما تلاقيا لم يكن لهما ثالث الا الجنرال
لوفورت فشاهد بطرس وهو بغير المظهر الملوكى كيفية دخول الجيته
الى الديوان ورسوم تلقيهم ومايصنع لهم من التشريفات والاحتفال وكيفية
معاملة الملك اياهم وبعد تمام التشريفات لهم اهدوا الارباب مجالس الجمهورية
من طرف الجار بطرس ستمائة كرك من السمور النفيس فاهدى اليهم
ارباب الجمهورية زيادة على الهدايا المعتادة لكل واحد منهم وهى كستيك من
الذهب وتمثال علامة على الشرف ثلاث عربات نفيسة وكان اول من حضر
اليهم لاجل الزيارة والتهنئة بالقدوم جميع وكلاء الدول المفوضين الذين كانوا
اذذاك فى جمعية رسويك ماعدا وكلاء دولة الفرنساوية فانهم لم يحضروا
لعدم تحرير الجيتة بطرس لهم اشعارا بقدومهم حسبما تقتضيه الرسوم
الجارية وليس عدم اعلامهم لمجرد كون الجار بطرس كان منتصرا للملك
اغسطوس على الامير دوكنتى الفرنساوى بل هنالك سبب آخر وهو
أن الملك غليوم الذى كان بينه وبين الجار وقتئذ الصداقة التامة كان
لارغبة له فى الصلح مع مملكة فرانسا اصلا
ولما رجع الجار الى امستردام عاد الى ما كان عليه من الاشغال وتمم
بنفسه سفينة ذات ستين مدفعا وكان قد شرع فى عملها قبل سفره ثم ارسلها
الى مينا ارقنجل لانه وقتئذ لم يكن له بحار الاوقيانوس غير تلك المينا وكان
يدخل فى خدمته الهاربين من الفرنساوية والسوينسة والنمساوية ولا يقتصر

على

على ذلك بل كان يبعث ايضا الى مدينة موسكو كثيرا من ارباب الصنائع المختلفة ولكنه كان لا يرسل منهم احدا الا من عاين شغله بنفسه وقلما فاته شئ من دقائق الصنائع والحرف الا تبحر فيه لانه كان يشتغل بجميع الاشياء لاسيما اصلاح خارطات علماء الجغرافية الذين كانوا يرسمون بمجرد الحدس والتخمين حسبما اتفق اوضاع مدن دولته وانهارها لانها لم تكن وقتئذ معروفة لهم حق المعرفة وقد حفظت الخارطة التي رسم عليها بطرس ما كان عزم عليه من وصل بحر الخزر بالبحر الاسود وكان قد الزم باجراء ذلك مهندسا نمساويا يقال له براكيل وكان وصل هذين البحرين ببعضهما اسهل مما وقع في مملكة فرانسا من وصل البحر المحيط الاطلنطيقي بالبحر الابيض المسمى بحر سفيد واما وصل بحر ازاق ببحر الخزر الذي كان قد قواه بطرس فكان يستبعده العقل ولا يصدق باجرائه احد وكان بطرس يستحسن انشاء محال جديدة في تلك النواحي لان النجاح كان حليفه في كل مشروع تصدى اليه فيها فكان ذلك يقوي امله ويحقق رجاءه

وفي الحادي عشر من شهر اغسطوس سنة ١٦٩٧ ميلادية انتصرت جيوشه على التتار قريبا من بحر ازاق وتغلبوا بعد ذلك بعدة اشهر على مدينة الذهب المسماة اركاپيا ويقال لها عند الفرنساوية پريكوب فصار له بذلك موقع عظيم ومزيد اعتبار عند من كان يلومه على ترك دولته ومكثه في مدينة امستردام ليتعلم فيها الصنائع والحرف لانهم كانوا يرون أن مصالح دولته لا تقبل أن يشتغل عنها بالفلسفة والسياحة وتعلم الصنائع والفنون

ولم يزل بطرس على ما كان عليه في مدينة امستردام من عمل السفن وتعلم الهندسة والجغرافيا والطبيعة وعملياتها حتى ارتحل الى بلاد الانكليز يقفو اثر اصحابه وجماعته ارباب السفارة في اثناء شهر ينويه سنة ١٦٩٨ من الميلاد فلما وصل الى تلك البلاد ارسل له غليوم ملك الانكليز سفينته الملوكية مع سفينتين من السفن الحربية واستمر بطرس على ما كان تعوده بمدينة

امستردام في المأكل والمشرب وسكن قريبا من الترسانة الكبرى بمدينة دبتوفور ولم يشتغل هناك بغير التعلم الا نادرا لانه لم يكن يتعلم على صناع السفن الفلمنكيين بامستردام الا طرقهم الخاصة بهم في تلك الصناعة وهي طرق قاصرة فاتقن هذا الفن ببلاد الانكليز لانهم كانوا يمدون السفن على مقتضى القياسات الهندسية فتقوى في هذا الفن حتى صار عما قليل عالما ماهرا يصلح لأن يكون استاذا وشرع في مد سفينة على منوال سفن الانكليز فجاءت من اعظم السفن السريعة السير ورأى صناعة الساعات قد تكاملت بمدينة لندرة فاشتدت رغبته في تعلمها فتعلم قواعدها واصولها وقد قال القبطان المهندس پرى وكان قد قدم مع بطرس من لندرة الى بلاد الموسقو ان بطرس لم يترك شيأ من الصنائع البحرية عظيمها وحقيرها من سبك المدافع الى فتل الحبال الا باشره بيده كلما دخل الورش والمعامل

وقد رأى من الصواب لاجل ايقاع المحبة بينه وبين الانكليز أن يدخل في خدمته ارباب الصنائع والحرف منهم كما فعل ذلك ببلاد الفلمنك بل وجد عندهم زيادة على ذلك مع السهولة من كان يعسر عليه تحصيله بامستردام من ارباب العلوم الرياضية فقد ادخل في خدمته المهندس الماهر فرغسون الايقوسى وهو الذى رتب العمليات الحسابية بدواوين المالية في بلاد الموسقو وكانوا قبل ذلك لا يعرفون في هذا المعنى الا طريقة التتار وهي العد بحبوب مستديرة ينظمونها في سلك من النحاس وهي وان كانت تسد مسد الكتابة الا انها تشوش الذهن وتوقع في الحيرة وربما تطرق اليها الخطا لانه بعد العد بها لا يمكن للانسان أن يعلم هل اخطأ في عده ام لا هذا ولم يعرف الفرنساوية الرقوم الهندية المستعملة عندهم الآن الا من العرب في القرن التاسع واما دولة الموسقو فلم تعرفها الا بعد الف سنة كما هو شأن جميع الفنون حيث لم تنتشر في اقطار الارض الا مع غاية البطئ والتراخي وقد صاحب فرغسون شابان انكليزيان من مكتب الرياضيات وكان هذا الاجتماع بعد الافتتاح في انشاء المدرسة البحرية وكان بطرس يرصد الكواكب ويحسب كسوف الشمس

والقمر

والقمر مع فرغسون وكان المهندس برى يشهد له بمعرفة علم الفلك مع انه كان في حنق شديد منه لكونه لم يكافئه حق المكافأة وقال ان بطرس كان يعرف حق المعرفة حركات الاجرام السماوية وقوانين تثاقلها وتجاذبها وسيرها وقد كانت هذه القوانين والنواميس التي بها تتقارب النجوم السيارة وتتجاذب وتبقى على تناسبها في افلاكها مجهولة قبل فوطون فما خرجت من حيز الجهالة والخفاء الى حيز الظهور واليقين الا وصارت من المألوفات لملك الموسقو مع أن الناس في غير هذه الدولة كانوا لا زالوا يقبلون كلما سمعوه من الخرافات والاوهام ويعتقدون صحته وكان بعض من يدعي العلم في وطن غاليلة يأمر العامة باعتقاد أن الارض ثابتة

ثم ان برى سافر للاشتغال بوصل بعض الانهار ببعض وانشاء بعض قناطر وجسور لما أن نية الجبار بطرس انما كانت وصل كل من البحر المحيط وبحر الخزر والبحر الاسود ببعضها بواسطة خلجان

ومما ينبغي التنبيه عليه أن بعض تجار الانكليز الذين كانوا تحت رياسة الماركين دوكرمرتان وهو قبودان باشا دفعوا الى بطرس خمسة عشر الف جنيه لتعطى لهم رخصة ببيع الدخان ببلاد الموسقو وكان بطريق الموسقو لشدة قسوته قد منع هذه البضاعة في تلك الديار لان الديانة الموسقوبية كانت تحرم شرب الدخان وتعده من المآثم لكن كان بطرس يفوق هذا البطريق تمدنا ومعرفة وكان من جملة ما عزم عليه معارضة الكنيسة في احكامها فاستحسن نسخ هذا الحكم ورخص في دخول تلك البضاعة في دوله

وقدام غليوم قبل خروج بطرس من انكلترة بعمل صورة حرب بحري تشريفا لحضور هذا الضيف العظيم وكان الناس اذ ذاك يجزمون بأن بطرس لا بد أن يفعل ذات يوم مثل هذا الحرب مع الاسوج وانه يفوز بالنصرة عليهم في بحر بلطق وآخر الامر أن غليوم اهدى الى بطرس سفينة كان من عادته ركوبها اذا اراد الذهاب الى بلاد الفلمنك وكانت تسمى

روبال ترنسبورت اى السفينة القرالية وكانت محكمة الصناعة ظريفة الشكل فركب فيها بطرس وعاد الى بلاد الفلمنك فى غاية شهرمايه سنة ١٦٩٨ ميلادية واخذمعه ثلاثة من قباطين السفن الحربية وخمسة وعشرين من رؤساء السفن يلقبون ايضا قباطين واربعين ضابطا من الملازمين وثلاثين جراحا ومائتين وخمسين من الطوبجية واكثر من ثلاثمائة من ارباب الحرف والصنائع فجميع هؤلاء الرجال الماهرين فى صنائعهم ركبوا البحر فى هذه السفينة وساروا من بلاد الفلمنك الى مينا ارقنجل ومنها توزعوا الى محال لزومهم واما الذين كانوا دخلوا فى خدمته بامستردام فاخذوا فى السير على طريق مدينة نروا وكانت وقتئذ فى حكم الاسوج

وايضا حين كان بطرس ينقل العلوم والفنون من بلاد الانكليز والفلمنك الى ممالكه دخل فى خدمته كثير من ارباب الصنائع من مدينة رومة ومملكة ايطاليا بواسطة الضباط الذين كان قد ارسلهم الى تلك الجهة وكان الجنرال شرمتوف الذى كانت له الرياسة على جماعة بطرس بايطاليا قد ارتحل من مدينة رومة الى مدينة نابلى ثم ذهب منها الى البنادقة ومنها الى جزيرة مالطه واما بطرس فسار الى مدينة ويانه كرسى النمسا مع من بقى من اتباعه وكان مرامه مشاهدة ماعند النمساوية من الضبط والربط العسكريين بعد أن شاهد الدونمات الانكليزية والورش الفلمنكية وكما كان غرضه من الاسفار تعلم الفنون والعلوم كان مرامه ايضا معرفة الامور السياسية وكان ليوبولد ايمبراطور النمسا متعاهدا معه على محاربة الدولة العثمانية فذهب اليه بطرس لايرى الملوك بل كالآحاد وتقابلا وتحادثا قائمين اجتنابا بالتكاليف وبعدا عن سلوك تلك المضايق

وفى مدة اقامته عنده بمدينة ويانه لم يشاهد بها من الامور الغريبة والالعاب العجيبة الا الموسم المسمى موسم المضيف والمضيفة اى صاحب المنزل وصاحبة المنزل وهو موسم قديم عندهم الا أنه لم يقع فى ايام ليوبولد فجدده تعظيما لبطرس ويسمى بلسانهم ويرتشفت وكيفيته أن الايمبراطور

والامبراطورة تتشكلا بشكل رب المنزل وربة المنزل وابنه الاكبر الملقب ملك الرومانيين وسائر اولاده وبناته وعائلته ذكورا واناثا هم عادة المساعدون لهما فيتلقون فى المضيفة كل من تزيا بزى قدماء الملل * وكل من دعى لهذه الوليمة من الضيوف يأخذ بالقرعة قبل الدخول ورقة من جملة اوراق مكتوب على كل واحدة منها اسم الملة وما يلزم آخذها من التزيى بزى الطائفة المعينة من طوائف تلك الملة على اختلاف درجاتهم فمنهم من تخرج ورقته بالتزيى بزى امراء الصين ومنهم من تخرج ورقته بزى امراء التتار او العجم او ارباب مشورة السنت برومة فعلى ذلك قد يتفق أن الاميرة تتزيا بزى بستانجية او لبانة وكذلك الامير قد يكون فلاحا او من انفار الجهادية ثم يحصل الرقص بينهم فى المضيفة على حسب اختلاف العوايد فيه واما صاحب المنزل وصاحبة المنزل وعائلتهما فيقومون بخدمة الضيوف على المائدة فهذه هى كيفية الموسم القديمة وقد اتفق فى هذه المرة أن ابن الملك المسمى يوسف وقونتيجة دى ترون كانا على هيئة قدماء المصريين والارشدوق كرلوس وقونتيجة دى ولستين كانا على هيئة الفلمنك فى عهد شرلكان والارشدوقة مارية ايليزابيطة وقونتة دوترون كانا على هيئة التتار والارشدوقة يوسفينا وقونتة دوور كلا كانا على هيئة العجم والارشدوقة ماريانا والامير مكسمليان دوهانورة كانا على هيئة فلاحى شمال الفلمنك واما بطرس فتزيا بزى فلاحى اقليم فريزة فكانوا يخاطبونه فى شأن جار الموسقو الاكبر بما يخاطب به هؤلاء الفلاحون الذين تزيا بزيهم وانما ذكرنا ذلك وان لم يكن من الامور المهمة لانه يذكرنا العوايد القديمة

وبينما كان بطرس فى مدينة ويانة متأهبا للسفر الى البنادقة ليتم التعلم اذ بلغه وقوع فتنة اضطربت منها ممالكه

(الفصل العاشر)

فى الكلام على عقاب المتحزبين وابطال اوجاق عساكر الاسترليج وما حصل من التغير فى العوايد والاخلاق والدولة والديانة بالديار الموسقوبية

لما عزم بطرس على الرحلة من بلاده وكان قد تبصر في العواقب فرتب جميع مايلزم لدولته حتى انه رتب طرقا القمع من يثير الفتنة ويخرج عن الطاعة ولكن ماصنعه من الامور المهمة النافعة لدولته كان سببا في وقوع الفتن والاضطراب

وكان اول من أثار الفتنة والعصيان في هذه الدولة بعض امراء البلاد الطاعنين في السن الذين كانوا لا يميلون الا الى العوايد القديمة وكذا بعض القسوس الذين كانوا يعدّون العوايد الجديدة من قبيل الكفر والالحاد فعادت بذلك عصبة الاميرة سوفية ويقال ان احدى اخواتها التي كانت معها في دير واحد كان لها مدخلية عظيمة في اغراء الاهالي وتحريضهم على الخروج فوقع في قلوبهم خوف شديد من قدوم الاجانب الى ديارهم لاجل التعليم وهل مثل ذلك يصدر من عاقل وكان من اقوى الاسباب الباعثة على ايقاع الفتن في المملكة ترخيص الجار في بيع الدخان بها قهرا عن القسوس ثم ان الاوهام الفاسدة التي هي داء عضال في جميع اقطار الارض ويميل اليها جهلة الاهالي سرت من الموسقو الى اوجاق عساكر الاسترليج وكانوا اذ ذاك منتشرين في ضواحي اقليم لوثيانيا فاجتمعوا وساروا جميعا الى مدينة موسقو عازمين على تولية سوفية على سرير الملك ومنع بطرس من الاياب الى دولته حيث تجاسر على هتك حرمة العوايد القديمة بذهابه الى البلاد الاجنبية ليتعلم علومها وفنونها وكان العساكر الذين تحت قيادة كل من الجنرال چين وغردون امهر منهم في فن العسكرية فهزموهم على البعد من مدينة موسقو بخمسة عشر فرسخا فازداد غيظ الملة الروسية من نصرة هذين الجنرالين الاجنبيين على عساكر الاسترليج لاسيما وقد كان معهم كثير من اهالي تلك المدينة

ثم ان الجار سافر سرا من مدينة ﭬج في شهر ايلول سنة ١٦٩٨ من الميلاد لاجل اطفاء نار تلك الفتنة ومرّ في سيره بمملكة له واجتمع فيها بدون احتفال ولا مظهر بالملك اغسطوس ودبر معه مايكون به اتساع ممالكه من جهة بحر

بلطق

بلطق ثم سار حتى دخل مدينة موسقو على حين غفلة فتعجب جميع اهلها من
وجوده بين اظهرهم وكافأ العساكر الذين كانت لهم النصرة على اوجاق الاسترليج
وكانت الحبوس مشحونة بهؤلاء الاشقياء الذين حقت عليهم الهزيمة فعاقبهم
عقابا شديدا بقدر جسامة ذنوبهم فقتل رؤساهم وعدة من الضباط وبعض
القسوس وقتل آخرين بالوطئ عليهم بالعجل حتى ماتوا ودفن امرأتين بالحياة
واهلك منهم ألفين فعلق بعضهم على اسوار المدينة وقتل بعضهم قتلة اخرى وترك
جثثهم ملقاة مدة يومين في الشوارع العامة لاسيما حوالى الدير الذى كانت به
الاميرة سوفية واختها الاميرة ادوكسة واقام اعمدة من الحجر ونقش عليها
جناياتهم وعقوباتهم وبدد شمل من كان معهم بمدينة موسقو من اولادهم
ونسائهم فانتشروا ببلاد سبير ومملكة ازدراهان وازاق فكان اول ثمرة
ترتبت على معاقبتهم ونفيهم لتلك الجهات هو انتفاع الدولة من حيث تعمير
الاراضى الخالية من الاهل والعمران فتجدد فيها الخصب بعد أن لم يكن
ولولا أن الجبار جبر على ما فعله مع هذا الاوجاق من العذاب الشديد لقصد
العبرة لغيره لادخل طائفة منهم في الاشغال الميرية فانه قد خسرهم هو ودولته
مع أن النفوس البشرية محترمة معصومة يحقن دمها ما امكن لاسيما في مثل
هذه المملكة التى كانت محتاجة وقتئذ لأن يعتنى مقننوا ابنيتها بتكثير
اهلها لكنه قصد بما صنعه من تعداد العقوبات ايقاع الرجفة في قلوب اهل
دولته واذعانهم له دائما فان اوجاق الاسترليج الذى لم يمكن لاحد من الملوك
السابقين أن يتعرض له في شئ ولو في تقليل عدده اباده بطرس عن آخره
وقطع دابره ومحا اسمه وسيرته من غير أن يعارضه في ذلك احد لانه تدارك هذا
الامر واستعد له قبل وقوعه وقد وقع في هذا العصر أن اوجاق الانكشارية
خرجوا على السلطان عثمان وخلعوه ثم ذبحوه ولم يكن لذلك مقتض الا مجرد
توهمهم فيه أنه يريد تقليل عددهم بخلاف بطرس فانه كان له في ذلك الحظ
الاوفر حيث احكم تدبير هذا الامر واتقنه ولم يبق من الاوجاق المذكور
الا الايات قليلة ضعيفة لا يخشى بأسها في شئ ومع ذلك لم يزالوا على اوهامهم

القديمة نخرجوا عن الطاعة فى ازدرياهان سنة ١٧٠٥ ميلادية لكنه اسرع بقمعهم واذلالهم

وعلى قدر ما حصل من بطرس من القساوة فى هذه الفعلة المهمة فعل بعد ذلك بمدة فى شهر ادار سنة ١٦٩٩ من الميلاد ما يقضى بانسانيته ومروءته وذلك أن نديمه الجنرال لوفورت اختطفته المنية فى عنفوان شبابه حيث كان عمره يومئذ ستا واربعين سنة فصنع له جنازة عظيمة تليق بعظماء الملوك تشريفا له حيث حضر فيها بنفسه قابضا بيده على رمح وتأخر فى تشييع الجنازة عن صف اليوزباشية الى صف الملازمين لانه كان فى رتبتهم وكان قد حاز هذه الرتبة وهو فى الالاى هذا الجنرال المتوفى وكان الباعث له على ذلك شرف نفسه وتعظيم ذوى المعارف واحترام الرتب الجهادية

وبعد موت لوفورت ظهر للناس أن التغيير الذى حصل فى الدولة لم يكن بسببه وانما هو من الجبار نفسه وفى الواقع أن لوفورت لم يكن له فى ذلك دخل الا كونه يقر الجبار على ما يبديه له من الاغراض حين المذاكرة فيها واما تجهيزها واجراؤها فليس الا من صنع بطرس

ولما دمر بطرس اوجاق الاستربلج رتب الايات منتظمة تضاهى فى الهيئة عساكر النمساوية حيث البسهم جميعا ملابس قصيرة على نسق واحد بدلا عن الملابس الطويلة التى كانوا يلبسونها قبل ذلك ورتب لهم طرق تعليم الحركات العسكرية وجعلها على غاية من الاحكام والانتظام

وكانت عساكر الورديان الذين يقال لهم بريوبازنسكى موجودة فى ذلك الوقت وسميت بذلك لانها بنيت على بلوك قديم كانت عدته خمسين رجلا وكان الجبار قد باشر تعليمه فى صغره بمحل بريوبازنسكى حين كانت اخته سوفية هى التى تحكم الدولة وكان الالاى الآخر من الورديان ايضا موجودا

وكما أن بطرس ترقى فى الرتب الجهادية الصغيرة بالتدريج اراد أن ابناء امراء دولته وحكمداراتها يكونون بهذه المثابة بحيث لا يترقون الى درجة الضباط

الابعد جعلهم انفارا فى الجهادية وتنقلهم فى رتب الصفوف وهكذا ثم جعل
جماعة منهم فى دونغا وبرونيزة وجهة بحرازاق فاخذوا اولا يتعلمون
ما يتعلمه الانفار البحرية ولم يجسر احد من الموسقو على مخالفة هذا الملك الذى
كان اسوة لهم فى مثل ذلك وكان الانكليز والفلمنك المقيدون فى خدمته
مهتمين وقتئذ بتهيئة الدونغا باقامة الجسور وانشاء الدكاك لاجل اصلاح السفن
فى اليبس ومشتغلين بمصلحة اخرى جسيمة وهى وصل نهر الطون بنهر الاثل
وكان براكيل النيساوى قد شرع فى ذلك ولم يتممه ومن يومئذ اخذ
بطرس فى تنظيم مشورته الملكية والخزائن المالية وتحرير القوانين الدينية
بل وشرع فيما يكون به نظام الاهالى ويكسبهم التمدن والتأنس والتربية
وكانت ادارة المالية سابقا على منوال ما فى الدولة العثمانية تقريبا فكان كل
ويودود اى اميرو يقال له ايضا بويار يدفع على خراج اراضيه قدرا معلوما
يجمعه من فلاحيه المستعبدين له فرتب الجار لجبى هذا الخراج جباة من الاهالى
ومشايخ البلاد الذين لا قدرة لهم على ادعاء أن لهم الحق فى كونهم لا يدفعون
الا ما يريدون دفعه وقد كابد الجار فى هذا الترتيب الجديد مشاق فادحة حيث
اقتضى الحال اختبار ذلك اولا بعدة طرق قبل الاستقرار على طريق مقررة
واما التغيير فى الاصول الدينية الذى كان يظن جميع الناس أنه يشق على الجار
ويكون به عرضة للخطر فكان على خلاف ظنهم حيث لم يحصل فيه ادنى مشقة
وكان البطارقة كالاستراليج ينازعون بعض الاحيان فى الحكومة
ويتطلبون أن يكون بايديهم ما هو مخصوص بالتاج الملوكى من الحل والعقد
فقد وقعت المنازعة فى ذلك من البطرق نيقون مع الجسارة والوقاحة وكذلك
فعل يواشيم احد من تخلف بعده الا أنه كان يسلك فى ذلك مسلك التحيل
والمخادعة وكان الاساقفة يزعمون أن لهم حق السيف وهو حق الحكم فى الحدود
والجنايات وذلك مخالف لما تقتضيه الديانة والسياسة فمنعهم بطرس من
هذا الافتيات الذى تعودوا عليه من قديم الزمان وذلك أنه أعلن حين مات
البطريق ادريان فى آخر هذا القرن (اعنى القرن السابع عشر من الميلاد)

بابطال منصب البطرقية رأسا فبطل من يومئذ هذا المنصب بالكلية وصار نسيامنسيا وضبط على الاموال الجسيمة التى كانت معدة لهذا المنصب وضمت لجانب الميرى لان الدولة اذذاك كانت محتاجة لها نعم وان كان الجار لم يتول رياسة الكنيسة الموسقوبية بنفسه كمافعل ملوك الانكليز حيث تولوا رياسة الكنيسة الانكليزية الاأنه كان عليها سيدا مطلق التصرف لان القسوس لم يتجاسروا على عصيان مثل هذا الملك المطلق التصرف ولا على معارضته ومناظرته لانه كان يفوقهم علما ومهارة

هذا و ينبغى الاطلاع على مقدمة قوانين بطرس الدينية التى رتبها سنة ١٧٢١ من الميلاد ليعلم الواقف عليها أن هذا الملك كان جامعا بين صفتى تقنين القوانين والسيادة الملوكية على رعيته ونصها الذى نعتقده أننا بعد أن رتبنا القوانين الجهادية والملكية لا تبرأ ذمتنا عند الله تعالى اذ انحن اهملنا القوانين الدينية وغيرها اقتداء باسلافنا السابقين والملوك الماضين الذين كان يمنعهم عن ذلك الديانة والتقوى فالتزمنا أن نشمر عن ساعد الجد والاجتهاد فى تقنين قوانين دينية مستحسنة ووضع اصول محكمة متقنة انتهى نعم رتب جمعية من القسوس لاجل اجراء مارتبه من القوانين الدينية الاأنه لزم ارباب هذه الجمعية أن يؤدوه قبل الشروع فى تلك الخدمة موثقا بحلفهم يمينا بصيغة مخصوصة وضعها الجار وهى صيغة المبايعة وكتب عليه امضاءه وكان غرضه منها الطاعة والانقياد وصورتها انى قد التزمت وتعهدت أن اكون امينا طائعا خادما تحت استرعاء ملكى الحقيق ومن يعينه ويستنسبه للخلافة بعده من اماجد الناس واخيارهم بماله فى ذلك من الحق والقوة التى لا تقاوم واقر واذعن أنه هو الحاكم المطلق التصرف فى هذه الجمعية واقسم بالله تعالى الذى لا تخفى عليه خافية انى غير مور فى هذه الالية بل قصدت منها المعنى الصريح المتبادر لكل من نطق بها اوسمعها انتهت وهذا الميثاق آكد واقوى من الميثاق الذى يؤخذ على رياسة الكنيسة ببلاد الانكليز وفى الحقيقة لم يكن الجار من اعضاء هذه الجمعية القسيسية وانما كان يرتب لهم القوانين ويمليها عليهم وكان لا يباشر

امور

امور الكنيسة وانما كانت له ادارة من يباشر ذلك
وقد رأى بطرس أن الرهبانية اى عدم زواج الرهبان فى ممالكه المحتاجة للعمران وتكثير الاهالى مباينة للطبع البشرى والمصلحة العامة وكانت اعادة الموسقو قديما أن قسوسهم غير المترهبين يتزوجون ولو مرة فى العمر بل كانوا مجبورين على ذلك وعند فقد الزوجات يخرجون من العصابة القسيسية الغير المترهبة فرأى بطرس أن مكث كثير من البنات فى الاديار لاجل الترهب ومعيشتهن على طرف غيرهن من المفاسد فامر أنه من الآن فصاعدا لا يدخل احد ديرا الا اذا بلغ عمره خمسين سنة لان هذا السن غالبا تضعف فيه الشهوة وامر ايضا أن لا يقبل فى الاديار من كان مستخدما فى الخدم الميرية ولو بلغ فى العمر ما بلغ
ولكن لم يستمر هذا الترتيب بل نسخ بعد بطرس لكونهم رأوا أن مراعاة الاديار والاعتناء بشأنها من الحقوق الواجبة عليهم واما منصب البطريقية فلم يعد الى اصله بل لا زال يصرف ايراده الجسيم فى ماهيات العساكر ومرتباتهم
وقد وقع اللغط بين الناس فى مبدأ هذا التغيير فكتب بعض القسوس فى رسائله ان بطرس هو المسيح الدجال حيث لا رغبة له فى البطارقة وصار فن الطباعة الذى كان بطرس يسعى فى تقويته وتقدمه معينا على طبع ما قيل فيه من القدح والذم وقد رد على القسيس المذكور قسيس آخر قائلا ليس هو الدجال اذ ليس فى حروف اسمه ما فى اسم الدجال من عدد الستمائة والستة والستين وكذلك لفقد علامات الدابة ثم بطل اللغط والتشكى بعد ذلك بيسير واذا نظرت الى الواقع ونفس الامر وجدت بطرس قد رتب للكنيسة امورا نافعة اكثر مما سلبه منها فانه جعل الطائفة القسيسية بالتدريج على غاية من الانتظام والمهارة والمعارف حيث انشأ فى مدينة موسقو ثلاث مدارس لتعليم اللغات وألزم كل من كان معدا للانتظام فى سلك تلك الطائفة أن يتعلم فيها
وكان من جملة الاشياء اللازم تغييرها بالابطال او التحسين لزوما ضروريا

هو الصوم الكبير الذى كان عندهم اربعين بعدد معلومة وهى عادة قديمة عندهم اوجبتها عليهم الكنيسة الرومية وهى مضرة باصحاب الاشغال لاسيما العساكر فهى فى ذلك كبدعة اليهود القديمة من تحريم القتال يوم السبت فكيف يقرها بطرس ولا يعافى منها ولو العساكر وارباب الاشغال فان هذا الصيام كان لا يباح فيه الاكل بل السكر فقط ورخص لهم ايضا فى ترك الصوم الذى يجتنبون فيه تعاطى كل ذى روح وألزم بذلك اولا رؤساء السفن والجيوش ليكونوا اسوة لغيرهم فامتثلوا ذلك بدون اشمئزاز ولا نفور

ولا يخفى أن التقاويم السنوية معدودة من الامور المهمة والعادة الجارية فى ذلك من قديم الزمان بسائر الاقطار والبلدان أن المنوط بها هم رؤساء الاديان دون غيرهم وليس ذلك لمجرد الاعياد والمواسم الدينية بل لندرة معرفة غيرهم بعلم الميقات وكانت عادة الموسقو اولا أنهم يجعلون اول اشهر السنة شهر سبطمبر فابطل ذلك بطرس وجعل اول شهورها شهر ينوية كما هى عادة ممالك اوربا المتمدنة وكان هذا التغيير فى ابتداء سنة ١٧٠٠ وهى اول القرن السابع عشر الذى اشهره بطرس بالعفو العام والمواسم والاحتفالات العظيمة وقد تعجب العامة من هذا التغيير كيف امكن فيه لبطرس أن يغير كيفية سير الشمس وانتقالها واستمر بعض المعاندين على الطريقة القديمة زعما منهم أن الله سبحانه وتعالى خلق الدنيا فى شهر سبطمبر واما الدواوين والمحاكم فصار العمل فيها على الترتيب الجديد وعما قليل جرى العمل عليه فى جميع الدولة وكان بطرس لا يرضى بتقويم اغرغوار الرومى الذى اهمله علماء الرياضة من الانكليز مع أن الواجب اجراء العمل عليه فى جميع اقطار الدنيا

ولم يعرف للموسقو طريقة المكاتبات والمراسلات الا فى اوائل القرن الخامس فصاروا من يومئذ يكتبون فى بطاقات من ورق الاشجار او ورق الغزال وبعد ذلك بمدة كتبوا فى الورق فلزم الحال أن يضع قانونا يأمرهم فيه أن لا يسلكوا فى الكتابة الا على نسق الفرنساوية

وقد

وقد اتسعت دائرة الاصلاح بالتغيير والتبديل وانتشر حتى عم النكاح وذلك أن الزواج في الدولة الموسقوبية كان اولا على منوال ما يفعل في بلاد الترك والعجم فكان الرجل لا ينظر مخطوبته الا بعد عقد النكاح ولا يجوز له فسخ العقد وهذه العادة انما تليق بمن يرى تعدد الزوجات وحل الطلاق وعدم خروج النساء من البيوت دون من لا يرى ذلك ويقتصر على واحدة ويمنع الطلاق الا في صور نادرة

فاراد الجار أن يعود رعيته على عوايد الامم الذين ارتحل الى بلادهم واتى منهم باناس يعلمون اهل مملكته

وكان من جملة الامور النافعة أن يحذو الموسقو في ملابسهم حذو معلميهم والا فالانسان بطبعه يبغض الاجانب لاسيما اذا كانوا يخالفونه في الملابس وكانت ملابس المحافل والمواسم شبيهة بملابس اللاهيين والتتار وقدماء المجار وكانت على ما يقال مقبولة مستحسنة واما ملابس الاهالي ورعاع الناس فكانت شبيهة بالدلوق وبالثياب ذات الانكمشات والطيات مما يحاذي الوسط التي تعطى الى الآن لبعض الفقراء في بعض المارستانات بفرنسا وبالجملة فقد كانت الثياب الطويلة سابقا لباسا لجميع الملل لانها لا تحتاج لكثير مصرف ولا صناعة وكان الموسقو لا يحلقون لحاهم بل يتركونها تسترسل لهذه العلة بعينها ولم يشق على الجار تعويد اهل ديوانه ودائرته على الملابس الفرنساوية وحلق اللحا بخلاف تعويد الاهالي على ذلك فكان من اشق الاشياء عليه حتى انه اضطر الى أن يضرب مغرما على كل من لبس ثيابا طويلة او لم يحلق لحيته وعلق على ابواب المدينة انموذج الملابس الضيقة التي يلزم الاهالي لبسها وكل من امتنع من دفع هذا المغرم حكم عليه بقطع ثيابه وحلق لحيته وكان اجراء هذه الاوامر وتنفيذها مع الملاطفة ولين الجانب فكان ذلك سببا في الانقياد وعدم التعصب

ومن المعلوم أن الغرض من التشريع ووضع القوانين انما هو ايقاع التأنس والالفة بين الامم والتربية ولكن لا يكفي في ذلك مجرد جمع طائفة في مدينة

واحدة بل لا بد من المخالطة والاخذ والعطاء مع رعاية الادب فيما بينهم اذ بذلك تحلو مرارة الحياة ويزول تنغيص المعيشة فلذا ادخل الجار في دولته الجمعيات التأنسية وامر أن يحضر تلك الجمعيات النساء مع بناتهن متزييات بزي اهالي جنوب اوروبا وجعل لهذه الجمعيات التي هي اشبه بمواسم صغيرة قوانين واصولا تتبع وبالجملة فكل شئ حدث في دولة بطرس حتى آداب المخالطة والاجتماع انما كان باحداثه وابتداعه مع مساعدة الدهر وتداول الايام

ولاجل أن يذيق رعيته لذة ما ابدعه من التحسينات ويميلهم الى أن يستطيبوا هذا المشرب ابطل ما كانوا يستعملونه في مخاطبات ملوكهم وعرضحالاتهم من تعبيرهم عن انفسهم بلفظ عبدكم وابدله بلفظ رعيتكم ولم يترتب على هذا التغيير ادنى شئ يخل بالطاعة بل كان ذلك سببا في استمالة قلوب الرعايا ومحبتهم له وفي كل شهر كان يظهر تغيير جديد وانشأ شئ نافع لم يكن في الشهر الذي قبله وقد ادته همته الى تحديد المسافات السفرية بوضع اعمدة ميلية من الخشب في طريق مدينة موسقو الموصلة الى مدينة ويرونيز من كل عمود لمثله مسافة فرسخ موسقوبي اي سبعمائة وخمسون قدما وانشأ في كل عشرين فرسخا منزلخانه اي محطة للمسافرين

ولما اهتم على هذا الوجه بما فيه نفع الرعية والتجار وارباب السياسة ادخل في ديوانه نوعا من الزينة والزخرفة وهو وان كان طبعه لا يألف ذلك الا أنه رآه مما لا بد منه بالنظر الى غيره ممن يألفه واحدث ايضا نشان درجة ماري أندروس وهي من رتب الافتخار التشريفية الجارية في دواوين اوروبا واول من حظي بحوز هذا النشان بالبلاد الموسقوبية غلوين الذي خلف لوفورت في رتبة الاميرال اي قبودان باشا وكل من تشرف بحيازة هذا النشان يعد ذلك من اعظم المكافأة والمجازاة وكانت علامة ذلك نشان افتخار يلبسه الانسان ليعلم به الناس أن لابسه ذو امتياز واعتبار وكانت هذه العلامة لا كلفة فيها على الملك وانما ينشرح بها صدور من نالها من الرعية

بدون أن يكون بيده حل ولا عقد

وقد استحسن ارباب العقول الراجحة من اهل دولته كثيرا من الابداعات والتغييرات النافعة وتلقوا ذلك بالقبول فترتب على ذلك خمود نيران التشكى والتظلم ممن يميل الى العوايد القديمة ويألفها

وفى اثناء اشتغال بطرس بهذه الابداعات والتحسينات التى جددها فى داخل مملكته انعقدت بينه و بين الدولة العثمانية هدنة عادت عليه بالمنفعة حيث وجد فى مدتها فسحة فى توسيع حدود مملكته من جهة اخرى وذلك أن السلطان مصطفى الثانى لما انتصر عليه الامير اوجين فى وقعة جزيرة زانتة سنة ١٦٩٧ ميلادية واخذت منه المورة التى كان استولى عليها البنادقة وعجز عن المدافعة عن بحر ازاق اضطر الى الصلح مع جميع اعدائه الذين كانت لهم النصرة عليه (وذلك فى السادس والعشرين من شهر ينوية سنة ١٦٩٩ من الميلاد) وكان انعقاد هذا الصلح بمدينة كارلووتز بين پتروردين و سلكمن وهما محلان شهيران بهزيمة هذا السلطان فيهما و بموجب الصلح المذكور صارت تمزوار (وهى بلدة من بلاد المجار) حدا بين اراضى الدولة النمساوية والدولة العثمانية وعادت مدينة كامنيك لمملكة له ولما موره وبعض مدن من دلماسيا فبقيت تحت ايدى البنادقة مدة من الزمن واما بطرس فاستمر مستوليا على بحر ازاق وعدة قلاع حوله وكان يشق عليه اذ ذاك توسيع مملكته من جهة بلاد الدولة العثمانية خوفا من أن قواهم العسكرية التى اجتمعت بعد التفرق تشن الغارة عليه فتهزمه ولما كان يؤمله فى شأن بحر ازاق من المقاصد البحرية فكان من الامور الجسيمة والاغراض العظيمة ولما رأى أن بحر الخزر لا يصلح أن تكون به دونما حربية وجه مقاصده نحو بحر بلطق ومع ذلك لم يدع ما كان مشتغلا به فى نهر طونة ونهر الاتل من العمارات البحرية

(الفصل الحادي عشر)

فى الكلام على حرب الموسقو مع الاسوج وذكر واقعة نروا

قد وقعت حادثة عظيمة جهة حدود بلاد اسوج وكان افراط كرلوس الحادى عشر ملك اسوج والد كرلوس الثانى عشر فى اطلاق التصرف وتجاوزه الحد فى الحكومة من جملة الاسباب الاصلية التى ترتب عليها سائر الفتن والتعكيرات من اقليم انغريا الى مدينة درسدة ببلاد سكس وتخرب بها كثير من الممالك مدة ثمان عشرة سنة ولا بأس بايراد هذه الحادثة وذكرها كلما وجدت مناسبة لذلك لانها مما يخص الملوك والرعايا فنقول ان اهل لف نزلوا عن معظم اقليم ليوونيا وعن اقليم استونيا بتمامه لكرلوس الحادى عشر الذى ورث كرلوس العاشر وكان ذلك فى وقت مشارطة اوليوا ولكن كان نزولهم عن ذلك بشرط بقاء المزايا وحفظ الخصايص حسبما جرت به العادة عندهم فلم يراع كرلوس الحادى عشر حرمة اربابها حق المراعاة ولم يعمل بهذا الشرط كما ينبغى فذهب بطقول وكان من ملتزمى ليوونيا الى مدينة استخلم قاعدة ملك اسوج سنة ١٦٩٢ ومعه ستة من وكلاء هذا الاقليم ليشوا شكواهم الى الملك مع رعاية الادب والوقار فلم يجبهم الا بالقبض على الوكلاء الستة ووضعهم فى السجن واما بطقول فامر بقتله قتلة شنيعة فلم يمكث حتى ينفذ فيه هذا الامر بل فر هاربا الى بلاد وود بجمهورية السويسة ومكث بها مدة حتى بلغه أن اغسطوس منتخب اقليم سكس وعد أنه اذا تولى ملك بلاد له ليردن ما سلب ظلما من اقاليم هذه المملكة الى اربابه فسافر بطقول فورا الى مدينة درسدة ليبدى لاغسطوس بعد أن تولى ملك له أن استرجاع اقليم ليوونيا من السهولة بمكان وأنه ليس عليه كبير مشقة فى أن ينتقم من ملك عمره سبع عشرة سنة فى نظير ما تغلب عليه اسلافه من البلاد والاراضى

وكان قد وقع بالصدفة والاتفاق أن الجار وقتئذ خطر له أن يتغلب على كل من انغريا وكاريلية وهما اقليمان كان الموسقو استولى عليهما سابقا ثم تغلب عليهما الاسوج بالحرب والقتال فى عهد الدولة الدمتروسية الادعائية الكاذبة التى كانت حاكمة على بلاد الموسقو وبقيا تحت الحكومة

الاسوجية

لاسوجية بمقتضى المشارطات فعلى ذلك لامانع من استيلاء الموسقو عليهما بموجب حروب ومشارطات جديدة فسافر ايضا بطقول من مدينة درسدة الى مدينة موسقو ليحرض الجار ايضا فكان بذلك محرضا للملكين على الانتقام له وسعى فيما يوجب التئامهما واجتماعهما على هذا الغرض وبادر الى تجهيز ما يلزم لهما فى التغلب على سائر ما فى شرقى اقليم فنلندة وجنوبه من البلاد والاقاليم

وفى هذا الوقت بعينه تعاهد ملك دانيمرقة الجديد وهو فردريق الرابع مع الجار واغسطوس ملك له وتحزبوا جميعا على كرلوس الثانى عشر الذى كان اذ ذاك صغير السن وكان يظهر من حاله أنه لا قدرة له على مقاومتهم واما بطقول فقد فرح بتوليه حصار الاسوج حيث حاصرهم فى مدينة ريغا قاعدة اقليم ليوونيا محاصرة شديدة وكان فى هذا الحصار بوظيفة رئيس رجال جهادية

وفى شهر سبطمبر بعث الجار ستين الفا من العساكر جهة اقليم أنغريا ولكن لم يكن فى هذا الجيش الجرار من العساكر المتعودين على الحرب العارفين بفن العسكرية الا اثنا عشر الفا كان الجار قد باشر تعليمهم بنفسه وهم الاليان من الورديان وبعض الايات اخرى واما من عداهم فكان من العساكر الغير المنتظمة التى لا معرفة لها بالحركات العسكرية فمنهم جماعة من القوزاق وطائفة من التتار الجراكسة الآن هذا الجيش كان معه مائة وخمسة واربعون مدفعا فوضع بطرس الحصار على نروا وهى مدينة صغيرة باقليم أنغريا لها مينا يسهل دخولها فكان يتراآى أنها تؤخذ فى اقرب وقت

هذا واهل اوروبا جميعا يعلمون كيف شن كرلوس الثانى عشر الغارة على اعدائه واحدا بعد واحد ولم يكن بلغ من العمر يومئذ ثمان عشرة سنة كاملة وذلك أنه نزل بدانيمرقة وتمم الغزو فيها فى اقل من ستة اسابيع ثم بعث بالامدادات الى مدينة ريغا ورفع عنها الحصار ثم سار لمقابلة الموسقو أمام مدينة

نروا وكان ذلك فى شهر نومبر وقت الثلج والصقيع
وفى الثامن عشر من هذا الشهر ذهب الجار الى اقليم نووغرود لانه كان جازما بأخذ تلك المدينة واخذ معه خصيصه منزيقوف وكان وقتئذ برتبة ملازم فى بلوك الجبرجية بالاى بريوبازنسكى ثم ارتقى فى هذا الوقت من هذه الى رتبة سرعسكر وانتظم فى سلك الامراء فكان شأنه فى السعد عجيبا وامره فى الاقبال غريبا فهو جدير فى غير هذا المقام بالاطناب وبسط الكلام
وفوّض بطرس امر العساكر والمحاصرة الى الامير كرواى وكان اصله من فلندرة دخل فى خدمة الجار منذ مدة يسيرة واناط الامير دلغروكى بمباشرة الجيوش فوقع بين هذين الاميرين من الغيرة والمنافسة ما لامزيد عليه فكان ذلك بانضمامه الى غيبة الجار عن عسكره من جملة الاسباب التى افضت بهم الى الهزيمة فى واقعة نروا مع أن ذلك كان لا يخطر بالبال ثم ان كرلوس الثانى عشر خرج من البحر فى شهر اقطوبر هو وجيوشه على مدينة برناو باقليم ليوونيا وسار بهم جهة الشمال حتى وصل الى مدينة رويل وكان هنالك طائفة من الموسقو نزلت بهذا الموضع فشن الغارة عليها وهزمها ثم سار ولاقى طائفة اخرى منهم فهزمها ايضا فلما عاد المنهزمون الى معسكرهم أمام مدينة نروا اوقعوا الرعب والفزع فى قلوب اصحابهم وكان ذلك فى شهر نومبر فى أوان البرد والثلج وكانت هذه المدينة قد اشرفت على التسليم مع أن محاصرة الموسقو لها لم تكن محكمة على ما ينبغى ولم يكن مع هذا الملك الشاب اعنى كرلوس الثانى عشر من العساكر الا تسعة آلاف وكذلك لم يكن معه من المدافع ما يقاوم به مدافع العدو اذ لم تكن مدافعه الا عشرة وكانت المدافع الموسقوية مائة وخمسة واربعين مدفعا محاطة بالكرانك والمتاريس وجميع اخبار ذلك العصر ونصوص سائر المؤرخين متفقة على أن العساكر الموسقوية فى واقعة نروا كانت عدتهم ثمانين الفا واما ما وصل الىّ فى هذا الشان من الاخبار فصريحه أنهم ستون الفا وفى غيرها أنهم اربعون الفا فقط وعلى كل فالمحقق المجزوم به أن كرلوس لم يكن معه الا تسعة آلاف من غير زيادة

وأن هذه الواقعة هي احدى الوقائع الدالة على أن الفئة القليلة كم غلبت فئة كثيرة وحازت عليها النصرة العظيمة واول تلك الوقائع واقعة او بل (بين اسكندر و دارا)

(۳۰ من شهر نومبر)

ثم ان كرلوس الثاني عشر لم يتردد في شأن الحملة بجيشه القليل العدد على الجيش الموسقوبي الجرار بل انتهز فرصة رياح عاصفة وثلوج عظيمة كانت تقذفها تلك الرياح على العدو وفشن الغارة على كرانكهم ومتاريسهم مستعينا في ذلك بعدة مدافع محكمة الوضع فدهم الموسقو ماصاروا به لا يميز بعضهم بعضا والثلوج متراكمة عليهم هاملة على وجوههم واظلم عليهم الافق بالضباب والغمام وصعقوا من اصوات المدافع الاسوجية التي كانوا يسمعونها ولا يبصرونها ولم يخطر ببالهم أن عدد العدو من القلة على هذا القدر

فعند ذلك اراد الدوق دوكرواى أن يأمر الجيش باوامر تخص الحركات العسكرية فابى ذلك الامير دلغروكى وامتنع من قبوله فقامت الضباط الموسقوبية على الضباط النيمسلوية وقتلوا كاتب الدوق المذكور والمير الاى لبون وجماعة من الضباط وترك كل ذي وظيفة وظيفته ووقع الرعب والفزع في قلوب العساكر وداخل الخوف سائر الجيش ووقع فيه الاختلال وسوء الحال فلم ير الاسوج في العساكر الموسقوبية من يصادمهم في الحرب وانما صاروا يفتكون برجال هاربين و يقتلون عساكر فارين وقد جد جماعة من الموسقو في الفرار حتى ألقوا انفسهم في نهر نروا وغرق فيه كثير من عساكرهم ومنهم من ألقى سلاحه وتمثل بين يدى الاسوج جاثيا على ركبتيه يطلب الامان واما الدوق دوكرواى والجنرال ألارد وكذلك الضباط النيمسلوية الذين كانوا لقيام الضباط الموسقوبية عليهم يخشون بأسهم اكثر من الاسوج فذهبوا جميعا الى القونتة استانبوك وسلموا له في انفسهم وخر على اقدام ملك اسوج ثلاثون ألفا من المغلوبين وألقوا اسلاحهم بين يديه ومروا أمامه حاسرين رؤسهم وكان وقتئذ قد استولى على الطوبجية عن آخرهم وسلم له ايضا

الامير دولغروكى وسائر الجنرالات الموسقوبية والنمساوية ولم يعلم الموسقو
أن عدد العدو الذى قهرهم وبدد شملهم ثمانية آلاف الا بعد الهزيمة والتسليم
وكان من جملة الاسرى ابن ملك كرجستان فبعثه الاسوج الى مدينة
استخلم بمجرد القبض عليه وكان يدعى ميتيلسكى كزاروبتز اى ابن
الكزار وهو المعبر عنه بالچار ومعناه ملك زاده ويؤخذ من هذا الاسم
أن لفظة كزار او تزار ليست مأخوذة من مادة كلمة قيصر التى هى
لقب لقياصرة الروم
ولم يقتل من عساكر كرلوس فى هذه الواقعة الا الف ومائتان واما العساكر
الموسقوبية فلم يزد من قتل منهم فى محاصرة نروا وواقعتها ومن غرق فى النهر
عند الفرار عن ستة آلاف نفس حسبما هو مسطر فى الغازيطة الموسقوبية
التى ارسلت الى فى هذا الشان من مدينة بتربورغ والذى اوجب لهم
ماحل بهم فى هذه الواقعة انما هو عدم انتظامهم وما لحقهم من الرعب وهول
هذا الخطب وكان عدد من اسر منهم فيها بقدر عدد الغالبين اربع مرات بل ذكر
المولف نوربرغ أن القونتة بيبير الذى اسره الموسقو لامهم على
كون من اسر منهم فى هذه الواقعة اكثر عددا من العساكر الاسوجية ثمان
مرات فان صح هذا كان جملة من اسره الاسوج من الموسقو اثنين
وسبعين الفا ومن هنا يعلم أن الوقوف على حقائق الاشياء تفصيلا من حيز النادر
الذى لا يكاد يوجد هذا ومن العجيب الواقعى الذى لا ينكر أن ملك اسوج اذن
لنصف العساكر الموسقوبية أن يعودوا الى وطنهم مجردين عن السلاح وللنصف
الآخر أن يعدوا نهر نروا حاملين اسلحتهم ويرجعوا الى بلادهم فترتب على
هذا الائتمان الغريب أن عادت للچار جيوشه التى بعد تمرنها على الحركات
العسكرية آل امرها الى أن صارت مهابة يخشى بأسها وتخاف صولتها وبطشها
وقد نال كرلوس الثانى عشر من سلب الموسقو وغنائمهم ما يناله
ملك انتصر على عدوه وهزمه فقد غنم منهم جميع مهماتهم التى كانت فى المخازن
واخذ ايضا سفن النقل وكانت مشحونة بالزاد والذخائر وكذلك جميع

الادوات

الادوات التى تركوها اوسلبت منهم بطريق القهر والغلبة وصارت تلك الجهة تحت تصرف الاسوج واستولوا على مدينة نروا فهكذا كانت عاقبة تلك الواقعة ولما لم يبق للموسقو اثر فى تلك الجهة صار الاقليم بتمامه الى مدينة بلسكو مفتوح الابواب مسلما للطالب وظهر أن الجار ليس عنده من الطرق والوسائل مايقدر به على مقاومة عدوه بخلاف ملك اسوج الذى غلب ملك دانيمرقة وملك له وملك الموسقو وحاز النصرة عليهم فى اقل من سنة فانه صار يعتبر كأنه اول رجل فى بلاد اوروبا مع أنه اذذاك كان صغير السن بحيث لايجسر مثله على أن يشهر نفسه و يخرج عن طوره و ينتظم فى سلك الرجال الاأن بطرس لقوة عزمه وشدة ثباته لم يثبطه ذلك عن تنجيز شئ من مشروعاته ولم يحمله على العدول عن مقاصده واغراضه

ثم ان بعض قسوس الموسقو انشأ بعد هزيمة اصحابه استغاثة للمارى نقولاوس تتعلق بمادهمهم من هذا الكرب وصارت تقرأ فى البلاد الموسقوبية و يستغاث بها وكان مما اشتملت عليه هذه الاستغاثة التى يعرف بها سخافة عقول الموسقو فى ذالك الوقت وتدل على فرط الجهالة التى انقذهم منها بطرس أن الاسوج المهولين الخارجين عن اطوار البشر ليسوا الاسحرة وكانت تتضمن ايضا بث شكواهم لهذا القديس حيث لم يمدهم برعايته ولم ينظر اليهم بعين عنايته وهذا بخلاف ماعليه قسوس عصرنا هذا فانه لايصدر عنهم مثل هذا الامر وقد ظهر فيما بعد أن الاليق بهذه الاستغاثة أن تكون لبطرس لاللمارى نقولاوس وليس ذلك من باب انتقاص هذا القديس والقدح فيه

(الفصل الثانى عشر)

فى ذكر ماسعى فى تحصيله بطرس بعد واقعة نروا من الوسائط والوسائل وجبر ماترتب على هذه الواقعة من الخلل وفى الفتح الذى اكتسبه قريبا من نروا ومابداه فى دولته من الاشغال وفى الكلام على المرأة التى اخذت

سيبانى اغتنام بعض المدن ثم تلقبت اذذاك بلقب الايمبراطورة وفى ذكر
ماحظى به بطرس من النجاح والظفر وموكبه الحافل بمدينة موسكو
لماترك الجار جيوشه أمام مدينة نروا فى اواخر شهر نومبر سنة
١٧٠٠ من الميلاد قاصدا ملك له لاجل المفاوضة معه بلغه فى اثناء
الطريق نصرة الاسوج على عساكره وكان الجار ذا عزم وثبات كما كان
كرلوس الثانى عشر صاحب جسارة وعناد فأخر المفاوضة مع اغسطوس
ملك له الى وقت آخر وبادر الى ما يكون به جبر ما وقع فى مصالحه من الخلل
وسعى فى اصلاح ما فسد منها فاجتمعت الجيوش الموسقوبية بعد تفرقها وتبدد
شملها وذهبت الى مدينة نووغرود الكبرى ثم قصدت مدينة بلسكو التى
على بحيرة بيبوس

(سنة ١٧٠١)

ولا يخفى أن ما صدر من الموسقو من الاستمرار والمداومة على محاماة انفسهم
والذب عنها بعد ما لحقهم من الهزيمة الفاحشة ينتظم فى سلك الامور العظيمة
ويعد من الاشياء المهمة الجسيمة وقد قال بطرس انى لاعلم أن الاسوج
يفوقون علينا مدة مديدة ثم يؤول الامر الى أن نتعلم منها كيف نغلبهم

ولما جهز بطرس ما يلزم من المواد الاولية وامر بتجنيد الجنود من سائر
جهات مملكته بادر بالذهاب الى مدينة موسكو وامر فيها بسبك
المدافع لان جميع ما كان عنده منها اخذ فى واقعة نروا وكانت مادة الخليط
المسمى التوج اذذاك لاوجود لها فجمع النواقيس من الكنائس والاديار
ليصنعها مدافع وهذه الفعلة كما انها لاتدل على أن صاحبها ذو اوهام فاسدة
لاتدل ايضا على أنه قد الحد بها وكفر بارتكابها فصنعوا من تلك النواقيس مائة
مدفع من المدافع الكبيرة ومائة وثلاثة واربعين من غيرها مما يصلح للسفر والنقل
يحمل الواحد منها ثلاثة ارطال فاكثر الى ستة من الرصاص وصنعوا منها ايضا
اهوانا وبمبا وارسل ذلك كله الى مدينة بلسكو ثم انه فى غير بلاد الموسقو
يأمر الملك بما يريد ثم يجرى العمل على مقتضى امره بواسطة نوابه ووكلائه
بخلاف البلاد الموسقوبية فى ذلك الزمن فان الاحوال اذذاك كانت تقتضى

أن

أن ملكها بطرس يباشر العمل بنفسه وفي اثناء اشتغاله بتحصيل اللوازم والادوات تعاهد مع ملك دانيمرقة على أن يمده بثلاثة آلايات من المشاة ومثلها من الخيالة لكن لم يمكن لهذا الملك الاقدام على الوفاء بذلك
وفي السابع والعشرين من شهر فبرية بمجرد وضع القرار على هذه المعاهدة بادر بطرس بالذهاب الى ميدان الحرب وذهب الى مدينة برزان على ضواحي اقليمي كورلندة ولوثيانيا ليقابل فيها الملك اغسطوس ويحمله على أن لا يزال مصمما على ما كان عازما عليه من محاربة ملك اسوج حيث اقتضت الاحوال ذلك وقتئذ كما اقتضت ايضا معاهدة مشورة الدييتة بمملكة له وادخالها في هذا الحرب اذ من المعلوم أن ملك له ليس الا رئيس جمهورية بخلاف الجار فكان له الحظ الاوفر في مملكته من حيث نفوذ الكلمة وامتثال الامر واما ملوك له وانكلترة وكذلك ملوك اسوج الآن فلا يبتون امرا الا بعد المفاوضة فيه مع رعاياهم وقد حضر مجلس المذاكرة في هذا المعنى بطقول وغيره ممن كان من اللاهيين من حزب ملك له ووعدهم بطرس أن يمدهم بمبلغ من الاموال وبعشرين الفا من العساكر ولو انضمت مشورة الدييتة الى ملكها والتأمت معه واعانته على استرجاع اقليم ليونيا لعاد هذا الاقليم الى مملكة له والتحق بها ثانيا لكن ما ابداه لها بطرس في هذا المعنى لم يغلب على ما كان عند اربابها من الرهبة والخوف بل كان تأثيره دون ذلك فان اللاهيين كانوا يخشون مضايقة اهل سكس والموسقو جميعا وكانوا ايضا يخشون بأس كرلوس الثاني عشر اكثر من ذلك فمن ثم عزم جمهورهم على عدم خدمة ملكهم وعلى عدم القتال رأسا
فترتب على ذلك أن من بقي منهم مع ملك له حقد على من امتنع من الدخول في خدمته والانقياد لامره وادركهم من ذلك غيظ شديد فان اغسطوس كان يريد استرجاع اقليم كبير كان قد تغلب عليه الاسوج ونشأ عن ذلك حرب داخلي بينهم
ولما رأى بطرس ان حليفه اغسطوس ضعيف الشوكة وأن العساكر

السكسونية انما هي امدادات واهية وأن هيبة كرلوس الثانى عشر قد انطبعت فى قلوب الناس من سائر الجهات عزم على أن لا يعول فى هذا الغرض الاعلى قواه العسكرية وجيوشه الحربية لاغير

(غرة شهر مارث)

وكما أنه جاء من مدينة موسكو الى اقليم كورلندة بقصد الاجتماع على اغسطوس رجع من هذا الاقليم الى المدينة المذكورة ليبادر بتجهيز ما وعد به فامر الامير روبنان أن يتوجه باربعة آلاف جهة مدينة ريغا على شواطئ نهر الدونا حيث نزلت الجيوش السكسونية

وقد ازداد الرعب والفزع فى قلوب الناس حين مر كرلوس بهذا النهر مع أن السكس كانوا وقتئذ نازلين على الشاطئ الآخر فى وضع حسن وكيفية محكمة وفاز بالنصرة التامة فى تلك الجهة وشمع اقاليم كورلندة وادخله تحت طاعته على وجه السرعة وكذلك حين رأوه قد توغل جهة اقليم لوثيانيا ورأوا أن الحزب اللاهى الذى تخلى عن اغسطوس قد تقوى وتعضد بهذا الملك المنصور

واما بطرس فلم يعدل عن شئ من مآربه بل ما زال مصمما على ما عزم عليه وكان بطقول هو الذى عليه مدار مذاكرة برزان وكان قد دخل فى خدمة الجار فاحضر ضباطا نمساوية وادخلهم فى خدمته ورتب الجيوش الموسقوبية واحكم نظامها وقام لدى الجار مقام الجنرال لوفورت واكمل ما كان ابتدأه هذا الجنرال وكان كل من اراد الدخول فى خدمة الجار من الضباط او العساكر النمساوية او اللاهية او الليونية يعطى لهم على طرفه ما يلزم لهم من خيول البريد ويجدد لهم ايضا ما يلزم من الملابس والمؤونة ولامة الحرب كالدرع والخودة

ثم انه يوجد على اطراف اقليمى ليونيا واستونيا فى غربى اقليم نووغرود بحيرة بيبوس الكبرى التى يصب فيها من جهة جنوب اقليم ليونيا نهر ووليكا ويتفرع عنها من جهة الشمال نهر نروا المتصل بجدران تلك المدينة التى انتصر بقربها الاسوج النصرة الشهيرة وطول هذه البحيرة

ثلاثون فرسخا من الفراسخ الفرنساوية المعتادة وعرضها تارة يكون اثني عشر فرسخا واخرى خمسة عشر هذا وقد كان من اللازم أن يكون تلك البحيرة دونها موسقوبية لتمنع السفن الاسوجية من التعدى على اقليم نووغرود وليتيسر بها للموسقو عند اقتضاء الحال الخروج على السواحل الاسوجية لاسيما وتكون منشأ لعساكر بحرية جديدة فلذا انشأ بطرس فى ظرف سنة ١٧٠١ مائة سفينة تسع الواحدة منها نحو خمسين رجلا وسلح سفنا اخرى للحرب فى بحيرة لادوغا وكان يدير تلك الاشغال بنفسه فكان يباشر تعليم من تجدد من العساكر البحرية واما العساكر الذين كانوا سنة ١٦٩٧ فى بحر ازاق فكانوا يومئذ فى بحر بلطق وكان بطرس يترك هذه المصالح فى اغلب الاحيان ويذهب الى مدينة موسكو وغيرها من الاقاليم لاجل تمكين ماشرع فى ابداعه وتجديده من الامور المحدثة وتجديد امور اخرى واستدامة ذلك والمواظبة عليه

ولا يخفى أن الملوك الذين يشتغلون فى ايام الصلح بالاشغال العامة والامور النافعة يتخلد بذلك ذكرهم على مدى الليالى والايام وذلك أن بطرس بعد ما لحقه فى واقعة نروا من المصائب اشتغل بوصل كل من بحر بلطق وبحر الخزر والبحر الاسود ببعضها بواسطة خلجان اذ فى ذلك من الفخار ما يفوق فخار النصرة ففى سنة ١٧٠٢ اخذ فى حفر الخليج العميق الواصل من نهر طنايس الى نهر الاثل وكان مرامه أن يحفر ايضا خلجانا اخرى لتتصل بواسطة بحيرات نهر طنايس بنهر دونا وكلاهما يصب فى بحر بلطق من جهة مدينة ريغا الا أن هذا المشروع كان متعسرا على الجار اومتعذرا حيث كان يبعد عليه أن يستولى على تلك المدينة ويدخلها تحت حكمه

وحين كان كرلوس الثانى عشر يخرب مملكة له كان بطرس يجلب منها ومن مملكة سكس الى مدينة موسكو رعاة واغناما ليجز اصوافها ويصنع منها الجوخ الجيد وانشأ فبريقات للاقمشة ومعامل للورق وامر باحضار

الحدادين وصانعى السلك الاصفر والغوندقجية والسباكين وكان اذذاك
مشتغلا باستخراج معادن سبير وكان ايضا يشتغل بما فيه ثروة مملكته
وغناها وحفظها وحمايتها

واما كرلوس الثانى عشر فلم يكن مشتغلا الا بالفتوحات وكان قد ترك
جهة ممالك القار جملة من الجيوش اعدها لحفظ ما كان لمملكة اسوج
على زعمه من الاراضى التى تغلب عليها فى تلك الجهة وكان قد عزم على خلع
اغسطوس ملك له وأن يقفو اثر القار ويتبعه بعساكره المنصورة حتى
يصل الى مدينة موسكو

وفى هذه السنة وقع بين الموسقو والاسوج بعض وقائع ولم تكن الغلبة فيها
للاسوج دائما بل فى اوقات المصادمات التى ينجعون فيها كان الموسقو
يتمرنون بها ويتعودون على الحرب والقتال وبالجملة ففى ظرف سنة بعد واقعة
نروا تحصل عند القار من الجيوش المتعلمة المتمرنة على الحركات العسكرية
ما انهزم به اعظم جنرالات كرلوس

(سنة ١٧٠٢) وذلك أن بطرس وهو بمدينة بلسكو ارسل من سائر الجهات فرقا
عسكرية لاجل هزيمة الاسوج فانهزموا وكان الهازم لهم من
جنود الموسقو لا من الجنود الاجانب وذلك أن شرمتوف وهو جنرال
موسقوبى حمل على الجنرال اسليپنباك وهو جنرال اسوجى حملة عظيمة
واخذ منه عدة معسكرات بقرب مدينة دربت ثم قاتله بنفسه وكان اول
ما سلبه الموسقو من الاسوج اربعة الوية ومثل هذا يعد عظيما بالنظر
لحالتهم فى ذاك الوقت

وبعد ذلك بمدة يسيرة صار كل من بحيرة پيپوس وبحيرة لادوغا ميدانا
للوقائع الحربية البحرية وكان للاسوج بهاتين البحيرتين من المزايا ما كان
لهم فى البر من الضبط والربط والانتفاع بسائر وجوهه ومع ذلك كان الموسقو
فى بعض الاحيان يقاتلون الاسوج فى سفنهم وينتصرون عليهم فقد اخذ
(فى شهر مايه) السر عسكر شرمتوف فى واقعة عامة ببحيرة پيپوس فرقاطة

اسوجية

اسوجية

وكان الجار بواسطة هذه البحيرة يهدد دائما اقليمي ليونيا واستونيا
وذلك أن سفنه كانت في الغالب تأتي الى هذين الاقليمين بعدة الايات تمكث هنالك
ثم ان لم تكن الغلبة لهم رجعوا فيها والا تبعوا مافيه منفعتهم واستمروا على
القتال وفي شهري يونيه ويوليه انتصر الموسقو على الاسوج
مرتين في معسكراتهم مع أن النصرة كانت لهم في سائر الجهات
وكان الموسقوا اكثر عددا من الاسوج في سائر الوقائع والحركات الحربية
فلذا كان كرلوس الثاني عشر الذى كانت النصرة له في غير هذا الوقت لا يتأثر
اصلا من نجاح الجار وانتصاره عليه ولكن آل امره بعد ذلك أن عرف أن هذه
الجيوش الكثيرة الموسقوبية قد تمرنت بتداول الايام على الحرب والقتال
وانه لا مانع من أنها تصير خطرة عليه
وفي شهر يوليه حين كان القتال واقعا بين الفريقين برا وبحرا جهة اقاليم
ليونيا وأنغريا واستونيا بلغ الجار أن دونمما من الدونمات الاسوجية
تعينت لتخريب اقليم ارقنجل فقصد هذا الاقليم فلم يشعروا الا وهو على
شواطئ البحر المنجمد فتعجب الناس حين بلغهم أنه حضر الى تلك الجهة
حيث كانوا يعتقدون أنه في مدينة موسكو فاخذ يسعى فيما تكون به حماية
ذلك الاقليم وتحصينه وسلك مسلك الحزم والتبصر في شأن الاغارة عليه فرسم
بنفسه صورة قلعة دوينا الجديدة ووضع اول حجر من اساسها ثم عاد الى مدينة
موسكو وسار منها الى ميدان الحرب
وحين كان كرلوس يتوغل في مملكة له كان الموسقو يتوغلون ايضا
في اقليمي أنغريا وليوونيا فذهب السرعسكر شرمتوف الى قتال
الاسوج الذين كانوا تحت قيادة الجنرال اسليبنباك فوقعت بينهما واقعة
قريبا من أنباك وهو نهر صغير هنالك وكانت النصرة فيها للجنرال شرمتوف
وسلب من الاسوج ستة عشر لواء وعشرين مدفعا هذا وقد ذكر المؤرخ
نوربرغ أن هذه الواقعة كانت في غرة شهر دقمبر سنة ١٧٠١ وهو مخالف

لما نصت عليه غازيطة بطرس من أنها انما كانت فى التاسع عشر من شهر يولية سنة ١٧٠٢

ثم ان شرمتوف توغل فى الفتوحات وصار يضرب على كل محل فتحه مغارم جسيمة وتغلب على مرينبورغ وهى مدينة صغيرة على حدود اقليمى ليوونيا وأنغريا ثم انه يوجد فى بلاد الشمال مدن كثيرة تسمى بهذا الاسم الا أن هذه المدينة اشهر من غيرها فى سيرة الايمبراطورة كاترينة وان كانت لا وجود لها الآن

وذلك أنها لما سلمت بدون مشارطة اوقد الاسوج النيران فى مخازنها سهوا او عمدا لخنق لذلك الموسقو وهدموها واسروا اهلها عن آخرهم وكان من جملة الاسرى بنت اصلها من اقليم ليوونيا وكان رباها قسيس لوثريانى يقال له غلوك كان بهذه المدينة ثم صارت من يومئذ ملكة الموسقو الذين اسروها وحكمتهم فيما بعد بلقب الايمبراطورة كاترينة

نعم وان شوهد أن النساء بنات البلد اللاتى لسن من الامراء جلسن على سرير الملك بزواج الملوك لاسيما بالبلاد التى تزوج الملوك فيها بالنساء من رعاياهم من الامور المتواترة العامة كبلاد الموسقو وممالك آسيا الا أن ارتقاء امرأة اجنبية سبيت فى تخريب مدينة الى منصب الملوكية واطلاق التصرف فى امة اسرتها هو مما لم يسمح به الدهر لانسان * ولم يثبت فى خارج العيان * ولم نرقبلها فى الكتب التاريخية * أن الفضل والاقبال يصلان بصاحبهما الى مثل هذه الدرجة العلية * من اطلاق تصرف الارقاء فى السادات * وملك زمام دولة الاحرار الجارية فى سلطنة افرنجية من اعظم الولايات

ثم ان الموسقو لم يزالوا باقليم أنغريا على الظفر والنجاح فان الدونما الموسقوبية التى كانت ببحيرة لادوغا جبرت الدونما الاسوجية على أن تذهب الى ويبورغ وهى مدينة على احد اطراف هذه البحيرة الكبيرة فنظر الاسوج منها الى الطرف الآخر فاذا الموسقو قد حاصروا فيه قلعة نوتبورغ وكان الجار قدام الجنرال شرمتوف بهذه المحاصرة فكان

نفع هذا المشروع اعظم مما كان يؤمل اذ بالاستيلاء على تلك القلعة صار للبحار وصلة وعلاقة ببحر بلطق وكان ذلك من المشروعات التى كانت دائما مطمح نظره ولا تبرح عن فكره

وكانت هذه القلعة حصينة متينة وهى مبنية فى جزيرة ببحيرة لادوغا ولما كانت بحسب وضعها مشرفة على هذه البحيرة كان لصاحبها الصولة على مجرى نهر نوا الذى يصب فى البحر (اى بحر بلطق) وقد مكث الموسقو فى حواليها ليلا ونهارا من الثامن عشر من شهر سبطمبر الى آخر شهر اقطوبر ثم آل امرهم أن تسلقوا عليها بعد أن نقبوها وجعلوا فى جدرانها ثلاثة شروم قاصدين الاغارة والهجوم وكان قد آل امر من بها من محافظى الاسوج أن قل عددهم حتى لم يكن بها من العساكر الذين يمكنهم الذب والمدافعة الا مائة نفر فكان من العجيب أن مثل هذه الشرذمة القليلة تدافع عن نفسها حق المدافعة فلم تبرح عن الشروم حتى نالت من العدو شروطا لا تخل بشرف عرضهم ولا تزرى بعلو انفسهم وزيادة على ذلك شرط عليهم اسليبنبالك حكمدار القلعة فى السادس عشر من شهر اقطوبر أنه لا يسلم فيها الا اذا رضوا بأنه يحضر ضابطين من ضباط الاسوج من اقرب الجهات الى تلك القلعة ليعاينا الشروم التى بالجدران ويخبرا سيده (يعنى كرلوس) بأن من بقى من العساكر المقاتلين وهم ثلاثة وثمانون وكذلك الجرحى والمرضى الذين عدتهم مائة وستة وخمسون نفسا لم يسلموا فى انفسهم لجيش تام الا لكونهم رأوا أنه يتعذر عليهم حفظ القلعة والاستمرار على القتال مدة طويلة وهذا بمفرده يدل على شدة بأس عدو الجار وعظم صولته وعلى أن بطرس مجبور ومضطر غاية الاضطرار الى بذل وسعه فى الضبط والربط والتربية العسكرية

ثم ان بطرس اتحف ضباطه بنشانات دلائل الفخار المصطنعة من الذهب علامة على الشرف لاعلى الرتب العسكرية وكافأ جميع العساكر بالانعام غير أنه عاقب منهم جماعة كانوا قد هربوا عند الحملة والهجوم فامر اخوانهم

من العساكر أن يبصقوا على وجوههم ويضربوا عليهم بالمكاحل حتى يذوقوا العذاب والخزى فى آن واحد

ثم اخذ فى اصلاح قلعة نوتبورغ وترميمها وسماها شلوسلبورغ ومعناه مدينة المفتاح لانها مفتاح اقليمى انغريا وفنلندة وولى عليها منزيقوف فكان اوّل حكمدار اتها وكان قد انتظم فى سلك الضباط العظام وكان جديرا بذلك لما ابداه من الشجاعة والشهامة وهذا مما يقوى رغبة اولى الفضل و يستميل قلوبهم وان لم يكونوا من ذوى الحسب والنسب

و بعد أن انقضت هذه الواقعة التى كانت فى سنة ١٧٠٢ اراد الچار فى السابع عشر من شهر دقبر أن شرمتوف واضرابه ممن ابدى الشجاعة فى الحرب يدخلون مدينة موسكو بموكب واحتفال فكان من معهم من الاسرى يمشى خلف المنصورين وجعلوا أمامهم اعلام الاسوج وألويتهم وكذلك صنجق الفرقاطة الاسوجية التى اخذوها فى بحيرة بيبوس وكان بطرس قد باشر بنفسه تجهيز هذا الموكب كما أنه اشتغل بالمشروعات التى ترتبت عليها هذه الابهة والاحتفال

ومثل هذا الاحتفال مما يستدعى التنافس والغيرة والا كان من الامور المستهجنة التى لا طائل تحتها وكان كرلوس يحتقر ذلك ولا يعبأ به وكان منذ واقعة نروا ينظر الى اعدائه بعين الازدراء والاحتقار و يستصغر هممهم ويحتقر مواكبهم

(الفصل الثالث عشر)

فى ذكر ما حصل بمدينة موسكو من التغيير والتبديل وما اكتسبه بطرس من النصرات وفى تأسيسه مدينة بتربورغ اى مدينة بطرس واستيلائه على مدينة نروا وغير ذلك

قد اشتغل الچار فى المدة اليسيرة التى اقامها بمدينة موسكو من اوائل فصل الشتاء سنة ١٧٠٣ باجراء ما جدده من القوانين وتحسين الاصول الملكية والجهادية وصرف اوقات حظه ودعته فيما يذيق به رعيته لذة العيش

والحياة

والحياة التى احدثها بينهم فدعا جميع امراء دولته رجالا ونساء الى وليمة نكاح
كانت لاحد السترية الخاصين به وامر أن كل من حضر هذه الوليمة يكون
لباسه على العادة القديمة فحضرت الموائد على منوال ما كان جاريا فى القرن
السابع عشر وكان من العوايد والاوهام القديمة أن لا توقد النار فى ايام اشهار
النكاح ولو فى زمن شدّة البرد فجرى العمل على هذه العادة فى مدّة النكاح
المذكور مع غاية المحافظة والتدقيق وكان ايضا من عوايد الموسقو القديمة
انهم لا يشربون النبيذ وانما يتعاطون شراب العسل والعرقى فامر الجار
أن لا يشربوا خلاف ذلك فشكوا اليه من هذا الامر ولم تجد شكواهم نفعا بل
اجابهم متهكما بقوله هكذا كان اسلافكم وان العوايد القديمة اولى بالاتباع فكان
هذا التهكم معينا على ازالة الاوهام من قلوب من يؤثر العوايد القديمة على
الجديدة والافلا اقل من كونه يسكن ماعندهم من الحنق والغيظ من الامور
الحادثة ومن الامم من هو محتاج الى مثل هذا الارشاد

ومما احدثه بطرس من الامور النافعة دار الطباعة التى جعل حروفها
موسقوبية ولاطينية وكان قد جلب جميع آلاتها وموادّها من بلاد الفلمنك
وكان اوّل ماطبع فيها بعض كتب ترجمت الى اللغة الموسقوبية تشتمل على آداب
وفنون وجدّد المعلم فرغسون مدارس لتعلم العلوم الهندسية والفلكية
والبحرية

وجدّد بطرس ايضا ماليس دون المتقدّم فى النفع وهو اسبتالية كبرى لم تكن
كغيرها من الاسبتاليات التى تعين على البطالة والكسل واستدامة الفقر
بل جعلها على منوال ماعاينه فى مدينة امستردام من الاسبتاليات التى
يشتغل فيها الشيوخ والشبان بحيث لا يخلو من مكث بها عن العمل والاشتغال
بما فيه المنفعة

وكذلك احدث عدّة ورشات و بمجرّد ماحصل الاشتغال بالفنون والصنايع
الجديدة التى ابدعها بمدينة موسكو ذهب الى مدينة ورونيزه وامر
بصنع سفينتين تحمل الواحدة منهما ثمانين مدفعا و يكون بهما صناديق مستطيلة

محكمة القفل توضع تحت مدهما السافل لتكونا مرتفعتين عما يصادفهما من تلال الرمال التى بقرب بحرازاق ولا تكونا عرضة للخطر عند المرور بها وهذه الصناعة قريبة مما يصنع فى بلاد الفلمنك لاجتياز فرع بنبوس (٣٠ من شهر مارث) ولما جهز ما كان يقصده من المشروعات لاجل محاربة الدولة العثمانية بادر بالسير الى الاسوج وذهب ليعاين ما امر بانشائه من السفن فى ترسانات مدينة اولونتز التى هى بين بحيرتى لادوغا واونيغا وكان قد انشأ بها فبريقات لعمل الاسلحة فكان يترآى من حالها أنه عازم على الحرب وبينما كان يشتغل فى مدينة موسكو بما لا يتصدّى له عادة الا فى زمن السلم والصلح مما تكون به الفنون زاهية زاهرة اذا استكشفوا بمدينة اولونتز منبع مياه معدنية فازدادت بذلك شهرة تلك المدينة وانتشر ذكرها ثم ذهب منها الى قلعة شوسلبورغ لاجل تحصينها

وقد اسلفنا أنه كان مرامه ان يحوز لنفسه الرتب الجهادية على الترتيب وكان وقتئذ برتبة ملازم اول فى الجبرجية تحت رياسة خصيصه منزيقوف قبل أن يتولى حكمدارية شلوسلبورغ فترقى الى رتبة يوزباشى تحت رياسة السرعسكر شرمتوف

وكان على القرب من بحيرة لادوغا قلعة عظيمة مهمة يقال لها قلعة نيانز او نيا وهى قريبة ايضا من نهر نوا وكان لابدّ للچار من الاستيلاء عليها حتى يمكنه الاستمرار على فتوحاته وتنجيز اغراضه ومشروعاته فاقتضى الحال أن يحاصرها برًّا ويمنع وصول المدد اليها بحرا فالتزم أن يسير بنفسه سفنا مشحونة بالعساكر لطرد السفن الاسوجية التجارية والحربية (وفى الثانى عشر من شهر مايه) حفر شرمتوف خنادق توصل الى تلك القلعة فسلمت واتفق أن سفينتين من السفن الاسوجية رستا عليها بعد ذلك بقصد اسعافها واعانتها فانقض عليهما الچار وظفر بهما واستولى عليهما وفى غازيطة بطرس أن غلوين قبودان باشا كافأ هذا اليوزباشى الجبرجى (يعنى بطرس) على هذه الخدمة بنشان افتخار بأن لقبه بلقب شواليه مارى اندروس وكان هذا

القبودان

القبودان اعظم رجال هذه الرتبة

وبعد استيلائه على هذه القلعة عزم على بناء مدينته المسماة بتربورغ على مصب نهر نوا الذي على خليج فنلندة

ثم ان الملك اغسطوس لم يدرك ما كان يؤمله من الاغراض والمصالح وذلك أن الحزب الذي كان متحزبا عليه تمكن وتقوى بما حازه الاسوج من النصرات المتوالية ببلاد له والحزب الذي كان معه حمله على أن يرد للجار نحو عشرين الفا من الموسقو كانوا عنده بقصد اعانته وتقوية جيوشه زعما منهم انه بحرمانه من هؤلاء العساكر الموسقوبية تنقطع حجة الحزب الآخر في انضمامه الى ملك اسوج ولكن من المعلوم أن الانسان لا يقمع عدوه ويرغم انفه الا بالقوة والسلاح ولا يطمعه ويقويه الا بالضعف والتساهل وكان عساكر الموسقو المذكورون قد علمهم بطقول الفنون الحربية والحركات العسكرية وكانوا قد خدموا في اقليمي ليوونيا وأنغريا مع النفع التام حين كانت عمالك اغسطوس آخذة في التناقص والضياع فكان هذا الامداد بانضمامه الى تملك قلعة نيا معينا للجار على تأسيس مدينته الجديدة مع السهولة وذلك أنه وضع اساس هذه المدينة في فضاء تلك الارض السبخة التي لا تتصل بالبر الا من طريق واحدة وكان وضع اول اساسها في محل على ستين درجة من العرض واربع واربعين ونصف من الطول وكان اول احجار هذا الاساس من آثار بعض بروج قلعة نيانز المذكورة واول ما بدئ به في جزيرة من الجزائر التي في مياه تلك الجهة قلعة صغيرة هي الآن في وسط المدينة وكان الاسوج لا يخشون شيأ من بناء تلك القلعة الموسقوبية الحادثة لأنها موضوعة على بحيرة لا يمكن للسفن الكبيرة أن ترسو فيها ولكن عما قليل رأوا أن الاستحكامات الموسقوبية قد تقدمت وتزايدت وأن المدينة قد تجددت وتكاملت وأن جزيرة كرونسلوت الصغيرة التي هي تجاه تلك المدينة قد صارت في سنة ١٧٠٤ من الميلاد قلعة حصينة لا يمكن الاستيلاء عليها وأن الدونمات العظيمة الراسية عندها لا يخشى عليها من العدو لان مدافع

القلعة تذب عنها وتمانع

وكان انشاء هذه المبانى واجراء تلك الاشغال فى وقت الحروب مع أن مثل ذلك يناسب أن يكون فى زمن السلم وقد احضر الچار من مدينة موسكو وازدراهان وقازان واوقرينة ارباب حرف وصنايع على اختلاف صنايعهم وحرفهم ليشتغلوا فى مدينته الجديدة ولم تفتر همته فى هذا المشروع بصعوبة البناء فى تلك الارض الرطبة التى لابد من تثبيتها وتسويتها حتى تتصلب وتصلح للبناء ولا يبعد ما يلزم لذلك من الاعانات والمساعدات ولا بالعوائق والموانع التى كانت تعرض وقت العمل والتصدى لكل مشروع من غير أن تكون متوقعة حتى يمكن تداركها والتبصر فيها ولا بالامراض الوبائية التى اهلكت من العملة ما جاوز حد الكثرة بل اصاب مدينة فى ظرف خمسة اشهر وان لم تكن اذ ذاك الا عبارة عن عشش مجتمعة وبيتين مبنيين بالطوب ومضروب على ذلك اسوار حسبما كانت تقتضيه الاحوال وقتئذ وانما حصل تتميمها بالاستدمان وتداول الايام ولم يمض من تأسيسها خمسة اشهر الا وحضر اليها فى شهر نومبر سفينة فلمنكية بقصد التجارة معها والاخذ والعطاء فكوفئ رئيس هذه السفينة على ذلك بالانعام عليه وعما قليل عرف الفلمنك طريق مدينة بتربورغ وصاروا يترددون اليها

ولما كان بطرس هو الذى يباشر ادارة النزلاء المنقولين من بلادهم للاستيطان بهذه النزلة الجديدة كان مهتما على مدى الاوقات بما يكون به أمنهم وذلك بانسفلانه على ما جاورها من الاماكن وقد حضر فى هذا الوقت ميرآلاى من اهل الاسوج يقال له كرونيورت على نهر سسترة وهدد هذه المدينة الجديدة وارهب اهلها فاسرع اليه الچار فى التاسع من شهر يوليه واخذ معه آلايين من الورديان الايمپراطورى والجأه الى اجتياز النهر ثانيا والرجوع من حيث اتى ولما امن مدينته واطمأنت قلوب الاهالى بذلك ذهب فى شهر سبطمبر الى مدينة اولنيتز وامر بانشاء عدة سفن صغيرة ثم عاد الى بتربورغ راكبا فرقطونا جددها اذ ذاك ومعه ست سفن من السفن المعدة للنقل منتظرا

تمام الباقى

(شهر نومبر) وفى هذا الوقت كان لم يزل يمدّ بالاعانة اغسطوس ملك لهفارد ل
له من عساكر البيادة اثنى عشر الفا ومن الاموال ثلثمائة الف روبلة وهذا
المبلغ يساوى من الفرنكات الفرنساوية خمسة عشر الفا وقد سبق أن ايراد الچار
السنوى ليس الا خمسة ملايين من نقود الروبلة ومثل هذا المبلغ يلزم أن ينفد
فيما كان يصرفه على دونماته وجيوشه وفيما احدثه من الامور الجديدة فقد
حصن فى آن واحد تقريبا اقاليم نووغرو وپاسكو وكوويا وسمولنسكو
وبحر ازاق واقليم ارخنجل واسس ايضا مدينة بتربورغ تخت مملكته
ومع ذلك كان عنده ما يمد به حليفه اغسطوس من الرجال والاموال
وقد ذكر كورنيل لو بروين الفلمنكى وكان قد ارتحل الى بلاد الموسقو
وتحادث معه كما هى عادته مع الاجانب أن الچار أخبره أنه بقى فى خزينته من
النقود بعد مصاريف الحرب ثلثمائة الف روبلة

ثم انه لاجل أن تكون مدينته الجديدة بعيدة عن أن يتعدى عليها الاعداء ذهب
الى البحر واخذ قياس عمقه بنفسه وعين فيه محلا لقلعة كرونسلوت التى اراد
انشاءها لهذا الغرض وصنع رسمها من الخشب واناط منزيقوف ببنائها
بموجب الرسم وامره أن يبذل همته فى ذلك ثم ذهب فى شهر نومبر الى مدينة
موسكو ليمكث فيها مدة الشتاء ويجرى بها على التدريج ما احدثه من
التغيير فى القوانين والعوايد والاخلاق فرتب امور المالية بطرق جديدة وحث
على تكميل ما امر بانشائه على نهر ويرونيزة وفى مدينة ازاق على
وجه السرعة وكذلك ما امر بانشائه على احدى المينات التى جددها على هذا
البحر تحت قلعة تغانرولك

(شهر يونية سنة ١٧٠٤) وقد لحق الدولة العثمانية من ذلك فزع شديد وارسلت
اليه الچاوش تشتكى من هذه الاستحكامات والتجهيزات فاجاب بأنه السيد
المتصرف فى ملكه كما أن السلطان كذلك وأن جعل الممالك الموسقوبية على
حالة بحيث تكون محترمة مهابة من جهة البحر الاسود لايخل بشروط الصلح

ولا يعدّ نقضا للعهد فى شئ

ثم عاد الجار (فى ٣٠ من شهر مارث) الى مدينة بتربورغ فوجد قلعة كرونسلوت التى كان قد أمر بانشائها قد تم بناؤها وتكاملت بحصنها بالمدافع وكانت مقتضيات الاحوال وقتئذ تستدعى أن يستولى على مدينة نروا ليتقوى فى اقليم أنغريا وليجبر مالحقه من الخلل والخزى امام تلك المدينة فى واقعة نروا فاخذ يجهز مواد المحاصرة فبينما هو كذلك اذ ظهر على بحيرة بيبوس دونانمة صغيرة اسوجية من سفن الصيال حضرت بقصد معارضته فى تنجيز مشروعاته ومآربه فذهبت اليها مراكب الموسقو الصغيرة وصادمتها وهزمتها وغنمتها بتمامها وكان فيها من المدافع ثمانية وتسعون ثم حاصر الموسقو مدينة نروا برّا وبحرا واعجب من ذلك أنهم فى شهر ابريل حاصروا ايضا مدينة دربت باقليم استونيا

ومن ذا الذى كان يظن أن بهذه المدينة مدرسة جامعة كان قد انشأها بها غسطاوة ادولف فان هذه المدرسة لم تزد فى شهرتها بل استمرت على حالها الاوّل اذ لم تزل مجهولة الحال الى وقت هاتين المحاصرتين ومازال بطرس يتردد ذهابا وايابا بين المدينتين المذكورتين لاجل التعجيل بالهجوم وشن الغارة وملاحظة اجراء عمليات الحصار وكان الجنرال الاسوجى المسمى سيلنباك قريبا من مدينة دربت ومعه من العساكر نحو الفين وخمسمائة

وكان الاسوج المحصورون ينتظرون اسعاف هذا الجنرال لهم بالاعانة والمدد فعنّ لبطرس أن يصنع معهم مكيدة حربية قل أن استعملها احد قبله فى الحروب وهو أنه امر أن يلبس الآلايان من البيادة وآلاى من السوارى طقوم آلاى اسوجية ويأخذوا ايضا اعلاما والوية اسوجية فهجم هؤلاء العساكر بهذا الزى الاسوجى على الخنادق واظهر الموسقو الفرار والهروب فاغترّ المحافظون بهذه الحيلة وخرجوا من المدينة فعند ذلك اجتمع الهازمون الذين ظهروا بمظهر الاسوج بالموسقو الذين اظهروا الانهزام وهجموا جميعا على هؤلاء المحافظين (فى السابع والعشرين من شهر يونيه) فقتلوا نصفهم

ورجع النصف الآخر الى المدينة فعما قليل اتى سيلنباك لاعانتهم حقيقة فوجدهم قد حقت عليهم الهزيمة وفي الثالث والعشرين من شهر يوليه اضطرت مدينة دربت الى التسليم وكان قد عزم بطرس على أن يهجم عليها هجوما عاما

ومع ما كان يخسره الجار من الخسارات العظيمة والمضايقات الشديدة في طريق مدينة بترپورغ لم يمنعه ذلك من الاستمرار على بناء تلك المدينة ولم يثبطه عن التعجيل بتتميم محاصرة نروا وذلك أنه كما اسلفنا كان قد بعث الى الملك اغسطوس الذي كانوا يسعون في خلعه عن الملك رجالا واموالا لاجل اعانته فلم يعد عليه هذا المدد بالمنفعة ولم يخرج منه على طائل فان الجنرال الاسوجي المسمى لووانهوپ هزم العساكر الموسقوبية مع من انضموا اليه من اللوثيانيين احزاب اغسطوس (وكان ذلك في الحادي والثلاثين من شهر يوليه) ولو وجه الاسوج المنصورون هممهم نحو اقليمي ليوونيا وأنغريا لامكنهم أن يعطلوا اشغال الجار ويبطلوها بالكلية ولمنعوه من اجتناء ثمرات مشروعاته وحرموه من نيل ما ربه وقضاء لباناته بل كان بطرس اذ ذاك مشتغلا دائما يعمل لغم خارج اسوار اسوج. ولم يكن كرلوس يتعرض له في ذلك تعرضا يصده ويمنعه عن الاستمرار على هذا العمل فانه كان مولعا بالبحث عما يحوز به فخارا ظاهريا وابهة صورية ولم يكن مطمح نظره المصلحة الصحيحة والفائدة الرجيحة

وفي الثاني عشر من شهر يوليه سنة ١٧٠٤ امر واحد من المراكبات الاسوجية كان قائد سرية عسكرية بانتخاب ملك جديد من اشراف مملكة له في الميدان المعد للانتخاب المسمى كولو قريبا من دوقية وارشاو فانقاد لهذا الامر الصادر من ملك لوثريانية كردينال رئيس وعدة من قسوس المملكة مع ما وقع من البابا في هذا الشان من التهديد والدعاء بالحرمان اذ القوة تتغلب على غيرها فهي تأبى الا الاستسلام والانقياد لها وكيفية انتخاب استانسلاس لكزنسقي معلومة وكذلك لا يجهل احد كيف حل كرلوس الثاني عشر

جزأ عظيما من مملكته له على التصديق على انتخابه والاذعان اليه
واما بطرس فلم يتخل عن الملك المعزول (وهو اغسطوس) بل زاد فى امداده واعانته حيث اشتد به الشقاء وسوء الحال وحين كان عدوه (يعنى كرلوس) مشتغلا بتولية الملوك كان هو يهزم امراءه وجنرالاته واحدا بعد واحد فى كل من اقليم استونيا واقليم أنغريا وكان ايضا يتردد الى مدينة نروا لينظر محاصرتها ويشن الغارة عليها عدة مرات وكان بها ثلاثة ابراج تعد من غرائب الدهر كما يؤذن بذلك اسماؤها وهى برج النصر وبرج الشرف وبرج الفخار فاستولى عليها بطرس بالسيف ودخل المحاصرون المدينة واوقعوا بها السلب والنهب مع القسوة التى كانت اذ ذاك بين الموسقو والاسوج
ولكن فعل بطرس باهلها ما استمالهم اليه وحبب فيه هؤلاء الرعايا المستجدين وذلك أنه (فى ٢٠ من شهر اغسطوس) طاف بفجاجها وسائر جهاتها ليمنع عساكره من سفك دمائهم وسلب اموالهم واخذ نسائهم من ايدى السابين وافتكهن منهم بل وقتل منهم اثنين حين اظهروا الحنق والغيظ والنفرة من ذلك واخذ سيفه ملوثا بالدم ودخل دار الحكومة وكان قد التجأ اليها جم غفير من الاهالى ووضع السيف على تختة هنالك وقال مشيرا الى الدم الذى لطخه ليس هذا الدم من دمائكم وانما هو من دم عساكرى سفكته حقنا لدمائكم وانقاذا لمهجكم
(تنبيه ماذكرناه فى الفصول السابقة واللاحقة مأخوذة من غازيطة بطرس ومما ارسل الىّ من مدينة بترբورغ من اللوائح بعد مقابلتها على اللوائح الاخرى)

(الفصل الرابع عشر)

فى بيان كون اقليم أنغريا استقر تحت حكومة بطرس حين كان لكرلوس النصرة فى غير هذا الاقليم وفى ارتقاء منزيقوف واطمئنان مدينة بتربورغ وامنها وتحيز ما اضمره الجار مع انتصار كرلوس عليه نصرات متوالية

لما دخل اقليم أنغريا تمامه تحت حكومة بطرس ولى عليه منزيقوف وقلده حكمه واتحفه بلقب الامير ورقاه الى رتبة رئيس رجال جهادية وربما كان ارباب الكبر والاوهام الفاسدة فى غير هذا العصر يعدون مثل ذلك من الامور المستهجنة ويجعلونه من وضع الاشياء فى غير محالها حيث يرتقى مثل هذا الشاب الذى كان فى الاصل يبيع الفطير الى رتبة جنرال وحكمدار وامير لكن كان بطرس قدعود رعاياه على عدم استغراب ماهو من هذا القبيل من اعطاء كل شئ لارباب الفضل والمعارف من غير التفات الى شرف اصل وعلو حسب ونسب وكان من امر منزيقوف أنه فى حال صغره صادفته العناية فترك حرفته الاولى ودخل فى دار الجار فتعلم عدة السن وتمرن على الامور الملكية والجهادية فلما عرف ما يكون به محبوبا عند سيده ويكسبه الحظوة لديه سهل عليه أن يسلك مسلكا تعرف به اهميته ومنفعته فاجتهد فى تشييد مدينة بتربورغ فبنى فيها عدة بيوت بالاجر وترسانة ومخازن وتمم استحكاماتها واما القصور والسرايات فلم تحدث بها الا فيما بعد

(١٩ من شهر اغسطوس) ثم ان بطرس بمجرد استيلائه على مدينة نروا واستقرار حكمه عليها امده ملك له المعزول بامدادات جديدة فبعث اليه زيادة على الاثنى عشر الفا التى ارسلها له سابقا ستة آلاف من الخيالة ومثلهم من المشاة وامرهم بالتوجه الى حدود لوثيانيا وكان قائدهم الجنرال رونين وكانت نزلاء بتربورغ الجديدة دائما مطمح نظره لا يبرحون عن فكره فتمم بناء هذه المدينة وزاد فى المهمات البحرية وذهب فى شهر اقطوبر الى ترسانات اولونتز ليتمم ما كان يصنع بها من السفن والفرقاطونات فلما تمت صناعتها اتى بها الى مدينة بتربورغ

وكان كلما دخل مدينة موسكو دخلها بالموكب والاحتفال فدخلها (فى ٣٠ من شهر دقمبر) من هذه السنة ولم يخرج منها الا ليحضر نزول اول سفينة له من ذوات الثمانين مدفعا فى البحر ويشاهد جولانها فى المياه وكان قد امر بمدها فى السنة الماضية على شط نهر ويرونيزة

(شهر مايه سنة ١٧٠٥ من الميلاد) ولما جاء الفصل المناسب لعمل الحرب
فى مملكة له ذهب بطرس الى الجيش الذى كان بعثه الى اغسطوس على
حدود لوثيانيا قاصدا اعانة حليفه فبينما هو كذلك اذ قدم الى مدينة
بتربورغ دونمنا اسوجية بقصد هدمها وهدم قلعة كرونسلوت وكانت
هذه الدونما مركبة من اثنتين وعشرين سفينة كل سفينة فيها من المدافع
من اربعة وخمسين مدفعا الى ستين ومن ست فرقاطونات وفنجتين موسوقتين
بمباوحراقتين (والحراقة سفينة مملوءة بالمواد النارية لاجل حرق المراكب)
وخرج عساكر الاسوج من الدونما على جزيرة كوتان الصغيرة وكان
هنالك امير الاى موسقوبى يقال له تولبوغان فامر من معه من العساكر
أن يلصقوا بطونهم بالارض حين كان الاسوج يخرجون الى الجزيرة
فلما خرجوا امرهم بالقيام على حين غفلة ورموا عليهم بنيرانهم الشديدة فاصابهم
منها ما اصابهم فانهزم الاسوج واضطروا (فى السابع عشر من شهر يونيه)
الى العود الى سفنهم وتركوا موتاهم وثلثمائة اسير
ومع ذلك لم تزل الدونما الاسوجية بتلك الجهة وهى تهدد مدينة بتربورغ
وترهب اهلها وخرج الاسوج من سفنهم ثانيا وجبروا على الرجوع كما حصل
لهم فى المرة الاولى وقدمت جيوش اخرى برية من جهة مدينة ويبورغ
يقودهم جنرال اسوجى يسمى ميدل قاصدين جهة قلعة شلوسلبورغ
وكان ذلك اعظم مشروع اهتم به كرلوس الثانى عشر فى شأن البلاد التى
فتحها بطرس اوانشأها (وفى ٢٥ من شهر يونيه) طرد الاسوج
من سائر الجهات وصارت مدينة بتربورغ آمنة مطمئنة
واما بطرس فلم يزل يتوغل فى فتوحاته جهة اقليم كورلندة وكان عازما
على أنه لا يزال كذلك حتى يصل الى مدينة ريغا قاصدا الاستيلاء على
اقليم ليبونيا وكان كرلوس وقتئذ مشتغلا بحمل مملكة له بتمامها
على الانقياد والاذعان للملك الجديد الذى ولاه عليها (وهو استانسلاس)
وكان بطرس اذذاك بمدينة ويلنا باقليم لوثيانيا وكان سرعسكره

شرمتوف

شرمتوف قد قدم الى مدينة ميتو قاعدة اقليم كورلندة فوجد فيها الجنرال لوانهوب الاسوجى الذى حاز الشهرة فى عدة وقائع فتصادما وتطاردا والتحمت الحرب بينهما على وجه منتظم فى محل يقال له چماورشوف او چماورس

ومثل هذا الامر الذى تكون فيه الغلبة لمن مارس الوقائع الحربية وتمرن على الحركات العسكرية كانت النصرة فيه للاسوج مع قلة عددهم وحقت الهزيمة على الموسقو وغنم الاسوج جميع مدافعهم وكانت هذه الواقعة اعنى واقعة چماورس هى احدى ثلاث وقائع انهزم فيها بطرس والثانية واقعة ياكوبستادت والثالثة واقعة نروا فجبر خلل هذه الهزيمات بل وعاد عليه ذلك بالنفع فيما بعد

(وفى ١٤ من شهر سبطمبر) بعد هذه الواقعة سار بطرس بجيوشه الى اقليم كورلندة فلما وصل الى مدينة ميتو تغلب عليها وحاصر قلعتها ودخل المدينة بمقتضى مشارطات انعقدت بينه و بين اهلها

وكانت الجيوش الموسقوبية اذذاك مشهورة بأنها اذا ظفرت بالعدو سلبت ونهبت وهى عادة قديمة عند جميع الملل فنسخ بطرس هذه العادة عند استيلائه على مدينة نروا وابطلها بالكلية وكان قد انيط جماعة من العساكر الموسقوبية بمحافظة مقابر الاكابر من دوقات كورلندة بسراية ميتو فرأوا اجسام هؤلاء الموتى خارج القبور مجردة عما كان عليها من الحلية وانواع الزينة فامتنعوا من محافظتها حتى يحضر ميرآلاى من الاسوج ليعاين هذه الحال و ينظر حالتها فحضر ميرآلاى اسوجى واخذوا عليه شهادتنامه تتضمن أن الاسوج هم الذين فعلوا هذه الفعلة واوقعوا هذا الخلل

وكان قد شاع فى جميع الدول الموسقوبية أن الجار هزم هزيمة فاحشة فى واقعة چماورس فكانت هذه الاشاعة اضر عليه من الواقعة نفسها وذلك أنه ترتب عليها أن بعض بقايا اوجاق الاستريلج الذين كانوا محافظين

فى مدينة ازدراهان تجاسروا على العصيان والخروج عن الطاعة وقتلوا حاكم تلك المدينة فاضطر الجار الى أن يبعث اليهم السرعسكر شرمتوف بجيوش موسقوبية ليقمعهم ويعيدهم الى الطاعة ويعاقبهم على عصيانهم

وقد تراكمت المصائب على بطرس من سائر الجهات لما كان لعدوه كرلوس اذ ذاك من الحظ الاوفر فى الاقبال وشدة البأس وما حل بحليفه اغسطوس من المصائب والنكبات والزام مملكة دانيمرقة بعدم المدخلية فى الحرب وخروج قدماء الاستريليج عن الطاعة ولغط الاهالى الموسقوبية وتضجرهم مما احدثه فى المملكة من التغيير والتبديل حيث كانوا يتضررون من ذلك ولا يشمون منه رائحة النفع اصلا وضيق صدورهم من تشديده فى الضبط والربط والتربية العسكرية ونفاد خزائنه ومع ذلك فجميع هذه الامور لم تثبطه فى شئ ولم تفتر بها همته لحظة واحدة بل اخمد نيران الفتنة والعصيان ولما احل الامن باقليم أنغريا وتمكن من قلعة ميتو مع نصرة لوانهوب عليه وان لم يكن معه من العساكر من يكفى فى مقاومته ومدافعته امكنه أن يمر باقليمى سموجتيا ولوثانيا

وكان يقاسم كرلوس فخار الاستيلاء على مملكة له فقد توغل فى تلك الجهة حتى وصل الى مدينة تيكوكزين ورأى فيها ثانيا الملك اغسطوس فسلاه على مصابه وواعده بالانتقام له من عدوه واهدى له بعض الوية كان منزيقوف اغتنمها من خصمه ثم ذهبا جميعا الى مدينة غرودنو قاعدة اقليم لوثانيا ومكثا بها معا حتى مضى اليوم الخامس عشر من شهر دقبر ولما اراد بطرس الرحلة من هذا الاقليم فى ٣٠ من الشهر المذكور ابقى له جملة من النقود والعساكر ثم سافر الى مدينة موسكو ليقيم بها مدة على عادته بقصد اجراء الفنون والقوانين وكان ذلك بعد غزوة كابد فيها المشاق

(الفصل الخامس عشر)

فى ذكر تمكين بطرس لفتوحاته وايقاع التمدن والتأنس فى ممالكه وفى حيازة

كرلوس الثانى عشر النصرة عليه فى عدة وقائع وتغلبه على بعض جهات من مملكة له وسكس وفى كون اغسطوس كانت تجرى عليه اوامر كرلوس الثانى عشر مع نصرة الموسقو وغلبتهم وفى تخلى اغسطوس عن تخت مملكته وتسليمه بطقول الجى الجار الى كرلوس وموت بطقول والحكم عليه بعقاب العجلة اى دوسه بالعجل الى أن يموت

(سنة ١٧٠٦) لما وصل بطرس الى مدينة موسكو بلغه أن كرلوس الثانى عشر الذى حاز النصرة فى جميع الجهات قدم الى مدينة غرودنو لاجل قتال الجيش الموسقوبى الذى ابقاه بها وأن اغسطوس اضطر الى الهروب من تلك المدينة واسرع بالالتجاء الى حكومة سكس مع الالايات الاربعة الموسقوبية الذين يقاتلون فرسانا ورجالا وذلك يورث عساكره الجبن والضعف فقصد الجار مدينة غرودنو فوجد جميع طرقها مشغولة بالعساكر الاسوجية ورأى جيشه قد تشتت وتبدد شمله

فاخذ الجار فى جمع جيوشه باقليم لوثيانيا وكان سشولمبورغ الشهير الذى هو آخر واسطة اعانة لاغسطوس قد قدم وقتئذ الى مملكة له الكبرى ومعه اثنا عشر الفا من عساكر سكس وستة آلاف من عساكر الموسقو انتخبهم من الجيوش الموسقوبية التى كان الجار أمن هذا الملك السيء الحظ عليها واناطه بها وكان الامير سشولمبورغ قد حاز الفخار بمنع العثمانية عن جزيرة كرفو ومحافظتها منهم فقدم الى تلك الجهة طامعا فى محاماة اغسطوس والذب عنه فرأى أن مطمح نظر كرلوس الثانى عشر انما هو جهة لوثيانيا وليس معه من العساكر الاسوجية الا عشرة آلاف يقودهم الجنرال رانشيلد (سنة ١٧٠٦) ورأى أنهم ربما منعوه عن السير فتوجه آمنا مطمئنا حتى وصل الى حدود سيليزيا وهى طريق اقليم سكس من جهة لهستان العليا فلما قارب فرستاد وهى قرية على ضواحى له وجد الجنرال رانشيلد قد قدم لقتاله

ثم انى وان بذلت الجهد فى أن اجتنب هنا ما اوردته فى كتابى المسمى تاريخ كرلوس الثانى عشر الا أنى رأيت أن الحاجة قد دعت الى ارتكاب ذلك فاقول انه كان فى الجيوش السكسونية الاى من العساكر الفرنساوية كان قد اسر فى واقعة اوشسيتيت الشهيرة فاكره على الدخول فى الخدمة العسكرية مع الجيوش السكسونية وقد نصت اللوائح التى بيدى على أن الالاى المذكور قد انيط فى هذا الحرب بمحافظة المدافع ومهمات الطوبجية (٦ من شهر فبرية) وذكرت ايضا أن هؤلاء الفرنساوية لما داخلهم من التعجب من فخار كرلوس الثانى عشر وما لحقهم من الغم وانكسار الخاطر من خدمة سكس القوا السلاح بمجرد رؤية العدو وطلبوا الانضمام الى الاسوج فقبلوهم وقاتلوا معهم حتى انتهى الحرب فكان ذلك من مبادى هزيمة الموسقو وقد انهزموا هزيمة فاحشة حتى انه لم يبلغ عدد الهارب بين من العساكر الموسقوبية ثلاث فرق بل كان الفارون باجمعهم جرحى وقتل من عداهم عن آخرهم من غير استثناء هذا وقد زعم المؤرخ نوربرغ وهو من القسوس أن الاسوج كانوا يلهجون فى المعركة بقولهم بسم الله واما الموسقو فكانوا يلهجون بقولهم اذبحوا الجميع ولكن فى الواقع كان الامر بالعكس فان الاسوج هم الذين ذبحوا الكل مستعينين باسم الله وذكر الجار فى بعض اعلاناته أن كثيرا من اسرى الموسقو والقوزاق والقلموق قتلوا بعد الواقعة بثلاثة ايام وانما سرت هذه القسوة للجنرالات من العساكر الغير المنتظمة فى الفريقين ولم يحصل مثل ذلك فى اعصار التبربر والخشونة ومما يؤيد ذلك ما اخبرنى به الملك استانسلاس نفسه حيث قال انه فى بعض الوقائع التى كانت تقع غالبا فى مملكة له بين الموسقو والاسوج قدم الى بعض اصدقائى من الضباط الموسقوبية بعد هزيمة فرقته واحتمى بى والتجأ الى فرماه الجنرال الاسوجى المسمى استانبوك بطبنجة وهو بين ذراعى انتهى

وهذه هى رابعة الوقائع التى انهزم فيها الموسقو من غير أن نلتفت الى ما حازه

كرلوس الثانى عشر عليهم من النصرات الاخرى فى مملكة له وكانت جيوش الجار التى بمدينة غرودنو على خطر عظيم حيث كانت عرضة لأن يحتاط بها العدو من سائر الجهات فدبر الجار طريقة حسنة فى جمعها بل وزاد فى عددها وكانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تلزمه بامرين فى آن واحد وهما التبصر فى امر تلك الجيوش حتى تكون آمنة من العدو وتمكين فتوحاته باقليم انغريا فسير هؤلاء العساكر تحت قيادة منزيقوف الى جهة المشرق ومنها الى الشمال حتى وصلت الى اقليم كيوويا

(شهراغسطوس) وفى اثناء سير تلك الجيوش ذهب هو الى قلعة شلوسلبورغ ثم الى نروا ثم الى بتربورغ الحديثة العمران واحل الامن بجميعها ثم ذهب الى سواحل بحر بلطق ومنها الى سواحل نهر برسطين (وهو نهر الدنيبر) ليدخل ثانيا مملكة له من اقليم كيوويا (شهراكطوبر) وكان مرامه أن يجعل نصرات كرلوس الثانى عشر عديمة الجدوى حيث لم يكن فى وسعه منعها وكان قد استعد الى فتح جديد وهو فتح مدينة ويبورغ قاعدة اقليم كارليا التى على خليج فنلندة فذهب لمحاصرتها وقصها حيث وصل اليه المدد والاعانة وقت الحاجة فترك الحصار واستولى عليها وكان خصمه كرلوس الثانى عشر مع نصراته فى الوقائع لا يكتسب من الفتوحات شيأ وانما كان يتتبع اغسطوس فى اقليم سكس ويريد دائما اذلاله واهانته ويحمله اثقال صولته وعظيم فخاره وشوكته ويحاول استرجاع اقليم انغريا الذى كان قد تغلب عليه خصمه المغلوب (يعنى بطرس)

فتشر الفزع والرعب فى لهستان العليا وسيليزيا وسكس فذهبت عائلة اغسطوس بتمامها وهى امه وزوجته وولده بقصد الالتجاء الى داخل الايمبراطورية النمساوية وكذلك مشاهير عائلات مملكة له وطلب اغسطوس الصلح وآثر أن يكون فى قبضة المنهور يتصرف فيه كيف يشاء على أن يلتجىء الى محاميه بطرس وينزل بحماه وعقد مشارطة بمقتضاها

نزع منه تاج مملكة له ولحقه بذلك من الخزى والمعرة ما لا مزيد عليه وكان عقدها سرا لاقتضاء الحال اذ ذاك اخفاءها عن جنرالات الجنار الذين كان اغسطوس معهم بمنزلة ملتجىء بمملكة له وكان كرلوس وقتئذ يجرى قوانينه بمدينة لبسيك ويحكم جميع اقليم سكس وفى الرابع عشر من شهر سبطمبر وضع الوكلاء المتوطون بهذه المشارطة التى جرى بها القضاء والقدر القرار والامضاء عليها وكانت تتضمن خلع اغسطوس عن مملكة له وأنه التزم أن لا يتلقب بلقب ملك عليها ابدا وأنه يذعن لاستانسلاس ويعترف له بالمنصب الملوكى ويتخلى عن معاهدة الجار الذى له الفضل عليه ولاجل تمام خزيه وفضيحته التزم لكرلوس الثانى عشر أن يسلم له الجنى الجار وهو بطقول جنرال الجيوش الموسقوبية التى كانت تقاتل لحمايته والذب عنه وكان قبل ذلك بمدة قد قبض على هذا الجنرال منتهكا لحرمة حقوق الملل ومستندا فى ذلك الى تهم باطلة اتهم بها ذلك الجنرال ولم يراع ايضا حقوق الدول بعضها على بعض حيث سلم فيه لعدوه ولعمرى ان موته وسلاحه بيده كان اولى من عقد تلك المشارطة فانها زيادة على كونها جردته عن تاج ملكه وخلار منصبه ترتب عليها أنه صار عرضة لخطر الاسر وضياع الحرية لانه كان وقتئذ بين يدى الامير منزيقوف بمدينة بوسنانيا وما هيات الشرذمة القليلة التى كانت معه من عساكر سكس كانت اذ ذاك على طرف الموسقو

وكان أمام الامير منزيقوف فى تلك الواقعة جيش اسوجى انضم اليه جماعة لهية من حزب الملك الجديد اعنى استانسلاس وكان قائده الجنرال مادرفيلد وكان منزيقوف لا علم له بامر المشارطة المذكورة فقال لاغسطوس انى اريد الحملة على هذا الجيش (١٩ من شهر اقطوبر) فلم يتجاسر اغسطوس على منعه فوقع الحرب بين الفريقين قريبا من مدينة كالنس باقليم بلاطينة وهى بلاد استانسلاس وكانت هذه الواقعة اول واقعة منتظمة كانت النصرة فيها للموسقو على الاسوج وحاز

بها

الامير منزيقوف الخطير والشهرة وقتل الموسقو من عساكر الاسوج اربعة آلاف واسروا الفين وخمسمائة وثمانية وتسعين نفسا

ولايدرى كيف ساغ لاغسطوس بعد هذه النصرة أن وضع القرار على المشارطة التى اضاعت منه جميع ثمرات تلك النصرة وكان كرلوس وقتئذ فى بلاد سكس تخاف صولته ويخشى بأسه وشوكته فكان بمجرد سماع اسمه تنطبع الهيبة والرهبة فى القلوب حتى افضى ذلك بالناس الى عدم التعويل على ما حصل بمعاونة الموسقو من الظفر والنجاح وكان ايضا الحزب اللهستانى المتحزب على اغسطوس قوى البأس والشوكة وكان اغسطوس قد غشه الناصحون ودلس عليه المشيرون فوضع القرار على هذه المشارطة المشؤمة وامضاها ولم يقتصر على ذلك بل بعث مع رسول كرلوس المسمى فنكستان كتابا اشد شؤما من المشارطة يطلب فيه الصفح والمسامحة من كرلوس فى تطير فتكه بالاسوج فى تلك الواقعة ونص عبارته ان القتال فى هذه الواقعة حصل قهرا عنى وانما الجأنى اليه الموسقو واللهية الذين هم من حزبى ولقد هممت حين القتال بترك منزيقوف والتخلى عنه ولو انتهزت فرصة الهروب لكانت الغلبة للجنرال ملدرفيلد ولابد أن ارد اسرى الاسوج او انقض معاهدة الموسقو وبالجملة فانا اسعى فيما يكون به رضاء خاطر ملك اسوج حسبما يليق بمقامه انتهى وما ابدى هذا الاعتذار الا لكونه تجاسر وغلب عساكره الاسوجية

وهذا الامر وان لم يسبق مثله والعقل يستبعده الا أنه من الامور المحققة الثابتة فانك اذا تأملت هذا الضعف الواقع من اغسطوس بهذه المثابة مع عدة من شجعان ملوك اوروبا وابطالهم رأيت أن شجاعة العقل وجودة القريحة هى التى عليها المدار فى حفظ الممالك وضياعها ورفعتها وانخفاضها .

وقد تمت مصيبة اغسطوس بامرين كل منهما شقاؤه وسوء حظه وتم بهما لكرلوس الثانى عشر ما لا مزيد عليه من السعد والاقبال احدهما الزام كرلوس له أن يكتب لاستانسلاس كتابا يهنيه فيه على المنصب الملوكى

وثانيهما وهو من اقطع الامور واشنعها اجبره على تسليم بطقول الذى هو الجلى الجار وجنراله ومن المعلوم لاهل اوروبا جميعا ماعوقب به هذا الاجلى فى مدينة كازمير حيث حكم عليه عند اخذه من اغسطوس بأنه يعاقب بعقاب العجلة حيا وكان ذلك فى شهر سبطمبر سنه ١٧٠٧ من الميلاد وقد ذكر المؤرخ فوربرغ أن جميع الاوامر الصادرة فى هذا المعنى كتبها كرلوس بنفسه

وليس فى اوروبا خاص ولا عام من علماء الاحكام الى الارقاء وسفل العوام الا ويجزم بأن هذه العقوبة ليست الامن باب العدوان والقساوة الخشنية وكان اول ذنب لهذا المسكين هو كونه تطلب قديما من ملك اسوج مع رعاية الادب ورسوم التعظيم حقوق وطنه ومزايا بلاده و بمعيته ستة من اعيان اقليم ليوونيا انتخبهم الاهالى لهذا الغرض وكان من ذنوبه ايضا قيامه باول الواجبات عليه واعظمها وهى خدمة وطنه بمقتضى الاصول والقوانين وكان ماقاساه من الجور والتعدى يسوغ له أن يتخذ وطنا غير وطنه حسبما تقتضيه الحقوق الطبيعية فانتقل الى بلاد الموسقو وصار بها نزيلا وعند ملكها دخيلا ثم صار بعد ذلك الجيا لهذا الملك الذى هو من عظماء ملوك الدنيا فبهذا استحق أن يعصم نفسه ويحقن دمه ولكن فى هذه الصورة حكم الضعيف على القوى غلب ماتقتضيه الطبائع البشرية ولم يرع رسوم الدول ولا حقوق الملل لاسيما والاعصر السالفة كان فيها مظهر الفخار ورونق الشرف يستر عيب الخشونة والقسوة بخلاف عصرنا هذا فعيب الخشونة والجبر والقساوة يزيل الفخار ويذهب رونقه وبهجته

(الفصل السادس عشر)

فى ذكر ماوقع من العزم على انتخاب ملك ثالث لمملكة له غير استانسلاس واغسطوس وفى ارتحال كرلوس الثانى عشر من سكس بجيش جرار ومروره بمملكة له يرفل فى ثياب الفوز والنصر وما حصل اذذاك من القسوة والجبر وفى ذكر سلوك الجار وبيان حالته وماحازه كرلوس الثانى عشر

من

من النجاح حتى قدم الى جهة الموسقو

(سنة ١٧٠٧ من الميلاد) كان كرلوس الثانى عشر يجنى ثمرات النجاح و يتمتع بما حظى به من النصر والفلاح بمدينة ألترنستاد قريبا من مدينة ليبسيك فكان يأتى اليه امراء الايمبراطورية الالمانية البروتستانيون افواجا افواجا يهنونه و يؤدون له ما يجب من الاحترام و يدخلون تحت كنفه وحمايته وكان اغلب الممالك يرسل اليه السفراء للتهنئة وغيرها وكان ايمبراطور النيمسا يوسف الاول يسلم له فى جميع اغراضه ومقاصده واما بطرس فانه لما رأى أن الملك اغسطوس قد خرج عن حمايته ومحالفته وتخلى عن كرسى مملكة له وأن جزأ من تلك المملكة قد بايع استانسلاس واذعن اليه وكان قد عرض عليه ابولكاوة انتخاب ملك ثالث لمملكة له رضى بهذا الانتخاب ورآه من الصواب

(شهر ينويه) فانعقدت لهذا الغرض مشورة الدييتة بمدينة لوبلين وجرى فيها ذكر عدة من حكام اقاليم مملكة له الملقبين بلقب پلاتين (الويوودية) أنهم يصلحون لان ينتخب منهم ملك وكان من جملة من ذكر فى المفاوضة الامير راغوتسكى وهو الذى كان قد حكم عليه الايمبراطور ليوپلد بالسجن من صغره ثم نازعه فى كرسى مملكة المجار بعد أن سعى فى انقاذ نفسه من الاسر ثم ان ارباب هذه المشورة جالوا فى المذاكرة وتغالوا فى الانتخاب حتى كاد أن يتم الامر على الملك المنتخب وأن يكون على مملكة له ثلاثة ملوك فى آن واحد فان هذا الامير وان خابت آماله بعدم اجماع الآراء على انتخابه الا أن الجار اراد أن يقلد حكومة تلك المملكة لجنرال الجمهورية اللهية الاعظم وهو سنياويسقى لما كان له من قوة الشوكة ونفوذ الكلمة حيث كان راس حزب ثالث لم يذعن لاغسطوس المعزول ولا بايع استانسلاس لان المنتخب له كان غير حزبه

وفى اثناء هذا الاضطراب والاختلاف وقع الكلام فى شأن الصلح كما هو العادة

فى مثل هذا الامر وذلك أن بوزنوالد المبعوث من طرف مملكة فرانسا الى مملكة سكس سعى فى ايقاع الصلح بين الجار وملك اسوج لان الدولة الفرنساوية كان يخطر ببالها وقتئذ أن كرلوس الثانى عشر اذا بطل الحرب بينه وبين الموسقو واهل له فلامانع من أنه يوجه اسلحته نحو الايمبراطور يوسف لتكدر خاطره منه حيث كان ذلك الايمبراطور يكلفه بقوانين صعبة مدة اقامته بمملكة سكس فاجاب كرلوس هذا السفير للفرنساوى بقوله انى اصالح الجار بمدينة موسقو فلما بلغ ذلك بطرس قال ان اخى كرلوس جعل نفسه الاسكندر ولكنه لايجدنى دارا

ومع ذلك كانت العساكر الموسقوبية لم تزل بمملكة له بل وفى مدينة وارشاو دار ملكها وكان حينئذ الملك الذى ولاه كرلوس على تلك المملكة قريب العهد بالبيعة وكان كرلوس اذ ذاك يفتح لعساكره ابواب الغنى والثروة بسلب السكس ونهبهم

(٢٢ من شهر اغسطوس) ثم ان ملك اسوج ارتحل من معسكره بمدينة ألترنستاد يقدم جيشا يبلغ خمسة واربعين الفا وكان يترآى من حالة هذا الجيش أن الجار لاقدرة له على مقاومته حيث انه انهزم فى واقعة نروا هزيمة فاحشة وكان عدد الاسوج فيها ثمانية آلاف

(٢٧ من شهر اغسطوس) ولما مر كرلوس فى طريقه بمدينة درسدة فعل امرا غريبا اوجب تعجب الخلف واستغراب الاجيال المتأخرة وهى زيارته للملك اغسطوس كما نص على ذلك المؤلف نوربرغ ومن وجوه غرابتها أنه بها قد عرض نفسه للخطر حيث حضر بين يدى ملك خلعه عن ملكه ثم مر باقليم سيليزيا (من مملكة البروسيا) ودخل الى مملكة له

وكانت هذه المملكة قد افضى بها الحرب واختلاف الاحزاب والعصب الى الدمار وصارت غنيمة للبلايا والمصائب ولما دخلها كرلوس سار من جهة اقليم مازوويا واتخذ من طرقها اصعب المسالك وكان بتلك الطريق جماعة من الاهالى

ملتجئون

ملتجئون الى بحيرات هنالك فارادوا أن يتعرضوا له ولو بالزامه بدفع اجرة المرور وكانوا نحو ستة آلاف من الفلاحين فبعثوا اليه شيخا منهم عجيب المنظر عليه لباس ابيض ومعه من السلاح قرابينتان فخطب خطبة وعظ فيها كرلوس وكان ضعيف الصوت فلم يسمع له كلام فهم الاسوج بقتله في اثناء الخطبة أمام ملكهم فلما رأى ذلك الفلاحون ايسوا وذهبوا الى محالهم وتسلحوا فعند ذلك قبض الاسوج على كل من وجدوه منهم وألزموهم بأن يخنق بعضهم بعضا حتى بقي منهم رجل واحد فألزموه بخنق نفسه ثم حرقوا مساكنهم عن آخرها هكذا ذكره القسيس نوربرغ ونص على أنه عاين ذلك بنفسه فلا يمكن تكذيبه ولا انكار هذا الفعل القبيح

(٦ من شهر فبريه سنة ۱۷۰۸ من الميلاد) ثم ان كرلوس لم يزل سائرا حتى صار بينه وبين مدينة غرودنو باقليم لوثيانيا عدة فراسخ فبلغه هنالك أن الجار في تلك المدينة مع بعض جيوشه فاخذ معه ثمانمائة من عساكر الوردبان بدون مذاكرة ولا مشورة وذهب بهم سريعا الى المدينة المذكورة وكان على احد ابوابها ضابط من الضباط النمساوية يقال له مولقيلس وكان رئيسا على فرقة من العساكر فلما ابصر كرلوس الثاني عشر جزم بأن جيوشه خلفه فلم يتعرض لمنعه بل تركه يدخل المدينة فعند ذلك انتشر فيها الخوف والفزع وظن الناس جميعا أن الجيش الاسوجي دخل مدينتهم فاراد من بها من العساكر الموسقوبية أن يقاوموا عساكر الوردبان الاسوجي فبدد الاسوج شملهم واخبر جميع الضباط الجار اخبارا قطعيا بأن جيشا من الجيوش الاسوجية المنصورة تملك على الجهات العسكرية من المدينة فلما سمع بطرس هذا الخبر خرج الى خلف الاسوار وجعل كرلوس على الباب الذي خرج منه الجار ثلاثين خفيرا من الحرس

وفي اثناء هذا الهرج ذهبت جماعة من الطائفة اليسوعية الى بطرس ليلا واخبروه بحقيقة الحال لما أن دارهم كانت قد اخذت لسكنى ملك اسوج لكونها اعظم دور المدينة فعاد الجار الى المدينة وهجم على الحرس الاسوجي

يوقع القتال فى الحارات والميادين وكان جيش كرلوس قد قدم الى تلك المدينة فاضطر بطرس الى التسليم وترك المدينة لهذا الغالب الذى كان يوقع الرعب والفزع فى قلوب اهل له

وكان كرلوس الثانى عشر قد زاد فى عدد جيوشه حين كانت باقليمى ليوونيا وفنلندة فكان يخشى على فتوحات بطرس من تلك الجهة كما أنه كان يخشى على بلاده القديمة بل وعلى مدينة موسقو من جهة اقليم لوثيانيا فكانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تلزمه أن يحترس و يكون على حذر من تلك الجهات المتباعدة عن بعضها وكان كرلوس لا يمكنه أن يحث السير جهة المشرق من طريق لوثيانيا لشدة برد الفصل اذ ذاك ورطوبة البلاد التى فى طريقه ووخامة مدينتى وارشاو ومنسكى لما كان بهما وقتئذ من الامراض الوبائية المتولدة من فقر تلك البلاد وقحطها وكانت جيوش بطرس معسكرة فى ممر الانهار وحرسه وخفراؤه فى المحال المهمة وبالجملة فلم يبرح يبذل وسعه فيما يكون به ايقاف عدوه وتعطيل سيره ثم سافر فى شهر ابريل الى مدينة بتربورغ ليرتب بها جميع الامور و ينظمها

وحين كان كرلوس يستولى على بلاد له لم ينتفع من اهلها بشئ بخلاف بطرس فانه حين استعمل ما انشأه من السفن البحرية ونزل اقليم فنلندة وتغلب منه على مدينة برغو التى هدمها وخربها وغنم من اعدائه مغانم عظيمة كان ذلك يعود عليه بالمنافع الجمة (٢١ من شهر مايه)

وكان كرلوس منذ مدة مديدة قد منعه توالى الامطار عن الخروج من اقليم لوثيانيا ثم قدم الى نهر بريزين الصغير وهو على البعد من نهر الدنيبر ببعض فراسخ ولم يكن ثم ما يقاوم همته او يثبطه عن مرامه فوضع قنطرة على ذلك النهر تجاه الموسقو وهزم الفرقة الموسقوبية التى كانت على حرس هذا الممر ووصل الى مدينة هلوسين التى على نهر وابيس وكان للجار هنالك جيش جرار أقامه فى هذا الموضع لايقاف كرلوس وصده عن المبادرة وليس نهر وابيس المذكور الا نهرا صغيرا على ارض يابسة

الا أنه عظيم التيار سريع الجرى عظيم العمق تمده الامطار فيتسع وكان فيما وراء ذلك النهر بحيرة اقام الموسقو خلفها متاريس على البعد عنها بربع فرسخ وحصنوا تلك المتاريس بخندق واقاموا عليها بنيانا حصينا وضعوا عليه مدافعهم وكان بتلك الجهة من العساكر الموسقوبية تسعة الايات من الخيالة وواحد عشر من المشاة نازلة فى محل محكم الوضع وكلها مستعدة للقتال فكان يترآى من ذلك أن عبور هذا النهر من حيز المستحيل

ولكن جهز الاسوج لاجتيازه قناطر من الخشب حسبما تقتضيه عوايد الحرب ومكايده ووضعوا الطوافى لاجل امنهم حال الاجتياز الا أن كرلوس لما كان شديد الحمية لاقدرة له على الصبر عن القتال لم يستطع أن يتأخر فى هذا المقام ادنى تأخر ولم ينتظر تلك القناطر حتى تتم بل كان اول من اجتاز النهر وهذا الامر هو احق ما يخلد ذكره مما وقع منه فى هذه الواقعة وقد اخبرنى غير مرة اخبارا صحيحا السر عسكر سشورين وكان قد مكث فى خدمة كرلوس مدة مديدة أنه فى بعض ايام التجهيزات للحرب والقتال قال كرلوس للنفر الاتيه الذين كانوا منوطين بتأديه مواد التجهيز هلا تممتم هذه الاشغال الواهية فى مدة يسيرة

فنزل كرلوس النهر وتبعه آلاى الورديان الملوكى فسكنت الامواج لكثرتهم وكان الماء يضربهم الى اكتافهم فكان لا يمكنهم أن يستعملوا اسلحتهم فلو كانت المدافع الموسقوبية الموضوعة على الحصن الوقتى مجهزة على ما ينبغى وضربت عليه صفوف الموسقو لما نجا منهم احد

(٢٥ من شهر يولية) وبعد أن اجتاز كرلوس النهر خاض ايضا البحيرة ثم اجتاز الاسوج بعدهم وانتظمت صفوفهم وهجموا على المتاريس سبع مرات لكن لم يسلم الموسقو الا فى السابعة ولم يأخذ الاسوج منهم الا اثنى عشر مدفعا وخمسة وعشرين من الاهوان ذوات الخنبرة كما نص على ذلك مؤرخو الاسوج

ويؤخذ من ذلك أن الجار كان قد نجح فيما جدده من الجيوش الحربية

التى تمرنت على الحركات العسكرية وأن نصرة كرلوس فى هذه الواقعة المسماة واقعة هولوزين التى حازفيها من الفخار مالامزيد عليه قد أفهمته أن مثل هذه الاقطار البعيدة تفضى بمن توغل فيها الى اقتحام اخطار شديدة ومكابدة مشاق عديدة وذلك أن جيشه كان لا يتأتى له السير الا طائفة بعد طائفة تذهب من غابة الى اخرى ومن بركة الى اخرى وهم مضطرون الى القتال فى كل خطوة غير أن الاسوج لما كانوا قد تعودوا على اقتحام العقبات والموانع لم يخشوا الاخطار ولم يكترثوا بالمشاق

(الفصل السابع عشر)

فى اجتياز كرلوس الثانى عشر نهر الدنيبر وتوغله فى بلاد اوقرينة وعدم حسن تدبيره وهزيمة بطرس الاكبر لبعض جيوشه وضياع ذخائره ومهماته الحربية وتوغله فى الصحارى وذكر ماوقع له فى اوقرينة

(١٧٠٨ من الميلاد) ولما وصل كرلوس الى شاطئ نهر الدنيبر خرج على مدينة صغيرة هنالك يقال لها مويلو وفى هذا المحل عرف هل كان مرامه التوجه فى طريق الشرق الى جهة مدينة موسكو اوفى طريق الجنوب الى جهة اقليم اوقرينة وكان جميع الناس من عساكر واحباب واعداء ينتظرون سيره الى تخت بلاد الموسقو وكان بطرس منذ ارتحل عن اقليم سمولانسكو يقفو اثر كرلوس بجيش جرار فى كل طريق سلكها وكان لا يخطر ببال احد أن كرلوس يسلك طريق اوقرينة وانما رغبه فى هذا الامر الغريب مازيبا هتمان القزق اوالقوزاق (اى حاكمهم) وكان شيخا قد بلغ من العمر سبعين سنة ولم يكن له ذرية فكان الاليق به أن يمضى مابقى من حياته فى الهدء والراحة وكان مقتضى شكر الصنيع أن يرجح جانب الجار ويؤثره على غيره لانه هو الذى قلده بمنصبه لكنه جحد النعمة وانضم سرا الى كرلوس مؤملا أنه يحزب معه جميع اهل حكومته ويحملهم على الخروج عن طاعة الجار امالكون بطرس فعل معه ماحمله على التظلم منه اولكونه اغتر بفخار كرلوس اولانه كان يروم الاستقلال

والخروج

والخروج عن التبعية وهو الاقرب •

وكان كرلوس يجزم بأنه متى انضم الى جيوشه المنصورة الطوائف الذين لهم ميل الى الحرب والقتال (وهم القزق) انتصر على الدولة الموسقوبية بتمامها وكان مقتضى ماوعده به مازيبا أن يأخذ منه جميع ما يمكن أن تدعو اليه الحاجة من الزاد والمهمات والمدافع زيادة على جيشه الذى كان قادما اليه من اقليم ليوونيا تحت قيادة الجنرال لووانهوب وكان عدده ما بين ستة عشر الفا الى ثمانية عشر ومعه الزاد والمهمات الحربية ولم يكترث كرلوس بكون الجار كان مستعدا للهجوم على هذا الجيش فيحرم بذلك من هذه الاعانة العظيمة كما لم يستفهم عن حال مازيبا هل له قدرة على الوفاء بما وعد وهل له كلمة نافذة بحيث يقدر على تحزيب امة القزق بتمامها التى من عادتها أن لا تقبل نصيحة احد بل لا تعوّل الا على نفسها وهل اذا ادركت الهزيمة كرلوس يبقى عنده من الاعانات ما يكفيه وهل يمكنه أن يستقل بنفسه و يعتمد على سعده وقيام حظه فى صورة ما اذا تخلى عنه مازيبا اوتبين ضعفه ثم ان الجيش الاسوجى قدم الى ماوراء نهر الدنيبر جهة نهر دسنا وكان ينتظر قدوم مازيبا بين هذين النهرين وكانت الطرق صعبة المسالك وكان المرور بها خطرا حيث كان هنالك فرق عسكرية موسقوبية متفرقة فى تلك الجهات •

وفى الحادى عشر من شهر سبطمبر اغار الامير منزيقوف بمن معه من الالايات وكانوا ما بين فرسان ورجال على طليعة جيش كرلوس فهزمها وبدد شملها وقتل كثيرا من الاسوج ولكن فقد من عساكره اكثر ممن قتل ولم يجزع من ذلك واما كرلوس فبادر الى ميدان الحرب ولم يزحزح العساكر الموسقوبية عن مواضعها الا بشق الانفس بعد أن خاطر بنفسه مدة حيث احدقت به جماعة من الفرسان كان يقاتلهم وكان مازيبا لم يقدم الى ذلك الوقت واخذت مؤونة الاسوج فى التناقص ومع ذلك لم تفتر همتهم حيث رأوا ملكهم يقاسمهم فى سائر ما كابدوه من الاخطار والمشاق والمجاعة

الا أنهم كانوا يتعجبون منه ويلومونه ويلغطون بذلك فيما بينهم

ثم ان كرلوس بعث الى الجنرال لوانهوپ يأمره أن يسير مع جيشه ليأتى لهم بالزاد والذخائر فى العربات المعدّة لذلك فلم يصل اليه الامر الا بعد مضى اثنى عشر يوما ومثل هذه المدّة تعتطويلة بالنسبة لحالتهم وقتئذ فتوجه لوانهوپ لقضاء هذا الغرض فتركه بطرس ولم يتعرّض له حتى اجتاز نهر الدنيبر وصار بين هذا النهر والنهر الصغير الذى يصب فيه ثم تبعه واجتاز النهر خلفه حتى لحقه وهجم عليه بالفرق الموسقوبية التى كان يتلو بعضها بعضا وهزمه وقتل بعساكره وكانت هذه الواقعة بين نهرى الدنيبر وسوسا

وقد عاد منزيقوف الى الاسوج بفرقة الخيالة التى كانت تقاتل كرلوس وتبعه الجنرال بوير وقدم ايضا بطرس بنخبة عساكره وكان الاسوج يعتقدون أن عدد العدوّ اربعون الفا بناء على ما كان يصل اليهم من الاخبار فى هذا الشان ومكثوا على هذا الاعتقاد مدّة مديدة مع أن ما وصل الىّ من اللوائح الجديدة يفيد أن عساكر بطرس فى هذه الواقعة انما كانت عدّتهم عشرين الفا وهذا القدر لم يكن يزيد بكثير على العساكر الاسوجية ثم ان بطرس سلك مسلك الهمة والنشاط والصبر والعناد وحذا حذوه فى ذلك جيوشه وكان وجوده بين اظهرهم يحرّضهم على القتال فبذلك بنوا امر هذه الواقعة بالنصرة بل وثلاث وقائع اخرى اعقبتها ووقع القتال بين الفريقين فى تلك الوقائع عدّة مرّات

وكان اوّل ما هزمه الموسقو من عساكر الاسوج طليعة جيشهم قريبا من قرية ليسنو التى تسمت الواقعة باسمها وسفك فى هذه الصدمة الاولى دماء جملة من العساكر الا أنه لم يثبت بها الامر وكان لوانهوپ قد آوى الى اجمة هنالك وحفظ فيها ما كان معه من الاحمال والاثقال فاقتضى الحال فى اليوم الثانى أن الموسقو يطردون الاسوج من هذه الاجمة فناوشوهم القتال وسفك فى هذه الواقعة من الدماء اكثر مما سفك فى التى قبلها وكانت النصرة

فيها

فيها للموسقو ولما رأى بطرس اختلال جيوشه فى هذه الواقعة صاح عليهم أن اثبتوا واضربوا بالنار على كل من فرّ ولو كنت انا فحملوا على الاسوج (٧ من شهر اقطوبر) حتى زحزحوهم عن مواضعهم ولكن لم ينهزموا

ونهاية الامر أن الموسقو جاء اليهم اعانة من العساكر يبلغ عددهم اربعة آلاف فضربوا على الاسوج بالنار فكانت ثالثة الوقائع والجأوهم الى قرية هنالك يقال لها پروسپولك ثم هجموا عليهم فيها فذهبوا جهة نهر دسنا فتتبعوهم واقتفوا اثرهم ومع ذلك لم يزل الاسوج على ترتيبهم وانتظامهم لكنهم فقدوا من شوكتهم ما يزيد على ثمانية آلاف رجل وسبعة عشر مدفعا واربعة واربعين لواء واسر الچار منهم ستين ضابطا ونحو تسعمائة عسكرى وقبض على الذخائر العظيمة التى كانت مبعوثة الى كرلوس

فكانت هذه اول مرة هزم فيها الچار بنفسه اعداءه وكانوا لقد حازوا النصرة على عساكره قبل ذلك غير مرة فحمد الله تعالى وشكره على ما اولاه من الظفر والنجاح وكان ذلك فى السابع عشر من شهر سبطمبر لاسيما حين بلغه أن ابركسان وهو من الجنرالات الموسقوبية حاز النصرة على الاسوج فى اقليم أنغريا بعيدا عن مدينة نروى ببعض فراسخ وان كانت فى الواقع ونفس الامر دون نصرة ليسنو الا أن توالى الحوادث النافعة قوى آماله والقى فى ذهنه أن عنده من الجيوش من يثق به لدى المشروعات ويعتمد عليه فى المهمات

وقد بلغ كرلوس الثانى عشر خبر هذه الوقائع السيئة حين عزم على اجتياز نهر دسنا باقليم اوقرينة ثم ان مازيپا قدم اليه بالايبن من العساكر مع أن مقتضى وعده أن يأتى اليه بثلاثين الف مقاتل وبمقدار جسيم من المهمات والذخائر الحربية فكان الاولى أن يقال فى حقه انه قدم مستجيرا مستعينا لا مساعدا ومعينا وفى الواقع أنه خرج من بلاده بخمسة عشر الفا او ستة عشر لكن قد افهمهم أنه قاصد قتال ملك اسوج وأنهم ان ساروا معه حازوا

الشهرة والفخار بكونهم صدّوا هذا البطل الصنديد ومنعوه عن السير ويصير لهم على الجار منة عظيمة اذا هم ادوا له هذه الخدمة الجسيمة

ولما صار بينه وبين نهر دسنا بعض فراسخ اخبرهم بالحقيقة واطلعهم على سرّه فبمجرد أن سمع هؤلاء الابطال ذلك نفرت منه قلوبهم وابوا أن يخونوا سيدهم حيث لم يصدر منه فى حقهم ما يحملهم على التشكى والتظلم وامتنعوا من اعانة ملك اسوجى ودخل ديارهم متسلحا ولا يمكنه بعد مفارقتهم أن يذب عنهم بل يتركهم فريسة لجنود الموسقو وغضبهم يفعلون بهم ماشاؤا ويدعهم لحقد اعدائهم اللهمية الذين كانوا يحكمونهم سابقا وتركوه وانصرفوا الى اوطانهم واخبروا الجار بتخليهم عنه ولم يبق معه الا نحو الايين كانت مرتبات من فيهما من الضباط على طرفه

وكان مازيبا اذ ذاك لم يزل له الحكم على بعض جهات من اقليم اوقرينة لاسيما مدينة باتورين دار اقامته التى كانت تعتبر مقر الحكومة القوزاقية وهى واقعة على نهر دسنا قريبا من غابات هناك لكنها بعيدة جدا عن المحل الذى غلب فيه بطرس الجنرال لوانهوب وكان لم يزل ثم بعض الآيات موسقوبية معسكرة بتلك الناحية وقد انفصل الامير منزيقوف عن جيوش الجار ووصل الى الاسوج بعد أن اكثر الطواف والمرور بتلك الجهات وكان كرلوس لا يمكنه أن يضع الحرس على جميع الطرق لعدم معرفته بها وكان قد اهمل الاستيلاء على مدينة استارودوب التى يتوصل منها الى مدينة باتورين على الاستقامة بمسافة نحو سبعة فراسخ او ثمانية من الغابات التى يخترقها نهر دسنا وكان لعدوه مزية عليه وهى خبرته بتلك الجهات فلذا سافر كل من الامير منزيقوف والجنرال غالتزين حتى وصلا الى مدينة باتورين مع غاية السهولة واستوليا عليها من غير أن يقع منها كبير مقاومة ولا مدافعة فنهبها الموسقو وحرقوها حتى صارت رمادا وكان بها مخزن لمهمات ملك اسوج واموال مازيبا وخزائنه فغنموا ذلك كله ثم ان القزق انتخبوا لهم هتمانا آخر اقرّه الجار ورضى به حاكما عليهم واراد

أن

أن يعرفهم أن الخيانة الصادرة من مازيبا ذنب عظيم وامر جسيم فحكم عليه فى الثانى والعشرين من شهر نومبر مطران اقليم كيويا ومطرانان آخران بالالحاد والكفر فى مجلس حافل على رؤس الاشهاد وحكموا عليه وعلى جماعة من حزبه بعقاب العجلة

ومع ذلك كان كرلوس الثانى عشر معه من العساكر خمسة وعشرون الفا الى سبعة وعشرين الفا ووصلت اليه بقايا جيش لوانهوب وكان معه ايضا الفان او ثلاثة من عساكر القزق الذين كان قد اتى بهم مازيبا وكان لم يزل يطمع فى ادخال اقليم اوقرينة بتمامه تحت طاعته فاجتاز نهر دسنا بعيدا عن مدينة باتورين قريبا من نهر الدنيبر غير مكترث بجيوش الجار التى كانت محدقة به من سائر الجهات فقد كان بعضها يقفو اثر طليعة جيشه والبعض الآخر منتشرا فيما وراء ذلك النهر قاصدين صده ومنعه عن المرور

واستمر على سيره لكن كان طريقه فى الصحارى والقفار وكان لا يمر الا بقرى دارسة وبلاد محترقة خربة وكانت شدة البرد قد دخل وقتها فكانت اوائلها من شهر دقبر وقد اشتد القر والبرد على اصحابه حتى هلك منهم نصب عينيه نحو الفين واما جيوش الجار فكانت دونهم فى هذه الشدة لكثرة الوسايط اللازمة لوقايتهم بخلاف عساكر كرلوس فانهم كادوا أن يكونوا مجردين عن الملابس فلذا كانوا عرضة لتأثير الفصل فيهم اكثر من الموسيقو

وفى اثناء هذه الحالة السيئة نصح القونتة بيبر سيده كرلوس وتضرع اليه أن يكف عن السير والا فلا اقل من أن يمكث مدة شدة البرد فى مدينة رومنا وهى مدينة صغيرة باقليم اوقرينة وكان هذا القونتة امين مصالح المملكة الاسوجية وكان دائما ينصح ملكه بالنصائح العظيمة ويرشده بالارشادات النافعة فبين له ثمرة نزوله بهذه المدينة وهى أنه يستريح بها هو وجيوشه ويمكنه فيها تقوية عساكره وتحصيل بعض من الزاد والمهمات الحربية باعانة مازيبا فاجابه كرلوس بأنه ليس ممن يلازم المدن ويهوى الاقامة فترجاه القونتة

ثانيا آن يجتاز نهرى دسنا والدنيبر حتى يصل الى مملكة له وينزل جيوشه بالمعسكرات التى يحتاجونها ويستعين بالخيالة الخفيفة من فرسان هذه المملكة حيث ان الضرورة مقتضية لذلك على كل حال ويمكن الملك الذى ولاه على تلك المملكة ويمنع حزب اغسطوس عن التقوى والاخذ فى اسباب الاستعداد للقيام فاجابه بأن هذا فرار أمام الجار وأن الفصل سيعود علينا بالمنفعة وأنه يلزم الاستيلاء على اقليم اوقرينة والسير الى مدينة موسكو

(شهر ينويه سنة ١٧٠٩ من الميلاد) ثم ان الجيوش الموسقوبية والاسوجية مكثوا عدة اسابيع فى الدعة والبطالة لشدة برد هذا الشهر من السنة المذكورة فبمجرد ماامكن للعساكر حمل السلاح شن كرلوس الغارة على جميع المحال الصغيرة التى صادفها فى طريقه وكان قد اقتضى الحال أن يبعث الى سائر الجهات جماعات لتحصيل الزاد والمؤونة فبعث جماعة الى محال بعيدة عنه بخمسين فرسخا لنهب ذلك من الفلاحين الذين بتلك الجهة واما بطرس فلم يعجل بالقتال وانما كان يراقب حركات عدوه ويلاحظ احواله واطواره ويتركه يسلك مسالك الردى والمهالك

هذا ومما يتعذر على القارئ أن يقف على مواقع الاودية والجهات التى سلكها الاسوج فى سيرهم بتلك الاقطار فانهم اجتازوا عدة انهر لا وجود لرسمها فى الخرطات الجغرافية ولا ينبغى أن يظن أن علماء الجغرافيا يعرفون تلك الجهات كمعرفة ممالك فرانسا وايطاليا والنمسا لاهلها فان علم الجغرافيا هو الى الآن من بين العلوم اكثرها احتياجا للمزاولة ومزيد الاطلاع والاستكشاف ومع ذلك فالاطماع لم تزل الى الآن تحمل الناس على تخريب الارض وايثار ذلك على تخطيطها ومعرفة اوصافها

وانما نقول ان كرلوس جاب اقليم اوقرينة بتمامه فى شهر فبرية وحرق كل ما صادفه فى الطريق من القرى والبلدان كما فعل الموسقو وتوغل جهة الجنوب الشرقى حتى وصل الى صحارى قحلة يكتنفها جبال تفصل

تتار نوغايس من قزق نهر الدون وفى شرقى تلك الجبال محاريب اسكندر فلم يشعر كرلوس الا وهو خلف اوقرينة فى الطريق الذى يسلكها التتار لبلاد الموسقو فرأى أنه يلزم المبادرة بالرجوع خشية أن يخاطر بنفسه وكان اهل تلك الناحية مختفين فى المغارات بمواشيهم وكانوا فى بعض الاحيان يدافعون عساكر الاسوج ويمنعونهم من نهب مؤوناتهم فقبض عليهم الاسوج وقتلوهم ويقال ان هذا النهب معدود من الحقوق التى يقتضيها الحرب (اى فلا حظر فيه) ولنورد هنا عبارة ذكرها القسيس نوربرغ ونصها قد رأيت أن اورد هنا صورة تذكرة اعطاها كرلوس بيده للميرالاى هييلن ليعرف بها الواقف عليها تولع هذا الملك بالعدل وشدة رغبته فيه ونص عبارتها مسيو الميرالاى قد انشرح صدرى حين بلغنى أن الاسوج قبضوا على الفلاحين حيث قبضوا على رجل من العساكر الاسوجية فبعد استجوابهم واقناعهم بأنهم مذنبون يعاقبون على ذلك بما يقتضيه الحال من انواع العقاب بالموت انتهى ووضع فيها اسمه وتحته اسم بيديس انتهى ماذكره نوربرغ فانظر الى هذا القسيس الذى هو قسيس ملك اسوج والى درجة عدالته ومروءته وشفقته ولو فرض أن فلاحى اوقرينة امكنهم خنق فلاحى اوستروغوثيا النازلين بتلك الجهة من المحال البعيدة لينهبوا من هؤلاء الفلاحين قوت نسائهم واولادهم مع اعتقادهم أن لهم الحق فى ذلك فهل كانت عدالة قسوس اوقرينة تقتضى أن يستحسنوا ذلك منهم ويعدوه مما يتمدح به كما فعل نوربرغ

وكان مازيبا منذ مدة مديدة يسعى فى عقد المحالفة بينه وبين الزاپورلوية وهم امة على شاطئى نهر الدنيبر ومنهم من يسكن جزائر هذا النهر واهل تلك الجزائر هم لا يتناكحون ولم يكونوا فى حالة الجمعية والعشائر بل معيشتهم من السلب والنهب وما يتحصل عندهم يجمعونه ويتركونه فى جزائرهم مدة فصل الشتاء ثم يذهبون لبيعه بمدينة بلطاوا الصغيرة فى فصل الربيع واما الآخرون فيسكنون ضياعا على ميمنة النهر وميسرته ويحكم الجميع

هتمان مخصوص ينتخبونه من بينهم وهو تابع لهتمان اوقرينة فذهب الهتمان الذى كان يحكمهم وقتئذ لمقابلة مازيبا فتقابل هذان الاميران الخشنيان وكل منهما محمول أمامه ذنب فرس وعصى

ولا بأس أن نورد هنا صورة المحالفة التى انعقدت بين هذين الهتمانين فان مثل ذلك بحسب الظن جدير بأن يذكر فى التاريخ ليقف به القارئ على حقيقة هتمان الزابوراوية ومعرفة حاله وحالهم فنقول ان مازيبا صنع للهتمان المذكور واعيان اصحابه وليمة عظيمة وقدم الاطعمة اليهم فى صحاف الفضة ولما اخذتهم نشوة السكر تحالف الهتمانان على الانجيل والمائدة بين ايديهما وتعاهدا على أن يمدا كرلوس الثانى عشر بالزاد والعساكر وبعد انقضاء المحالفة اخذ الزابوراوية الصحاف وجميع اثاث محل الوليمة وانصرفوا فلحقهم السفرهجى وقال لهم ان هذه الفعلة يحرمها الانجيل الذى حلفتم عليه واراد خدم مازيبا أن يأخذوا منهم الاوانى فتعصب الزابوراوية وذهبوا باجمعهم الى مازيبا يشكون له مما وقع فى حقهم من الاساءة التى تزرى بمقامهم وتخل بشرفهم وطلبوا منه أن يسلم لهم فى السفرهجى ليعاقبوه على ذلك بما تقتضيه القوانين فسلم لهم فيه فاخذوا هذا الرجل المسكين وصاروا يترامون به فيما بينهم كالكرة ثم طعنوه بسكين فى صدره

فهكذا كانت حالة معاهدى كرلوس الجديدين اللذين جبر على معاهدتهما وقبولهما فى هذا المعنى فانتخب من اصحابهما الايا والفى رجل وتفرق الباقى وتوجهوا لقتال من انضم الى بطرس من القزق والقلموق المنتشرين فى معسكراته

وكان فى مدينة بلطاوا الصغيرة التى يأتى اليها الزابوراوية لبيع بضائعهم كثير من المهمات والذخائر وكانت صالحة لأن تكون ميدان الحرب لملك اسوج وهى على نهر وورسكلا قريبة جدا من سلسلة جبال تشرف عليها من جهة الشمال وعلى شرقيها صحراء متسعة وارضها من جهة الغرب اشد خصوبة واكثر عمرانا والنهر المذكور يصب فى نهر الدنيبر بالبعد عن تلك

المدينة

المدينة بخمسة عشر فرسخا و يمكن لمن خرج منها من الجهة الشمالية قاصدا مدينة موسكو أن يهتدى الى طريق تلك المدينة بواسطة مسالك ضيقة هنالك يسلكها التتار فى سيرهم الى تلك الجهة ولكن لاحتراس بطرس صار سلوكها متعسرا او متعذرا الا أن كرلوس كان لا يكترث بمثل تلك الموانع ولا يعده مستحيلا فكان يطمع فى السير من تلك المسالك الى مدينة موسكو بعد الاستيلاء على مدينة بلطاوا فوضع عليها الحصار فى اوائل شهر مايه

(الفصل الثامن عشر)
فى واقعة بلطاوا

(سنة ١٧٠٩ من الميلاد) وكان بطرس ينتظر كرلوس فى تلك الجهة وكان قد جعل الفرق العسكرية من جيوشه على حالة بحيث يمكنها الاجتماع والسير جميعا الى جهة المحاصرين وكان ايضا قد طاف بجميع الاقطار التى تكتنف اقليم اوقرينة وكذلك دوقية سوريا التى يخترقها نهر دسنا الشهير بنصرة الجار وهو فى ارض هذه الدوقية اكثر عمقا مما فى غيرها وطاف ايضا بلاد بلكو التى بها منبع نهر اوكا وكذلك الصحارى والجبال التى يتوصل منها الى طريق بحر ازاق وتوجه الى هذا البحر واصلح ميناه واخذ يجدد فيها سفنا ويحصن قلعة تغنروك واغتنم فرصة الزمن الذى بين وقائع دسنا وواقعة بلطاوا فصرفه فيما يعود بالنفع على ممالكه

وبمجرد ما بلغه أن مدينة بلطاوا حاصرها ملك اسوج جمع جنوده من سوارى و بيادة وعساكر تقاتل فرسانا ورجالا وعساكر قزقية وقلموقية فقدموا كلهم من جهات عديدة وكانت جيوشه مستكملة اللوازم والادوات فكان معها سائر انواع المدافع من كبيرة وصغيرة يمكن نقلها وكذلك المهمات والذخائر من سائر الاصناف وما يحتاج اليه من الادوية والاجزاء فكان بذلك اعظم من عدوه شانا واقوى سلطانا

وفى الخامس عشر من شهر يونية سنة ١٧٠٩ من الميلاد وصل الى مدينة

بلطاوا يقدم جيشا تبلغ عدته ستين الف مقاتل وكان نهر وورسكلا بينه وبين كرلوس فكان المحاصرون نازلين فى الشمال الغربى والموسقو فى الجنوب الشرقى

وفى الثالث من شهر يوليه ركب بطرس النهر وصعد فيه الى الجهة العليا من المدينة ووضع هنالك ما يلزم من القناطر واجتاز جيوشه النهر عليها واقام متراساطويلا أمام جيش العدو شرعوا فيه وتمموه فى ليلة واحدة فعند ذلك ظهر لكرلوس أن هذا الملك الذى كان يحتقره ولا يعبأ به ويؤمل خلاعه عن ملكه بمدينة موسكو له معرفة بالفنون الحربية وخبرة بالحركات العسكرية ولما انتهى هذا التدبير أنزل بطرس عساكره الخيالة بين اجتين هنالك وسترها بعدة حصون عليها جملة من المدافع ولما اكمل هذه الاحتراسات على هذا الوجه ذهب فى السادس من شهر يوليه ليعاين معسكر العدو ويعرف كيف يهزمه ويحوز النصرة عليه

وهذه الواقعة كان عليها المدار فى بت الامر بين ممالك الموسقو و له وأسوج وفى انهاء المشاجرة بين هذين الملكين اللذين كان اهل اوروبا باجمعهم شاخصة ابصارهم اليهما ويترقبون ما يؤول اليه امرهما فقد كان اغلب الملل المتيقظة التى تعتنى بالبحث عن مثل هذه المصالح العظيمة والمنافع الجسيمة لا تعرف اين مقر هذين الملكين ولا ماهما عليه من الاحوال وانما كان مبلغ علمهم فى هذا المعنى هو أن كرلوس حيث خرج من مملكة سكس منصورا على عدوه قائد الجيش هائل يقفوا اثر خصمه فى سائر الجهات فلا ريب أنه يهزمه ويظفر به وأنه حيث وضع القوانين على دانيمرقة و له والنمسا فلا بد أنه يملى بسراية كريملين فى مدينة موسكو الشروط على الدولة الموسقوبية ويعزل جارها ويولى عليها جارا غيره كما ولى ملكا على مملكة له وقد عثرت على هذا الرأى العام فى عدة مكاتبات صادرة من وكلاء الدول الى دواوين ملوكهم

ولم يكن امر الخطر بين هذين الخصمين على حد سواء اذ لو هلك فى هذه الواقعة

كرلوس الذي طالما عرض نفسه للاهوال واقتحام الاخطار لما حصل الاسف عليه الا من جهة كونه من صناديد الابطال فقط فانه بانقضاء اجله ينقضي الدمار والخراب من اقليم اوقرينة وثغور اقليم لوثيانيا والدولة الموسقوبية ويعود الى مملكة له مع الهدء والراحة مليكها الاصلي حليف الجار الذي له الفضل والمنة عليه

وقصارى الامر أن مملكة اسوج لنفاد اموالها ورجالها كانت لا تحزن عليه بل ربما كانت تجد في ذلك ما تتسلى به ويحملها على العزاء والصبر بخلاف ما لو هلك بطرس فانه بفقده تفقد المصالح والاشغال الجسيمة العائدة بالمنفعة على النوع الانساني من ابناء جنسه ويحل الاختلال وعدم الانتظام باكبر مملكة على وجه الارض مع قرب عهدها بالانتشال من تلك الاوحال واستحالة حالها الى احسن حال

ثم ان بعض الفرق الاسوجية والموسقوبية وقع بينها النزال والمصادمة غير مرة تحت اسوار مدينة بلطاوا (٢٧ من شهر يونية) وفي بعض تلك المصادمات اصيب كرلوس بضربة قربانة كسرت عظام قدمه فعولج هذا الجرح بعدة عمليات مؤلمة وابدى فيها ما هو عادته من الجلادة والصبر من غير اظهار تاثر ولا تالم وبعد ايام قلائل اضطر الى ملازمة الفراش واذ ذاك وهو في هذه الحالة أن بطرس لا بد أن يهزمه لكن ما كان قائما بنفسه من التولع بمعالي الامور وحب الفخار حمله على أن لا يمكث في داخل كرانكه وينتظر بطرس حتى يتقدم عليه بل خرج منها محمولا على سرير قاصدا شن الغارة على العدو وفي غازيطة بطرس الاكبر أن الاسوج استولوا مع الهمة وفرط القوة على الحصون الموضوع عليها المدافع التي كانت وقاية الخيالة الموسقوبية فتغلبوا منها على حصنين مع ما ابداه بطرس من المقاومة واستمرار الضرب بالنار عليهم ويقال ان العساكر المشاة الاسوجية الذين استولوا على هذين الحصنين ظنوا أن النصرة لهم في هذه الواقعة فصاحوا النصرة النصرة وناقش في ذلك المورخ نوربرغ الذي كان بعيدا عن ميدان الحرب في محل الاثقال والامتعة

(حيث يكون امثاله) فزعم أن الاسوج لم يقولوا ذلك وانما صاحوا هل النصرة لنا ام لا المنتهى ولا ريب أنهم لم ينالوها بل كان الضرب بالنار لم يزل واقعا من الحصون الاخرى وقاوم الموسقو عدوهم مع القوة والثبات التام ثم انهزموا مع بقائهم على العزم والحمية ولم يقع منهم ادنى اختلال فى الحركات العسكرية بل صفهم الجار خارج الكرانك وجعلهم صفوفا وطوابير مع الترتيب والسرعة

فعند ذلك صارت الواقعة عامة وكان بطرس قائما فى جيوشه بوظيفة رئيس رجال جهادية وكان الجنرال بوير متوليا امر ميمنة الجيش والامير منزيقوف امر الميسرة والجنرال شرمتوف فى القلب واستغرق القتال بين الفريقين نحو ساعتين وكان بيد كرلوس طبنجة يذهب بها من صف الى آخر محمولا على اعناق الحرس فاصيب احدهم بضربة مدفع افضت به الى الهلاك وتفرقت بها اجزاء السرير فبادر الاسوج الى ملكهم وحملوه على رماحهم حيث لا يتيسر فى مثل هذا الالتحام المهول وجود سرير آخر ولا التفات لما قاله نوربرغ فى ذلك وقد اصيب بطرس بعدة ضربات فكانت فى ثيابه وبرنيطته وكان كل من هذين الملكين على الدوام فى وسط النيران واستمرا على ذلك مدة المعركة بتمامها وبالجملة فبعد أن مكث القتال بينهما ساعتين انهزم الاسوج وحل بهم الخزى والوبال وركن كرلوس الى الفرار أمام ملك طالما ازدراه واحتقره ووضعه اصحابه على الجواد مدة هروبه مع أن هذا البطل لم يكن يمكنه الركوب وقت المعركة ولكن اورثته الضرورة بعض قوة فكان يركض بجواده وبه من الآلام ما لا مزيد عليه واشتد به الالم جدا لظهور عدوه عليه وانهزامه شر هزيمة وقد احصى الموسقو من هلك من الاسوج فى محل المعركة فوجدوهم تسعة آلاف ومائتين وثمانين نفسا واسروا منهم مدة القتال الفين اوثلاثة اغلبهم من الخيالة

وقد اسرع كرلوس الفرار ومعه من العساكر نحو اربعة عشر الف مقاتل وعدة قليلة من المدافع التى تنقل فى الاسفار وشىء يسير من الذخائر والمهمات

والبارود

والبارود وقصد نهر الدنيبر من الجهة الجنوبية بين نهرى وورسكلا وسول او پسول فى بلاد الزابوراوية حيث يوجد فيما وراء هذا النهر صحارى عظيمة يتوصل منها الى ثغور بلاد الدولة العثمانية وقد ذكر نوربرغ أن الغالبين لم يتجاسروا على تتبع كرلوس واقتفاء اثره وانظره مع ماذكره من أن الامير منزيقوف ظهر من اعلى نهر الدنيبر يقدم عشرة آلاف من الخيالة ومعه جملة عظيمة من المدافع حين كان كرلوس يجتاز ذلك النهر مع اصحابه

وفى الثانى عشر من شهر يولية اسر هؤلاء الفرسان من عساكر الاسوج اربعة عشر الفا وانعقدت بينهم وبين الجنرال لووانهوپ قائد هؤلاء العساكر الاسوجية مشارطة وضع عليها هذا الجنرال القرار والامضاء وبمقتضاها سلم للبار فيمن كان معه من عساكر الزابوراوية الذين كانوا يقاتلون مع ملكه كرلوس وكان من جملة من اسر من الاسوج فى واقعة بلطاوا ومن اسر بمقتضى هذه المشارطة عدة رجال من مشاهيرهم وامرائهم وهم القونتة پيپر اعظم وزراء كرلوس ومعه اثنان من كتاب الدولة الاسوجية وآخران من كتاب الديوان الملوكى والسر عسكر رانشيلد والجنرال لووانهوپ والجنرال اسليپنباك والجنرال روزان والجنرال استاكيلبرغ والجنرال كروتس والجنرال هاملتون وثلاثة جنرالات باشمعاونين وحكمدار عموم الجيوش الاسوجية وتسعة وخمسون من عظماء الضباط وخمسة من الميرالايات منهم الامير ويرتانبرغ واسروا منهم ايضا ستة عشر الفا وتسعمائة واثنين واربعين ما بين عساكر وضباط صفوف وبالجملة فاذا ادخلنا فى الاسرى خدم كرلوس وغيره ممن كان فى الجيش من الاحراء بلغت عدتهم ثمانية عشر الفا وسبعمائة وستة واربعين كلهم وقعوا فى قبضة بطرس واذا نظرنا مع ذلك الى عدد القتلى فى تلك الواقعة وهم تسعة آلاف ومائتان واربعة وعشرون والى من اجتاز مع كرلوس نهر الدنيبر فى الهزيمة وهم الفان تقريبا وجدنا أن كرلوس كان معه فى هذه الواقعة الجديرة بالذكر سبعة وعشرون الف مقاتل

واماما كان مع ملك اسوج حين سفره من بلاد سكس فخمسة واربعون الف مقاتل وكان الجنرال لووانهوپ قد احضر من اقليم ليوونيا ستة عشر الفا واكثر فلم يبق لهذا الجيش الجرار وكذلك ما كان معه من المدافع العديدة فقد ضاعت كلها منه مدة سيره بوقوعها وانغماسها فى قاع البحيرات والاراضى المستنقعة ماعدا ثمانية عشر مدفعا من خليط المعادن واثنين من مدافع البمب واثنى عشر هاونا وحاصر مدينة پلطاوا بهذه العدة القليلة وظهر بها على جيش كان به من المدافع عدة مهولة فهلا يقال ابن كرلوس منذ ارتحل من بلاد ألمانيا أبدى من الهمة وفرط القوة مافاق على الحزم والتبصر فى العواقب واما الجيش الموسقوبى فلم يهلك منه الا اثنان وخمسون من الضباط ومائة وستة وتسعون من العساكر وهذا دليل على أن الموسقو كانوا أحكم وضعا من الاسوج وأن نيرانهم كانت لاتخطئ المرمى.

هذا وقد زعم بعض الالچية بديوان الجار فيما كتبه فى هذا المعنى أن بطرس لمابلغه أن كرلوس قد عزم على الالتجاء الى الدولة العثمانية كتب اليه يناشده أن لايفعل هذا الامر الذميم وافهمه أن نزوله بحماه اولى من النزول بحمى اعداء دين النصرانية واخصام سائر ملوك الملة المسيحية واقسم له بشرف العرض انه لايحجزه عنده كالاسرى وأنه ينهى ما بينهما من النزاع والمشاجرة على وجه مقبول مستحسن وبعث اليه الكتاب مع سفير مخصوص فذهب بهذا السفير حتى وصل الى نهر بوغ الذى يفصل بلاد اوقرينة من مملكة الدولة العثمانية فلم يدركه هنا لئلا كان قد دخل فى اراضى تلك الدولة فعاد بالكتاب الى سيده هكذا ذكره الالچى المذكور قائلا انه نقل ذلك عن السفير المبعوث بالكتاب وهذه من النادرة وان لم يستبعدها العقل الا أنى لم اقف عليها فى دفاتر يومية بطرس الاكبر ولافيما وصل الى من اللوائح هذا ومن اهم الاشياء أن هذه الواقعة دون غيرها من الوقائع التى سفكت فيها دماء كثيرة عادت بالنفع على الموسقو لا بالدمار والخراب كما كان يظن ذلك فان الجار تمكن بها من ايقاع التمدن واحداث التأنس فى جزء عظيم من اجزاء الارض وهو

المملكة

المملكة الموسقوبية

وقد حصل فى بلاد اوروبا من الوقائع المنتظمة الجارية على اصول فن الحرب مايزيد على مأتى واقعة وذلك من ابتداء القرن الثامن عشر الى سنة تأليفنا لهذا الكتاب فلم يترتب على نصراتها الشهيرة التى سفكت فيها دماء كثيرة الا اخذ بعض اقاليم صغيرة بمقتضى مشارطات انعقدت لذلك ثم ردت بواسطة وقائع اخرى وطالما صدر القتال من جيوش مؤلفة من مائة الف مقاتل ولم يترتب عليها الا نجاح هين وثمرات واهية تمر ولا تستمر فانت ترى الامور الهينة الصغيرة لم تحصل الا بوسائط عظيمة خطيرة ولا تجد فى وقائع اوروبا الحربية المتأخرة واقعة جبرت ما نشأ عنها من الخلل والفساد بقلة جدواها وحقارة منفعتها الا واقعة بلطاوا فانه ترتب عليها منافع عظيمة وفوائد جمة جسيمة حق علينا بها أن نهنئ الدولة الموسقوبية التى هى اعظم دولة على وجه الارض حيث كان لها بتلك الواقعة فى درجة الارتقاء والتمدن اوفر حظ واوفى نصيب

(الفصل التاسع عشر)

فى ذكر ما حصل بعد نصرة واقعة بلطاوا وفى التجاء كرلوس الى الدولة العثمانية ورجوع اغسطوس لملكه بعد أن عزله ملك اسوج وفى ذكر فتوحات بطرس الاكبر

(سنة ١٧٠٩ من الميلاد) لما قدم للچار جميع مشاهير اسرى الاسوج ورد اليهم سيوفهم ودعاهم الى الاكل معه على المائدة وقد اشتهر أنه فى حال تناوله الشراب على صحتهم (كما هو العادة عندهم) قال انى اشرب على صحة معلمى فن الحرب ولكن بعد ذلك بيسير بعث اغلب هؤلاء الاسرى الذين سماهم معلمين او الضباط الصغار منهم وجميع العساكر الى اقليم سبير ليشتغلوا هنالك ولم يكن وقع بين دولتى الموسقو والاسوج اتفاق على مفاداة الاسارى وانما كان الچار قد عرض ذلك مرة قبل واقعة بلطاوا فابى كرلوس وامتنع من اجابته فبذلك صار الاسوج فريسة كبر ملكهم ويبوسة طبعه حيث افضى بهم عتوه وعناده الى ما حل بهم

وافراطه فى الكبر الذى فى غير محله هو الذى جرّ اليه جميع المصائب التى
حلت به فى بلاد العثمانية ولعمرى ان هذه المصائب كان الاحق أن يصاب بها
متردعات لا ملك عاقل مثل كرلوس ولما قارب هذا الملك مدينة بندر نصحه
بعض الناس واشاروا عليه أن يكتب الى الصدر الاعظم فى شأن النزول بحمى
الدولة العلية كما هو العادة الجارية فابى ذلك كبرا وعنادا ورأى أن هذا يزرى
بمقامه ولا يلايم رفعة شأنه فترتب على هذا الكبر والعناد اختلال امره وسوء
حاله عند جميع وزراء هذه الدولة فلم يكن يعمل على حسب مقتضيات الزمان
والمكان و ينظر فى سلوكه الى ما يناسب كلا منهما ويلايمه

ولما شاع خبر واقعة بلطاوا وانتشر ذكرها فى الجهات اضطربت العقول
والمصالح ببلاد له وسكس واسوج وسيليزيا وذلك أن كرلوس
حين كان يضع القوانين على الممالك و يكلف بها الدول كان قد الزم يوسف
الاول ايمبراطور ألمانيا بأن ينزع من القاثوليقية الذين بايمبراطوريته
مائة كنيسة وخمسة ويعطيها لاهل سيليزيا الذين هم على دين بطريقية
اوكسبورغ اللوثريانية فلما شاع خبر هذه الواقعة وأن كرلوس هزم فيها
استرجع القاثوليقية اغلب الكنائس التى كانت تحت يد اللوثريانية واما اهل
سكس فلم يتفكروا الا فى الانتقام من الملك الذى غلبهم وقهرهم واخذ
من اموالهم حسبما قالوه ثلاثة وعشرين مليونا من الايكو (ريال)
ففى الثامن من شهر اغسطوس بادر حاكمهم وهو ملك له بالرجوع عن
التخلى عن حكومته ونقض ما ألزم به من النزول عن سرير مملكته طالبا العود
الى ما خلع عنه قسرا وسلب منه اكراها وقهرا فبمجرد ما رضى عليه الجار
بادر بالجلوس على سرير مملكة له واما الاسوج فكثوا مدة وهم يعتقدون
أن ملكهم هلك ولم يمكن لاهل مشورة السنت الاسوجية أن ينضموا
الى حزب من الاحزاب ويؤثروه على غيره بتعضيده والاخذ بناصره لكونهم
لم يتحققوا موت كرلوس ولم يقم عندهم عليه دليل قطعى

ثم ان بطرس لم يهمل فى اجتناء ثمرات النصرة بل ارسل السر عسكر

شيرمتوف

شرمتوف بجيش من عساكره الى اقليم ليوونيا حيث ابدى هذا الجنرال على ثغوره من الشجاعة ما اكسبه الشهرة والفخار وبعث الامير منزيقوف بطائفة عظيمة من الخيالة الى مملكة له ليعين من بها من الفرق العسكرية اليسيرة ويساعد حزب اغسطوس ويطرد منها الخصم الذى هو فى حكم العاصين الخارجين عن الطاعة ويبدد شمل بعض الجيوش الاسوجية التى كانت باقية هناك مع الجنرال الاسوجى المسمى كراسو

وفى الثامن عشر من شهر سبطمبر سافر بطرس بنفسه ومر فى طريقه باقليم كيوويا من طريق ولايتى شلم و وولنيا العليا ووصل الى مدينة لوبلين وتفاوض مع جنرال لوثيانيا ورأى جيوش التاج الملوكى تهنى اغسطوس وتبايعه على الطاعة ثم ذهب الى مدينة ورشاو وحظى فى مدينة تورن بما لامزيد عليه من الفخار حيث فيما تلقى الشكر والثناء من ملك ردله مملكته واعاد اليه دولته وحكومته وكان ذلك فى السابع من شهر اوقطوبر وفيها ايضا عقد مع ملوك دانيمرقة و له والبروسيا مشارطة تضر بمملكة اسوج حيث تضمنت مايدل على أن بطرس قد اخذ يحيى ما كان للملوك الموسقو من الحقوق القديمة فى شأن ليوونيا وأنغريا وكارليا وجزء من اقليم فنلندة وتضمنت ايضا أن دانيمرقة تطلب اسكانيا وملك البروسيا يطلب اقليم بوميرانيا

وقد اودى سوء حظ كرلوس بالمبانى والعمارات التى كان غسطاوة ادولف شيدها بسعده وقيام حظه وكان اشراف مملكة له يأتون الى ملكهم اغسطوس افواجا ويبايعونه ويسألونه الصفح عنهم والاغضاء عما ارتكبوه فى حقه من ذنب تركه والتخلى عنه وكان اغلبهم يعترف أن بطرس هو ظهيرهم وحاميهم

فلما رأى استانسلاس قوة اسلحة الجبار ووقف على المشارطة المتقدمة ورأى ما حل بمملكة له على حين غفلة من الهرج والاختلاف لم يجد ما يمانع به هذه الخطوب الا النزول عن سرير الملك فكتب اعلانا عاما مضمونه

أنه مستعد للتخلى عن الحكومة متى طلبت الجمهورية ذلك

ثم ان بطرس بعد أن تفاوض مع ملك له فى جميع الامور ووضع القرار على المشارطة التى عقدها مع الدانيمرقة سافر فورا الى ملك البروسيا ليتم معه امر المشارطة ولم تكن عادة الملوك اذ ذاك أنهم يذهبون بانفسهم الى قضاء مثل هذه الاوطار التى هى من وظائف الالجية فكان بطرس هو اول من سن هذه السنة التى لم يجر عليها الى الآن العمل بين الدول الا قليلا ثم ان منتخب براندبورغ الذى هو اول ملك للبروسيا ذهب الى مدينة مريانو يردير لاجل المقاوضة فيها مع الجلر وهى فى الاصل مدينة صغيرة فى الجزء الغربى من اقليم پوميرانيا اسستها طائفة الشواليـة التوتونيـة وهى واقعة على اطراف مملكة البروسيا منذ انتظمت هذه المملكة فى سلك الممالك المستقلة وتلك المملكة وان كانت صغيرة فقيرة الا أن ملكها الجديد لما طاف بها وسافر الى اطرافها واكنافها جدد بها ما صارت به مبتهجة زاهرة و باهية زاهية فاخرة وفى اثنائها كان مشغولا بتحسينها وتحصيل ما يكون به رونقها تلقى بطرس عنده حين خرج من بلاده اول مرة بقصد التعلم فى الدول الاجنبية فلما قدم عليه هذه المرة وهو منصور على عدوه كرلوس فى العشرين من شهر اوقطوبر تلقاه بموكب واحتفال اعظم من المرة الاولى ثم عقد معه بطرس فى اول الامر مشارطة لا تتضمن الا الحماية والمدافعة وبعد ذلك تعاقدا على ما يضر بالمصالح الاسوجية ويفضى بالمملكة الى الدمار

(٢١ من شهر نومبر) ولم يضيع بطرس من الزمن ادنى مدة بلا فائدة بل بعد أن تم على وجه السرعة ما عقده من المشارطات التى تستدعى طول المدة عادة ذهب للاقاة جيوشه أمام مدينة ريغا قاعدة اقليم ليوونيا وشرع فى محاربتها بضرب النار على قلعتها ووضع بنفسه النار فى مدافع البمبات الثلاث الاول ثم وضع الحصار على المدينة ولما كان متيقنا من اخذها ذهب الى مدينته وهى بتربورغ لاجل مباشرة ما بها من الاشغال كبناء بيوت وانشاء دونمات وفى الثالث من شهر دقبر مد بنفسه اساس سفينة تحمل

اربعة

اربعة وخمسين مدفعا ثم سافر الى مدينة موسقو واخذ يباشر فيها ما يوجب
الحظ والمسرة من اشغال تجهيزات موكب النصر الذى احدثه
فى هذا التخت وامر بعمل موكب عظيم واشتغل فى تجهيز مواده ولوازمه
بنفسه

(غرة شهر ينويه سنة ١٧١٠ من الميلاد) وكان اول ما بدئت به هذه
السنة هو هذا الموكب العظيم الذى كان عمله اذ ذاك من الامور الضرورية
التى لا بد منها للرعية الموسقوبية حيث به يعرفون مقدار شرف النفس وعظم
موقعه وتسر نفوسهم من رؤية من كانوا يخشون أن يدخلوا ديارهم
ظافرين منصورين وذلك أن اول ما بدئ به الموكب هو المدافع الاسوجية
مروا بها تحت سبعة قناطر او اقواس ظريفة وكذلك صناجقهم واعلامهم
وسرير كرلوس الذى كان محمولا عليه فى واقعة بلطاوا ثم من اسر من
العساكر الاسوجية فالضباط فالجنرالات فالوزراء ماشين جميعا على اصوات
النواقيس والطرمبيطات والمدافع الكثيرة وصياح الاهالى الموسقوبية
التى لا تحصى عددا عند كف المدافع عن الضرب ووراءهم العساكر المنصورة
راكبين خيولهم يقدمهم الجنرالات الموسقوبية وكان بطرس سائرا
معهم على حسب رتبته وهى كونه رئيس رجال جهادية وكان عند كل قوس
من قسى النصر جماعة من الاچلبية على اختلاف درجاتهم وآخر الموكب جيش
منتخب من شبان البيكزادات الموسقوبية متزيين بزى الرومان وكانوا
يقدمون لملكهم المنصور ازهار شجر الغار علامة على النصرة

وبعد هذا الموسم العام حصل موكب آخر اكتسب فيه بطرس من
التشريف ما ليس دون ما اكتسبه من ذلك فى الموكب الاول وذلك أنه فى سنة
١٧٠٨ من الميلاد كان قد حصلت حادثة اساءت بطرس وكدرت خاطره وهى
ان الچلبى المسمى ماتيوف كان بمدينة لندرة عند حانة ملكة الانكليز
فاقتضى الحال سفره من تلك الجهة فمنعه عن السفر اثنان من طرف المحكمة
وقبضا عليه لكون بعض تجار الانكليز ادعى عليه بمبلغ من الاموال

واحضراه بين يدى قاضى المصالحات لاجل استيفاء هذا المبلغ منه وكان تجار الانكليز يزعمون أن مراعاة قوانين التجارة مقدمة على مراعاة مزايا الالجية ورسوم احترامهم واما الجى الجار ومن انضم اليه من الالجية فادعوا أن ذات الالجى محترمة لا يجوز القبض عليها فلما بلغ ذلك بطرس كتب الى الملكة حانة أن تعمل فى هذه القضية بالعدل والانصاف وطلب منها ذلك على وجه الشدة والقوة حسبما دلت عليه مكاتباته لها فى هذا الشان لكن لم يمكنها أن تعمل بمقتضى طلبه لان القوانين الانكليزية تسوغ للتجار أن يتبعوا غرماءهم ويقبضوا عليهم اياما كانوا وليس فيها مايدل على استثناء الالجية من عموم هذا الحكم ولما رآى الانكليز أن بطقول الجى الجار قد قتله كرلوس الثانى عشر فى السنة التى قبل هذه السنة تجاسروا على الغاء عادة احترام الالجية فلم يراعوا حرمة الجى الجار بل عاملوه اسوء المعاملة فلم يسع الجية الملل الاجنبية الذين كانوا بدولة الانكليز الا أن ضمنوا ماتيوف وتكفلوا بما عليه وغاية ماامكن لحانة فى ارضاء خاطر بطرس هو أنها ألزمت مجلس البرلمان (وكلاء الملة) بوضع قانون يتضمن أنه من الآن فصاعدا لا يسوغ القبض على الجى فى تطير ديونه فلما حصلت واقعة بلطاوا اقتضى الحال أن تسلك فى ارضاء خاطره مسلكا اعظم من ذلك فبعثت اليه من طرفها على وجه يؤذن بتبجيله وتعظيمه سفارة حافلة تستعطفه على رؤوس الاشهاد وكان رئيس المحفل يقال له دوويدورت فقام فى السادس عشر من شهر فبرية بين يدى بطرس وخطب على لسان الملكة خطبة بدأها بخطاب الجار فقال مامعناه يا يها الايمبراطور العلى المقدار * صاحب الشوكة والاقتدار * ان من تجاسروا على اساءة الجيك وهتك حرمته * وقبضوا عليه بقصد استيفاء ما فى ذمته * قد عوقبوا بالسجن وحكم عليهم بأنهم مخدوشو العرض اخساء النفوس * انتهى

ثم ان ماذكره هذا الالجى فى ارضاء خاطر الجار يكفى بطرس فخارا واعتبارا وان لم يكن حصل فى الواقع ونفس الامر فان لقب الايمبراطور الذى

لم

لم تلقبه به حانة قبل واقعة بلطاوا يكفى بمفرده فى الدلالة على اعتباره
وعظم شأنه فى دول اوروبا وكان هذا اللقب يلهج به الفلمنك قبل ذلك
كثيرا ولم يكن ذلك مقصورا على من كان الجار معهم فى ترسانات سردام
ممن كانوا يحبون له الفخار وعلو المقدار بل كان يلقبه به ايضا مشاهير تلك الدولة
عن طيب نفس وخلوص طوية وقد صنعوا له مواسم عظيمة اشهروا بها نصرته
بحضور الايلجى الاسوجى الذى كان ببلادهم
وهذا الاعتبار الذى اكتسبه بطرس بالنصرة لم يزل يتزايد و يتجدد بتجدد
الايام وذلك أن الموسقو اذ ذاك كانوا محاصرين مدينة ايلبرغ وكانت
من المدن المستقلة بنفسها من مدن البروسيا الملوكية بمملكة له وكان
لم يزل للاسوج بها عساكر محافظون فهجم الموسقو عليها فى الحادى عشر
من شهر مارث ودخلوها واسروا من بها من المحافظين وكان بها مخزن عظيم
من مخازن كرلوس الثانى عشر فوجد به الموسقو مائة وثلاثة وثمانين
مدفعا من المعادن ومائة وثلاثة وخمسين هاونا فكانت كلها غنيمة للجار
ثم بادر بالذهاب الى مدينة موسقو ومنها الى بتربورغ و بمجرد وصوله
اليها ركب البحر فى الثانى من شهر ابريل مصطحبا معه الدونمنا التى جددها
وسار تحت حماية قلعته الجديدة المسماة كرونسلوت وحاذى فى سيره سواحل
اقليم كارليا حتى وصل بالدونمنا أمام مدينة ويبورغ قاعدة اقليمى
كارليا وفنلندة ولم تعقه عن ذلك الفرطونات وعواصف الرياح وكانت
جيوشه البرية قد تقدمت هنالك ونزلت على البحيرات المتجمدة وكان
العساكر قد احاطوا بمدينة ريغا قاعدة اقليم ليونيا وضايقوها بالحصار
و بعد ذلك بيسير فى الثالث والعشرين من شهر يونية سلمت مدينة ويبورغ
بعد أن شرموا جدرانها بضرب المدافع وسلمها من بها من المحافظين وكانوا اربعة
آلاف للموسقو صلحا بشروط لكنهم لم ينالوا اشرف الحرب بل اسروا
والغيت شروطهم وكان بطرس يتشكى من بعض امور حصلت من الاسوج
خالفوا فيها الاصول والقوانين فوعد أنه يمن على هؤلاء الاسرى بالعتق

اذا ارضى الاسوج خاطره وتداركوا ماتشكى منه فطلبوا من ملكهم كرلوس أن يأمر بما يراه فى هذا الغرض وكان كرلوس من طبعه اليبس والعناد فلم يسلم فى المن على اسرى الموسقو بالعتق بل استمروا على اسرهم فكان فى ذلك مثل برنس دى اورنجه وهو غليوم الثالث ملك الانكليز حيث قبض سنة ١٦٩٥ من الميلاد على السرعسكر بوفليرس مع ماحصل اذذاك من المشارطات بمدينة نامور ومثل هذا التعدى وقع كثيرا ولكن المؤمل ابطاله وزواله

وبعد اخذ هذه المدينة بيسير صارت محاصرة مدينة ريغا على غاية من الانتظام حيث تفرغ لها الموسقو واهتموا بالتشديد والتضييق عليها وقد اقتضى الحال وقتئذ تحليل الثلوج المجمدة التى على نهر الدوينا المتصل من جهة الشمال بجدران هذه المدينة وكانت الامراض الوبائية منتشرة منذ مدة فى اقاليم تلك الجهة فخلت بالعساكر الموسقوية المحاصرة فاهلكت منها تسعة آلاف ومع ذلك فلم تثبطهم عن المحاصرة وانما طال امد الحصار ونال محافظو المدينة شرف الحرب (٥ من شهر يولية) ولكن كان من جملة الشروط التى اشترطوها أن جميع الضباط والعساكر الليوونية تمكث فى خدمة الموسقو كانهم اضمحلوا سابقا وتمزقوا واستولى عليهم اسلاف كرلوس الثانى عشر وجردوهم مما كان لهم من المزايا والخصايص ثم ردت اليهم الآن ودخل جميع ضباطهم فى خدمة الجار فكان ذلك اعظم انتقام صدر من بطرس فى نظير قتل ملك اسوج بالجيه بطقول الليوونى وحكمه عليه بالقتل لكونه تصدى لحماية هذه المزايا والذب عنها وكان عدد المحافظين بتلك المدينة نحو خمسة آلاف وبعد ذلك بقليل تغلب الموسقو على قلعة مدينة پانامونده ووجدوا فى تلك القلعة وفى المدينة مايزيد على ثمانمائة مدفع

ولم يبق على الجار فى الاستيلاء على اقليم كارليا الامدينة كيكسهولم وهى مدينة حصينة واقعة فى جزيرة ببحيرة لادوغا وكان الناس يرون أنه لا يمكن لاحد التغلب عليها ولكن بعد مدة قليلة (فى التاسع عشر من شهر سبطمبر)

ضرب

ضرب الموسقو عليها بالمدافع فسلمت فى اقرب وقت وسلمت لهم ايضا فى ظرف مدة يسيرة جزيرة اويزل بالبحر المتصل باقليم ليوونيا من الجهة الشمالية

ولم يبق على الجار ايضا فى الاستيلاء على ليوونيا الا برنو وريويل وهما مدينتان فى استونيا الذى هو اقليم من ليوونيا فى الجهة الشمالية على خليج فنلندة ففى الخامس والعشرين من شهر اغسطوس سلمت مدينة برنو بعد أن حاصرها الموسقو مدة ايام قلائل وسلمت لهم ايضا مدينة ريويل فى العاشر من سبطمبر من غير أن يضربوا عليها مدفعا غير أن المحصورين وجدوا طريقا للفرار ففروا حين اشرف المنصورون على اسرهم والقبض عليهم وذلك أن بعض سفن اسوجية رست ليلا على المينا فنزل بها محافظو المدينة واغلب اهلها وساروا فى البحر فلما دخلها المحاصرون تعجبوا غاية العجب حيث وجدوها قفرة خالية عن الاهل ولم يكن يخطر ببال كرلوس الثانى عشر حين انتصرفى واقعة نروا أن عساكره تحتاج ذات يوم الى مثل هذه الحيلة الحربية

هذا ما كان من امر هؤلاء واما استانسلاس فانه لما رآى أن حزبه بمملكة له قد حقت عليه الهزيمة ذهب الى پوميرانيا ليلتجى هنالك وكان الحاكم وقتئذ هو الملك اغسطوس ومما يعسر علينا الحكم فيه بشىء على سبيل القطع هو أن فخار كرلوس بعزل هذا الملك هل يفوق فخار بطرس باعادته الى منصبه اولا

وكانت الايالات الاسوجية وقتئذ اسوء حالا من ملكها وذلك أن الامراض الوبائية التى خربت اقليم ليوونيا انتقلت الى بلاد اسوج وهلك بها من اهالى مدينة استكهلم بمفردها ثلاثون الفا وتمت خراب الاقاليم الاسوجية التى كانت خالية عن السكان حيث كان اغلب الاهالى فى ظرف السنوات العشرة المتوالية قد هاجروا من ديارهم ليبذلوا مهجهم فى الحرب تحت قيادة ملكهم وولى امرهم

ثم ان شقاء هذا الملك وسوء حظه وصل الى بوميرانيا ايضا وذلك أن عساكره اللهيسة كانت مقيمة بهذا الاقليم وكانوا احد عشر الفا فعزم كل من الجار وملك دانيمرقة وملك البروسيا وحاكم هانورة ودوق هولستين وتواطئوا جميعا على الاضرار بهذا الجيش بحيث يصير عديم الجدوى خاليا عن المنفعة وعلى الزام قائده الجنرال كراسو بالتخلى عن الفريقين بحيث لا يكون مع احدهما على الآخر وقد رأى ارباب مجلس النيابة بمدينة استخلم أن الاوفق بهم فى هذا الوباء الذى خرب ديارهم امضاء هذا التخلى ووضع القرار عليه حيث انقطعت عنهم الاخبار من طرف ملكهم كرلوس ورأوا أن اقل ثمرات هذا التخلى هو امن بعض اهاليهم من فزع الحرب وخلوه عن اهوال القتال وقد ساعد فى عقد هذه المشارطة الغريبة ايمبراطور الالمان وذكروا فيها أن هذا الجيش الاسوجى الذى باقليم بوميرانيا لا يمكن من الخروج منه للمدافعة عن ملكه فى محل آخر وانحط الرأى فى ألمانيا على جمع عساكر جديدة لتنفيذ هذه المشارطة التى لم يسبق مثلها واجراء العمل عليها وكان الحامل لايمبراطور الالمان على ذلك هو أنه كان وقتئذ مشتغلا بمحاربة الدولة الفرنساوية فكان يؤمل بذلك ادخال الجيش الاسوجى فى خدمته وقد تم امر المفاوضة فى هذا المعنى حين كان بطرس مشتغلا بالاستيلاء على ليبونيا واستونيا وكارليا

وبينما كان كرلوس الثانى عشر فى هذه المدة يسعى مع غاية الاجتهاد وفرط الهمة من مدينة بندر الى الدولة العلية فيما يحرض هذه الدولة ويحملها على قتال الجار اذ بلغه خبر هذه الحادثة التى هى عليه من اعظم المصائب واشد النكبات فاستغرب غاية الاستغراب كيف اقرت مشورته بمدينة استخلم هذه الشروط التى يقتضاها يكون جيشه موثوق الايدى لا منفعة له فكتب اليها وهو فى هذه الحالة أنه يبعث احدى نعليه لاجل حكم المملكة وادارتها

ومع ذلك كان الدانيمرقة يستعدون لشن الغارة على البلاد الاسوجية وكانت

جميع ملل اوروبا اذذاك مشتغلة بمحاربة بعضها بعضا فكان الحرب واقعا بين ممالك اسبانيا والبرتوغال وايطاليا وفرانسا وألمانيا والفلمنك والانكليز في شأن وراثة كرلوس الثاني ملك اسبانيا وكانت جميع الدول الشمالية قائمة على كرلوس الثاني عشر فلم يبق الا أن تقع مشاجرة في الدولة العلية حتى لا تكون قرية من قرى اوروبا الا وهي عرضة للدمار والخراب وقد وقع ذلك ونال التهايد التعكير والمتنازعة كغيرها من الدول حين كان بطرس في اقصى درجات السودد والفخار ولم يحصل ذلك من الدولة العلية الا لكون الجار في الواقع ونفس الامر كان قد بلغ أوج الفخار وحاز علو الشان ورفعة المقدار

(المقالة الثانية)

(الفصل الاول)

في الكلام على واقعة البروث

(سنة ١٧١٠ من الميلاد) قد اشهر السلطان احمد الثالث الحرب مع الجار بطرس الاول ولم يكن الباعث على ذلك كرلوس ملك اسوج وانما كان في الواقع ونفس الامر لمجرد مصالح السلطان الخصوصية وذلك أن خان تتار القرم كان يخشى بأس هذا الملك المجاور له (يعني بطرس) حيث رآى أن شوكته قد قويت وصولته قد عظمت وكانت الدولة العثمانية قد ارتابت منه بسبب سفنه التي في بحر ازاق والبحر الاسود وتحصينه لمدينة ازاق وارتابت ايضا من مينا تغنروك التي كانت شهيرة وكذلك مما حازه من الظفر والنجاح ومما يترتب على ذلك عادة من فرط الطمع ومزيد الحرص ومما يستبعده العقل بل ولا صحة له هو أن الدولة العثمانية حاربت جار الموسقو جهة بحر ازاق متعللة في ذلك بأن بعض السفن الاسوجية قبضت على سفينة عثروا فيها على كتاب من طرف الجي لم يعين فان هذا مجرد دعوى باطلة وان عول عليها نوربرغ حيث ذكر أن مضمون هذا الكتاب هو أن الجار قد عزم على قتال الدولة العثمانية وأن ذلك الكتاب ارسل الى

كرلوس الثانى عشر فبعثه الى ديوان تلك الدولة فكان ذلك حاملا لها على محاربة الجار انتهى ولا خفاء أن ذلك من قبيل الخرافات وانما السبب القوى فى المحاربة هو أن خان التتار كان لمجاورته لمدينة ازاق اشد من الدولة العثمانية تأثرا وخوفا من الجار فدعاها الى قتاله ولم يزل يلح عليها فى ذلك حتى اجابته الى مطلوبه

ولم يكن اقليم ليوونيا بتمامه تحت حكم الجار حين عزم السلطان احمد الثالث على قتاله فى اوائل شهر اغسطوس بل كان لا يعرف تسليم مدينة ريغا له الابشق الانفس وما زعمه بعضهم من أن السلطان طلب من بطرس أن يدفع لكرلوس الثانى عشر مبلغا من النقود فى نظير ماضاع منه فى واقعة بلطاوا فهو من الهذيان كدعوى أن السلطان طلب منه ايضا هدم مدينة بتربورغ وبالجملة فكان سلوك كرلوس الثانى عشر فى مدينة بندر لا يخلو عن كثير من الترهات والاكذوبات كما أنه لا يعقل صدور مثل هذا الطلب من الدولة العثمانية

ثم ان خان التتار الذى كان باغرائه اقوى سبب فى وقوع الحرب بين الجار والدولة العثمانية ذهب الى كرلوس فى المحل الذى التجأ اليه (شهر نومبر) ووقع بينهما الاتحاد والالتئام لما كان فى ذلك لهما من المصلحة فان مدينة ازاق من ثغور تتارستان الصغيرة وكان كل من الخان وكرلوس قد اضربه اتساع مملكة الجار اكثر من غيره ولم يكن لهذا الخان حكم على العساكر السلطانية وانما كان من قبيل امراء الالمان الخراجيين الذين خدموا الدولة الايمبراطورية وحاربوا معها بعساكرهم تحت قيادة الجنرال الايمبراطورى (٢٩ من شهر نومبر) وكان اول ما بدأت به الدولة العثمانية من الاسباب المؤدية للحرب بينها وبين الجار هو أنها امرت بالقبض على الجيه المسمى تولستووى فى اسلامبول وعلى ثلاثين من خدمه وسجنه فى سراية يدى قله وهذه العادة الخشنية التى تعد من المثالب المخجلة ولو عند الامم المتبربرة كان منشاؤها وجود الجية الدول الاجنبية عند هذه الدولة دائما

وعدم

وعدم انقطاعهم عنها وعدم ارسالها الجية من طرفها الى الممالك الاخرى فليس
الجية ملوك النصارى عندها الا بمنزلة قناصل التجارة والاخذ والعطاء وليسوا
فى الاحتقار دون اليهود بل هم عندها سواء فلذا كانت لاتراعى فى حقهم حقوق
الملل بعضها على بعض مالم تجبر على ذلك ولم تزل على هذا الكبر والخشونة
الى وقتنا هذا

فقد اتفق أن الوزير الشهير احمد كوبروغلى الذى فتح جزيرة كريد على
عهد السلطان محمد الرابع اساء ابن الجى فرانسا اساءة شنيعة وتجاوز
الحد فى الخشونة حتى ضربه وسجنه ولم يحصل من لويز الرابع عشر ملك
فرانسا فى هذه المادة ادنى حركة الا تغييره هذا الالجى بالجى آخر مع ما كان
عليه من الحمية والشمم فالظاهر أن ملوك النصرانية تساهلوا فى حق شرف
العرض مع دولة الترك حتى جعلوه فى زوايا الاهمال وان كانوا احرص الناس
على مراعاته فيما بينهم اتم المراعاة حتى نظموه فى سلك الحقوق الملية

ولم يتفق لاحد من الملوك أنه اصيب فى الجيه بالاساءة والاضرار مثل چارل
الموسقو فانه فى ظرف سنوات قلائل سجن الجيه بمدينة لندرة على ديونه
وحكم على الجيه بمملكة له وسكس بعقاب العجلة حيا حتى يموت
بامر ملك اسوج وقبض على الجيه باسلامبول وسجن حتى كأنه
جنى جناية

وقد اسلفنا أن ملكة انكلترة ارضت خاطره فى نظير ما وقع لالجيه بمدينة
لندرة من الاساءة وتداركت ذلك بجبر هذا الخلل واصلاحه واما ما فعل مع
بطقول من الفعلة الشنيعة فقد زالت معرتها بسفك دماء الاسوج فى واقعة
بلطاوا ولكن لسعد الدولة العثمانية وقيام حظها لم يحصل الانتقام
منها فى نظيراتها كها الحرمة قوانين الملل على بعضها باساءتها لالجى الچار
وهتكها لحرمته .

(سنة ١٧١١ من الميلاد) ثم ان الچار اضطر الى ترك ميدان الحرب
فى الجهة الغربية قاصدا اشهار الحرب على حدود بلاد الدولة العثمانية فكان

اول مابدأ به فى هذا الغرض هو أنه (فى شهر ينويه) بعث الى اقليم البغدان عشرة الايات كانت فى مملكة له وامر المارشال شرمتوف أن يرتحل من ليونيا مع عساكره الى تلك الجهة واناط الامير منزيقوف بملاحظة الاشغال بمدينة بتربورغ وادارتها ثم توجه الى مدينة موسكو ليأمر بما يراه فى شأن هذا الحرب الذى عزم عليه

(وفى ١٨ من شهر ينويه) ترتبت مشورة النيابة واخذت آلايات الورديان الملوكى فى السفر وامر الجار ابناء الامراء من البيكزادات أن يصحبوه فى هذا السفر ليتعلموا فن الحرب تحت ملاحظته وجعل البعض منهم فى منزلة الانفار الآخذة فى التعلم والبعض الآخر بمنزلة ضباط الصفوف وركب الاميرال (اى القبودان) ابركسين بحر ازاق وانيط بالحكم برا وبحرا ولما تمم الجار مايلزم لهذا الغرض من الاحتراس والتدبير امر فى مدينة موسكو بمبايعة القرالجة الجديدة وهى التى سبيت فى وقعة مارينبورغ سنة ١٧٠٢ من الميلاد وكان الجار قد طلق زوجته الاولى المسماة اودكسيا الاپوكين سنة ١٦٩٦ من الميلاد وكان له منها ولدان وكان الطلاق اذ ذاك لم ينسخ من قوانينهم الدينية وعلى فرض أن هذه القوانين كانت تمنعه ولا ترى حله كان فى وسع الجار نسخ هذا المنع واباحة الطلاق

وكانت هذه الجارية الشابة التى سبيت فى مدينة مارينبورغ وسميت كاترينة لها همة عالية تجل عن امثالها من النساء لاسيما من اصيب بنكبة السبى مثلها فكانت على اوفق طبيعة واحسن جبلة فاكتسبت بذلك الحظوة والقبول حتى ان الجار كان لا يحب مفارقتها اصلا فكان دائما يستصحبها فى اسفاره واعماله الشاقة فانها كانت تقاسمه الاهوال والمشاق وتسليه على مايلم به من التعب والسآمة بما تبديه له من المباسطة والملاطفة الناشئة عن وفور عقلها ولطفها ولين جانبها وكانت لا تعرف التنعم والرفاهية كغيرها من النساء اللاتى يتخذن ذلك دابا وديدنا والذى اكسبها هذه الحظوة العظيمة عند الجار هو عدم ارتكابها مايوجب الطمع فيها او تمكين احد من نفسها او وقوعه فى مصايد

غرامها

غرامها ومكايد عشقها وكان اذا غضب الجار سكنت غضبه واخمدت نيران غيظه على وجه يزيد فى عظمه وحلمه وبالجملة فهذه المرأة صارت مما لابد منه للجار حتى انه تزوجها سرًا سنة ١٧٠٧ من الميلاد وكانت قد ولدت له قبل ذلك بنتين وبعد زواجها بسنة رزق منها بثالثة تزوجها دوق هولستين فى السابع عشر من شهر مارث من عام ولادتها وكان اول ما ظهر زواجه بها فى يوم سفره معها بقصد الظفر بالدولة العثمانية والظهور عليها حيث كان قد جهز لها تجهيزات تؤذن بنجاحه ونصرته واناط هتمان القزق بجمع التتار الذين خربوا اقليم اوقرينة من اوائل شهر فبرية ثم ان الجيوش الموسقوبية اخذت فى السير جهة نهر نيستر وارتحل ايضا جيش آخر من عساكر الموسقو من طريق له يقدمه الامير غالتزين وكانت مبادى هذه الغزوة تقضى بنجاح للموسقو فان هذا الامير صادف فى طريقه قريبا من اقليم كيويا جما غفيرا من التتار ومعهم جماعة من القزق وبعض من اللهية من حزب استانسلاس بل وبعض من الاسوج ففتك بهم وهزمهم وقتل منهم خمسة آلاف رجل وكان هؤلاء التتار قد اسروا عشرة آلاف من بلاد سوليو المعروفة بساحل الذهب وكان من عادة التتار قديما أن يستصحبوا معهم حبالا اكثر من الاسلحة لاجل شد وثاق من وقع فى ايديهم فلما ظهر عليهم غالتزين اطلق هؤلاء الاسرى وضرب اعناق من اسره منهم ثم ان الجيوش الموسقوبية لو اجتمعت كلها لزادت عدتها على ستين الفا ولو انضم اليها جيوش اغسطوس ملك له لزادت على ذلك وقد ذهب هذا الملك فى الثالث من شهر يونية لمقابلة الجار ولى نعمته فى مدينة يورسلو الواقعة على نهر سان ووعده بامدادات عظيمة ثم ان الحرب انعقد بين هذين الملكين والدولة العثمانية غير أن مشورة الديتة بمملكة له لم تقر ما التزم به اغسطوس من امداد الجار اجتنابا لوقوع التفاقم والشقاق بينها وبين الدولة العثمانية وماذاك الا لبخت بطرس حيث ان حليفه اغسطوس لم يكن فى وسعه اعانته بوجه من الوجوه وكان

الجار يؤمل منه الاعانة ايضا فى محاربة البغدان والافلاق فخاب امله فى هذه المرة ايضا كالاولى

وكانت الدولة العثمانية تخشى بأس البغدان والافلاق وتخاف صولتهم وبلادهم هى بلاد قدماء الداسية الذين انضموا سابقا الى الجيبيدية وارهبوا دولة الرومان وهددوها مدة مديدة حتى قمعهم القيصر طرايانوس وادخلهم تحت الطاعة فلما كانت ايام القيصر قسطنطين الاول ادخلهم فى دين النصرانية ونظمهم فى سلك الملة المسيحية وصارت بلاد داسيا من يومئذ من اقاليم دولة المشرق الا أنهم عما قليل سعوا فى ابادة دولة المغرب بدخولهم فى خدمة الدولة الاودواقرية والتيودوريقية

ومن وقتئذ صارت هذه الاقطار من اعمال دولة الروم حتى فتح العثمانية القسطنطينية فحكمها ملوك مخصوصون ثم آل امرها الى أن دخلت تحت تبعية سلطان الاسلام بالكلية وصار يولى عليها من طرفه من شاء وكان الووود اى الحاكم الذى يقلده السلطان ولاية هذه الاقطار دائما من نصارى الروم وو بما يؤخذ من ذلك أن الدولة العثمانية ترخص فى سائر الاديان وان كان بعض جهلة الفرنج من ارباب المبالغات يلومون هذه الدولة ويعيبونها على ظلمها فى هذا المعنى ثم ان من تقلد ولاية الاقطار المذكورة يدفع لتلك الدولة الخراج والجزية والاولى أن يعد فى زمرة الملتزمين فكانت هذه الدولة تمنح بمنصب ولايتها من زاد على غيره فى الخراج والهدايا للوزير كما كانت كذلك فى تقليد منصب البطريقية الرومية بمدينة القسطنطينية وربما نال هذا المنصب احد التراجمة بديوان تلك الدولة وقل أن حكم البغدان والافلاق ووودواحد فى زمن واحد بل كانت الدولة العثمانية تولى على كل حاكما يخصه رغبة فى الامن والطمانينة عليهما وكان الحاكم وقتئذ على بلاد البغدان دمتريوس خانتمير ويقال انه من نسل تيمورلنك لان هذا الملك كان يقال له تيمور وكان من خانات التتار فكان يسمى الخان تيمور ومنه كما قيل اخذ اسم عائلة خانتمير

واما

واما بلاد الافلاق فكان يحكمها ٥ بسرابا برنكوان ولم يقف احد من
علماء الانساب على أن هذا الويوود من نسل احد من فاتحى التتار
ثم ان خانتمير ظن أنه بالتجائه الى چار الموسقو ودخوله تحت حمايته
يكون قد آن اوان انقاذه من تبعية الدولة العثمانية واستقلاله بنفسه فكان
اتحاده ببطرس كاتحاد مازيبا بكرلوس حتى انه اغرى فى مبدأ الامر
بسرابا ويوود الافلاق على افشاء ما كان يضمره ويؤمل اجتناء ثمرته
وكان غرض خانتمير من ذلك هو أن يحوز السيادة على هذين الاقليمين
وكان مدار هذه الفتنة على اسقف بيت المقدس الذى كان اذذاك ببلاد
الافلاق فوعد خانتمير الچار بأن يمده بالعساكر والمؤونة ولم يف بوعده
كما وقع لمازيبا مع ملك اسوج
ثم ان الجنرال شرمتوف قدم الى مدينة يسى تخت بلاد البغدان
لاجل معاينة ومباشرة اجراء ما انيط به من المآرب العظيمة والاغراض
الجسيمة فذهب اليه الويوود خانتمير فى تلك المدينة فقابله شرمتوف
وسلك فى ملاقاته ما يسلك عادة فى مقابلة امثاله من الامراء وما ذاك الا لكون
هذا الويود اظهر ما كان يضمره من الخروج عن تبعية الدولة العثمانية
واما ويوود الافلاق فانه عما قليل صرف النظر عما كان يؤمله من المطامع
فى هذا المعنى وتخلى عن الطائفة المتحزبة واخذ يقوم باداء ما عليه من الواجبات
فعند ذلك خشى اسقف بيت المقدس على نفسه من القتل وفر هاربا واختفى
عن الناس واستمر اهل البغدان والافلاق على الطاعة والخضوع للدولة
العثمانية حتى ان المأمورين منهم بتأدية الذخائر والامداد للعساكر الموسقوبية
ادوا ذلك للجيوش العثمانية
وكان الوزير بلطه جى محمد قد اجتاز نهر الدانوب يقدم مائة الف
ثم قصد مدينة يسى محاذيا فى سيره نهر البروث المسمى قديما نهر هيراز
وهو يصب فى نهر الدانوب ويكاد يكون ضواحى لكل من بلاد البغدان
واقليم بيسربى ثم ارسل الوزير القونتة پونياتوسقى الى ملك اسوج

يترجاه فى الحضور لديه لاجل الزيارة ومعاينة الجيوش العثمانية وكان هذا القوتشة من البيكزادات اللاهنية ممن يميل الى كرلوس ويرغب فى سعادته واعلاء شأنه فأبت نفس كرلوس اجابته الى ذلك وطلب أن يأتى اليه الوزير اولا لزيارته فى مدينة بندر التى كان ملتجئا بها مرجحا جانب الكبر على جانب المصلحة فعاد بونياتوسقى الى معسكر العثمانية واخبر الوزير بامتناع كرلوس عن الاجابة فقال الوزير لخان التتار انى لا أعلم أن هذا الكافر العنيد المتكبر لا يجيب الى ما طلبت فكان هذا الكبر الواقع من الطرفين كما هو العادة بين ارباب الظهور من العظماء والاعيان مانعا من تقدم مصالح كرلوس وتنفيذ اغراضه فعما قليل ظهر له أن الدولة العثمانية انما تسعى فى مصلحة نفسها دون مصلحته

وبينما كانت العساكر العثمانية تجتاز نهر الدانوب اذ قدم بطرس من جهة ضواحى مملكته له واجتاز نهر الدنيبر قاصدا اسعاف المارشال شرمتوف وكان نازلا فى جنوب مدينة يسى على شواطئ نهر البروث فكان يخشى أنه عما قليل يحيط به عساكر العثمانية الذين كانوا مائة الف مقاتل ومعهم جيش من عساكر التتار وكان بطرس قبل اجتياز نهر الدنيبر يخشى على كاترينة أن تصير عرضة لما يتجدد من الاخطار بتجدد الايام لكنها رأت أن ما خطر للبطار فى شأنها يعد منقصة وعيبا بالنسبة لمحبتها اياه وشجاعتها وفرط قوتها فألحت عليه فى استصحابها وأفهمته أنه لا بد له منها وأنه لا يسعه مفارقتها فكانت العساكر تراها تقدم الجيش وهى راكبة جوادها مع غاية الفرح والمسرة وقل أن ركبت العربة ثم اقتضى الحال أنهم يسيرون فى بعض صحارى خلف نهر الدنيبر ويجتازون نهر بوغ ثم نهر تيراس المسمى الآن نيستر وقبل وصولهم الى مدينة يسى صادفوا فى طريقهم صحراء اخرى على شواطئ نهر البروث وكانت كاترينة تسلك مع العساكر ما يشجعهم ويشرح صدورهم فكانت تبعث للمرضى من الضباط ما يليق بهم من الصلات والاعانات وكانت تشمل العساكر بنظرها وتبذل الوسع فى الاعتناء

بشؤونهم

بشؤونهم والاهتمام بامورهم

(٤ من شهر يولية) وقصارى الامر أنهم وصلوا الى مدينة يسى وكان يلزمهم احداث مخازن بها لوضع المهمات الحربية وكان بسربا ويوود الافلاق قد رجع عن الخروج عن طاعة الدولة العثمانية (كما سبق) الا أنه اظهر للجار أنه معه ويسعى فى مصلحته فعرض عليه الصلح مع هذه الدولة مع أن الوزير الاعظم لم يأمره بذلك فادرك الموسقو أن ذلك مكيدة منه فلم يطلبوا منه سوى المهمات والذخائر مع أنه لا يسعه اجابتهم لذلك بل ولا يريد اعطاءهم شيأ وكان يشق على الجار جلب ما هو لازم له من ذلك من مملكته له واما ما وعده به خانتير بناء على امله الذى لم يصادف محلا فقد تعذر جلبه الآن من بلاد الافلاق فبذلك صار الجيش الموسقوبى فى اسوء حالة وزيادة على ذلك نزلت جائحة الجراد على مزارع تلك الجهة ومروجها حيث كان ينزل عليها اسرابا اسرابا حتى تلفت وأنتنت وكانوا غالبا لا يجدون فى طريقهم ماء لاجل الاستقاء لانهم كانوا يسيرون فى صحارى قفرة تحت شمس محرقة فاضطروا الى نقل المياه للعساكر فى براميل

وقد اقتضت الحكمة الالهية أن بطرس فى هذه الرحلة صار قريبا من كرلوس الثانى عشر لان المسافة بين مدينة بندر ومعسكر الجيش الموسقوبى الواقع بقرب مدينة يسى لم تكن الا خمسة وعشرين فرسخا معتادا وكان بعض فرق من القزق قد توغلوا فى السير حتى وصلوا الى مدينة بندر التى هى ملجأ ملك اسوج الآن تتار القرم الذين كانوا يتنقلون فى المعسكرات جعلوا كرلوس آمنا من اغارة تحصل على حين غفلة فكان ينتظر مع القلق وعدم الخوف حوادث الحرب وعواقبه

واما بطرس فانه بمجرد ما احدث بعض مخازن بادر بالسير على الشاطئ الايمن من نهر البروت وانحط رأيه على أن يمنع عساكر الدولة العثمانية التى كانت معسكرة اسفل منه على الشاطئ الايسر من ذلك النهر أن تجتازه حتى تقدم اليه وبهذه الحركة كان يثبت له السيادة على البغدان والافلاق فبعث الجنرال

ايانوس ومعه مقدمة عساكر الورديان لاجل منع العساكر العثمانية من اجتياز النهر المذكور فلم يصل هذا الجنرال اليهم الا وهم يجتازونه على قناطرهم التي اتخذوها من الخشب لهذا الغرض وتتبعوا من كان معه من عساكر البيادة حتى قدم اليهم بطرس بنفسه لاجل انقاذهم منهم

وعما قليل قدمت جيوش الوزير الاعظم الى جيوش الجار محاذية النهر وكان هنالك بون بعيد بين الفريقين فان الجيوش العثمانية التي كان من جملتها عساكر التتار كانت كما قيل تبلغ نحو مائتي الف وخمسين الف رجل واما الجيوش الموسقوبية فكانت يومئذ سبعة وثلاثين الفا وكان الجنرال رينة خلف جبال البغدان بفرقة كبيرة من العساكر الموسقوبية على نهر سيريت وحجز العساكر العثمانية ما بينه وبين الجيش الموسقوبي

ثم ان الجار نفد منه الزاد والذخائر وبمجرد ما تيسر الماء لعساكره لنزولهم قريبا من النهر صاروا عرضة لضرب مدافع كثيرة وضعها الوزير الاعظم على الشاطئ الايسر مع فرقة من العساكر كانت ترمي عليهم بالنار دائما وما ذكرناه من الاخبار الصحيحة المفصلة في هذا المعنى يدل على أن الوزير بلطه جي محمدا كان بمعزل عما ادعاه فيه الاسوج من الحمق والغفلة فانه سلك في هذه الواقعة مسلك الحزم والتبصر حيث اجتاز نهر البروث أمام عدوه وتتبعه حتى ولى دبره وقطع الوصلة بينه وبين فرقة من خيالته وضيق عليه حتى صار لا يعرف له ملجأ يلتجيء اليه وقطع عنه الماء والزاد وجعله تحت ضرب المدافع التي كان يهدده بها على الشاطئ المقابل لمعسكره * فهذا كله يبعد صدور مثله عن رجل احمق خال عن الرأي والفطنة

فلذا رأى بطرس أنه في هذه الواقعة اسوء حالا من كرلوس في واقعة بلطاوا حيث كان المضيق عليه هنا جيشا يفوق بكثير على الجيش الذي كان يضيق على كرلوس هنالك وقاسى من مشاق المخمصة والمجاعة اكثر منه ولما سلك مسلكه من الوثوق والتعويل على ما وعده به امير ضعيف الشوكة لا يمكنه الوفاء بوعده اضطر الى الالتجاء واخذ في الذهاب جهة مدينة يسي

لينظر

لينظر هنالك معسكرا اعظم من معسكر نهر البروث

(٢٠ من شهر يولية) فارتحل من معسكر رمليلا ولكن بمجرد ما احس العثمانية به اقتفوا اثره حتى ادركوا مؤخر خفره عند طلوع الشمس فقاومهم الاى الوردياين الملوكى مدة مديدة حيث اصطفوا وجعلوا ما معهم من العربات والامتعة متاريس تقيهم من العدو ومع ذلك هزمت الجيوش العثمانية الجيوش الموسقوبية فى هذا اليوم (وهو الحادى والعشرون من شهر يولية) ومما يدل على أنه كان فى وسعهم المدافعة عن انفسهم وان قيل بخلاف ذلك هو أنهم مكثوا مدة طويلة وهم يذبون العدو عن انفسهم ولم يختل نظامهم

وكان مع العثمانية ضابطان من ضباط الاسوج وهم القونتة يونياتوسقى والقونتة اسپار ومعهما بعض عساكر من القزق من حزب كرلوس * وما وصل الى من اللوائح فى هذا المعنى يفيد أن هذين القونتتين اشارا على الوزير بعدم قتال الموسقو وقطع الماء والزاد عنهم حتى يضطروا الى التسليم فى انفسهم او يموتوا * وثم بعض لوائح تفيد خلاف ذلك حيث ذكر فيها أنهما اغرياه على أن يعمل السيف فى هؤلاء العساكر الذين ادركهم النصب والتعب والسقم وحل بهم من المجاعة والضنك ما كاد يهلكهم * وما افادته اللوائح الاولى التى بالاحتراس والتبصر واما الثانية فهى ملايمة اتم الملايمة لطبيعة اصحاب كرلوس

وحاصل بيان هذه الواقعة أن الوزير الاعظم ادرك مؤخر خفر الجيش الموسقوبى عند شروق الشمس وكان هذا الخفر غير منتظم فلم يدافع العساكر العثمانية منهم اولا الا صف واحد يبلغ اربعمائة رجل ثم رتبوا صفوفهم فى اسرع وقت وذلك أن الجنرال الار النيمساوى حاز فخر المبادرة بترتيبهم وبما ابداه من التدبيرات العسكرية التى بواسطتها قاوموا العثمانية نحو ثلاث ساعات من غير أن يجبروا على العدول عن طريقهم

ثم ان انتظام الحركات العسكرية الذى تعودت عليه العساكر الموسقوبية

لم يصل بطرس الى ادخاله فى جيوشه الا بعد معاناة كثير من التعب والمشاق فقد سبق فى واقعة نروا أن ثمانية آلاف من الاسوج هزموا ستين الفا من الموسقو لانهم اذ ذاك لم يكونوا يحسنون تلك الحركات بخلاف هذه الواقعة اعنى واقعة نهر البروث فان مؤخرهم الذين هو نحو ثمانية آلاف قاوم مائة وخمسين الفا من العساكر العثمانية وقتلوا منهم سبعة آلاف والجأوهم الى الرجوع القهقرى

وبعد هذه المعركة المهولة انفصل الجيشان مدة الليل غير أن العساكر الموسقوبية لم تزل فى الضنك والضيق من قلة الماء والزاد حيث كانت قريبة من نهر البروث ولا يمكنها الوصول اليه اذ كان متى تجاسر بعض العساكر الموسقوبية على قصد النهر لاجل الاستقاء خرج عليهم من افواه المدافع العثمانية التى على الشاطئ الآخر رصاص وحديد كالامطار وكانت العساكر العثمانية التى هزمتهم لم تزل تهددهم بضرب المدافع عليهم من جهتها

فكان من الممكن القريب الوقوع ضياع الموسقو ودمارهم نظرا الى وضعهم وقلة عددهم عن عساكر عدوهم وما حل بهم من المجاعة والقحط واستمرار الاصطدام والالتحام وكان معظم خيالة الجار قد فقدوا خيولهم فلم يكن ينتفع بهم الا اذا قاتلوا على الارض كالقرابة وبالجملة فكان وضع بطرس فى هذه الوقعة مما يوجب اليأس والقنوط كما يعلم ذلك بالوقوف على شكل معسكر الفريقين المرسوم مع غاية الضبط فى آخر الكتاب اذ بالوقوف عليه يعلم أن نصرة بطرس فى هذه الغزوة من حيز المستحيل بل اما أن يهلك جيشه عن آخره او يأسره العثمانية

وقد اطبقت جميع اللوائح والاخبار فى هذا المعنى على أن الجار كان متحيرا فى قتال العثمانية فى اليوم الثانى فان ذلك كان يفضى بزوجته وجيشه ودولته وما جناه من ثمرات الاشغال الجسيمة التى ابتدعها الى الدمار الذى كان يظهر أنه محتم لا محيص عنه فدخل خيمته وقد اثقلته الآلام حيث اعتراه داء تشنج الاعصاب الذى كان يعتريه فى بعض الاحيان وتثاقل عليه ذلك بما لحقه من

الغم والكرب ولما رأى من نفسه انه صار بمفرده فريسة للهم والقلق وتراكمت عليه الوساوس وشغل البال ونحو ذلك من الامور المهولة لم يرد أن يراه احد على هذه الحالة فامر أن لا يدخل احد خيمته غير أن كاترينة دخلت قهرا عن الحجاب فعلم حينئذ أن اذنه لها في صحبته في هذه الواقعة من وفور حظه وقيام سعده

وذلك أن هذه المرأة التي اقتحمت معه الاخطار حتى كان الموت نصب عينيها حيث عرضت نفسها كغيرها لنيران المدافع العثمانية كان لها الحق في مخاطبته ومراجعته فحملته على طلب الصلح

وقد جرت العادة في سائر بلاد المشرق من قديم الزمان أن الانسان اذا اراد أن يحظى فيها بالقبول والالتفات اليه لم ينل ذلك الا بالاهداء والبذل فلذا جمعت كاترينة مقدارا يسيرا من الجواهر كانت قد استصحبته معها في هذه السفرة الحربية التي كانت خالية عن الرونق والزخرفة وفروين اسودين من جلود الثعالب وجمعت ايضا مبلغا من النقود واعدته للكتخدا وانتخبت بنفسها ضابطا صاحب رأى وفطنة واصحبته بخادمين وامرته أن يذهب بهذه الهدية الى الوزير الاعظم ثم يعطى الكتخدا هديته على وجه يكون به آمنا مطمئنا واعطاه المارشال شرمتوف كتابا من طرفه يوصله ايضا الى الوزير حسبما اتفقت على ذلك وقائع بطرس اليومية الا انها لم تنص على ما وقع من كاترينة في هذا المعنى تفصيلا وان كان ثابتا لا يكاد ينكر كما يدل عليه اعتراف الجار لها بذلك سنة ١٧٢٣ من الميلاد حين البسها التاج ولقبها بلقب الامبراطورة حيث قال في شأنها انها كانت لنا من اعظم المعينين واكبر المساعدين في جميع الاخطار والخطوب وسائر الاهوال والكروب لاسيما وقعة البروث التي آل فيها عدد جيوشنا الى اثنين وعشرين الفا انتهى فاذا صح أن الجار لم يكن معه من العساكر اذ ذاك الا هذا المقدار اعني اثنين وعشرين الفا وكانوا عرضة للهلاك من المجاعة وضرب السلاح كان ما صدر من كاترينة من هذه الخدمة العظيمة موازيا لصنيع الجار معها من النعمة الجليلة والعطية

الجزيلة وفى جرنال بطرس الاكبر المكتوب بخط اليد ما يفيد أنه لم يكن عنده يوم الوقعة الكبرى وهو العشرون من شهر يولية الا احد وثلاثون الفا وخمسمائة واربعة وخمسون من العساكر البيادة وستة آلاف وستمائة واثنان وتسعون من السوارى وكان اغلب الجميع مجردا عن سلاحه وخيله فعلى ذلك تكون عدة من فقد من عساكره فى هذه الوقعة ستة عشر الفا ومائتين وستة واربعين واما من فقد من عساكر العثمانية فيها فيزيد على ذلك بكثير كما تفيده وقائع بطرس اليومية وهو من الاخبار الصحيحة الثابتة فان العساكر العثمانية كانوا اذا ارادوا الحملة على العدو تهجم منهم طائفة كبيرة بدون ترتيب ولا انتظام فلذا كان الموسقو لا يخطئون المرمى ولا تخيب لهم رمية واحدة وحيث تقرر ذلك حق أن نعد وقعة البروث التى كانت فى العشرين والحادى والعشرين من شهر يولية من اعظم الوقائع التى سفكت فيها دماء كثيرة ولم يعهد مثلها منذ عدة قرون

فعلى ما ذكرناه يلزم احد امرين اما نسبة الجار الى الخطأ حين توج كاترينة ولقبها بلقب الايمبراطورة مكافأة لها على صنيعها واثنى عليها بأنها انقذت جيوشه التى آلت عدتها الى اثنين وعشرين الف مقاتل واما تكذيب جرناله فى نصه على أن العساكر الموسقوبية التى كانت فى وقعة البروث كانت عدتها بقطع النظر عن الفرقة العسكرية التى كانت على نهر سيريت احدا وثلاثين الفا وخمسمائة واربعة وخمسين من البيادة وستة آلاف وستمائة واثنين وتسعين من السوارى

* وبمقتضى العدد المذكور تكون هذه الوقعة اشد هولا مما ذكره فى شأنها جميع المؤرخين وسائر اللوائح سواء كان ذلك منهم على سبيل العدالة والانصاف او سلكوا فيه مسلك الغرض والاعتساف ولا شك أن هذا الامر لا يخلو عن غلط كما هو العادة فى اخبار الوقائع الحربية لمن تصدى لبيانها واستيعاب تفاصيلها وانما الامر المحقق فيها الذى ينبغى الجزم به والتعويل عليه دائما هو الحادثة الاصلية من نصرة وهزيمة وقل أن وقف الانسان على الحقيقة فى شأن اسبابهما والطرق الموصلة اليهما

ثم ان الموسقو على قلتهم كانوا يؤملون لحسن مقاومتهم الناشئة عن مزيد بطشهم وعنادهم أنهم يلزمون الوزير الاعظم باجابتهم الى الصلح على شروط تكسب الدولة العثمانية الشرف والفخار و يحوز بها هذا الوزير عند السلطان الحظوة وعلو المقدار كما أنها لا تورث الدولة الموسقوبية من المذلة والعار ماتسقط به من درجة الاعتبار فكانت كاترينة لمزيد فضلها ووفور عقلها هى السبب فى تحصيل هذا الغرض على وفق الامل فى وقت كان الجنرالات الموسقوبية يرون فيه أنه لا بدّ أن تدور عليهم الدوائر وتحل بهم النكبات والمصائب

وقد ذكر نوربورغ فى تاريخ كرلوس الثانى عشر صورة كتاب من طرف الچار الى الوزير الاعظم يذكر فيه مامعناه ان كان سوء حظى قد افضى بى الى ارتكاب ما اسخط الحضرة السلطانية واساءها بدون قصد بل على خلاف ما كنت أؤمله فها أنا مستعد لتدارك كل مايبعثها على التشكى منى ومتهيئ لاصلاحه وجبر خلله وانى اناشدك الله ايها الجنرال الافخم والوزير الاعظم أن تسعى فيما يكون به حقن الدماء وحفظ مهج الناس من الردى وارجوك أن تبادر فى الحال من غير تراخ ولا امهال بمنع الطوبجية من اطلاق نارهم الشديدة وكفهم عن ضرب مدافعهم العديدة وها أنا قد بعثت اليك رهنا تستوثق به على ما اقول فلا تقابله بالرد بل تفضل بالقبول انتهى

وهذا الكتاب كذب صراح ومحض اختراع كما هو عادة هذا المؤرخ فى اغلب ما اثبته من امثال هذه المكاتبة وغيرها من الجزئيات الموضوعة التى يثبتها بدون روية وذلك أن تاريخ هذا الكتاب ١١ من شهر يولية على حساب زيج اغرغوار المسمى بالتقويم الجديد مع أنه لم تقع الكتابة للوزير بلطه جى محمد الا فى الحادى والعشرين من هذا الشهر على حساب التقويم المذكور بعينه ولم يكن الكتاب من طرف الچار بل من عند السرعسكر شرمتوف وليس فيه شئ مما زعمه نوربرغ من أن الچار قال فيه ان كان سوء حظى قد افضى بى الى ارتكاب ما اسخط الحضرة السلطانية الخ فان مثل هذه العبارة

لا يليق صدورها الامن انسان من الرعايا يطلب من ملكه الصفح عن هفوته والعفو عن زلته وليس فيه ايضا مايدل على الرهن اصلا اذ الواقع أن الجار لم يبعث رهنا بالكلية وأن الضابط الذى عين لحمل الكتاب تسلمه والمدافع تضرب من الجانبين وأن شرمتوف لم يتعرض فى كتابه لرهن وانما ذكر الوزير ببعض هدايا صلحية كانت الدولة العثمانية قد اهدتها للدولة الموسقوبية فى مبدأ الامر على يد بعض الالجية الانكليزية والفلمنكية حين التمست الدولة العثمانية من الجار أن يبطل قلعة تنغرولك ومبناها اللتين هما السبب الاصلى فى هذا الحرب

(٢١ من شهر يولية) ولما وصل الرسول بالكتاب الى الوزير مضى عليه بعض ساعات ولم يأت للموسقو من الوزير جواب فظنوا أن رسولهم هلك بضربة مدفع او بجزه العثمانية فألحقوه بآخر معه صورة الكتاب بعينه وعقدوا مشورة حربية بحضور كاترينة ووضع عشرة جنرالات منهم القرار على خلاصة الشورى وصورتها اذا لم يقبل العدو ماعرض عليه من الشروط وطلب أن نلقى السلاح ونسلم له فى انفسنا فالجنرالات والالجية كلهم على رأى واحد وهو أنهم يخترقون صفوف العثمانية و يجعلون لهم مسلكا بينهم وبناء على ذلك اقاموا متاريس حول امتعتهم ومهماتهم وتقدموا مواجهة معسكر العدو بنحو مائة قدم و بينما هم كذلك اذ نشر الوزير امرا بالكف عن القتال وقد ذكرت الطائفة الاسوجية فى اخبارهم اليومية مايدل على أن هذا الوزير قليل المروءة مخدوش العرض حيث قبل الرشوة كما أن كثيرا من المؤرخين اتهموا بالقونتة بيير وزير كرلوس الثانى عشر بأنه اخذ مبلغا من النقود من دوق مارلبوروغ (الجى خانة ملكة بريطانيا الكبرى) ليحرض ملكه على ادمان القتال مع الجار واتهموا ايضا بعض وزراء الفرنساوية بأنه لم يعقد مشارطة اشبيلية الابالرشوة واخذ الدراهم ومثل هذه التهم لاتثبت صحتها الابالبراهين الجلية والادلة الواضحة القطعية اذ يندر أن اكابر الوزراء يسلكون تلك المسالك التى تخس بمقامهم وتؤذن بدناءة

نفوسهم

نفوسهم ولا بد أن يظهرها الباذل ذات يوم عاجلا او آجلا وكذلك الدفاتر
والقوائم المقيدة فيها خصوصا وكل من تقلد الوزارة هو دائما مطمح انظار الناس
ومدار نفوذ كلمته والوثوق به ليس الاعلى العفة وشرف النفس اوليس أن
صاحب هذا المنصب دائما ذو ثروة عظيمة وغنى تام فهو فى غنية عما يفضى به
الى الخيانة من ارتكاب هذا الامر الذميم
ومنصب الوزارة عند الدولة العثمانية هو اجل منصب فانه من اكثرها فائدة
ومنفعة واعظمها وسيلة فى جلب اليسار والسعة لا سيما زمن الحرب
والقتال كيف لا وخيام بلطه جى محمد كانت محتوية على مالا يحصى من
انواع الخيرات الدالة على السعة واليسار والعظم والاعتبار بخلاف معسكر
القيصر فكان على غاية من الساذجية وعدم الرونق لا سيما ماحل به من القحط
والمجاعة فكانت حالة الموسقو اذذاك تقضى بأن هذا الوزير يمدهم بالعطية
لا أنه يأخذ منهم رشوة او هدية واما ما ارسلوه اليه من الفرا والخواتم فهو امر
هين اقتضاه رأى امرأة عملا بما جرت به العادة فى سائر الدواوين بل فى جميع
بلاد المشرق فلا يصح أن يصدق عليه اسم الرشوة ومما يفضى ببطلان هذه
التهمة حسن سلوك هذا الوزير وظهور استقامته فهى لم تصادف محلا وان
تدنس بايرادها كثير من الكتب المؤلفة فى هذا المعنى فان شافيروف وكيل
القنجلير ذهب الى خيمة الوزير باحتفال عظيم وحصل بينهما ماحصل على
رؤس الاشهاد كما هو المتعين وخلافه لا يصح أن يقع وحصلت المفاوضة بينهما
بحضور رجل من اتباع ملك أسوج وهو خادم القونتة بونيا توسق
احد الضباط الاسوجية وكان فى هذه المفاوضة بوظيفة ترجمان بين الفريقين
والذى حرر بنود المشارطة هو عمر افندى باش كاتب دار الوزارة وكان ممن
حضر هذا المجلس القونتة بونيا توسق نفسه والهدية التى اعدت للكتخدا وصلت
اليه بمحفل على رؤس الاشهاد وبالجملة فجميع ماحصل فى هذه المادة كان على
حسب رسوم اهل المشرق وعوايدهم ووقع الاهداء من الطرفين ولم يكن هنالك
ما يؤذن بالخيانة والذى حمل الوزير على تلك المشارطة هو أن فرقة الطوبجية،

التى كان اميرها الجنرال رينة كانت على نهر سيرت ببلاد البغدان ثم اجتازت ثلاثة انهر وكانت حين المشارطة بالقرب من نهر الدانوب حيث استولى اميرها على مدينة براهيلا وقصرها وكان فيهما من المحافظين عدد لا يحصى وكان حاكم المدينة باشا من طرف الدولة العثمانية وكان للجار فرقة اخرى عسكرية قدمت اليه من ثغور مملكته والظاهر أن الوزير لم يكن له علم بما حل بالموسقو من القحط والمجاعة اذ لم تصل اليه حسابات ازوادهم وذخائرهم بل كانوا يتباهون امامه ويظهرون أنهم فى ارغد عيش مع أن الواقع خلافه فانهم كانوا فى اشد الضنك والضيق ولم يكن فى العثمانية ولا للموسقو من ينتقل الى معسكر خصمه ليتجسس خبره و يقف على حقيقة امره فان اختلاف الفريقين فى الملبس والدين والامتعة يمنع من ذلك ولم يكن لهم اذ ذاك معرفة بالتنكر وتغيير الزى فلذا لم يقف الوزير على حقيقة الامر فى شأن بطرس وعساكره ولم يعرف سوء حالهم حق المعرفة

ثم ان هذا الوزير الذى كان لا يميل الى الحرب وان قام بشعائره فى هذه الغزوة اتم القيام ظن أنه يفوز بالنجاح فى هذه التجريدة اذا هو اعاد للسلطان ما كان الحرب لاجله من المدن والمينات وصد فرقة رينة المنصورة واجلاها عن سواحل نهر الدانوب الى بلاد الموسقو وسد على الدوام مدخل بحر بنطش والخليج القسطنطينى والبحر الاسود على ملك متولع بالمشروعات وظن ايضا أنه ان لم يبادر باجتناء هذه الثمرات المحققة صار عرضة لخطر حرب جديد فان اليأس قد يظهر على القوة لاسيما وقد كان قبل ذلك بيوم رأى عساكره الانكشارية قد جبرها العدو على الرجوع القهقرى وهو يعلم أنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة فهذه هى الاسباب التى حملته على اجابتهم الى الصلح وعقد المشارطة معهم وان كان خان التتار ومن حضر ذلك من ضباط ملك اسوج لم يستحسنوا هذا الامر ولم يرضوا به لما فى عدم الصلح من المصلحة للفريقين فاما مصلحة التتار فهى تمكنهم من السلب والنهب فى ضواحى كل من دولة الموسقو ومملكته واما مصلحة كرلوس الثانى عشر

فهى

فهى الانتقام من عدوه بطرس وكلتا المصلحتين لم تكن داعية للوزير على الحرب فانه لم يكن بينه و بين هذا الملك النصرانى (الجار بطرس) مايبعثه على الانتقام منه لمصلحة نفسه ولم يكن عنده ماقام بالتتار من حب المغنم الذى حملهم على القتال ثم ان الموسقو بمجرد وقوع الاتفاق على وضع السلاح والكف عن الحرب اشتروا من العثمانية ما كانوا يحتاجونه من الازواد والمؤنة ثم ان بنود هذه المشارطة ليست كما ذكره السياح لاموترای الذى نقلها عنه نوربرغ وانما اراد الوزير أن يشترط على الجار أن لا يجعل لنفسه دخلا فى مصالح مملكة له فدقق فى ذلك القونتة بونياتوسقى كل التدقيق لجيئه على وفق مرامه والواقع أن الاليق بمصلحة الدولة العثمانية أن تكون هذه المملكة قائمة بنفسها لا دخل فيها الاجنبى وأن تكون ضعيفة الشوكة فمن ثم آل امر هذا الشرط أن الجيوش الموسقوبية ترحل من ضواحى تلك المملكة وطلب خان التتار من الموسقو اربعين الف بندق على سبيل الجزية فوقع فى ذلك جدال ونزاع مكث مدة طويلة ولم يجب الخان الى مطلوبه

وقد مكث الوزير مدة مديدة وهو يطالب أن يسلم له فى خانتمير كما سلم الملك اسوج فى بطقول وكان ذنب خانتمير هذا كذنب مازيبا سواء بسواء وكان الجار قد جازى مازيبا على جنايته بعقاب الافيجى وهو معاقبة صورة الجانى وهو غائب ومثل ذلك لا يعرفه العثمانية اصلا كما أنهم لا يعرفون اقامة الدعوى على غائب ولا الحكم على رؤس الاشهاد بحيث ينشر ويراه الخاص والعام فنشر الاحكام مما لا وجود له عندهم كما أن عقاب صورة الغائب كذلك لان التصوير ممنوع فى الشريعة المحمدية فلذا اشتدوا كل التشديد فى تسليم خانتمير اليهم حتى يرى السلطان فيه رأيه وان لم يخرجوا من ذلك على طائل فان بطرس كتب بيده الى شافيروف وكيل القنجلير مامعناه انه ليهون على أن انزل للدولة العثمانية عن جميع الاراضى الممتدة الى ايالة كورسك (وهى من الايالات الموسقوبية) ويبقى عندى

امل استرجاعها وفتحها ثانيا واما خدش العرض والذمة فلا يجبر ولا يسعنى هتك حرمة الذمام فانا معاشر الملوك لا نختص من الاوصاف الاشرف العرض فهو الذى عليه المدار وبدونه لا يتحقق وصف الملكية انتهى (وهو قريب من قول الشاعر

اصون عرضى بمالى لا ادنسه * لا بارك الله بعد العرض فى المال

احتال للمال ان اودى فاجمعه * ولست للعرض ان اودى بمحتال

وقول الآخر

المال يمكن هدمه وبناؤه * واذا هدمت العرض عز بناؤه)

وبالجملة فقد تمت المشارطة بتحرير شروطها ووضع القرار عليها قريبا من قرية يقال لها فلكسان على شاطئ نهر البروث وكان من جملة بنودها أن الفريقين اتفقا على أن مدينة ازاق وسائر اراضيها ترجع للدولة العثمانية بما كان فيها من الذخائر والمدافع قبل تغلب الجار عليها سنة ١٦٩٦ من الميلاد وأن مينا تغنروك التى على بحر ازاق تهدم وكذلك مينا سمارا التى على نهر سمارا وعدة قلاع صغيرة واضافوا الى ذلك بندا فى شأن ملك اسوج يؤذن بان الوزير مشمئز منه وحاصله أن هذا الملك اذا عاد الى ملكه لا يتعرض اليه الجار بارهاب ولا تهديد ومتى ارادا عقد الصلح مع بعضهما فلهما ذلك فى غير هذا المحل

فعبارة هذا البند الغريبة الاسلوب يظهر منها أن الوزير كان لم يزل يتذكر كبر كرلوس وانفته وما المانع من أن كبر هذا الملك هو الذى منع الوزير من ايقاع الصلح بينه وبين الجار ولا يخفى أن خسارة الجار تعود على كرلوس بالعظم والاعتبار وكيف يسعى الانسان فى رفعة رجل يتكبر عليه ويزدريه وقصارى الامر أن هذا الملك بعد أن امتنع اولا عن الحضور الى معسكر الوزير حين كان الحال يقتضى ملاطفته ورعاية خاطره بادر الآن بالذهاب الى المعسكر المذكور حين كان الامر بين الفريقين قد قارب التمام على حالة تفضى به الى اليأس والقنوط مما كان يؤمله ولم يذهب الوزير الى لقائه

بل بعث لمقابلتـه اثنين من الباشات ولم يسع الى مقابلتـه الا بعض خطوات خارج خيمته

ومن المعلوم أن ما وقع بينهما من المحادثة انما هو عتاب وملامة وقد ظن جماعة من المؤرخين أن ما اجاب به الوزير ملك اسوج حين لامه على أنه كان فى وسعه اسر الجار ولم يفعل انما يصدر عن الغبى الاحمق حيث قال له لو اسرت الجار فمن يحكم ممالكه بعده هكذا زعموا ولا يخفى أن هذا الجواب انما يقع من انسان فى نفسه شئ من مخاطبه لاسيما وما زاده على الجواب المذكور من قوله لا يليق بالملوك مفارقة اوطانهم يدل دلالة كافية على أن الوزير كان يميل كثيرا الى قمع نزيل بندر وغمه (يعنى كرلوس)

وبالجملة فلم يستفد كرلوس من رحلته الى بلاد الدولة العثمانية شيأ سوى تمزيقه شروال الوزير بهماز جزمته فتغافل عنه الوزير واغضى عن هذه الفعلة وان كان يمكنه أن يصنع بفاعلها ما يحمله على الندم فكان بذلك اعلى همة واكرم نفسا من كرلوس ولو كان ثم ما يفيد هذا الملك فى مدته الزاهية الزاهرة واىامه الكثيرة الهرج والاضطراب أن السعد طالما ظهر على العظم وغلب على الشرف وعلو المكانة لكان ذلك هو ما وقع له فى واقعة بلطاوا من أن رجلا كانت حرفته فى الاصل عمل الفطير جبر جيوشه على القاء السلاح وما حصل ايضا فى وقعة البروث من أن رجلا آخر كان فى الاصل كسار حطب نجز ما جرى به القضاء عليه وعلى الجار وجرى على يديه ما قدر لكل منهما من الحظ والبخت فان الوزير بلطه جى محمدا كان يكسر الحطب فى السراية حسبما يدل على ذلك لقبه ولم يكن يعد هذا اللقب عارا ولا منقصة بل كان يفتخر به ولا غرو فى ذلك فان عوايد اهل المشرق مباينة لعوايد الفرنج

ثم ان السلطان وجميع اهل الاستانة العلية فرحوا غاية الفرح بما فعله الوزير فى هذه الواقعة ومكثوا على الحظوظ والمسرات العامة اسبوعا كاملا وترقى كتخدا الوزير الذى ذهب بورقة المشارطة الى الديوان الى رتبة ميراخور باشا بمجرد وصوله لدى الحضرة السلطانية ولا يخفى أن مثل هذه المعاملة لا يحظى بها

من يظن به عدم الصداقة فى اداء خدمته ولا من يتوهم فيه عدم القيام بما انيط به على الوجه المطلوب

والظاهر أن نوربرغ كانت معرفته بحكومة الدولة العثمانية هينة واهية حيث قال ان السلطان ابقى على الوزير لكونه كان يخشاه انتهى نعم ان اوجاق الانكشارية كان فى الغالب خطرا على السلاطين الا انه لم يتفق أن السلطان يأمر بقتل وزير من وزراء دولته و يحصل ادنى توقف فى امتثال الامر بل ينفذ امره مع غاية السهولة والانقياد وايضا لم يكن الوزير بلطه جى محمد على حالة بحيث يسعه المعارضة والذب عن نفسه وقد ذكر فى الصحيفة بعينها ما يفيد أن الانكشارية كانوا قائمين على الوزير وأن السلطان كان يخافه و يخشى سطوته وهو كلام متناقض لا يصح ايراده مورد التعضيد والاستشهاد

ثم ان ملك اسوج آل امره أن صار يسلك مع ارباب ديوان الدولة العثمانية مسلك الدسائس والفتن فانه بعد أن كان يولى الملوك صار الآن يقدم عريضات ومكاتيب لا تقابل الا بالرد فكان فى هذه الحالة بمثابة رجل من آحاد الرعية يشكو وزيرا الى سلطانه و يسعى فى فضيحته لديه وهوانه فهكذا كان سلوكه مع الوزير بلطه جى محمد وجميع من تولى الوزارة بعده وربما كان يخاطب فى هذا المعنى السلطانة وليدة بواسطة امرأة من اليهود او بعض الاغوات الطواشية وقصارى امره أنه توسل فى ذلك برجل سلك فى هذا الغرض مسلك المساليب وظهر مظهر المجانين وصار يخالط الخفر السلطانى و يزاحمهم عسى أن ينظر اليه السلطان و يتمكن من مناولته العريضة التى كانت معه من طرف ملك اسوج ومع ذلك كله لم يعد على كرلوس من هذا السعى نفع الا قطع مرتباته التى سمحت له بها مكارم الدولة العثمانية من أنه كان يصرف له كل يوم من المال كل ما تساوى قيمته الفا وخمسمائة فرنك من الفرنكات الفرنساوية وكتب له الوزير الاعظم عوضا عن هذه المرتبات كتابا فى صورة نصيحة مضمونه الامر بخروجه من بلاد الدولة العثمانية

تخالف كرلوس هذا الامر وسلك في العناد اكثر من عادته وصمم على الاقامة مستمرا على طمعه في العود الى بلاده والموسقو بجيش من العساكر العثمانية ولا يخفى ما آل اليه امر شدته وجسارته سنة ١٧١٤ من الميلاد حيث قاتل جيشا من الانكشارية والاسباهية والتتار ولم يكن معه وقتئذ من الرجال الا الكتبة والفراشون والطباخون وخدمة الخيل ثم اسروه في البلد التي حظى فيه بحسن القرى والضيافة ثم عاد الى ملكه متنكرا في زي ساع من السعاة بعد أن اقام ببلاد العثمانية خمس سنوات ولو صح أن لهذا الملك في سلوك تلك المسالك سببا صحيحا مقبولا لوجب الاعتراف بأن هذا السبب ليس كغيره من الاسباب التي يثق بها الابطال ويعول عليها فحول الرجال

(الفصل الثاني)

فيما اعقب وقعة البروث

(سنة ١٧١١ من الميلاد) قد رأينا من المفيد هنا أن نذكر واقعة تكلمنا عليها في تاريخ كرلوس الثاني عشر (المسمى مطالع شموس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر) وحاصلها انه في مدة الكف عن القتال الذي اعقب مشارطة البروث قبض اثنان من التتار على ضابطين من الطليانيين كانا من عساكر القار واراد بيعهما الضابط من الانكشارية فعاقب الوزير التتاريين بالقتل لكونهما تجاسرا على ما يخل بالهدء والامن العام فانظر الى هذا الوزير كيف سلك هنا مسلك الملاطفة وحسن المراعاة وان كان ذلك في ذاته من الامور الصعبة القاسية مع ما وقع منه قبل ذلك من انتهاكه لحرمة حقوق الملل بعضها على بعض وعدم اكتراثه بها حيث امر في حارات اسلامبول بالقبض على الجي القار المسمى تولستوى ولكن افعال الناس مبنية دائما على اسباب متباينة واغراض متغايرة فان الوزير كان يحقد على خان التتار حيث كان لا يريد الصلح مع الموسقو فبين له بهذه الفعلة انه هو السيد المتصرف

ولما تمت مشارطة الصلح بين الوزير والجار بوضع القرار عليها سار الجار بجيوشه من طريق مدينة يسى حتى وصل الى ضواحى ممالكه واردفه الوزير بفرقة من العساكر العثمانية تبلغ ثمانية آلاف ولم يكن غرضه من ارسالها خلفه مجرّد ملاحظة الجيوش الموسقوبية ومراقبة حركاتها فى السير بل كان غرضه من ذلك ايضا منع همل التتار من التنغيص على عساكر الجار

ثم ان بطرس بادر باجراء الشروط المقررة فى المشارطة المذكورة حيث امر بهدم قلعة سمرا وقلعة كامينسكا غير أن تسليم مدينة ازاق وهدم مينا تنغرولد كانا اشق عليه من هدم القلعتين السابقتين حيث كانت الشروط توجب فرزما للعثمانية بتلك المدينة من المدافع والذخائر وتمييزه عما كان فيها من ذلك للجار منذ استولى عليها فماطل فى ذلك حاكم المدينة فاغتاظت الدولة العثمانية من مماطلته وحق لها أن تغضب من ذلك وصار السلطان ينتظر مع القلق مقاليد تلك المدينة والوزير يعده بها وجاكمها يماطل فى التسليم فاوجب ذلك غضب السلطان على وزيره بلطه جى محمد وخلعه عن الوزارة واستظهر عليه اعداؤه كخان التتار وغيره وكثر السخط عليه من عدة باشات لكن لما كان السلطان لا يعهد فيه الا الامانة والنصح لم يقتله ولم يضبط على امواله بل ارسله فى شهر نومبر الى مدينة متيلين ووولاه حكومتها فعزله بهذه المثابة وعدم سلب امواله ولاسيما تقليده حكومة هذه المدينة كل ذلك يقضى ببطلان ما ادّعاه نوربرغ من أن الوزير قبل الرشوة من الجار

وذلك أن هذا المؤرخ ذكر ان بستانجى باشا الذى ذهب الى بلطه جى محمد ليأخذ منه ختام الدولة العلية ويعلمه بالامر بنفيه قال له ما معناه انك قد خنت سيدك وخرجت عن طاعته وبعتها للاعداء بالمال وانك قد اخطأت فى عدم مراعاتك اتم الرعاية لما فيه المصلحة لملك اسوج انتهى وفيه امران احدهما أن مثل هذا الكلام لم تجر به العادة اصلا عند الدولة العثمانية

وانما

وانما العادة عندهم أن الاوامر السلطانية تصدر سرا او يجرى العمل بمقتضاها مع الانصات والسكوت * ثانيهما أن الوزير لو ثبت ما قاله له الباشا المذكور من الخيانة والعصيان وقبول الرشوة لاستحق القتل حسبما هو الجارى فى مملكتهم من أن مرتكب مثل هذه الذنوب انما يعاقب بالقتل بدون عفو ولا مسامحة وبالجملة فلو كان عقاب الوزير انما هو لعدم رعايته لمصلحة كرلوس الثانى عشر لكان لهذا الملك فى الدولة العثمانية شوكة قوية توقع الخوف والرعب فى قلوب الوزراء وكانوا فى هذه الحالة يبادرون الى ما فيه مصلحته ويعملون على مقتضى مآربه واغراضه ولكن الواقع خلافه فان يوسف باشا اغاة الانكشارية الذى تقلد الوزارة بعد بلطه جى محمد كان كسلفه فى معاملة هذا الملك ومراقبة سلوكه حيث كان يتباعد عن خدمته ومراعاة مصلحته ويسعى فى اراحة نفسه من خطر هذا النزيل فقد قال للقونتة بونياتوسقى الذى كان جليس كرلوس وامين سره حين ذهب اليه ليهنئه بمنصب الوزارة ها انا انذرك ايها الكافر العنيد انك متى تصديت لاقل دسيسة او حيلة ربطت فى عنقك حجرا وألقيتك فى البحر

فهذه العبارة التى اثبتها القونتة بونياتوسقى نفسه فى بعض لوائح وصلت الى لا يبقى معها احتمال فى أن كرلوس الثانى عشر لم يكن له شوكة ولا صولة فى الدولة العثمانية فجميع ما ذكره نوربرغ مما يتعلق بهذه الدولة يظهر أنه صادر عن انسان غير خلى عن الاغراض لا يتثبت فيما يصل اليه من الاخبار ولا يحسن التفحص عنها فكل ما ادعاه هذا المؤرخ بلا دليل فى شأن رشوة الوزير الاعظم يلزم نظمه فى سلك الاكذوبات الناشئة عن العصبية والتحامل وحمله على التقولات البوليتيقية والادعاآت السياسية وهل تصح هذه الدعوى فى حق رجل كان يتصرف كل سنة فى اكثر من ستين مليونا من الاموال بدون أن يحاسب عليها ولم يزل الى الآن بيدى الكتاب الذى كتبه القونتة بونياتوسقى للملك استانسلاس عقب صلح البروث يلوم فيه الوزير بلطه جى محمدا على عدم مراعاته للملك اسوج وتباعده عما فيه

مصلحته وعلى قلة ميله للحرب وعلى لينه وسهولته ولم يذكر فيه شيأ يشم منه رائحة تهمته بالرشوة لانه كان يعرف حق المعرفة مقام الوزير الاعظم وعلو منزلته فلا يسعه أن يخطر له أن الجار امكنه اشتراء خيانة وزير الدولة العثمانية وغشه لسيده بالرشوة

وقد مكث كل من شافيروف وشرمتوف فى اسلامبول رهينة على ما وقع الاتفاق عليه بين الفريقين ولم يعاملا فيها معاملة من اشترى الصلح بالرشوة وغش السلطان بالاتفاق على ذلك مع الوزير بل مكثا فى تلك المدينة مع الحرية وعدم المضايقة وانما كان يخفرهما فرقتان من الانكشارية

ولما خرج الجيش الموسقو المسمى تلستوى من قلعة يدى قله عقب صلح البروث ذهب الجية الانكليز والفلمنك الى الوزير الجديد وطلبوا منه العمل بمقتضى المشارطة

وقصارى الامر أن الموسقو ردوا للدولة العثمانية مدينة ازاق وهدمت القلاع التى اشترط هدمها فى الصلح ومع أنه يندر دخول الدولة العثمانية فيما يقع من النزاع والمشاجرات بين ملوك النصرانية داخلها وقتئذ الفرح والمسرة حيث وجدت نفسها حكما بين دولة الموسقو ومملكة له وملك اسوج وذلك أنها كانت تريد أن الجار يخرج جيوشه من مملكة له لتتخلص بذلك من خطر هذا الجوار وأن كرلوس يعود الى ملكه ليبقى كل فى معزل عن الآخر ولكن لم يخطر ببالها أن تمد ملك اسوج بجيوش من عساكرها وكان التتار لا يبغون سوى الحرب كمحترف لا يريد ترك حرفته وكذلك الانكشارية الا أن اعظم باعث لهم على ذلك انما كان بغضهم للنصارى وتكبرهم وميلهم الى الاجتراء ومع ذلك فما طلبه الجية الانكليز والفلمنك من العمل بمقتضى الشروط ظهر على ما كان يريده هذا الحزب المعارض من اشهار الحرب وتحتمت شروط صلح البروث وزيد عليها انه فى ظرف ثلاثة اشهر يخرج الجار جميع جيوشه من مملكة له وأن السلطان يطرد عقب ذلك كرلوس الثانى عشر من بلاد الدولة العثمانية

فهل

فهل مع هذا الشرط الاخير يصح ماقيل ان ملك اسوج كان له قوة شوكة فى الدولة العثمانية كلا بل الظاهر أن الوزير الجديد المسمى يوسف باشا وسلفه بلطه جى محمدا انما كانا يودان دماره وهلاكه وكأن مؤرخيه لم يجدوا وسيلة فى اخفاء المنقصة التى لحقته من الوزير الجديد سوى كونهم يتهمونه بالرشوة كما اتهموا اسلفه ومثل هذه التهم التى صدرت منهم غير مرة بدون أن يكون لها اصل يعتمد عليه اودليل يجب المصير اليه ينبغى أن يكون الاولى بها أنها مجرد لغط واشاعة من عصبة مستضعفة لاأن تنتظم فى سلك الشهادات التاريخية ثم ان الانسان الذى لايخلو عن الاغراض لايسعه الا الاعتراف بالحقيقة الواقعية غير أنه يسلك فى ايراد اسبابها مسلك الاعتساف ويحذو فى بيان احوالها حذو التغيير وعدم الانصاف فوا آسفاه على كون التواريخ التى دونها معاصرو حوادثها تصل الى من بعدهم بهذه المثابة فلا يميزون غثها من سمينها ولا يعرفون صحيحها من فاسدها

(الفصل الثالث)

فى ذكر زواج ابن الجار واشهار نكاح بطرس لكاترينة بموكب حافل وعثور هذه الاميرة على اخيها

(سنة ١٧١١ من الميلاد) ثم ان واقعة البروث كانت فى الشؤم والاساءة اشد على الجار من واقعة نروا لانه بعد واقعة نروا عرف كيف ينتفع من هزيمته فى تلك الواقعة ويجبر ساير مالحقه فيها من الخسارات ويأخذ من كرلوس الثانى عشر اقليم أنغريا بخلاف واقعة البروث فانه بعد أن فقد بسببها ميناه وقلاعه الواقعة على بحر ازاق حسبما اقتضته مشارطة فلكسين (قرية ببلاد البغدان على نهر البروث) المنعقدة بينه وبين السلطان اقتضى الحال أن لا يكون له سلاطة ولا حكم على البحر الاسود ولكن بقى له مجال واسع ينجز فيه مشروعاته ويحصل فيه اغراضه فان ما ابدعه فى البلاد الموسقوبية من الاحداثات والمصالح كان محتاجا للتكميل والتحسين وكان يحتاج ايضا الى ادمان الفتوح فى البلاد الاسوجية وتمكين الملك اغسطوس

على كرسى المملكة اللهية وكذلك كان يلزمه ملاطفة معاهديه وحسن معاملتهم حتى لا ينفصلوا عنه وكان ما لحقه من العناء والمشقة قد اضر بصحته فاقتضى الحال أن يذهب الى مدينة كرلسباد بايالة بويمة لاجل الاستحمام بمياهها وكان فى مدة الاستحمام يحارب اقليم بوميرانيا وفيها ايضا حوصرت مدينة استرالسند واخذت خمس مدائن من المدن الصغيرة

واقليم بوميرانيا المذكور هو ابعد اقاليم ألمانيا الى الشمال وهو محدود من جهة الشرق ببلاد البروسيا وله ومن جهة الغرب باقليم برندبورغ ومن جهة الجنوب باقليم مكلانبورغ ومن جهة الشمال ببحر بلطق وقد تولى على هذا الاقليم من قرن الى قرن عدة ولاة مختلفة وكان غسطاوه ادولف (ملك اسوج) قد تغلب عليه فى الحرب الشهيرة التى مكثت ثلاثين سنة ثم آل الامر الى أن اعطى علانية للاسوج حسبما اقتضته شروط وستفاليا ماعدا اسقفية كامين وبعض قلاع صغيرة واقعة فى بوميرانيا التالى لهذا الاقليم وكان الاوفق طبعا أن الاقليم بتمامه يكون ولاؤه لمنتخب برندبورغ حسبما تقتضيه شروط القرابة مع دوقات بوميرانيا لما أنه حيث انقرض نسل هؤلاء الدوقات سنة ١٦٣٧ من الميلاد وجب بمقتضى قوانين ايمبراطورية ألمانيا أن يكون لعائلة برندبورغ فى هذا الاقليم حق ظاهر لا يكاد يخفى الا أن الضرورة التى هى اول الاحكام غلبت على مشارطة اوسنابروك ومن يومئذ صار معظم بوميرانيا للاسوج بشجاعتهم الحربية

وكان مرام بطرس أن يجرد التاج الاسوجى عن جميع الاقاليم التى له بألمانيا وكان لابد فى تحصيل هذا الغرض من الاتحاد والاتفاق مع منتخبى برندبورغ وهانورة ومملكة دانيمرقة فكتب ما اراده من شروط المعاهدة مع هذه الحكومات وكتب ايضا جميع تفاصيل العمليات اللازمة لصيرورته سيدا على بوميرانيا

(٢٥ من شهر اوقطوبر) وفى اثناء تلك المدة زوج الجار ابنه المسمى

ألكسيس باميرة وولفنبوتل اخت ايمبراطورة ألمانيا زوجة كرلوس السادس (ايمبراطور ألمانيا) وكان ذلك بمدينة تورغو وكان هذا النكاح على غاية من الشؤم حيث ترتب عليه هلاك الزوجين

وكان ألكسيس المذكور قد ولد للجار من اول زوجاته المسماة اودوكسيا لابوكين التى تزوجها على ما يقال سنة ١٦٨٩ من الميلاد وكانت وقتئذ منفية فى دير بمدينة سوسدال وكانت ولادة ألكسيس فى غرة شهر مارث سنة ١٦٩٠ من الميلاد وكان عمره حين الزواج اثنتين وعشرين سنة ولم يكن هذا الامير اذ ذاك معروفا ببلاد اوروبا وانما بعض الانجلية الذى جمع لوائح تتعلق بديوان دولة الموسقو وطبعها كتب لسيده كتابا تاريخه ٢٥ من شهر اغسطوس سنة ١٧١١ من الميلاد وصف فيه هذا الامير فقال هو طويل القامة معتدل القد حسن التركيب والبنية اشبه الناس بابيه خالص الطوية طيب السريرة على غاية من الديانة والاستقامة قرأ الكتاب المقدس خمس مرات كثير التولع بمطالعة التواريخ اليونانية القديمة وأفاد أنه وجده وافر العقل سهل الادراك وذكر أنه يعرف العلوم الرياضية وأن له دراية تامة بالفنون الحربية والملاحة وعلم سير المياه ووقوفها ويعرف اللسان النمساوى وأنه يتعلم اللغة الفرنساوية غير أن أباه لم يرض له بتطبيق العلم على العمل

وهذه الاوصاف مباينة بالكلية للاوصاف التى ذكرها الجار نفسه بعد ذلك بمدة فى شأن هذا الولد السيء الحظ فانه سيأتى لك ما يورث النفس حزنا وتألما من أن أباه لامه على جميع المثالب المنابذة لتلك الخصال الجيدة التى تعجب منها هذا الانجليزى واستغرب وجودها فيه

فلنفوض امر ذلك الى الاجيال الآتية فتحكم بما تراه بين انسان اجنبى سلك فى الحكم على طبيعة ألكسيس وبيان اخلاقه مسلك التساهل او التملق وبين اب رأى أن الواجب عليه أن يفدى مصلحة المملكة بولده ويؤثر ذلك على حنان الابوة الطبيعى فان هذا الانجليزى ان لم يكن يعرف قريحة

ألكسيس حق المعرفة كما يعرف صورته فشهادته فى ذلك لاغية لا يعتدّ بها وذلك أنه قال فى وصفه (كما سبق قريبا) طويل القامة معتدل القد مع أن اللوائح التى وصلت الىّ من مدينة بتربورغ نصت على أنه لم يكن موصوفا بشىء من ذلك

ثم ان كاترينة زوجة ابيه لم تحضر هذا النكاح اصلا لانها وان كانت معتبرة جارة الا انها لم تبايع بهذه المنقبة على رؤس الاشهاد ولقب ألتيس (وهو عندهم لقب لمن يلى الملك فى الرتبة) الذى لقبها به ديوان الجار اوقع الشبهة فى رتبتها بحيث كان لا يمكنها أن تضع امضاءها على وثيقة النكاح ولا ترخص لها قوانين الكنيسة الالمانية أن تكون فى منزلة تلايم مقامها من حيث كونها زوجة الجار بطرس وانما كانت اذذاك (فى شهر نوبة سنة ١٧١٢ من الميلاد) بمدينة تورن الواقعة فى البروسيا اللهية وكان الجار فى مبدأ الامر قد ارسل الزوجين الجديدين الى مدينة وولفنبوتل وبعد ذلك بيسير بعث الجارة الى مدينة بتربورغ مع السرعة والساذجية اى عدم الابهة والاحتفال على عادته فى اسفاره

ولما زوج ابنه عقد نكاحه على كاترينة واشهره على رؤس الاشهاد بأعظم مما اشهر به نكاح ولده بحيث صار يعلمه الخاص والعام وكان ذلك بمدينة بتربورغ (فى ١٩ من شهر فبرية) وقد بلغت رسوم هذه الافراح وما صنع فى ذلك من المواسم اعظم درجة بالنسبة لمثل تلك البلاد القريبة العهد بالحدوث وبالنسبة لزمن كانت فيه خزائن الدولة محتاجة للمال لاجل مصاريف الحرب مع الدولة العثمانية وكذا مع ملك اسوج وامر الجار بعمل الافراح واشتغل فيها بنفسه كما هو عادته وبويعت كاترينة وقتئذ على رؤس الاشهاد بأنها جارة مكافأة لها على انقاذها لزوجها وجنوده من الوقوع فى الخطر

ثم ان ما اظهره الاهالى بمدينة بتربورغ من صياح المسرّة فى هذا النكاح وتصفيق الرضاء بهذه الافراح كان صادرا عن طيب نفس وخلوص طوية كما هو

الظاهر

الظاهر وان كان صدور مثل ذلك عن رعية فرحا بما صنعه ملك مطلق التصرف لا يخلو دائما عن ريبة وشبهة فقد ثبت فيما بعد عند ذوى العقول الراجحة من اهل اوروبا أن هذا الاستحسان كان عن سريرة خالصة حيث رأوا فى آن واحد تقريبا ما شرح صدورهم من أن ولى عهد تلك الايمبراطورية الواسعة الذى لم يكن له من الفخر الاعراقته فى الحسب والنسب تزوج باميرة هى كفؤ له وأن الفاتح المشرع رفع بالزواج الى سرير ملكه على رؤس الاشهاد امرأة دخيلة دعية مسبية من مدينة مارينبورغ لما لها من العقل والفضل واقره على ذلك الخاص والعام بمجرد ما استنارت العقول بانوار المعارف والحكمة التى اتسعت دائرتها منذ اربعين سنة وهى حكمة عالية يسلك صاحبها مسلك التحرى والتحرز حيث تفيده أن ارباب المظاهر والشوكة لا يمنحون من التعظيم الا ما كان ظاهريا فقط بخلاف ذوى المعارف والخدم النافعة فانه بموجب هذه الحكمة ينبغى الاذعان لهم بالتعظيم الحقيقى (اى ما وافق فيه الظاهر الباطن)

وقد رأيت أن اورد هنا مع التحرى والصدق ما وقفت عليه فى شأن هذا النكاح مما وجدته فى تحريرات الدولة الصادرة من القونتة بسوونز وهو من ارباب المشورة العليا بمدينة ويانة (بچ) ومكث مدة مديدة فى الديوان الموسقوبى بوظيفة الجى من طرف دوقية هولستين وكان رجلا فاضلا بمكان من الاستقامة وخلوص الطوية وأبقى ببلاد النمسا سيرة حسنة ومناقب جميلة وهاك نص تحريراته فى هذا المعنى ان الجارة لم تكن ضرورية فى مجرد نخار بطرس بل كان عليها المدار ايضا فى صيانة مهجته وحفظ حياته فان هذا الملك كان يتأسف عليه لما كان يعتريه من اليم داء التشنج الذى كان يظن أنه من أثر سم اسقيه وهو صغير فلم يصل احد الى ما يسكن المه الا كاترينة فهى التى سلكت فى ذلك مسلكا لا يصلح له غيرها حيث اجهدت نفسها فى معالجته وتيقظت اتم التيقظ فى البحث عما يكون به شفاء علته ولم تأل جهدا فى بذل مهجتها لحفظ هذه النفس النفيسة النافعة لها وللدولة فلما رأى الجار

أنه لا يتيسر له العيش بدونها رفعها بالزواج إلى سرير ملكه انتهى وفى هذه العبارة من كلامه كفاية

ثم ان السعد الذى اسفر طالعه فى هذا الجزء من الدنيا عن مظاهر كثيرة لا تكاد تخفى على الابصار ورفع كاترينة من حضيض الحقارة والشقاء الى اوج العلا والسعادة خدمها ايضا على وجه عجيب بعد اشهار نكاحها ببعض سنوات

ولنذكر فى بيان ذلك ماوجدناه فى مسودة يرغب فى الاطلاع عليها الفها رجل كان فى خدمة الچار وتكلم فيها على هذا المعنى بلسان المشاهد المعاين فقال

ان رجلا ارسله الملك اغسطوس لديوان الچار سمع وهو راجع الى مدينة درسدة من طريق كورلندة رجلا فى خمارة رث الهيئة يسخر منه الحاضرون بما تقتضيه رثاثة هيئته من انواع السخرية والاستهزاء يقول وقد اشتدت به النكاية والحنق منهم ولم يكن فيهم من يعرفه بل كان مجهول الحال بينهم انى لو وصلت الى الچار لما المكن لاحد أن يعاملنى مثل هذه المعاملة السيئة وربما وجدت فى ديوانه ملاذا اقوى الشوكة بعيدا عن الاذهان قل أن خطر ببال احد

فلما سمع منه رسول اغسطوس هذه العبارة تشوقت نفسه أن يسأله عن حقيقة امره فلما وقعت المحادثة بينهما ظهر لهذا الرسول من بعض ما سمعه من الاجوبة المبهمة ما حمله على امعان النظر فيه حتى ظن أن له بعض شبه بالامبراطورة كاترينة فى تقاطيعه وتركيب بنيته فلما وصل الى درسدة لم يسعه أن يكتم ذلك فكتب به الى بعض اصحابه بمدينة بترבورغ فوقع الكتاب فى يد الچار فبعث الى الامير روبنين حاكم مدينة ريغا يأمره أن يبذل جهده ويعتنى اتم الاعتناء بالفحص والتفتيش عن هذا الرجل المذكور فى الكتاب فارسل من طرفه من يثق به فى هذه المأمورية الى مدينة ميتو (تخت اقليم كورلندة) فعثر به فيها فاذا هو رجل يسمى

كرلوس

كرلوس اسكاورونسكى كان ابوه من وجوه لوثيانيا واعيانها قتل فى حروب مملكة له واعقب ابنا وبنتا فى المهد لم يتعهد احد تربيتهما وتأديبهما بل نشآ لا يعرفان من التربية الا ما يعرفه الانسان بطبيعته و يوجد فيه من اصل فطرته فكانا فى زوايا الاهمال بالنسبة لكل شئ وفارق اسكاورونسكى اخته وهو صغير جدا ولا يعلم من امرها الا أنها سبيت فى مدينة مارينبورغ سنة ١٧٠٤ من الميلاد وكان يظن الى الآن انها لم تزل عند الامير منزيقوف لما أنه كان يقع فى ذهنه انها منحت من السعد والاسعاف بنصيب

ثم ان روبنين بمقتضى اوامر سيده الجار فى هذا الشان احضر اسكاورونسكى الى مدينة ريغا متعللا بأنه متهم بجناية جناها ومطلوب لتحقيق هذه الدعوى ثم اصحبه بحرس عظيم و بعثه الى مدينة بتربورغ وامرهم باكرامه وحسن معاملته فى الطريق

فلما وصل الى مدينة بتربورغ ذهبوا به الى ناظر مطبخ الجار المسمى سيليف وكان يعلم حقيقة الامر فاكثر من سؤاله والاستفهام عن حاله ثم قال له ان الدعوى التى طلبت لاجلها جسيمة لكن ان قدمت للجار عريضة باسمك وامكنك أن تعطيها له بنفسك فزت منه بالحكم فيها على وجه العدالة والانصاف

فلما حضر الجار فى اليوم الثانى ليأكل عند سيليف احضروا بين يديه اسكاورونسكى فاكثر من سؤاله فتبين له من ساذجيته و بلاهته فى الاجوبة أنه اخو الجارة لا محالة وانهما فى صغرهما كانا باقليم ليونيا وأن ما ذكره له من اجوبة اسئلته مطابق لما اخبرته به زوجته مما يتعلق بنسبها وما اصابها فى مبدأ امرها من صروف الدهر وتقلباته

فلما وقف الجار على الحقيقة وصار على يقين من هذا الامر التمس من زوجته فى اليوم الثانى أن تذهب معه عند سيليف وامر عند خروجهما من محل المائدة باحضار الرجل الذى كان يسأله بالامس فحضر لديهما وعليه ملابس السفر لان الجار كان لا يريد أن يظهر بغير الزى الذى عوّده عليه سوء

حاله انتهى

فاعاد عليه السؤال بحضرة زوجته ثم قال لها كما فى المسودة ان هذا الرجل اخوك والتفت اليه قائلا أقبل يا كرلوس وقبل يد الايمبراطورة وعانقها فانها اختك

وقد ذكر صاحب المسودة ايضا أن الايمبراطورة وقعت مغشيا عليها فلما افاقت قال لها الجلر خفضى عليك فالامر سهل فان هذا السيد ختنى وصهرى فان كان من ذوى المعارف والفضل استخدمناه على قدر فضله والا فلا

وهذه العبارة تؤذن كما هو الظاهر بالشهامة وشرف النفس كما تنبىء عن السهولة وعدم التكلف وان كان مثل هذا الوصف اعنى الشهامة قل أن يتصف به سائر الناس وقد ذكر صاحب المسودة أن اسكاورونسكى مكث مدة مديدة عند سبليف وأنه عين له مرتب جسيم وانه عاش فى العزلة وعدم مخالطة الناس ولم يذكر فى هذه الحكاية المتضمنة مجرد بيان نسب كاترينة ازيد مما اثبتناه هنا ولكن المعروف من طريق آخر أن اسكاورونسكى تولى قونسة وانه تزوج بامرأة من ذوات الحسب والنسب ورزق منها بنتين تزوجتا برجلين من اعظم اكابر الموسقو ثم انه ربما كان هنالك بعض افراد يعلمون هذه التفاصيل فنفوض لهم امر هذه الحكاية ليميزوا صحيحها من فاسدها وينبهوا على اصلها الواقعى وما زيد عليه والظاهر أن مؤلف المسودة لم يكن غرضه من اثبات هذه القصة ترويج امور غريبة لمن اطلع على تأليفه فانه لم يؤلف مسودته بقصد نشرها بين الناس وانما جمع فيها ما راه لبعض اصحابه خاصة نعم لا مانع من احتمال الخطأ فى بعض مواضع منها الا أن الظاهر أن اصلها صحيح ثابت فان اسكاورونسكى لو كان يعلم أنه اخ لامرأة بهذه المثابة من الجاه وقوة الشوكة لما مكث السنين ذوات العدد وهو خامل مجهول الحال من غير أن يسعى فيما يكون به معرفته وظهور امره ثم ان غرابة تعرف المذكور باخته وان بلغت الغاية الا انها ليست اغرب من بلوغ اخته كاترينة فى الحظوة والاقبال وعلو الشان ما لا مزيد عليه وكلا الامرين دليل قوى وبرهان قاطع

على

على وجود القضاء والقدر وربما ينتج عنهما أنه ينبغى تعليق الحكم على كثير من الحوادث القديمة بأنها من قبيل الخرافات بداعى بعدها عما جرت به العادة من الامور المعهودة بين الناس التى ربما تكون دون ماوقع للامبراطورة كاترينة من هذا التاريخ الغريب والامر العجيب.

ثم ان ماصنعه بطرس من الافراح لاجل اشهار الزواج له ولولده لم يكن مما تتقدبه الخزائن من الحظوظ التى تمر ولا تستقر وقل أن يبقى ذكرها ولم ينس خبرها فانه تمم صب المدافع والشأسفن الامارة البحرية وتمم اصلاح الطرق الكبيرة وتحسينها وجدد سفنا اخرى وحفر خلجانا وتمم ايضا مجمع التجار والمخازن واخذت تجارة بترپورغ البحرية تتقوى وتتسع وامر بنقل مشورة السنت من مدينة موسقو الى مدينة بترپورغ فانتقلوا اليها فى شهر ابريل سنة ۱۷۱۲ من الميلاد وبذلك صارت هذه المدينة الجديدة كأنها تخت بلاد الموسقو واستخدم جملة من اسرى الاسوج فيما يكون به تحسين تلك المدينة التى كان تأسيسها ثمرة هزيمتهم.

(الفصل الرابع)

فى ذكر الاستيلاء على مدينة استاتين وماوقع فى فنلندة من الاغارة والهجوم وماحصل من الحوادث فى سنة ۱۷۱۲ من الميلاد

(سنة ۱۷۱۲ من الميلاد) لما رأى بطرس أن السعد قد حالفه فى اموره المنزلية وفى حكومته وحروبه مع كرلوس الثانى عشر وكذلك فى مشارطاته مع غيره من الملوك الذين كانوا يريدون طرد الاسوج من الارض القارة وحصرهم على الدوام فى جزيرة سكندناوة وجه اطماعه نحو غربى شمال اوروبا وترك بحر ازاق والبحر الاسود فسلم مفاتيح قلعة ازاق بعد أن امتنع مدة مديدة من تسليمها للباشا الذى عينه السلطان لمحافظتها ووقع السلم بين الموسقو والدولة العثمانية مع ماوقع من كرلوس الثانى عشر واحزابه فى منع ذلك من المجهودات وكثرة الالحاح والدسائس فى ديوان الدولة العثمانية بل ومع اغرائها على حرب جديدة مع الموسقو وافهامها

طرقه ووسايطه

واما كرلوس الثانى عشر فانه استمر على الاقامة بمدينة بندر مع العناد والتصميم على عدم الخروج منها و بينما كان فيما يعلق حظه وآماله على اهواء الوزير الاعظم واغراضه كان الجار يهدد جميع اقاليمه و يرهب سائر بلاده حيث حمل مملكتى دانيمرقة وهانورة على محاربته وكاد يحمل البروسيا على التصميم على قتاله واغرى على ذلك ايضا مملكتى له وسكس

وما كان يسلكه كرلوس مع الدولة العثمانية التى كان ملتجئا اليها من الافراط فى الكبر وقوة العناد سلكه ايضا مع اعدائه البعيدين عنه الذين تجمعوا بقصد اضعاف شوكته وابطال صولته فكنت تراه وهو فى قرار ملجاءه بصحارى بيسربى (بوجاق) يهزأ بالجار وملوك له ودانيمرقة والبروسيا ومنتخب هانورة الذى تولى بعد ذلك بقليل ملكا على انكلترة وايمبراطور ألمانيا وكان كرلوس قبل ذلك قد اساءه حين مروره باقليم سيليزيا ظافرا منصورا فانتقم منه الايمبراطور فى نظير ذلك بتركه له على هذه الحالة السيئة وعدم محاماته عما كان للاسوج وقتئذ بألمانيا من البلاد

وقد كان يسهل على ملك اسوج أن ينال الراحة بتبديد شمل هذه الجمعية المتعصبة عليه فانه لم يكن عليه فى تحصيل ذلك الا أن يسلم مدينة استاتين لاول ملك على البروسيا وهو فردريق منتخب برندبورغ حيث كان له فى هذه المدينة التى هى جزء من اقليم بوميرانيا حقوق ثابتة بمقتضى الاصول والقوانين الا أن كرلوس لم يكن يعد مملكة البروسيا من الممالك القوية المعتبرة فانه لم يكن يخطر بباله بل ولا ببال غيره أن هذه المملكة الصغيرة التى تكاد تكون صحراء وكذلك انتخابية برندبورغ تصير مخوفة مهولة فلم يرض فى شأنهما بشىء ينقطع به النزاع والمشاجرة بل رأى أن التصميم على الفتك وايقاع الخلل اوفق به من المصالحة فامر بمقاومة العدو من سائر الجهات برا وبحرا وكانت بلاده قد اوشكت أن تخلو عن الرجال والاموال ومع ذلك قابلوا امره بالسمع والطاعة فاعدت مشورة السنت بمدينة استخلم دونما

حربية

حربية مركبة من ست عشرة قبقا من ذوات العنابر الثلاثة وجهزت للحرب جنودا من اهالى المملكة فصار رعاياه الذين هم مثله فى الشقاء وسوء الحظ تقريبا كلهم عساكر متسلحة وحملهم على ذلك شجاعته وعتوه

ومن البعيد أن يظن أن كرلوس كان له فى ذلك طرق مستقيمة منتظمة وانما حزبه الذى كان لم يزل له ببلاد له كان يمكنه بمساعدة تتار القرم أن يخرب تلك البلاد السيئة الحظ لا أن يعيد الملك استانسلاس الى سرير ملكها واما تعلق آماله بحمل الدولة العثمانية على حماية هذا الحزب واثباته لها انه يجب عليها أن تبعث لاعانته مائتى الف مقاتل معللا ذلك بأن الجار قد تصدى لحماية خليفه اغسطوس والاخذ بناصره فى مملكة له فانما هو مجرد وهم كالخيال يشبه أن يكون من حيز المحال

(شهر سبطمبر) وكان كرلوس بمدينة بندر ينتظر نتيجة لما كان يبديه من الدسائس الكثيرة التى لا طائل تحتها واما الموسقو والدانيمرقة والسكسون فكانوا باقاليم بوميرانيا واستصحب بطرس زوجته فى هذه الغزوة وكان ملك دانيمرقة قد تغلب على استادة وهى مدينة بحرية من دوقية بريمة وكانت جيوش الموسقو والسكسون والدانيمرقة أمام مدينة استرالسوند

(شهر اقطوبر) فلما رأى الملك استانسلاس أن كثيرا من الاقاليم صار على حالة يرثى لها وأن عوده الى سرير مملكة له صار من حيز المستحيل وأن غيبة كرلوس الناشئة عن عناده وعدم تساهله قد ترتب عليها عموم الاختلال وسوء الحال فى كثير من الاقاليم جمع الجنرالات الاسوجية الذين كانوا يدافعون عن بوميرانيا بجيش كان عدده ستة آلاف او احد عشر الفا وهو آخر ما كان للاسوج من الوسايط بهذه الاقاليم وعرض عليهم المصالحة مع الملك اغسطوس وانه يؤثر ذلك على مصلحة نفسه وخاطبهم فى هذا المعنى بعبارة فرنساوية وكتبها لهم واشهد فيها تسعة من الجنرالات منهم رجل من العائلة البطقولية وهو ابن عم بطقول سيء الحظ الذى قتله

كرلوس الثاني عشر بعقاب العجلة وها ملخص عبارته (بعد التعريب)
انى الى الآن بمثابة آلة لفخر الاسلحة الاسوجية وشرفها * فلا اريد أن أكون
سببا فى خسارتها وتلفها * وها انا قد التزمت بالنزول عن سرير مملكتى *
وتخليت عما فيه نفعى ومصلحتى * رغبة فى حفظ ذات كرلوس المحترمة *
وروما لصيانة نفيس نفسه المكرمه * فانى لم اجد لاحضاره من محل
اقامته سوى ذلك * ولم ار فى هذا الغرض وسيلة ممكنة الاسلوك تلك
المسالك * انتهى

وبعد هذا الالتزام تأهب للسفر الى الدولة العثمانية طامعا أنه بفواته سرير
ملكه يستعطف من له المنة عليه ويحمله على مجانبة العناد والصعوبة لكنه
لسوء حظه صادف وصوله الى اقليم بيسربى وقت أن كان كرلوس
الثانى عشر قد سلك مسلك العناد والتصميم على المكث ببلاد تلك الدولة
وعدم اكتراثه بالترك والتتار حتى قاوم منهم جيشا كاملا بدون معين سوى
خدمه واتباعه وفى هذه الوقعة المشؤومة التى كانت بمدينة بندر وكان
يسهل فيها على عساكر العثمانية قتله اقتصروا على القبض عليه واخذه اسيرا
وكان قبل أن يسلك هذا المسلك قد وعد السلطان بالعود الى بلاده ووصله منه
ما يلزم لرجوعه من مال ورجال للحرس فكان وصول استانسلاس الى
تلك الديار فى هذه الحالة الغريبة فقبض عليه ايضا فبذلك صار فى اسر الدولة
العثمانية ملكان من ملوك النصارى

وفى هذا الوقت كانت اوروبا بتمامها مضطربة فكانت فرانسا قد
انهت حربا ليس دون غيره من الحروب فى الهول والخطر فعلته مع جزء من
اوروبا وكان الغرض منه تولية ابن لويز الرابع عشر الصغير على سرير
مملكة اسبانيا وكانت انكلترة قد عقدت الصلح مع فرانسا وكانت
نصرة السر عسكر دويرس فى مدينة دونين بايالة فلندرة
قد انقذت هذه الايالة من اعدائها الآخرين ثم ان فرانسا كانت منذ قرن
محالفة لمملكة اسوج فكانت تود أن محالفتها لا تحرم مما لها فى الايمبراطورية
الالمانية

الالمانية من الاملاك وتؤثر ذلك على غيره وكان كرلوس لبعد مقامه لايعرف بمدينة بندر ما كان يقع فى فرانسا

وكان مجلس النيابة بمدينة استخلم قدرأى أن يخاطر و يطلب اموال الامن فرانسا مع أن هذه المملكة كانت وقتئذ قد نفدت خزائنها حتى ان لويز الرابع عشر لم يكن فى خزينته اذ ذاك مايصرفه فى جامكيات خدمه فارسل ارباب المجلس لهذا الغرض قونتة دسبار وناطوه بهذا الامر الذى لاطائل تحته فسافر الى مدينة ورساى واخبر مركى دوتورسى بما عليه مملكة اسوج من العجز عن دفع مرتبات الجيش الصغير الاسوجى الذى بقى لكرلوس الثانى عشر باقليم پوميرانيا حتى صار بذلك قريب التبدد والتفرق وأن هذه المملكة التى ليس لها من المحالفين الا دولة فرانسا قد اشرفت على أن يضيع منها اقاليم حفظها لازم لاجل ابقاء التعادل العمومى وأن كرلوس الثانى عشر وان اهمل فى ايام نصراته ملك فرانسا بالكلية الا أن كرم لويز الرابع عشر يضاهى فى العظم ماحل بملك اسوج من النكبات وسوء الحظ فافاده أن فرانسا لاقدرة لها على اسعاف سيده واعانته فعند ذلك ايس قونتة دسبار من قضاء وطره ونجاح حاجته

ولكن اسعفه بعض اعيان باريس بقضاء لباناته بعد خيبة مسعاه وذلك أن هذه المدينة كان بها صراف ذو ثروة عظيمة يقال له سمويل برنارد وكان من اسباب ثروته أن الدولة كانت تبعث بالنقود الى الممالك الاجنبية على يده و بوكالته ومنها غير ذلك من مشروعات الاخذ والعطاء وكان لهذا الرجل فرط تولع بما يندر أن يتشبث به امثاله من الشهرة والفخار وكان يميل كل الميل الى ما فيه الظهور والافتخار وكان يعلم أن مركى دوتورسى لابد أن يرد له ولو بعد حين ماسلفه فيه ويؤديه اليه بربحه وفائدته فذهب اليه ذات يوم قونتة دسبار ليأكل عنده فسلك معه مسلك التملق والملاطفة وعند الانصراف من المائدة اعطى القونتة المذكور ستمائة الف فرنك ثم ذهب الى مركى دوتورسى وقال له انى قد اعطيت على اسمك لمملكة اسوج مائتى الف ايكو

(نوع من النقود) تقوم بدفعها الى متى امكنك
(٩ دقمبر) وكان القونتة دستانبولك جنرال الجيش الاسوجى المتقدم
لا ينتظر هذه الاعانة بل كانت لا تخطر له ببال وكان يرى من عساكره أنهم قد
اشرفوا على العصيان فلما لم يكن عنده ما يبذله اليهم سوى المواعيد ورأى
أن المصائب آخذة فى الازدياد وخشى أن تحيط به جيوش الموسقو
والدانيمرقة والسكسون طلب رفع السلاح والكف عن الحرب بجزمه
بأن استانسلاس سينزل عن سرير ملكه و يهضم بالاستعطاف من
كرلوس شممه وكبره ورأى أنه لا اقل من اغتنام الزمن فى انقاذ جنوده
بالمداولات فى شأن الصلح فبعث سفيرا الى مدينة بندر ليخبر كرلوس بما
عليه خزائنه ومصالحه وجيوشه من سوء الحال و بأن الجنرال المذكور لم يقدم
على طلب رفع السلاح الا للضرورة التى الجأته الى ذلك وانه ان اجيب الى
مطلوبه كان ذلك من سعده ووفور حظه فلم تمض ثلاثة ايام من خروج هذا السفير
الاووردالى دستانبولك من صراف باريس المبلغ المذكور اعنى المائتى
الف ايكو وكان استانسلاس الى ذلك الوقت لم يسافر الى بلاد الدولة العثمانية
فما كان هذا المبلغ وقتئذ الا كنز جسيم فى بلاد خربة فتقوى الجنرال المذكور
بهذه الاعانة التى تصلح دواء لكل داء حيث رغب بها جنده وجمع عساكر وذخائر
حتى وجد نفسه يقدم اثنى عشر الف مقاتل فعند ذلك عدل عما كان طلبه
اولا من رفع السلاح وصار لا يبحث الا عن الحرب والقتال
ودستانبولك هذا هو الذى انتقم للاسوج من الدانيمرقة بعد
هزيمة بلطاوا سنة ١٧١٠ من الميلاد فى الاغارة التى حصلت فى اقليم
اسكانيا وكان قد تقدم اليهم بعساكر غير متعلمة ولا منتظمة حيث لم يكن معها
الاحبال بدلا عن سيور الجلد فانتصر عليهم نصرة كاملة وكان كغيره من
جنرالات كرلوس فى الهمة والنشاط وشدة البأس الا أنه دنس صفة الشجاعة
بما كان فيه من التوحش والقساوة حيث انه بعد مقاتلة حصلت بين
الاسوج والموسقو حين امر بقتل جميع الاسرى تطرف ضابط الهيامن حزب

الجبار

الجنرال وقع على ركاب الملك استانسلاس فعانقه هذا الملك لبقيه من الهلاك فقتله دستانبولك برمية طبنجة رماه بها وهو بين ذراعى الملك المذكور حسبما هو مسطر فى سيرة كرلوس الثانى عشر فقال استانسلاس لدستانبولك لولا مانع احترامى الملك اسوج وشكرى لحسن صنيعه لشججت رأسك

ثم ان هذا الجنرال (يعنى دستانبولك) سار من طريق ويسمار قاصدا جيوش الموسقو والسكسون والدانيمرقة المجتمعين مع بعضهم ولم يزل سائرا حتى وجد نفسه أمام الجيوش السكسونية والدانيمرقية وكانت متقدمة على العساكر الموسقوبية بثلاثة فراسخ فبعث الجار الى ملك دانيمرقة ثلاثة سفراء يعقب بعضهم بعضا ليترجوه أن ينتظر قدوم الجار اليه وأن يفيده عما يحصل له من الخطر اذا هو قاتل الاسوج ولم يكن يفوق عليهم فى القوة العسكرية فلم يرد ملك دانيمرقة أن يقاسمه فخار النصرة التى كان يعتقد أنه لابد أن ينالها على الاسوج بل سار اليهم وحمل عليهم قريبا من محل يقال له غادوبسك وظهر فى هذه الوقعة ما كان بين الاسوج والدانيمرقة من العداوة الطبيعية والكراهة الجبلية فكنت ترى ضباط الملتين يقاتلون بعضهم مع غاية الشدة وفرط الصعوبة حتى يقعوا على الارض ميتين واجسامهم مخترقة بالطعن والضرب

وانتصر دستانبولك عليهم قبل قدوم الموسقو الى ميدان الحرب وبعد ذلك بأيام ورد اليه كتاب سيده يذكر فيه على كل من يركن الى رفع السلاح وابطال الحرب ويذكر أنه لا يسامح من سلك هذا المسلك الموجب للمعرة الا اذا تداركه وجبر خلله وأنه فى حالتى الضعف والقوة لابد من الظفر او الهلاك وكان دستانبولك قد تدارك بالنصرة مضمون هذا الكتاب

ولكن هذه النصرة كانت اشبه شئ بالنصرة التى تسلى بها الملك اغسطوس مدة يسيرة من الزمن وهى ما ظفر به فى خلال المصائب والنكبات من نصرته فى وقعة كاليس على الاسوج الذين كانت لهم الغلبة فى سائر الجهات

فان نصرة كاليس لم تكن نتيجتها الا ازدياد مصائب اغسطوس ولم يترتب على نصرة غادوبسك الا تأخر ما لحق دستانبولك وجيشه من الخسارة

ولما بلغت نصرة غادوبسك ملك اسوج ظن أن مصالحه قد صلح حالها وزال اختلالها حتى امل انه يحمل الدولة العثمانية التى كانت لم تزل تهدد الجار بحرب آخر على اشهار الحرب معه وبناء على هذا الامل امر جنراله دستانبولك بالتوجه الى مملكة له ظانا انه بأدنى ظفر واقل نجاح تعود له ايام نروا واوقات تقنينه للقوانين فعما قليل خابت هذه الآمال بحادثة بندر واسره عند الدولة العثمانية

ونصرة غادوبسك انما كانت ثمرتها ارتحال الجيش الاسوجى واحراقه لمدينة ألطنا الصغيرة ليلا وهى مدينة غير حصينة كان اهلها ما بين تجار وارباب حرف وصنائع ولم يكن هناك مقتض لتدميرها وتخريبها لانها لم تشهر على الاسوج سلاحا قط ولكنهم اباودها ابادة كلية وهلك بالنار عدة من اهلها وآخرون هربوا من الحريق عرايا ما بين شيوخ ونساء واطفال اهلكهم البرد والعناء على ابواب مدينة همبرغ فانظر كيف يهلك غالبا بالمشاجرة بين شخصين الوف من الناس ولم يجن دستانبولك من نصرته الا هذه الثمرة المهولة فان الموسقو والدانيمرقة والسكسون اقتفوا اثره عقب تلك النصرة مع الشدة والحمية حتى اضطر الى طلب ملجأ يأوى اليه هو واصحابه فى توننج وهى قلعة هولستين

وكانت بلاد هولستين من اشد بلاد الشمال خرابا وكان واليها من اسوأ الامراء حظا وهو ابن اخت كرلوس الثانى عشر وما وقع من كرلوس قبل واقعة نروا من الحرب الذى وصل فيه الى مدينة كوبنهاغ انما كان لاجل والد هذا الملك الذى كان صهره على اخته وعقد لاجله هو مشارطة تراوندال التى بمقتضاها عادلدوقات هولستين حقوقهم

وفى هذه البلاد من بعض جهاتها انشأت امة القمبرية وقدماء النورمندية

الذين

الذين فتحوا نستريا بمملكة فرانسا وفتحوا انكلترة بتمامها ونابلى وسيسليا وليست الدول الآن فى الاستعداد الى الفتوح دون اهل هذه البلاد التى هى جزء من خرسونيزة القمبرية وهذا الجزء عبارة عن دوقيتين صغيرتين احداهما دوقية سلسويك وهى مشتركة بين ملك دانيمرقة ودوق هولستين والثانية دوقية غوترب وهى للدوق وحده والاولى حكومة مستقلة وبلاد هولستين جزء من الايمبراطورية الالمانية المسماة بالايمبراطورية الرومانية

وكان ملك دانيمرقة ودوق هولستين غوترب من عائلة واحدة الا أن هذا الدوق الذى هو ابن اخت كرلوس الثانى عشر وولى عهده كان من اصل ولادته عدوا للملك دانيمرقة الذى اثقله بالايسعه تحمله لصغر سنه وكان لهذا الدوق سيئ الحظ عم يدبر امر حكومته مدة قصوره وهو اسقف لوبيك فوجد هذا الاسقف نفسه بين الجيش الاسوجى الذى لم يتجاسر على اعانته وعساكر الموسقو والدانيمرقة والسكسون الذين كانوا يتوعدونه ويهددونه ومع ذلك اقتضى الحال أنه يسعى فى انقاذ عساكر كرلوس الثانى عشر بدون أن يغيظ ملك دانيمرقة الذي تغلب على تلك البلاد وسلب جميع محصولاتها

وذلك أن هذا الاسقف الذى هو مدبر دوقية هولستين كان تحت تصرف بارون دوغورطز المخادع ويذعن لآرائه كل الإذعان وكان هذا البارون اشد الناس مهارة واقداما على المشروعات وكان وافر العقل له فى التحيل دائرة واسعة لا يجد فى الاشياء ما يبعد الوصول اليه * ولا يرى فى الامور ما يتعذر او يتعسر عليه * بل كان يستسهل صعابها * ويستقرب بعيدها * ويجعل لنفسه مدخلية فى المداولات * ويجسر على الإقدام على المشروعات * وكان يعرف كيف يستميل القلوب اليه حتى تستحسن ما ابداه * ويسلك مع الناس ما يحملهم على اقرار ما يراه * وكان لحدة عقله يأخذ بمجامع الالباب بعد أن يستجلبها بسحر بيانه وعذوبة ألفاظه وكان له على كرلوس الثانى عشر من السلطنة ونفوذ

الكلمة ما كان له من ذلك على مدبر هولستين ومن المعلوم أن ما حازه هذا البارون من شرف الحكم على هذا الملك الذى كان اشد الملوك يسا وعنادا خسره بضرب عنقه بعد ذلك

(فى ٢١ من نوبه سنة ١٧١٣ من الميلاد) فاجتمع البارون المذكور سرا على دستانبولك بمدينة اوزوم ووعده أن يسلم له قلعة تونينج بدون أن يتهم بالمدخلية فى ذلك سيده مدبر هولستين وفى هذا الوقت بعينه افاد ملك دانيمرقة افادة قطعية أن تسليمها لا يكون بوجه من الوجوه * وهكذا تكون اغلب المداولات فانه لما كانت مصالح الدول لها اسلوب آخر غير اسلوب مصالح الاهالى كان شرف الغرض عند الوزراء مقصورا على النجاح وعدم خيبة المسعى بخلافه عند الاهالى فليس الا صدق القول ووفاء الوعد

ثم ان دستانبولك قدم أمام تونينج فامتنع حاكم المدينة من فتح الابواب فكان ذلك مانعا الملك دانيمرقة أن يسىء الظن بالاسقف مدبر هولستين الا أن غورطز سعى فى صدور امر على لسان الدوق القاصر مضمونه أن الجيش الاسوجى لا يمنع من دخول تونينج ووضع عليه كاتب سر الدوقية المسمى استاملك اسم دوق هولستين فبذلك تورط غورطز صبيا لم يكن له الحق اذ ذاك فى اعطاء الاوامر وسعى دفعة واحدة فى مصلحة ملك اسوج الذى كان هذا البارون يريد أن يتحبب اليه ويسعى فى اكتساب الحظوة لديه وفى مصلحة سيده مدبر هولستين الذى كان يظهر من حاله أنه لا مدخلية له فى دخول الجيش الاسوجى فى تلك القلعة واستمال الى ذلك حاكم المدينة على وجه السهولة فلم يتوقف فى تسليمها للاسوج واعتذر غورطز الى ملك دانيمرقة وأقسم أن جميع ما فعل فى هذه المادة حصل قهرا عنه

ثم ان الجيش الاسوجى التجأ بعضه الى المدينة والبعض الآخر أقام تحت حماية قلعتها ومع ذلك لم ينج من الخطر فان الجنرال دستانبولك اضطر الى تسليم

نفسه

نفسه اسيرا مع احد عشر ألفا من المقاتلين كما وقع نظير ذلك سابقا من أن نحو ستة عشر ألفا من الاسوج سلموا فى انفسهم عقب واقعة بلطاوا وقد اشترط قبل التسليم أن دستانبولك ومن معه من الضباط والعساكر لهم أن يفتدوا بالاموال فكان ما عين لفداء دستانبولك من ذلك ثمانية آلاف ايكو من نقود الايمبراطورية الالمانية وهذا المقدار مع قلته لم يمكن تحصيله بل مكث هذا الجنرال فى مدينة كوبنهاغ حتى مات .

وصارت اراضى دوقية هولستين فى قبضة ملك ظافر كان قد اشتد غضبه عليها يتصرف فيها كيف يشاء وصار دوقها القاصر غرضا لسهام الانتقام من هذا الملك اعنى ملك دانيمرقة على ما وقع من غورطز باسمه من الافراط وتجاوز الحد فانت ترى سوء حظ كرلوس الثانى عشر قد عم جميع عائلته .

فلما رأى غورطز أن مساعيه قد خابت وكان دائما يحاول أن يكون له حظ وافر فى هذا الاضطراب عاد الى ما كان يخطر بباله قبل ذلك من جعل الايالات الاسوجية التى بالايمبراطورية الالمانية بمعزل عن التعصب مع احد من الدول المتشاحنة

وكان ملك دانيمرقة قد قارب الدخول فى تونيغ وكان جرجى منتخب هانورة يريد أن يأخذ دوقيتى بريمة ووردن ومدينة استادة وكانت مدينة استاتين مطمح نظر ملك البروسيا الجديد المسمى فردريق غليوم وكان بطرس الاول (چار الموسقو) يستعد للاستيلاء على فنلندة فكانت ايالات كرلوس الثانى عشر ما عدا بلاد اسوج بمثابة غنائم يريد الإعداء تقسيمها فهل مع هذه المطامع الكثيرة يتأتى أن هذه الايالات تكون بمعزل عن التعصب المذكور ولكن كان غورطز يتفاوض وقتئذ مع هؤلاء الامراء الذين كان لهم مصلحة فى اقتسام تلك الايالات فكان يشتغل ليله ونهاره بالذهاب من اقليم الى آخر فطلب من حاكم دوقيتى بريمة ووردن أن يسلم هاتين الدوقيتين لمنتخب هانورة لا على سبيل التملك بل

يكون امرهما موقوفا حتى ينبت الرأى فى شأنهما بشئ منعا للدانيمرقة عن الاستيلاء عليهما وسعى جهده حتى نال من ملك البروسيا أنه بالاتحاد مع هولستين يلتزم بجعل كل من استاتين وويسمار موقوفا ايضا ويكون ذلك واسطة فى كون ملك دانيمرقة يترك دوقية هولستين فى السلم والراحة ولا يدخل توننج ولا ريب أن خدمته لكرلوس الثانى عشر على هذا الوجه من اغرب الخدم حيث سعى فى تسليم بلاده المذكورة لاناس كان فى وسعهم ابقاؤها لانفسهم على سبيل التأبيد غير أنه لما سلم لهم تلك المدن بمثابة رهينة جبرهم على أن يكونوا بمعزل عن التعصب ولو مدة من الزمان بل كان يؤمل أنه بعد ذلك يحمل هانورة وبرندبورغ على الانضمام الى حزب الاسوج وحمل ملك له على موافقته على تلك الاغراض حيث ان الحالة لتخربها كانت الى الصلح احوج وبالجملة فقد كان هذا البارون يود أن يكون عند سائر الملوك من اللوازم الضرورية التى لا يستغنى عنها فكان مثله مع كرلوس الثانى عشر من حيث تصرفه فى املاكه كمثل وصى يتصرف فى جزء من مال القاصر ليحفظ بذلك الجزء الآخر من التلف وقاصر لا يقدر على مباشرة مصالحه بنفسه وكل ذلك كان منه بدون توكيل ولا كفالة يعتمد عليها الا ما حصل من اسقف لوبيك من التفويض له تفويضا كليا على أن هذا الاسقف ايضا كان فضوليا حيث لم يأذن له كرلوس فى شئ من ذلك

فهكذا كان حال غورطز الذى كان الى ذلك الوقت لا تعرف حقيقة امره حق المعرفة فانه لم يكن الا من ارباب مجلس اسقف لوبيك الخصوصى ومع ذلك فعل بدون اذن ولا ترخيص ما فعله كبار وزراء الدول العظيمة مثل أوغزانستيرن (اعظم وزراء غسطاوه ادلف ملك اسوج) وريشليو (وزير لويز الثالث عشر ملك فرانسا) وألبرونى (وزير ملك اسبانيا) الذين اوقعوا التغير والتقلب فى جزء من اوروبا ومثل ذلك يعد من الغرائب التى لم يسمع بمثلها

(شهر يونية) وقد نجح غورطز ابتداء فى مساعيه حيث عقد مع ملك

البروسيا مشارطة مضمونها أن هذا الملك يلتزم بحفظ مابقى من اقليم بوميرانيا لكرلوس الثانى عشر مادامت مدينة استاتين موقوفة تحت يده وبمقتضى هذا الشرط عرض غورطز على حاكم بوميرانيا (ميرفلد) أن يسلم الملك البروسيا مدينة استاتين لمافى ذلك من منفعة الصلح ظانا أن هذا الحاكم الاسوجى كحاكم تونينج الهولستينى فى السهولة وعدم التوقف ومادرى أن ضباط كرلوس الثانى عشر لم يتعودوا على قبول مثل هذه الاوامر فقد اجابه ميرفلد بانه لاسبيل الى دخول استاتين الااذاقتل وتخربت تلك المدينة وكتب الى كرلوس يخبره بهذا الامر الغريب فوجده الرسول اسيرافى مدينة دميرطاش بعد أن وقع له ماوقع بمدينة بندر وكان اذ ذاك لايدرى هل يبقى على الاسر عند الدولة العثمانية مدة حياته اوانها تنفيه الى بعض جزائر الارخبيل او آسيا فبعث وهو فى السجن الى ميرفلد بمثل مابعث به سابقا الى الجنرال دستانبولك حيث ذكرله أن الموت اولى من التسليم وامره أن يتأسى به فى الثبات وعدم اللين

فلما رأى غورطز أن حاكم استاتين قدافسد عليه ما دبره حيث لم يقبل شيأ فى شأن التباعد وعدم التعصب ولا فى شأن جعل هذه المدينة موقوفة تحت يد ملك البروسيا حتى يبت الامر فى شأنها بشئ عن له أن لايقتصر على جعل تلك المدينة وحدها بهذه المثابة بل يضم اليها فى ذلك مدينة استرالسوند فوجد فى هذا المعنى من الطرق والوسائل مايوصله الى أن يعقد مع ملك له الذى هو منتخب سكس فى شأن مدينة استرالسوند مشارطة تشاكل المشارطة التى عقدها مع منتخب برندبورغ فى شأن مدينة استاتين وكان يعرف حق المعرفة أن الاسوج لايمكنهم حفظ هذين المحلين بدون اموال ولارجال مادام ملكهم اسيرا عند الدولة العثمانية وكان يؤمل أنه بواسطة الوقف المذكور يبعد مصيبة الحرب عن بلاد الشمال بتمامها وقد انتهى الحال بالدانيمرقة أن رضوا بمشارطته واستمال اليه بالكلية الامير

منزيقوف جنرال الجار وخصيصه وبين له انه لا مانع من تسليم هولستين لسيده واستحسن منه الجار ما ابداه اليه من أن يحفر خليجا من هولستين الى بحر بلطق لكون هذا المشروع مما يلايم اغراض مثل هذا الملك المؤسس واعجبه منه ايضا زيادة عن الاول ما أفاده اياه من انه يكتسب شوكة جديدة اذا هو احب الانتظام فى سلك امراء دولة الالمان وحاز حق ابداء الرأى فى مشاور الدييتة التى تنعقد بمدينة راتسبونة وصار بحيث يمكنه تأييد هذا الحق ومحاماته بالسلاح

ولا يمكن لاى انسان كان أن يفوق على ذلك الرجل المتطوع بالسعى فى الصلح فى سلوك طرق الحيلة ولا فيما ابداه من الوسائل المتنوعة ولا فى ظهوره بمظهر التداخل كيف لا وهو بعد أن سعى فى خلاص مدينة استاتين عدل عن ذلك وسعى جهده حتى حمل منزيقوف على أن يخربها ويضرب عليها بالبمب ليجبر حاكمها ميرفلد على الاجابة الى وقفها وتعليقها على الوجه السابق فهو بهذا التدبير قد تجاسر على حط مقام ملك اسوج وهتك حرمته مع أنه كان يريد بذلك التحبب اليه وقد حصل أن وقع عنده بمنزلة عظيمة من المحبة فعاد عليه ذلك بالنحس والشقاء

فلما رأى ملك البروسيا أن جيشا من جيوش الموسقو يضرب بالبمب على مدينة استاتين خشى أن تضيع منه هذه المدينة ويأخذها الموسقو حسبما كان ينتظره غورطز وكان الامير منزيقوف اذ ذاك قد نفد ما معه من النقود فسعى غورطز فى حمل ملك البروسيا على أن يقرضه اربعمائة ألف ايكو حتى اقرضه اياها ثم سعى ايضا فى تبليغ حاكم استاتين ما معناه هل الاولى عندك انك ترى مدينة استاتين محترقة تحت حكم الموسقو او تسلمها الملك البروسيا الذى يردها الى سيدك فيما بعد فركن الى التسليم فدخلها منزيقوف ثم سلمها باسائر اراضيها للملك البروسيا فى نظير الاربعمائة الف ايكو التى اقرضه اياها فادخل فيها هذا الملك فرقتين من عساكر هولستين عملا فى الظاهر بالاصول والقوانين ولم يرد هذا الجزء

من پوميرانيا فيما بعد الى ملك اسوج اصلا

فهذا الملك الذى هو ثانى ملوك البروسيا وخليفة ملك ضعيف مبذر وضع فى ملكه من يومئذ أساس العظم والاعتبار الذى حازته مملكته فيما بعد بواسطة الضبط والربط والتربية العسكرية وكذلك بواسطة التدبير

ولم يمكن للبارون غوزطز مع ما ابداه من كثرة الحيل والطرق أن ينال من الدانيمرقة ترك دوقية هولستين ولا العدول عن السعى فى الاستيلاء على تونيج بل خاب سعيه فى هذا الغرض الذى كان بحسب الظاهر اول اغراضه واعظم مقاصده ولكنه نجح فيما عداه لاسيما فى صيرورته من الذوات المعتبرين ببلاد الشمال وكان ذلك هو غرضه الاصلى فى الواقع ونفس الامر

(شهر سبطمبر) ثم ان منتخب هانورة تحقق من حيازة دوقيتى بريمة ووردن اللتين سلبتا من كرلوس الثانى عشر ونزل السكسون أمام مدينة ويسمار التى هى احدى مدن ملك اسوج وكانت مدينة استاتين بين يدى ملك البروسيا وذهب الموسقو مع السكسون لمحاصرة استرالسوند وكان السكسون حينئذ فى جزيرة روجن ونزل الجار فى اثناء هذه المفاوضات الصلحية الكثيرة بفلندرة حين كان النزاع واقعا فى العزلة وعدم التعصب مع احد وفى القسمة وتعيين الانصباء (فى بلاد كرلوس) حيث انه بعد أن عين بنفسه محال المدافع تجاه استرالسوند وترك ماعدا ذلك لحلفائه وللامير منزيقوف نزل بحر بلطق فى شهر ماية راكبا سفينة من ذوات الخمسين مدفعا كان قدمذها بنفسه فى مدينة بتربورغ قاصدا فنلندة وأتبعها باثنين وتسعين غرابا ومائتين من انصاف الاغربة وجعل فى الجميع ستة عشر ألف مقاتل

(٢٢ من شهر ماية) وكان خروج هؤلاء العساكر فى مدينة ألسانفورد الواقعة فى الدرجة الحادية والستين على الجزء المتوغل فى الجنوب من هذه الولاية الباردة القطر الجدبة الارض

وقد نجحوا فى هذه الاغارة مع ماحصل لهم من المشقة والصعوبة حيث اظهروا الهجوم من جهة واغاروا من جهة اخرى بعد أن خرجوا الى البر واخذوا المدينة وتغلب الجار على مدينتى بورغو وآبو واستولى على جميع الساحل وظهر من وقتئذ أن الاسوج صاروا مجردين بالكلية عن الحول والقوة فان جيشهم الذى كان رئيسه دستانبولك كان قد اسر فى الحرب

وقد اعقب هذه المصائب التى حلت بكرلوس الثانى عشر ضياع دوقيتى بريمة ووردن ومدينة استاتين وجزء من بوميرانيا كما سبق بل كان استانسلاس وكرلوس نفسه اسيرين عند الدولة العثمانية ومع ذلك لم يزل يعلق آماله بأنه يرجع الى مملكته قائدا جيشا من الجيوش العثمانية ويعيد استانسلاس الى سرير هذه المملكة ويرهب جميع اعدائه

(الفصل الخامس)

فى نجاح بطرس الاكبر ورجوع كرلوس الثانى عشر الى ملكه

(سنة ١٧١٤ من الميلاد) كان بطرس لم يزل يشتغل بأمر الفتوحات فكمل اصلاح عماراته البحرية وتمم نظامها وجلب الى مدينة بتربورغ اثنتى عشرة الف عائلة لاجل الاستيطان بها وكان سالكا مع حلفائه مسلكا يحملهم على التشبث بما فيه سعده ومصلحته وايثاره ومحبته مع ما كانوا عليه من اختلاف الاغراض وتباين الآراء وكانت سفنه الحربية تهدد فى آن واحد جميع السواحل الاسوجية الواقعة على جونى فنلندة و بثنية

ثم ان احد جنرالات عساكر الموسقو البرية وهو الامير غالتزين الذى علمه بطرس بنفسه الحركات العسكرية كغيره من سائر الجنرالات ارتحل من ألسانفورد التى كان الجار قد خرج اليها من البحر وسار حتى وصل الى وسط الاراضى بقرب البلدة المسماة نواستوس وهى مركز عسكرى يصلح لمحاماة بثنية وكان يحامى هذا الاقليم بعض الايات اسوجية وثمانية آلاف

من

من عساكر الاسوج الغير المنتظمة فاقتضى الحال المحاربة بين الفريقين فانتصر الموسقو نصرة تامة وبددوا شمل الجيش الاسوجى (فى الثالث عشر من شهر مارث) وتوغلوا فى هذه البلاد حتى وصلوا الى مدينة وازا بحيث صاروا مستولين من هذا الاقليم على مسافة ثمانين فرسخا

وبقى للاسوج جيش من البحرية كانوا يدافعون به عن البحر وكان بطرس منذ مدة مديدة يطمع فى اشهار الدونما التى انشأها وكان قبل خروجه من مدينة بترپورغ قد جمع دونما تشتمل على ستة عشر قبقا ومائتى وثمانين غرابا تصلح للحرب فى وسط الصخور المحيطة بجزيرة ألند وغيرها من جزائر بحر بلطق القريبة من ساحل اسوج الذى صادف بطرس بالقرب منه الدونما الاسوجية وكانت هذه الدونما تشتمل على سفن كبيرة اكثر مما فى الدونما الموسقوية بخلاف الاغربة فكانت فيها اقل من اغربة بطرس فبذلك كانت صلاحيتها للحرب فى وسط البحر اكثر من صلاحيتها للحرب فى وسط الصخور فالفضل لقريحة الجار خاصة فى هذه المزية التى امتازت بها السفن الموسقوية وكان الجار يخدم فى الدونما بوظيفة قبودان باشى ثالث ويتلقى الاوامر من ابركسين قبودان باشى وكان يريد الاستيلاء على جزيرة ألند ولم يكن بينها وبين مملكة اسوج الا اثنا عشر فرسخا وكان الحال يقتضى أن الموسقو يمرون على الدونما الاسوجية فتجاسروا على هذا الامر الخطر وفتحت الاغربة الموسقوية لها طريقا فى البحر تحت مدافع الاسوج التى لم تكن قليلة الارتفاع بحيث تتمكن من اصابة تلك الاغربة فدخل الموسقو جزيرة ألند ولما كان معظم ساحلها مشحونا بالصخور امر الجار العساكر أن ينقلوا بأيديهم ثمانين غرابا صغيرا من لسان من الارض هناك الى البحر المسمى بحر هنغو وكانت فيه سفنه الكبيرة فظن حينئذ قبودان باشى الثانى من الاسوج أنه يسهل عليه اخذ هذه الاغربة واغراقها عن آخرها فتقدم نحوها ليعاينها فقابلته برمى نار شديدة اهلكت معظم من معه من العساكر والملاحين (فى ٨

من شهر اغسطوس) واخذ الموسقو ما كان معه من الاغربة والسفن الصغيرة التى اتى بها بل والسفينة التى كان راكبها وفر منهم فى زورق لكن جرحوه فيه ثم اضطر الى التسليم فأتوا به الى الغراب الذى كان فيه الجار وما بقى من الدونما الاسوجية فر الى بلاد اسوج فلحق اهل استخلم من ذلك دهشة ورعب شديد وصاروا لا يأمنون فيها على انفسهم

وفى هذا الوقت بعينه ظهر الكولونيل (ميرالاى) سشووالوب نسلوف على القلعة التى لم يبق على الموسقو سواها من بلاد الاسوج وهى واقعة على السواحل الغربية من فنلندة وادخلها تحت حكم الجار مع ما ابدته من المقاومة الشديدة

وواقعة ألند هذه هى بعد واقعة بلطاوا الخر ما حصل من بطرس مدة حياته من الوقائع فانه بها صار مستوليا على فنلندة التى قلد بحكومتها الامير غالتزين وظافرا بجميع قوى الاسوج البحرية ومحترما كل الاحترام عند محالفيه وعاد بعدها (فى الخامس عشر من شهر سبطمبر) الى مدينة بتربورغ حين تغير الفصل حتى صار لا تسعه الاقامة على بحار اقليمى فنلندة وبثنيه ولتمام سعده ووفور حظه وضعت الجارة حين رجوعه الى كرسى مملكته الجديدة (يعنى مدينة بتربورغ) بنتا لم تعش الا سنة واحدة فأحدث من الرتب التشريفية رتبة مارى كاترينة تعظيما لزوجته واشهر ميلاد بنته المذكورة بموكب حافل دخل به المدينة وهذا الموسم كان عند الرعية اعز المواسم التى عودهم عليها وكان اول ما بدئ به الموسم المذكور هو أنهم احضروا فى مينا كرونسلوت تسع سفن من الاغربة وسبعا من السفن الصغيرة المسماة چلوكة مشحونة بالاسرى واحضروا فيها ايضا سفينة قبودان باشى ثانى المسمى ايرانشيلد

وكانت سفينة قبودان باشى الموسقوبى مشحونة بجميع المدافع والبيارق والصناجق التى غنموها فى غزوة فنلندة واحضروا هذا السلب بتمامه الى مدينة بتربورغ ودخلوها على هيئة اصطفافهم فى الحرب وكان بها

من

من قوصرات النصر قوصرة كان الجار قد رسمها بنفسه على عادته من مباشرة مثل هذه الاشياء وهى مزخرفة بعلامات ورموز دالة على جميع نصراته فمر المنصورون اولا من تحتها يقدمهم ابركسين قبودان باشى ثم الجار بوصف كونه قبودان باشى ثالث ثم سائر الضباط كل على حسب رتبته حتى انتهوا الى نائب الجار المسمى كومادونسكى وكان فى هذا الموسم بمنزلة صاحب الدولة ففرق على الضباط نقودا من نقود الذهب المسكوكة للتشريف وعلى العساكر والملاحين نقودا اخرى من هذا النوع لكنها من الفضة ثم تبعهم اسرى الاسوج فمروا ايضا من تحت القوصرة المذكورة وكان القبودان باشى الاسوجى المسمى ايرانشيلد يسير خلف الجار ولما انتهى الموكب الى سرير الملك الذى كان جالسا عليه نائب الجار قدم اليه ابركسين القبودان باشى الثالث اعنى بطرس وكان يطلب الترقية الى رتبة قبودان باشى ثانى مكافأة له على ما ابداه من الخدم فوقعت المذاكرة فى هذه المادة ليكون الحكم فيها بموجب الآراء وبحسب الظن القوى أن الاراء كلها ساعدته على ذلك

وبعد انقضاء هذا الموسم الذى سر به جميع الحاضرين واورث عموم الناس الغيرة وحب الوطن والرغبة فى الفخار خطب الجار بهذه الخطبة الجديرة بالتخليد الى الابد وهى

ايها الاخوان * ومعاشر الخلان * هل خطر لاحد منكم بباله * ووقع فى وهمه وخياله * منذ عشرين من الاعوام * خلت فى سالف الايام * أنه سيقاتل معى فى بحر بلطق * ويبدد شمل العدو ويمزق * على سفن جددتموها * وبأيديكم مددتموها * وهل كنتم تتوهمون الاقامة والاستقرار * فيما افتتحناه بالتعب والشجاعة من هذه الاقطار * ومن المعلوم لكل انسان * أن أقدم موطن للعلوم هو بلاد اليونان * ثم انتقلت الى البلاد الايطالية * ومنها انتشرت فى سائر الاقسام الاوربية * والنوبة الآن تكون للديار الموسقوبية * وتحظى بلادنا بتلك الامنية * اذا ساعدتمونى على تحصيل ما اراه من الاغراض * ولم تقابلوا ذلك

بالاشمئزاز والاعراض * وسارعتم الى الاعانة بقدر الاستطاعة * وجمعتم فيها بين الممارسة والطاعة * كيف وانتشار العلوم فى البلاد * كسريان الدماء فى الاجساد * فلا مانع أن دولتها تتخذ بلادنا دارا * وتجعل لسرير سلطنتها عندنا تمكنا واستقرارا * لتتحف موطنها الاول بالاوبة * حيث طالت منها على بلاد اليونان الغيبة * وانى لاجسر على الرجاء ولا ابالى * واعلق اطماعى واما لى * انا بكثرة اشغالنا * وتمكن نخارنا * نجعل فى يوم من الايام * اعظم الملل تمدنا بين الانام * انتهت

فهذه الكلمات المختصرة هى مآل الخطبة الجديرة بمثل هذا المؤسس من غير اخلال بشئ منها وقد ضاعت حماستها فى كل لغة ترجمت اليها الا أن تلك الخطبة الفصيحة تستحق مزيد الاعتبار بنسبتها الى هذا الملك المنصور الذى أسس دولته وقنن قوانينها واحكم احكامها

ثم ان من سمع هذه الخطبة من اعيان شيوخ الموسقو كان تأسفهم على عوايدهم القديمة اشد من تعجبهم من نخار ملكهم بخلاف شبانهم فانهم اخذتهم لسماعها اريحية ورقة افضت بهم الى البكاء

ومما اشتهرت به تلك الازمان ايضا قدوم السفراء الموسقوبية من الاستانة العلية ومعهم التصديق والقرار على الصلح المنعقد بين الموسقو والدولة العلية (فى ١٥ من شهر دقبر) وكان قد قدم قبلهم بمدة سفير عجمى من طرف الشاه حسين بعثه الى الچار بهدية وهى فيل وخمسة سباع وقدم اليه ايضا فى هذه المدة ارسالية من خان الاوزبك محمد بهادر بطلب منه الحماية من التتار الآخرين وكان كل الناس من اقصى بلاد آسيا واوروبا يحترمونه الاحترام اللائق بفخاره * ثم ان مشورة النيابة بمدينة استكهلم لما ايست بسبب ما حل بمصالحها من الاختلال وسوء الحال وبعد ملكها عنها وعدم اعتنائه بشأن مملكته واشتغاله بمصلحته صممت على انها من الآن فصاعدا لا تشاوره فى شئ فبادرت عقب نصرة الچار البحرية بطلب تذكرة مرور لضابط من ضباطها ناطقة بالمفاوضة فى شأن الصلح فاجيبت

لمطلوبها

لمطلوبها وارسلت الى دولة الموسقو التذكرة الا انه فى اثناء هذه المدة بلغ الاميرة اوليريك البونوره اخت كرلوس الثانى عشر أن اخاها قد اخذ فى اسباب الارتحال من بلاد الدولة العثمانية والعود الى بلاده ليذب عن نفسه فلم يتجاسر مجلس النيابة حينئذ على ارسال الضابط المذكور الذى عينوه سرا للمفاوضة مع الجار فى شأن الصلح بل صبروا على مكابدة المشاق وسوء الحظ حتى يأتى ملكهم ليتدارك بنفسه ماهم فيه من العناء والشقاء

وكان خروج كرلوس الثانى عشر من بلاد الدولة العثمانية فى اواخر شهر اوقطوبر سنة ١٧١٤ من الميلاد بعد أن اقام بها خمس سنين وعدة اشهر ولا يخفى انه فى هذه السفرة سلك من المسالك الغريبة ما ينبىء عن افعاله ويشعر باطواره واحواله فوصل الى مدينة استرالسوند فى الثانى والعشرين من شهر نومبر من السنة المذكورة وبمجرد قدومه اليها ذهب اليه البارون دوغورطز وكان هذا البارون سببا فى بعض ماحل بكرلوس من الشقاء وسوء الحظ لكنه برأ نفسه من ذلك بما ابداه لديه من طرق المكر والخديعة حتى علق نفسه بآمال عالية واماني واسعة وحظى منه بالوثوق والائتمان كما حظى بذلك من جميع الوزراء والملوك الذين خالطهم وتفاوض معهم ومازال معه حتى اطمعه فى انفصال حلفاء الجار عنه وعدولهم عن معاهدته وأنه بعد ذلك يمكن عقد الصلح مع الموسقو على وجه لا يخل بشرفه ولا يبخس بمقامه والا فلا اقل من الحرب معهم بقوة تعادل قوتهم فمن يومئذ صار لغورطز على عقل كرلوس سلطنة لم ينلها قبله القونت پيپر (وهو الوزير الاعظم لكرلوس الثانى عشر)

وكان اول شئ فعله كرلوس عقب دخوله مدينة استرالسوند هو أنه طلب من اهل مدينة استخلم مبلغا من الاموال فدفعوا ما كان باقيا بأيديهم من النقود اليسيرة حيث كانوا لا يعرفون الامتناع عن اجابة ملك لا يطلب شيأ الا للبذل والاعطاء ولا يسلك فى معيشته الا المسالك الشاقة كآحاد العساكر ويعرض مهجته للاخطار مثلهم فكانت مصائبه واسره ورجوعه الى

ملكه كل ذلك كان له تأثير فى نفوس رعيته بل وفى نفوس الاجانب حيث كانت
احواله تقضى بلامته ومدحه والرثاله ومساعدته وكان نخاره مباينا بالكلية
لفخار بطرس فانه لم ينسج فى ذلك على منواله حيث لم يجعل نخاره فى ابداع
الفنون ولا فى تقنين القوانين ولا فى السياسة ولا فى التجارة بل كان مقصورا
على ذاته بحيث ينعدم بانعدامها فان فضله لم يكن الا فى فرط الشجاعة المتجاوزة
الحد وكان يدافع عن بلاده مع شرف النفس وعلو الهمة المعادلين لشدة
بأسه ومثل هذا كاف فى عظم وقعه فى قلوب الملل واحترامهم له وكانت احزابه
اكثر من حلفائه

(الفصل السادس)

فى بيان حالة اوروبا حين رجع كرلوس الثانى عشر الى بلاده وفى ذكر
محاصرة استرالسوند وغير ذلك

(سنة ١٧١٤ من الميلاد) لما عاد كرلوس الثانى عشر الى بلاده
فى اواخر تلك السنة وجد الدول النصرانية من اوروبا قد تغيرت احوالها
وصارت فى حالة مباينة للحالة التى تركها عليها فوجد خانة ملكة
انكلترة قد ماتت بعد أن عقدت الصلح مع دولة فرانسا ووجد لويز
الرابع عشر (ملك فرانسا) قد أثبت اسبانيا لحفيده وجبر كرلوس
السادس ايمبراطور الالمان وكذلك الفلمنك على التصديق ووضع
الامضاء على صلح كان قد اقتضاه الحال اذذاك فكانت حينئذ مصالح
جنوب اوروبا قد اخذت فى التغير الى حالة اخرى

وكانت مصالح بلاد الشمال قد تغيرت ايضا اكثر من ذلك فان بطرس صار
حكما فيها وكان منتخب هانورة الذى دعى للجلوس على سرير مملكة انكلترة
يريد توسيع بلاده الالمانية بأخذ اراض من اراضى دولة اسوج التى
لم تحز من التزامات الالمان الا ما حازته بفتوحات غسطاوة الاكبر وكان
ملك دانيمرقة يريد استرجاع اقليم اسكانيا الذى هو اعظم الاقاليم
الاسوجية لانه كان للدانيمرقة فى سابق الزمان وكان ملك البروسيا

الذى

الذى هو وارث دوقات پوميرانيا يويد ايضا استرجاع هذا الاقليم كله او بعضه * ومن جهة اخرى كانت عائلة هولستين التى حاف عليها ملك دانيمرقة وكذلك دوق مكلانبورغ الذى كان غالبا فى فتنة وحرب مع رعيته كلاهما كان يطلب الحماية من بطرس الاول وكان ملك له الذى هو منتخب سكس يود ضم اقليم كورلندة الى بلاد له فبذلك كان بطرس ظهيرا للامراء من نهر الالبه الى بحر بلطق كما كان كرلوس مفزعا لهم

وقد وقعت المفاوضات والمذاكرات فى المصالح منذ رجع كرلوس الى ملكه بدون أن يترتب على ذلك ثمرة وكان كرلوس يظن انه يمكنه أن يحصل من السفن الحربية والقورصان مقدارا كافيا بحيث لا يخشى معه قوة الجار البحرية الجديدة واما الحروب البرية فكان يعتمد فيها على شجاعته وقد اوقع فى ذهنه غورطز الذى صار اول وزرائه دفعة واحدة أنه يمكنه القيام بالمصاريف اللازمة بواسطة نقود من النحاس تساوى قيمتها الاصلية ستا وتسعين مرة وهذا من اعاجيب تاريخ الدول * ولكن من شهر ابريل سنة ١٧١٥ من الميلاد اخذت سفن الجار اوائل القورصان الاسوجى الذى نزل فى البحر وتوجه الى پوميرانيا جيش من الجيوش الموسقوبية

واجتمع البروسية والدانيمرقة والسكسون تجاه مدينة استرالسوند فرأى كرلوس انه لم يرجع من سجن دميرطاش ودميرطوقة الواقعة جهة البحر الاسود الا ليحاصره العدو على شاطئ بحر بلطق

وقد تكلمنا فى تاريخه على ما قابل به اعداءه المجتمعين فى هذه المدينة من اظهار الجبروت واستبسال النفس مع فرط الشجاعة وثبات الجنان وانما نذكر هنا من احواله نادرة صغيرة تدل اتم الدلالة على طبيعته فنقول انه بعد أن قتل وجرح اغلب ضباطه فى هذه المحاصرة كان الكولونيل (ميرالاى) بارون دربشيل قد اعياه السهر والتعب لطول المحاربة فاستلقى على دكة

هنالك ليستريح ساعة من الزمن فدعى للخفر على المتاريس فلم يبادر بالاجابة
بل توانى وصار يسخط على عناد الملك وكثرة التعب الخارج عن حد الطاقة
بدون ثمرة فسمعه كرلوس فانطلق اليه وخلع برنسه وفرشه بين يديه وقال له
ياحبيبي ياريشيل انك قد صرت لا طاقة لك على التعب وانى نمت ساعة
فاسترحت فنم انت هنا وانا اذهب الى الخفر عوضا عنك فاذا جاء وقت الاستيقاظ
ايقظتك ثم لفه بالبرنس قهرا عنه وتركه ينام وذهب الى الخفر
(شهر اوقطوبر) وفى محاصرة مدينة استرالسوند هذه اشترى ملك انكلترة
الجديد الذى هو جرجى منتخب هانورة من ملك دانيمرقة اقليمى بريمة
ووردن ومدينة استادة التى كان اخذها الدانيمرقة من كرلوس
الثانى عشر فلزمه بعقد البيع المذكور أن يدفع ثمانمائة ألف ايكو ألمانية
فكانت دول كرلوس تباع وتشرى وهو يمانع بالتدريج عن مدينة
استرالسوند وبالجملة فلم يزل كرلوس بهذه المدينة حتى تخربت وصارت
تلا من التلال فعند ذلك جبره ضباطه على الخروج منها فلما امن على نفسه
(فى شهر دقمبر) رد احد جنرالاته المسمى دوكر تلك المدينة الخربة
الى ملك البروسيا
ثم قدم الجنرال المذكور بعد ذلك بمدة الى كرلوس الثانى عشر فلامه على
كونه تشارط مع اعدائه وسلمهم تلك المدينة فقال معتذرا ان فرط محبتى
لفخارك منعنى أن ارتكب ما يوجب نقصا فى حقك بالمكث فى مدينة خرجت منها
حضرتكم الملوكية وبالجملة فهذه المدينة لم تمكث مع البروسية الا الى سنة
١٧٢١ من الميلاد ثم ردوها فى صلح بلاد الشمال
(سنة ١٧١٥ من الميلاد) وفى مدة محاصرة استرالسوند ايضا حصل لكرلوس
الثانى عشر من الاهانة ما كان يغمه ويحزنه حزنا شديدا لو كان انبعاث قلبه الى
الحب والشفقة كانبعاثه الى التشبث بالفخار والشهرة وذلك أن اول وزرائه وهو
القونتة بيبير الذى كان شهيرا فى بلاد اوروبا وكان مع ملكه دائما على
الصدق والامانة (وان تكلم فيه كثير من المؤلفين غير المتثبتين نقلا عمن لم يقف

على

على حقيقة امره) وكان يبذل مهجته فى مصلحة كرلوس الثانى عشر
منذ واقعة بلطاوا فلما اسره الموسقو ولم يحصل اتفاق بينهم وبين
الاسوج على مبادلة الاسرى بقى على الاسر بمدينة موسقو فهو وان لم ينف
الى بلاد سبير ككثير من الاسارى الا انه كان يرثى لحاله ولم تكن خزائن
الجار اذ ذاك على ما ينبغى فى الانتظام وحسن الترتيب فكانت لا تفى بما يلزم
من المصاريف لمصالحه الجديدة الاشق الانفس وكان عليه للفلمنك دين
جسيم من النقود فى مقابلة سفينتين من سفنهم التجارية احرقتا على سواحل
فنلندة فادعى الجار أن هذا المبلغ يلزم الاسوج واراد أن يلزم
القونتة بيبر بالتزام تحصيله فاحضر من مدينة موسقو الى مدينة
بترپورغ ووعد أنه ان امكنه تحرير ورقة حوالة على مملكة اسوج بستين
الف ايكو خلى سبيله * ويقابل انه فى الواقع ونفس الامر كتب بذلك
الى زوجته فى مدينة استخلم فلم تقم بالاداء لتعذره عليها ولكونها لم تسمح به
نفسها واما ملك اسوج فلم تدعه نفسه الى دفع هذا المبلغ اصلا * وبالجملة
فسجن القونتة بيبر فى قلعة سلوسبرغ ولم يزل بها حتى مات بعد ذلك
بسنة عن سبعين سنة ونقلت جثته الى ملك أسوج فشيعه فى مشهد عظيم
وجنازة حافلة فانظر كيف قابل بهذا الجزاء المحزن الذى لا طائل تحته ما كابده
هذا القونتة من المصائب والميتة السيئة

وكان بطرس منشرح الصدر مسرور الخاطر باستيلائه على اقاليم
ليونيا واستونيا وكارليا وأنغريا التى كان يعدها من اقاليم ملكه
وكذلك بضمه الى تلك الاقاليم اغلب اقليم فنلندة وكان ذلك تحت يده
بمثابة رهن يستوثق به فى صورة ما اذا وقع الصلح وكان قد زوج بنت اخيه
لدوق مكلانبورغ المسمى كرلوس ليوپلد فى شهر ابريل من السنة
المذكورة فكانت جميع اقاليم الشمال بالنسبة اليه اما من حلفائه او من
اشرافه وغرس انعامانه * وكان لم يزل يقمع اعداء الملك اغسطوس
بمملكته له فقد كان فى هذه المملكة جيش من جيوشه يبلغ نحو ثمانية آلاف

فكان يفرق فيها عصبة المتعاهدين ويبدد شمل المتعصبين الذين كانوا دائما يتجددون فى هذه البقعة المتسلطن فيها الحرية وعدم الحكم ولم يحتج هؤلاء العساكر فى تفريقهم الى بذل مجهود ولا مكابدة مشقة * واما الدولة العثمانية فكانت لم تزل محافظة على العمل بما انعقد بينها وبين بطرس من المشارطة فلم يكن من جهتها ما يضيق عليه فى شوكته او اغراضه

واغلب ايام هذه المدة الزاهية الزاهرة والحالة السعيدة الفاخرة كان معروفا بتنظيمات جديدة بحرية وترتيبات عسكرية وتجارية وقوانين سياسية واصول مربوطة مرعية وألف بنفسه قانوننامه عسكرية يخص البيادة

ففى الثامن من شهر نومبر اسس بمدينة بتربورغ اكدمة بحرية اى مجمع علماء بحرية وكان لنج المنوط بالمصالح التجارية قد سافر الى بلاد الصين من طريق سبير وكان فى مملكته مهندسون يرسمون الخرطات فى سائر اجزاء الدولة وكانت العمارة اذ ذاك فى بيت نزهة بترسوف وفى قلاع على نهر ارطش وكان يمنع ما كان يقع فى بلاده من اهل بخارى من الصيال وقطع الطرق وكان ايضا تتاركوبان قد ارتدعوا منه وانزجروا

وكان يظهر فى هذا الوقت أن الچار قد بلغ فى السعد والعز اقصى الدرجات فانه رزق فى هذه السنة بولد من زوجته الچارة كاترينة وبولد آخر كان يظهر انه يرث الملك فيما بعد ولدا لابنه الامير ألكسيس غير أن ابن الچارة لم يعش بعد ولادته الا يسيرا وسيأتى أن ألكسيس المذكور كان على غاية من الشقاء فربما كان ذلك مانعا من أن ولادة هذا المولود له تعد من السعادة والاقبال

ثم ان ولادة الچارة منعتها أن تصحب زوجها فى السفر برا او بحرا كما كان ذلك عادتها دائما فلما انقطع عنها النفاس صارت تصحبه فى اسفاره كالعادة

* (الفصل السابع) *

فى اخذ مدينة ويسمار وفى اسفار الچار الجديدة

(سنة ١٧١٥ من الميلاد) كان جميع حلفاء الچار فى ذلك الوقت محاصرين لهذه المدينة التى كان يلزم ضرورة أن تكون تحت حكومة دوق مكلانبورغ وهى واقعة على بحر بلطق على البعد من مدينة لوبك اولوبغ بسبعة فراسخ ور بما كانت تنافس هذه المدينة فى تجارتها العظيمة وكانت سابقا من المدن العظيمة المستقلة بحكومة نفسها وكان دوقات مكلانبورغ يجرون فيها حق الحماية اكثر من حق الحكم وكانت ايضا من التزامات ألمانيا التى كانت تحت يد الاسوج بمقتضى صلح وستفاليا ثم آل امرها الى التسليم كمدينة استرالسوند فبادر حلفاء الچار بالاستيلاء عليها قبل أن يصل اليها جنوده ولكنه لما قدم اليها بنفسه ونزل أمامها (فى شهر فبرية سنة ١٧١٦ من الميلاد) بعد مشارطة التسليم التى انعقدت قبل حضوره قبض على محافظيها واسرهم وغضب من حلفائه لما رآهم قد تركوا للملك دانيمرقة هذه المدينة التى تعزى لاميركان قد اعطاه بنت اخيه فكان هذا الغضب الذى بادر فيه غورطز بانتهاز الفرصة اول شئ من اسباب الصلح الذى قصد ايقاعه بين الچار وكرلوس الثانى عشر

وذلك أن غورطز افاد الچار بمجرد حصول هذا الغضب أن الاسوج قد انحطت دولتهم وضعفت شوكتهم فلا ينبغى السعى اذن فى تقوية الدانيمرقة والبروسيا فاجابه الى ذلك واقره على مقاصده فانه كان لا يقدم قط على حرب الا وله فيه مأرب سياسى وغرض بوليتيقى بخلاف كرلوس الثانى عشر فانه كان فى الاقدام حربيا لا سياسيا ومن وقتئذ لم يحارب الچار الاسوج الامع التأنى وعدم الحمية واما كرلوس فانه لما كان سيئ الحظ بسائر اجزاء الايمپراطورية الالمانية عزم على حرب نرويج وكانت هذه العزيمة من الامور الميؤسة التى لا يحققها الا النجاح بالفعل

ومع ذلك عزم الچار على أن يرتحل ثانيا الى بلاد اوروبا فان رحلته الاولى اليها كانت رحلة متعلم للفنون بخلاف الثانية فكانت رحلة ملك يبحث عن اسرار جميع الدواوين ليعرفها حق المعرفة فاستصحب زوجته الى

مدينة كوبنهاغ ومنها الى لوبك ثم الى سشورن ثم الى نوستاد وقابل ملك البروسيا فى مدينة أوبرسبرغ الصغيرة ثم قصد مدينة هنبورغ ومنها الى مدينة ألتنا التى كان احرقها الاسوج ثم بعد ذلك ركب نهر ألبه حتى وصل الى مدينة استادة ثم مر بمدينة بريمة وعمل له حاكمها الشنلك والمهرجان وصنع له فى سائر جهاتها وقدة مرسومة على وجه ينطق بهذه الكلمات وهى قد حضر منجينا لزيارتنا وكان ذلك فى السابع عشر من شهر دقبر ثم ذهب الى امستردام ورأى الخص الصغير بقرية سردام التى تعلم فيها فن عمارة السفن منذ ثمانى عشرة سنة تقريبا فاذا هو قد تغير عن حالته الاصلية الى دار ظريفة حسينة المنظر جيدة الانتظام وهى باقية الى الآن ويقال لها دار الامير

وقد حصل لبطرس من اهل هذه الجهة الذين هم ما بين تجار وبحرية وكان فى مبدأ امره رفيقهم فى الشغل والتعلم ما تقصر عنه العبارة من الترحيب وحسن الملاقاة وفرط المسرة لما انهم كانوا يرون أن هذا الملك الذى انتصر فى واقعة بلطاوا خريجهم وتلميذهم وأنه هو الذى اسس عندهم فى البحرية والتجارة وتعلم عندهم كيفية اكتساب الظفر فى الوقائع البحرية وكان عندهم بمنزلة انسان من اهل وطنهم ارتقى الى منصب الايمبراطورية

(سنة ١٧١٧ من الميلاد) والظاهر ان معيشة بطرس الاكبر وكرلوس الثانى عشر واسفارهما وافعالهما بينها وبين عوايد اهل هذا العصر من الفرنساويين بون بعيد وفرق كبير لان هذه العوايد ربما كانت زائدة فى الترفه والتنعم فلذا كان تاريخ هذين الرجلين الشهيرين مما يثير الرغبات ويضرم نار التولع فى نفوس المخلوقات

فقد مرضت زوجة الجبار فى مدينة سشورن ومكثت فيها مدة وهى مريضة وكانت قد قاربت الوضع ومع ذلك فبمجرد ما نقهت من مرضها وصار فى وسعها السفر ارادت أن تذهب الى الجبار فى بلاد الفلمنك فعاودها المرض فى مدينة وزل فوضعت (فى ١٤ من شهر ينويه) ولدا لم يعش

الا يوما

الايوما واحدا ثم سافرت الى زوجها مع انك لاتجد فى عوايد الفرنساوية مرأة مريضة تسافر عقب الولادة وكان وصول الجارة الى امستردام فى عاشر يوم من سفرها ورأت الخص الذى سبق ذكره بمدينة سردام التى كان الجار سابقا يشتغل فيها بنفسه ثم ذهبا جميعا بدون احتفال ولا أتباع سوى خادمين ليتغديا عند بعض تجارى السفن المسمى كالف وكان من اغنياء تجارى هذه المدينة وهو اول من تاجر الى مدينة بترپورغ وكان له ولد قريب عهد بالرجوع من فرانسا التى كان الجار يريد السفر اليها فصار يحدثهما عما وقع له فى تلك المملكة وهما مصغيان الى هذا الحديث السار لهما وقد كانا فى غنية عن ايراد ذلك هنا لولا مباينته بالكلية لاخلاق الفرنساوية وعوايدهم .

وحاصله أن ابن هذا التاجر كان قد ارسله والده الى باريس ليتعلم بها اللغة الفرنساوية وكان والده يريد أنه يسلك فى معيشته فيها مسلكا جيدا فأمر أن يتجرد هذا الشاب عن ملابس سردام الساذجية الخالية عن الزينة وأن تكون مصاريفه فى باريس ملايمة لثروته ولائقة بتعليمه وتربيته لانه كان يعرف طبيعة ابنه حق المعرفة بحيث كان لايخطر بباله أن تغيير معيشته بهذه المثابة يذهب بقناعته و يفسد حسن طبيعته

ثم ان كلمة كالف فى جميع لغات اهل الشمال معناها عجل وتسميه الفرنساوية وو فلما ذهب الشاب المذكور الى باريس سمى نفسه دى وو (اى صاحب هذا الاسم وهو قريب مما عند اذواء اليمن اى ملوكهم التبابعة حيث يزاد للملك فى علمه ذو تعظيما كذى يزن اى صاحب هذا الاسم) ومكث هذا الشاب فى مدينة باريس فيها مع نوع عظمة وأبهة وتداخل مع اهلها وخالطهم ثم أن هذه المدينة ليس فيها اكثر من اعطاء القاب التشريف كلقب مركى و قونتة لمن لايستحق ذلك ولو بارض السترامية يحوزها بل قل أن يكون الملقب به بيكزادة والدولة لم تلتفت الى هذه العادة الذميمة قصدا للاشتراك فى رتب الشرف واضعاف عصابة الاشراف حتى تنقطع اسباب الحروب الاهلية والمشاجرات المدنية التى كانت قبل ذلك لاتكاد تنقطع فمن ثم تشرف اناس

يلقب هوابو يسان سنيور ومعناه السيد الرفيع القدر صاحب الشوكة مع انهم ما بين دخيل فى الاشراف وعامى وانما تلقبوا بذلك لكونهم اشتروا المناصب بمبالغ جسيمة من الاموال و بالجملة فالقاب مركى بدون مركية (اى ارض يحكمها صاحب هذا اللقب) و قونتة بدون قونتية وشوالية بدون رتبة والابى (اى رئس الرهبان) بدون دير كلها ليست مبنية على مجد اصلى ولا شرف ذاتى

فمن ذلك أن اصحاب كلف وخدمه كانوا ينادونه دائما بالقونتة دى وو وكان يدعى للاكل على موائد الاميرات واللعب مع دوقيجه دبيرى وقل أن حظى بهذا الاكرام اجنبى مثله وقد وعده بعض من كان يلازمه فى هذه الحظوظ والملاهى من اولاد الامراء الملقبين بلقب مركى أن يزوره فى سردام ووفى بوعده فانه لما قدم الى هذه القرية سأل عن بيت القونتة دى كلف فاذا هو مصنع من مصانع السفن فيه جماعة ممن يعمر المراكب ورآى صاحبه كلف لابسا ملابس ملاحى الفلمنك والبلطة بيده وهو يناظر اشغال ابيه ويديرها فما كان منه الا انه تلقى ضيفه وهو على هذه السداجة الاصلية والحالة القديمة الاولية فلعل من اطلع على كتابنا هذا من اولى الالباب يغضى عما اوردناه هنا من يسير الاستطراد الذى الجأنا اليه ذم الاعجاب بالنفس ومدح من كانت اخلاقه بهذه المثابة

ثم ان الجار اقام ببلاد الفلمنك ثلاثة اشهر وفى مدة اقامته بها حصلت امور اهم من تاريخ كلف المذكور وذلك أن مدينة لهاية لم تزل منذ صلح نميغة ورسويك واوتريكت محافظة على شهرتها بكونها محلا لتدبير مصالح اوروبا وهذه المدينة الصغيرة والاولى أن تسمى قرية هى الطف بلاد الشمال لاسيما وقد كان يسكنها جميع وزراء الدول و يأتى اليها السياحون بقصد التعلم حتى كأنها مدرسة وكان يتجدد اذ ذاك امور يترتب عليها تفاقم وشقاق عظيم فى بلاد اوروبا ولعل الجار بمبادى هذه المصائب اطال المقام بالبلاد الواطية حتى يتأتى له معاينة ما يحصل من التدبيرات والتعصبات

فى بلاد

فى بلاد الجنوب والشمال فيتأهب لما يناسبه من الآراء ويجرى العمل بمقتضاه

(الفصل الثامن)

فى ذكر بقية اسفار بطرس الاكبر وتعصب غورطز وكيفية تلقى بطرس فى فرانسا

(سنة ١٧١٧ من الميلاد) كان الجار يرى من حلفائه شدة الغيرة من قوة شوكته والغالب أن الانسان يقاسى من العناء والمشقة مع اصحابه مالا يقاسيه مع اعدائه

وكانت دوقية مكلانبورغ من جملة الاسباب القوية فى الشقاق الذى كان لابد من وقوعه بين الملوك المتجاورين الذين كانوا يتقاسمون الفتوحات وكان الجار لايريد أن الدانيمرقة يأخذون مدينة ويسمار لانفسهم كما كان لايرضى لهم بهدم الاستحكامات ومع ذلك فقد فعلوا الامرين جميعا

وكان بطرس يحامى دوق هذه الدوقية على رؤس الاشهاد ويأخذ بناصره على الاشراف من اهلها لان هذا الدوق كان متزوجا بنت اخيه فكان عنده بمنزلة صهره وكان ملك الانكليز يحامى عن هؤلاء الاشراف ويأخذ بناصرهم على الدوق المذكور وكان الجار ايضا قد اخذ يغضب من ملك لهستان اووزيره الاكبر وهو القونتة فلومنغ حيث كان يريد فصل مملكة لهستان عن الدولة الموسقوبية واخراجها عن التبعية لها التى كان حصولها ليس الابفضل الجار ومننه وبشدة بأسه وصولته

وكانت دواوين انكلترة ولهستان ودانيمرقة وهولستين ومكلانبورغ وبرندبورغ مضطربة بالدسائس والفتن وذلك أنه فى اواخر سنة ١٧١٦ واوائل سنة ١٧١٧ من الميلاد كان غورطز قد مل وسئم من كونه لم يكتسب الالقب مشير هولستين ولم يكن الامر خصا من طرف كرلوس الثانى عشر فى اسراره ومداولاته حسبما نص عليه باسوويتز فى لوائحه وتقاريره فكان اغلب هذه الدسائس انما هو بسعيه وبسببه وعزم على أن ينتهز فرصة ذلك ليوقع الاضطراب والتفاقم فى دول اوروبا وكان قصده بهذا

أنه يصالح كرلوس الثانى عشر مع الجار لالمجرد قطع الحرب بينهما بل ليوقع ايضا الاتحاد والالتئام بينهما ويعيد استانسلاس الى كرسى مملكة لهستان وينزع اقليمى بريمة ووردن من جرجى الاول ملك الانكليز بل ويسلب منه كرسى مملكته حتى لاتكون له قدرة على تملك ماسلبه من كرلوس الثانى عشر

وكان فى ذلك العصر من ارباب الحل والعقد من هو فى الطبع كغورطز حيث كان يسعى فى ايقاع الفتن والاضطراب فى دولتى الانكليز وفرانسا وهو الكردينال ألبيرونى وكان له اذذاك فى اسبانيا من النفوذ والصولة اكثر مما كان لغورطز فى أسوج وكان يضاهى غورطز فى الجسارة والاقدام الا انه كان اقوى منه شوكة لانه كان رئيسا على دولة اكثر ثروة من دولة أسوج وكان لايصرف مرتبات اتباعه من نقود النحاس

فلم تمض الامدة يسيرة حتى وقع الاتحاد والاتفاق بين غورطز وهو فى سواحل بحر بلطق وبين ديوان مدزيد واتفق ايضا هو وألبيرونى مع جميع الانكليز الذين كانوا من حزب عشيرة استوارت الملوكية وخرجوا من ديارهم عند نكبة هذه العشيرة وطاف غورطز بجميع الدول التى كان يظن أن فيها اعداء للملك جرجى (ملك الانكليز) فذهب فى اواخر سنة ١٧١٦ من الميلاد الى الالمان والفلنك وفلندرة ولورينة وباريس فاخذ الكردينال ألبيرونى يبعث اليه وهو فى باريس مليونا من النقود الفرنساوية المسماة ليورة ليشرع بها فى ايقاد النار فى البارود كما هى عبارة ألبيرونى

وكان غورطز يريد أن كرلوس الثانى عشر يتساهل لبطرس كل التساهل ويسلم له بالكلية حتى يسترجع من اعدائه جميع مابقى له من البلاد ويتيسر له شن الغارة على ايقوسيا بدون معارض حين كانت الاحزاب الاستوارتية تظهر التعصب فى انكلترة مع الشدة وقوة

التأثير

التأثير بعد أن فعلوا ذلك مرارا بدون طائل وكان من الضرورى فى تجهيز هذه الاغراض أن يتخلى نائب مملكة فرانسا عن الملك الحاكم بانكلترة وقتئذ لان هذا الملك كان معولا عليه ومنتميا فى الحماية اليه وكان من خوارق العادة اتفاق فرانسا مع ملك انكلترة على حفيد لويز الرابع عشر الذى اجلسته دولة فرانسا نفسها على كرسى اسبانيا وبذلت فى ذلك اموالها ورجالها قهرا عن اعدائها الكثيرين الشديدى العداوة ولكن كان اذ ذاك كل شئ قد خرج عن عادته وتغير عن دأبه وطبيعته ولم تكن مصلحة نائب الدولة الفرنساوية هى مصلحة المملكة فدبر ألبيرونى من وقتئذ فى شأن هذا النائب تدبير شر وفساد وعصب عليه فى فرانسا عصبة سرية وبمجرد تدبير هذا المشروع الجسيم اخذ فى اسبابه ووضع اساسه فى آن واحد تقريبا وكان اعظم رجل فى امر هذه الفتنة هو غورطز وكان قد اقتضى الحال أنه يذهب مختفيا الى ايطاليا ليتفق فيها مع متطلب المملكة بمدينة رومة ثم ينهض الى مدينة لهاى ليرى فيها الجبار ويبت الامر مع ملك أسوج فى جميع المواد

ثم ان جامع هذه الحوادث هو أعرف انسان بما اورده فى هذا المعنى فان غورطز دعاه الى مصاحبته فى اسفاره فهو وان كان حديث السن اذ ذاك الا أنه كان من اول من عاين معظم تلك الدسائس والفتن

وقد عاد غورطز الى بلاد الفلمنك فى اواخر سنة ١٧١٦ من الميلاد وبيده من ألبيرونى اوراق حوالات وكان كرلوس الثانى عشر قد فوض له الامر تفويضا مطلقا وكان مما لاريب فيه أن حزب المتطلب يقوم اذا نزل كرلوس من نرويج الى شمال ايقوسيا بقصد الاغارة على مملكة غيره وابادتها وان كان قد عجز عن حفظ مملكة نفسه فى الارض القارة ومع اسره فى مدينة دميرطاش ببلاد الدولة العثمانية واحراق مدينة استرالسوند كان يؤمل أنه يتوج ابن ياكس الثانى كما توج استانسلاس فى مدينة وارصو

وكان الجار يعلم البعض من مشروعات غورطز وينتظر انتساءها بدون أن يجعل لنفسه مدخلية فى شئ منها ولم يكن له علم بجميعها فهو وان كان يميل الى عظائم الامور الخارقة للعادة مثل كرلوس الثانى عشر وغورطز وألبيرونى الا انه كان فى ميله لها يسلك مسلك رجل اسس دولة وقنن قوانين واستعمل فى اغراضه السياسة الحقيقية بخلاف ألبيرونى وغورطز بل وكرلوس فانهم ربما عدوا من ارباب الرعونة والطيش المتولعين بالسير العالية والمفاخر السامية لا من الرجال اصحاب الرزانة والكياسة الذين يعولون على طرق التدبير الصالحة والوسائط الصحيحة الناجحة وربما اتهموا فى صورة خيبتهم وعدم نجاحهم بالجسارة والمخاطرة

ولما وصل غورطز الى مدينة لهاى لم ينتظره الجار ولو رآه لارتاب منه كثيرا اصحابه من ارباب مجلس وكلاء الدولة الذين كانوا يميلون الى ملك انكلترة ولم يجتمع به ايضا وزراء الجار الا خفية مع غاية الاحتراس وكانوا مأمورين من طرف ملكهم أن يصغوا الى ما يبديه لهم غورطز ويواعدوه بالاجابة من غير أن يلتزموا له بشئ اويضروا بسيدهم فى امر من الامور ومع ذلك فاصحاب التبصر والنظر السديد لما رأوا ما كان عليه الجار اذ ذاك من الدعة والبطالة مع أنه كان يمكنه أن يذهب الى اقليم اسكانيا بالدونما الموسقوبية والدانيمرقية ورأوا منه ايضا فتور الهمة مع حلفائه ولاحظوا ما كان يصدر من دواوينهم من التظلم والشكى وابصروا سفره ظهر لهم أن المصالح وقع فيها تغيير عظيم سيظهر بعد ذلك بيسير

وفى شهر ينويه سنة ١٧١٧ من الميلاد خرجت ريح عاصفة على سفينة اسوجية كان فيها مكاتيب الى الفلمنك فألجأتها الى أن ترسو على نرويج فقبض على تلك المكاتيب فاذا فى مكاتيب غورطز ومكاتيب بعض الوزراء ما اوجب الاحتراس والتيقظ للفتنة التى وقع الاتفاق عليها فأطلعت دولة الدانيمرقة دولة انكلترة على هذه المكاتيب فما كان منها الا انها قبضت فورا على الوزير الاسوجى المسمى غيلمبورغ الذى كان بمدينة لوندرة

واخذت

واخذت ماكان معه من الاوراق فاذا فيها بعض اوراق من مراسلاته مع اليعقوبية

فعند ذلك كتب جرجى (ملك الانكليز) (فى شهر فبريه سنة ١٧١٧ من الميلاد) الى دولة الفلمنك كتابا مضمونه انه بمقتضى المشارطات الرابطة بين دولة انكلترة ووكلاء الدولة الفلمنكية لاجل الطمانينة والامن العام بين الفريقين يطلب القبض على البارون غورطز ولما كان لهذا الوزير اشراقات فى سائر الجهات بلغه هذا الامر فسافر فورا فلما وصل الى مدينة ارنهيم من ثغور البلاد الواطية ادركه الضباط والخفراء الذين امروا باقتفاء اثره وكانوا قد اسرعوا السير خلفه اسراعا قل أن يوجد مثله فى تلك البلاد فقبضوا عليه واخذوا ما كان معه من الاوراق وعاملوه اسوأ المعاملة وكذلك كاتب سره استمك الذى زور ختاما على صورة ختام دوق هولستين فى قضية توننج قبضوا عليه واساؤا معاملته اكثر من غورطز وقصارى الامر أن غيلمبورغ الذى كان مبعوثا من أسوج الى انكلترة وكذلك البارون غورطز الذى كان بيده اوراق التفويض من طرف كرلوس الثانى عشر سئلا اسئلة المذنبين احدهما فى لوندرة والثانى فى ارنهيم وكان جميع وزراء الدول يشكون من هذا التعدى المخالف لحقوق الملل بعضها على بعض

وهذه الحقوق التى طلب العمل بها دائما اكثر من علمها وليس لها مقدار يعرف ولا حد يوصف قد افتيت عليها فى سائر الازمان فقد وقع غير مرة أن سفراء الدول طردوا من دواوين الممالك التى بعثوا للاقامة بها بل وقبض عليهم مرارا لكن لم يتفق انهم عوملوا فى تحقيق دعاويهم معاملة الرعايا من تلك الممالك غير أن اهل ديوان لوندرة ومجلس وكلاء دولة الفلمنك تجاوزوا الحد فى هذا المعنى لما رأوا ما يخشى منه على عشيرة هانورة الملوكية من الخطر والضرر ولكن لما اتضح الامر زال هذا الخطر ولو أنه فى الحالة الراهنة فقط

وما سلكه المؤرخ نوربرغ فى هذا المعنى من افهام الناس أن ملك أسوج

لم يتوغل فى العصبة يلزم أن يكون منشأه عدم الوقوف على الحقيقة وقلة الخبرة بالناس والمصالح اوأن الغرض أعماه فحاد عن طريق الصواب اوانه كان يخشى على نفسه من ديوان أسوج بحيث منعه ذلك عن بيان حقيقة الحال وماالحق وزيرى كرلوس من المنقصة والاساءة تقوى به عزمه حتى صمم على أن يبذل وسعه فى خلع ملك انكلترة الاأن الحال اقتضى أن يسلك مسلك التحيل والخداع فى عمره مرة واحدة حيث انكر مافعله سفيراه عند نائب فرانسا الذى كان يسعفه ويمده بالاموال وعند وكلاء دولة الفلمنك التى كان يرغب فى استمالتها اليه واما جرجى ملك الانكليز فلم يرض كرلوس خاطره مثلهما فان سفيريه المذكورين وهما غورطز و غيلمبورغ مكثا محجوزين فى انكلترة نحو ستة اشهر وبهذه الاساءة التى طالت مدتها قوى عزم كرلوس فى شأن ما كان يرومه من الانتقام

واما بطرس فانه فى خلال هذه الاحزان والتنافس والغيرة لم يجعل لنفسه مدخلية فى شئ من ذلك بل وكل الامر لما يأتى به الزمن ولما رتب دولته الواسعة ترتيبا كافيا بحيث صار لايخشى شيأ فى داخل مملكته ولا فى خارجها عزم على الذهاب الى دولة فرانسا ولم يكن يعرف لسان هذه الدولة فأفضى به ذلك الى أن ضاع منه معظم ثمرة هذه الرحلة الاأنه كان يعلم أن فى تلك المملكة اشياء كثيرة يرغب فى رؤيتها والاطلاع عليها وكان ايضا يريد أن يعرف وهو هنالك حالة نائب فرانسا مع دولة انكلترة وهل عند هذا الامير ثبات وتمكن ام لا

فلما وصل الى هذه المملكة قوبل فيها بما يليق به من الرسوم التشريفية حيث بعثت الدولة الى لقائه المارشال دوتسه وجما غفيرا من الامراء وفرقة من الخيالة وعربات الملك وكان قد اسرع السير على عادته بحيث وصل الى مدينة غورنة حين كانت دائرته فى مدينة البوف وصنعوا له فى الطريق من رسوم التشريف ما كان على وفق المرام وتلقوه اولا فى دار المدينة المسماة لورة وكانوا اعدوا له فيها اكبر محل منها واعدوا لاتباعه محال اخرى

فيها كى ينزل بها الامير كوراكين . ودولغروكى والبارون شافيروف وكيل القنجلير والسفير تولستوى وهو الذى كابد ما كابد فى بلاد الدولة العثمانية من التعدى فى حقه على حقوق الملل بعضها على بعض وبالجملة فقد أعدوا لقرى هذه الدائرة من حيث سكناها وخدمتها ما يليق باكرامها ويؤذن برفعة مقامها لكن لما كان غرض بطرس من الحضور الى هذه الدولة انما هو الاطلاع على ما يعود عليه بالنفع لا رسوم الاكرام والتشريف التى لا طائل تحتها بل لا تلايم ما تعود عليه من السادجية وعدم الرفاهية وتضييع عليه زمنا نفيسا ذهب فى عشية يوم قدومه الى الطرف الآخر من المدينة ليقيم فى سراية لسدنير . وهى دار المارشال دوويلروا . فعومل فيها بما عومل به فى لوورة من الاكرام وحسن القرى (٨ من شهر مايه) وفى اليوم الثانى ذهب اليه نائب فرانسا لاجل التسليم عليه فى هذه السراية ثم احضروا له الملك فى اليوم الثالث وكان لذاك طفلا والذى حضر به اليه هو مؤدبه ومربيه المارشال دوويلروا الذى كان والده من قبله مؤدبا للويز الرابع عشر ثم انهم سلكوا طريقة بها علفوا للجار من مشقة زيارته للملك عقب زيارة الملك له فلم يذهب لزيارته الا بعد يومين وقد حضر اليه ايضا امراء المدينة وأدوا له ما يجب من التشريفات ثم ذهب فى عشية هذا اليوم لزيارة الملك وكانت العساكر الجهادية التى فى الدار الملوكية قد استعدت واستحضرت وحملت اسلحتها فذهبوا بالملك الصغير لملاقاة الجار حتى وصلوا به الى عربته فتعجب بطرس مما رآه من الازدحام وكثرة الناس حول هذا الملك الصغير فأخذه وحمله على يديه مدة

ثم ان بعض الوزراء ممن كان تدقيقهم اكثر من سداد رأيهم اشاعوا بالكتابة أن المارشال دوويلروا اراد أن ملك فرانسا يأخذ بيد ايمبراطور الموسقو ويمشى أمامه فتصيل الجار فى ابطال هذه الرسوم حيث حمل الملك على يديه مظهرا الحنان والشفقة عليه وهذه الاشاعة لا اصل لها اذ الادب الفرنساوى وما يستدعيه مقام بطرس كلاهما يأبى تغيير ما صنع له من

الرسوم التشريفية بما ينفر النفوس فلان رسوم التكليف بالنسبة لملك رفيع المقدار وهمام جدير بالاحترام والوقار هى عبارة عن أن يصنع له من شعار الاجلال والتشريف كل ما تميل اليه نفسه اذا عرف منه أنه يلاحظ مثل هذه الامور واما اسفار الايمبراطور كرلوس الرابع والايمبراطور سيجسموند والايمبراطور كرلوس الخامس الى مملكة فرانسا فانها لاتصل فى الشهرة الى درجة سفر بطرس الى هذه المملكة واقامته بها فان ذلك يتوقف على امور كثيرة لم تكن موجودة اذذاك فى المملكة الفرنساوية حتى تشتهر اسفارهم كشهرة سفر بطرس الاكبر لان هؤلاء الايمبراطرة لم يكن غرضهم من السفر اليها الا مجرد مصالح سياسية ولم يذهبوا اليها فى زمن تقدمت فيه الفنون وتكاملت بحيث تجعل زمن رحلتهم جديرا بالشهرة والذكر بخلاف الوقت الذى سافر فيه بطرس فلم يكن كذلك فانه حين ذهب للغداء عند دوق دنتين فى سراية بتيت بورغ التى هى على البعد من باريس بثلاثة فراسخ رأى عند انقضاء الاكل صورته قد أخذت ورسمت ووضعت فى المحل الذى هو فيه فوقع فى ذهنه أن الفرنساوية اعظم الملل فى حسن ملاقاة الضيوف ذوى الاحتشام واكرام نزلهم

وكذلك لما ذهب الى سراية لوورة ليبصر فيها ضرب القطع المسماة مداى اومداليه بالمحل الكبير المقيم به جميع ارباب الفنون والصنائع الملوكية فتعجب كثيرا حين رأى قطعة من هذه القطع قد سقطت فبادر اليها فاذا صورته منقوشة على احدى جهتيها وعلى الاخرى صورة الهة الشهرة (المذكورة فى خرافات القدماء) واضعة احدى رجليها على الكرة الارضية وبعض كلمات من كلام الشاعر ورجيل تليق بمقامه كل اللياقة ومعناها «كلما مضى وسار* اكتسب القوة والفخار» وهذا تنويه لطيف واشارة حسنة تلايم اسفار بطرس وفخاره ثم انهم اتحفوه هو ومن معه بقطع من تلك القطع المضروبة من الذهب ولما ذهب الى جهة الصناع صاروا يضعون تحت اقدامه اعظم شئ من مصنوعاتهم ويترجونه أن يتفضل عليهم بقبولها

وذهب

وذهب الى فبريقات غوبلان (التى يصنع فيها السجاجيد العظيمة) وابصر ايضا سجادات فبريقة ساونورى ومصانع نقاشى الاحجار والمصورين وصاغة الملك وصناع آلات الرياضة وقدم اليه من طرف الملك كل ما كان فيه اهلية للقبول لديه

وكان بطرس من ارباب الميكانيكة والهندسة وذهب الى دار العلوم المسماة اكدمة وتزينت لاجله بجميع ما كان فيها من الغرائب الا انه لم يكن هناك اغرب منه فانه اصلح بيده عدة غلطات جغرافية رآها فى خرطات ممالكه التى كانت بهذه الاكدمة لاسيما خرطات بحر الخزر وسمحت نفسه أن يكون من ارباب تلك الاكدمة ومن وقتئذ صار لا يقطع الوصلة بينه وبين هؤلاء العلماء الذين رضى بأن يكون من آحادهم بل كان يراسلهم على الدوام فى كل ما ظهر له بالتجربة او الاستكشاف ولا يرى مثل هذا السياح الا فى زمن فيثاغورس وامثاله وانخرسيس واضرابه بل هو يفضلهم بكونه ملكا فارق ملكه رغبة فى الاطلاع والتعلم

ولابد أن اذكر هنا لقارئ كتابى هذا ما اعترى بطرس من شدة التأثر والهيجان حين رأى قبر الكردينال دى ريشليو وذلك أنه لم يتعجب من ظرافة نقش احجار هذا القبر الغريب ولا من حسن صناعته بل تعجب حين عاين تمثال هذا الوزير الذى اكتسب الشهرة وحسن السيرة فى اوروبا بما ابداه فيها من الحركة والتغيير وردّ لفرانسا ما كانت فقدته من الفخار بعد موت ملكها هنرى الرابع فعانق هذا التمثال وصاح قائلا ايها الرجل العظيم كنت اودّ أن لو لقيتك واعطيتك نصف ملكى حتى اتعلم منك ادارة النصف الآخر

ثم انه قبل أن يرتحل من فرانسا اراد أن يزور الشهيرة مدام دومانتنون التى كان يعلم انها فى الواقع ونفس الامر ارملة لويز الرابع عشر ملك فرانسا وكانت وقتئذ فى اواخر عمرها والذى اثار رغبته فى ذلك هو ما كان من نوع المشابهة بين زواجه وزواج لويز الرابع عشر المذكور وان كان بينهما فرق

من حيث ان بطرس تزوج بامرأة ذات همة وشجاعة علانية على رؤس الاشهاد (وهى كاترينة) بخلاف لويز الرابع عشر فانه انما حاز سرا امرأة لطيفة انيسة (وهى المدام المذكورة) ولم تكن معه كاترينة فى هذه السفرة لانه كان يخشى مضايقة التكليف ويخاف عليها من رغبة هذه الدولة وتشوفها اليها حيث ان الدولة الفرنساوية كانت لم تتعود ولم تعهد أن لامرأة حازت الفضل باقتحامها الاخطار بجانب زوجها برا وبحرا من شواطئ نهر البروث الى سواحل فنلندة

(الفصل التاسع)

فى رجوع الجار الى ملكه وما صدر عنه من السياسة والشغل

قد رأينا أن نورد هنا ما صدر عن السوربون (اى مجلس القسوس) من السعى الى بطرس حين ذهب لزيارة قبر الكردينال دى ريشليو ونذكر ذلك على حدته فنقول

ان بعض احبار هذا المجلس ارادوا أن يحوزوا الفخر بضم الكنيسة اليونانية الى الكنيسة اللاطينية مع أن العارفين باخبار القدماء يعرفون حق المعرفة أن دين النصرانية انما ظهر ببلاد الشمال بواسطة يونان آسيا وأن اول ظهوره كان ببلاد المشرق وأن اوائل القسوس ومجامع المطارنة وخدمة القداس والترتيبات الدينية انما كانت بتلك البلاد المشرقية وانه لا كلمة من كلمات ألقاب الشرف والوظائف الدينية الا وهى كلمة يونانية تقضى بتعيين منشا ما ورد الينا من ذلك كله وانما لما انقسمت دولة الرومان الى قسمين كان لابد من أن يكون فيها دينان عاجلا او آجلا ضرورة انها صارت دولتين وأن يرى بين نصارى المشرق والشمال ما يرى بين العثمانية والعجم من الاختلاف والافتراق الدينى

فظن جماعة من جمعية القسوس بباريس أن هذا الاختلاف يبطل دفعة واحدة باعطاء بطرس صحيفة فى هذا المعنى من طرفهم مع أن البابا ليون الرابع وخلفاءه لم ينالوا هذا الغرض لا باعانة نوابهم ولا باعانة المطارنة بل

ولا يبذل الاموال فكان الواجب على هؤلاء الاحبار أن يعرفوا أن بطرس الذى كان له التصرف فى الحكم على كنيسته هو ممن لا يعترف بالبابا ولا يقول به وكان ماعرضوه عليه فى الصحيفة مما لا طائل تحته حيث ذكروا فيها حرية الكنيسة الفرنساوية وذلك مما لا يعنى الجار فى شئ وذكروا فيها ايضا أن البابات يلزم أن يكونوا منقادين لجامع المطارنة وأن احكامهم وآراءهم لا دخل لها فى العقيدة ولا تعد من اصول الدين فلم يعد عليهم من هذه الصحيفة الا اغضاب ديوان رومة وعدم قبول ايمبراطور الموسقو والكنيسة الموسقوية لما تطلبوه

وهذا الانضمام الذى تطلبوه كان فيه امور سياسية لا يدركونها ومواد تتعلق بمجادلات دينية يزعمون أنهم يعرفونها وكان كل حزب منهم يأتى بما يشاء من التأويل والتفاسير وكان جدالهم هذا فى شأن الاب والابن وروح القدس

ولكن كان الجار حين سفره من باريس فى شاغل عن تحقيق هذه المادة الدينية فقبل صحيفة هؤلاء الاحبار مع البشاشة وطيب النفس ثم انهم كتبوا فى ذلك لجماعة من اساقفة الموسقو فأحسنوا لهم الجواب ولكن اغتاظ اغلبهم مما عرضه عليهم الاحبار المذكورون

ولاجل أن يزيل الجار من قلوب الناس الخوف من انضمام الكنيستين رتب موسما مضحكا وهو موسم الكونكلاوة (اى جمعية الكردينالات لانتخاب البابا) بعد أن طرد اليسوعية من بلاده سنة ١٧١٨ من الميلاد

وذلك انه كان فى ديوانه رجل هرم مختل يقال له ستوف كان قد علم الجار الكتابة وكان يظن أنه بهذا الصنيع يستحق اعظم المناصب وكان من عادة بطرس أنه فى بعض الاحيان يقصد ترويح نفسه من هم الحكومة وثقل اعبائها بمداعبة وممازحة تلائم امة كان الى ذلك الوقت لم تتم تهذيبها وتحسين حالها فوعد هذا الرجل الذى علمه الكتابة أنه يقلده بمنصب من اعظم مناصب الدنيا ثم نجز هذا الوعد فجعله كنيس بابا (وكلمة كنيس من الالقاب المتوارثة عند الموسقو نظير كلمة امير) ورتب له ماهية تبلغ الفى روبلة واعطاه

بيتا في حارة التجار بمدينة بترسبورغ وذهب به اهل المساخر من السترية الى هذا المنزل بموكب واحتفال وخطب له اربعة من اللكن وجند دعدة كردينالات وسار في الموكب أمامهم وكان كل من في هذا الموكب الديني سكران من شرب الخمر ولما مات ستوف تولى منصب البابا بعده ضابط يقال له بتورلين وبالجملة فقد عاينت مدينة موسقو ومدينة بترسبورغ هذا الاحتفال ثلاث مرات وكان يترآى أن هذا الاحتفال لاثمرة له مع انه في الواقع ثبت الامم الموسقوبية على كراهة الكنيسة الرومانية التي تدعى لنفسها الامامة العظمى وكان رئيسها قد حكم بالحرمان على كثير من الملوك فانتقم بطرس منها ومن رئيسها بهذا الامر المضحك ليأخذ بثار عشرين ايمبراطورا من ايمبراطرة الالمان وعشرة ملوك من ملوك فرانسا وغيرهم مما لا يحصى كثرة من الملوك والامراء فكان ذلك هو الثمرة التي جناها مجلس القسوس من تصورهم امر الايلايم السياسة وهو ضم الكنيسة اليونانية الى الكنيسة اللاطينية

فكانت منفعة سفر الجار الى فرانسا هي اتحاده والتئامه مع هذه المملكة ذات التجارة المعمورة باناس اصحاب حرف وصنائع لانضمام الكنيستين المتخاصمتين اللتين لاتزال احداهما محافظة على استقلالها القديم والاخرى على رياستها الجديدة

ولما عاد بطرس من فرانسا جاء معه بعدة من اهلها من اصحاب الحرف والصنائع كما اتى بمثل ذلك من انكلترة لان جميع الملل التي كان يسافر اليها كانت ترى أنها تتشرف باعانته على تنجيز غرضه من نقل جميع الفنون الى وطنه الجديد ومساعدته على هذا الابداع والاحداث

ومن وقتئذ سوّد مشارطة تجارية بينه وبين الدولة الفرنساوية وسلمها السفرائه ببلاد الفلمنك بأثر رجوعه الى تلك البلاد ولم يتيسر لشاتينوف سفير فرانسا الى دولة الفلمنك أن يصدق على هذه المشارطة بوضع امضائه عليها الا في الخامس عشر من شهر اغسطوس سنة ١٧١٧ من الميلاد بمدينة

لهاى ولم تكن هذه المشارطة فى خصوص التجارة بل كانت تتضمن ايضا صلح الشمال وقبل كل من ملك فرانسا ومنتخب براندبورغ لقب الواسطة الذى لقبهما به الچار فكان ذلك منه دليلا واضحا الملك انكلترة على أن نفس بطرس مشمئزة منه ودل ايضا على أنه لم يخيب مساعى البارون غورطز لان هذا البارون وقتئذ استعد كل الاستعداد للتوفيق بين بطرس وكرلوس ولتجديد اعداء لجرجى ملك الانكليز ولاعانة الكردينال ألبيرونى مع أن كلا فى طرف من اوروبا ورأى سفراء الچار بمدينة لهاى واجتمع بهم على رؤس الاشهاد وأخبرهم عن يقين أن فى وسعه انهاء صلح الاسوج

ثم ان الچار ترك غورطز وألبيرونى يدبران امر حيلهما ودسائسهما من غير أن يباشر شيأ منها بل جعل نفسه بحيث لا يكون بعيدا من صلح الاسوج ولا من حربهم وانه لم يزل على الاتحاد مع الدانيمرقة واللهستان والبروسيا بل ومع منتخب هانورة بحسب الظاهر

والظاهر أنه لم يكن غرضه من ذلك الا انتهاز فرصة مقتضيات الاحوال وانما كان غرضه الاصلى تكميل احداثاته وتحسين مبتدعاته فانه كان يعلم أن المشارطات ومصالح الملوك ومعاهداتهم ومحبتهم واحتراساتهم وعداوتهم لابقاء لها على حال واحد بل تتغير فى كل سنة تقريبا على حسب تقلبات الزمن وأن اغلب المجهودات السياسية لا يبقى لها اثر غالبا وربما كانت فبريقة منتظمة تعود بالنفع على الدولة اولى واحسن من عشرين مشارطة

ولما اجتمع بزوجته وكان ينتظرها ببلاد الفلمنك استمر على اسفاره فجابا معا اقليم وستفاليا ووصلا الى مدينة برلين بدون وكبة ولا ابهة ولم يكن ملك البروسيا الجديد دون چار الموسقو فى كراهة الفخار والتكلف والابهة ومثل ذلك ينبغى أن يتخلق به اهل التكاليف الذين يحافظون على الرسوم واعتبار المقامات كأهل بج واسبانيا وايطاليا واصحاب الرفاهية كأهل فرانسا فان هذا الملك لم يجلس قط الا على كرسى من الخشب ولم يلبس الا كآحاد العساكر وكان يزهد رفاهية المطعم وملاذ المعيشة

وكذلك الجار والجارة فانهما سلكا فى معيشتهما ايضا مسلك الزهادة والتقشف ولو انضم الى الثلاثة كرلوس الثانى عشر لرأيت اربعة اشخاص متوجين بتيجان الملك لم يساووا فى الابهة والرونق اسقفا من اساقفة النمسا ولا كردينالا من كرادلة رومة فيالهم من قدوة لم يتفق للتنعم والرفاهية مثلهم

ولعمرى ان الانسان فى بلادنا (يعنى فرانسا) اذا صنع لمجرد رغبة نفسه خمس ما صنعه بطرس لنفع ممالكه يحوز من الاعتبار ورفعة المنزلة مالا مزيد عليه حتى كأنه فعل امرا غريبا واصاب شيأ عجيبا ثم ان بطرس سافر من برلين مع زوجته الى مدينة دنتزيك ثم قصد مدينة ميتو وحامى فيها عن بنت اخيه دوقيجة كورلندة التى تأيمت بموت زوجها وطاف جميع فتوحاته وقنن قوانين جديدة فى مدينة بترسبورغ ثم ذهب الى مدينة موسقو وبنى فيها عدة بيوت من بيوت الاهالى كانت آئلة للسقوط وارتحل منها را كبا نهر ولغا الى مدينة كزاريزين قاصدا منع تتار كوبان عن اغاراتهم وذلك أنه وضع جملة من العساكر بين نهر ولغا ونهر تنايس المعروف ايضا بنهر تن صوبى وانشأ قلاعا من مسافة الى اخرى ومن نهر الى آخر وفى ذلك الزمن بعينه طبع قانون الجهادية الذى قننه بنفسه ورتب مجلس حقانية لينظر سلوك مديرى دواوينه ويلاحظ احوالهم ولينظم امور المالية وعفا عن بعض المذنبين وعاقب البعض الآخر حتى ان الامير منزيقوف كان ممن احتاج الى حلم الجار وكرمه ثم انه ارتكب فى الحكومة امرا كان على غاية من الصعوبة ظن أنه مجبور عليه وهو الحكم بقتل ولده الذى ملاء سيرته الفاخرة بالغم والحزن

(الفصل العاشر)

فى الحكم على الامير الكسيس بتروويتز (اى ولد بطرس) بالموت

كان بطرس فى سنة ١٦٨٩ من الميلاد قد تزوج اودوكسيا تيودورة المعروفة ايضا باسم تيودورونالابوكين وكان سنه اذ ذاك سبع عشرة سنة

وكانت

وكانت هذه المرأة قد نشأت متعودة على اوهام ابناء وطنها فلم تكن فيها صلاحية لاكتساب ما تفضلهم به زوجها فكانت مصدرا للمعارضات والمناقضات التى حصلت لبطرس حين اراد تجديد دولة ورجال ذوى فضل ومعارف وماذاك الا لتسلطن الاوهام الفاسدة عليها وتمكنها منها على ماهو الغالب فى امثالها من النساء فكانت ترى أن جميع ما جدده زوجها من الاحداثات النافعة من قبيل الكفر والالحاد كما انها كانت ترى أن الاجانب الذين كان يستخدمهم فى تجهيز أغراضه العظيمة اهل اتلاف وفساد فكان اعلانها بالتظلم والتشكى من ذلك يقوى اهل التعصب المحافظين على العوايد القديمة وايضا لم تكن من حسن السلوك على ما يجبر به هذا الخطأ الفاحش فلم يجد الجار بدا من طلاقها وحجزها فطلقها سنة ١٦٩٦ ميلادية وحجزها فى دير بمدينة سوسدال ونظمها فى سلك راهبات هذا الدير وسماها هيلانة

وكانت قد ولدت له فى سنة ١٦٩٠ من الميلاد غلاما شقيا سيئ الحظ (وهو ألكسيس) حيث جاء على طبيعة امه وتقوت فيه هذه الطبيعة بما سرى له منها فى زمن التربية حال صغره* وقد اطلعت فيما وصل الى من اللوائح فى هذا الشان على انه نيط بحضانته وتربيته اناس من اهل الجهالة والاوهام فافسدوا عقله افسادا لا يمكن معه الاصلاح ابدا فكان مما لاطائل تحته ظن أن هذا الخلل الذى انطبع عليه من الصغر يجبر بتفويض امر تربيته لمؤدبين من الاجانب بل وصف كونهم اجانب هو الذى زاد شدته وجموحه واكثر اشمئزازه ونفوره* ولم يكن مجردا عن القريحة والعقل فانه كان يحسن الكلام والكتابة بلسان النمسا وكان له معرفة بالرسم والمام بالرياضيات ولكن كان السبب فى ضياعه انما هو مطالعته لكتب القسوس الدينية حسبما وجدته فى اللوائح المذكورة على وجه اثق بصحته حيث اعتقد بمطالعته فيها أن جميع ما فعله والده يوجب اللعن والطرد وكان ثم قسوس هم رؤساء من لا يحب افعال بطرس فكان ينقاد اليهم ولا يخرج عن رأيهم

فادخلوا فى ذهنه أن جميع ملة الموسقو تعتقد أن جميع مشروعات ابيه ذميمة وأن الداء الذى يعترى والده دائماداء عضال لاتطول به حياته وقالوا له ان الوسيلة لك فى اكتساب الحظوة لدى الملة الموسقوبية هى أن تبارز بالبغضة لكل ماجدده والده من الاحداثات نعم وان كان لم يترتب على ماألقوه اليه من اللغط والنصائح عصبة متظاهرة بالتعصب الاأن كل شئ كان يستدعى حصولها ويقضى اليها فان الحمية اذذاك كانت متسلطنة على عقول الامة فلما تزوج بطرس بكاتريشة سنة ١٧٠٧ من الميلاد ورزق منها بالذرية ازداد هذا الامير حنقا وغيظا فبذل الجبار جهده فى تسكين غيظه وقلده رياسة نيابة المملكة مدة سنة وسلاه بالاسفار وزوجه سنة ١٧١١ ميلادية فى اواخر وقعة البروث بالاميرة وولفمبيتل كماسبق فكان زواجا مشؤوما حيث انهمك ألكسيس على الفسق والفساد واسرف فى ملاذ الشبوبية الذميمة اذكان عمره وقتئذ اثنتين وعشرين سنة وافرط فى الميل الى خشونة الاخلاق القديمة التى كان مولعا بها حتى عاد ذلك عليه بالخسارة حيث افضى به هذا الانهماك الى الحمق والغباوة فاحتقر زوجته وازدراها فى عينه وأهانها ولم يوف بحقوقها الضرورية فلحقها من الجزع واليأس ماالامزيد عليه واعتراها السقام وماتت كدا سنة ١٧١٥ من الميلاد فى غرة شهر نومبر

وأعقبت له غلاما كان قريب العهد بالولادة من موتها وكان يؤمل انه يجىء نوبته فى ولاية العهد فيمابعد كماهو مقتضى رسوم المملكة وكان بطرس يخطر له أن جميع ماصنعه فى ايامه من الخيرات لابد وأن يصير بعده فى زوايا الاهمال بواسطة عقبه فيتأثر من ذلك كل التأثر فكتب لابنه خطابا بعد موت زوجته مشتملا على الترغيب والترهيب وختمه بقوله امهلك مدة من الزمن لانظر هل تتأدب وتقلع عماانت فيه والافاعلم أنى أحرمك من ولاية العهد وافصلك عنها كما يفصل العضو الغير النافع من البدن ولاتظن أن قصدى بهذا اخجالك وتخويفك ولاتعتمد على كونك ابنى وحيلتى وذخيرتى لانى حيث اخاطر بنفسى

دائما

دائما الاصلاح وطنى واهل مملكتى فكيف احقن دم ولدى وانى لااوثر عند الاقتضاء تفويض امور المملكة لاجنبى يستحقها على ابنى الذى ليس اهلا لها انتهى

وهذا الخطاب يظهر أن صدوره منه بوصف كونه مشرعا يحث على التمسك بالشرائع اكثر منه بوصف كونه والدا يخاطب ولده ويؤخذ منه أن ترتيب ولاية العهد ببلاد الموسقو ليس من الامور التى لاتقبل التغيير والتبديل كما فى غيرها من الممالك التى لابد فيها من العمل بالقوانين المقررة التى لا تجعل للآباء حقا فى منع وراثة ابنائهم لهم فالجبار كان يرى أن له مزية التصرف فى دولته لاسيما وهو الذى اسسها وأبدع فيها التمدن وحسن النظام

وفى هذا الزمن وضعت زوجته كاترينة غلاما مات عقب ولادته سنة ١٧١٩ من الميلاد ولما بلغ خبر ولادته لالكسيس انكسر خاطره وفترت همته وكتب لابيه ما يفيد أنه نزل عن ولاية العهد وترك امل الحكم بعده وهذا منه ناشئ اما عن طيشه وخفة عقله اوعن دسيسة دسها له بعض المفسدين ونص كتابه عاهدت نفسى واشهدت الله على ذلك انى لااتطلب الحكم بعدك وها أنا اسلمك اولادى واجعلهم بين يديك ولااطلب منك الا مصروفى مدة حياتى انتهى

فكتب اليه ابوه مرة ثانية ما معناه قد اطلعت على كتابك ثم رأيتك لاتتكلم الا فى امر الولاية بعدى حتى كأنى كنت سألتك فى شأنها وطلبت منك قبولها مع انى قد اعلمتك ما هو قائم بى من عظيم الالم وشديد التأثر من سلوكك وعدم استقامتك منذ عدة سنوات ولم تخاطبنى فى هذا المعنى بشئ اصلا فكأن انذارى لك لم يجد نفعا وقد كتبت اليك كتابى هذا وهو آخر مكاتبتى اليك فياليت شعرى ماذا تصنع بعدى وقد ازدريت مقاصدى فى حياتى فان انت الآن رغبت فى الوفاء بما وعدت فسيعدل بك طوال اللحى الى اغراضهم ويجبرونك على اخلاف مواعيدك فانهم معولون عليك فى امورهم وواثقون بك فى تنجيز مآربهم ولست الا عاقا لابيك جاحدا لصنيع من هو السبب فى ايصال نعمة

الوجود اليك فهل حضرت يوما الاعانته فى اشغاله منذ بلغت اشدك وأدركت من العمر رشدك ألم تبغض كل ما امكننى فعله لصلاح الامة الموسقو بية فلى حينئذ وجه فى ظنى انك بعدى تهدم ما بنيت وتفسد ما اصلحت وعانيت فالفرار الفرار الى تدارك هذا الخطا والبدار البدار الى جبر هذا الخلل واسع فيما تكون به اهلا لولاية عهدى والخلافة من بعدى والا فانتظم فى سلك الرهبان ولا بد من رد الجواب فى هذا الشان اما بالتحرير والكتابة واما بالمشافهة مع الصدق فى الاجابة والا صنعت بك ما اصنع بالاشرار وعاملتك معاملة الاشقياء الفجار انتهى

ولا يخفى ما فى هذا المكتوب من الصعوبة والتشديد فبمقتضى ذلك كان الاسهل على الامير ألكسيس أن يجيب عنه بما يفيد أنه يقلع عن سلوكه ويستجلب رضاء والده ولكنه اقتصر فى اجابة والده على اربعة اسطر مضمونها انه يريد الترهب

وهذا القصد يظهر أنه لم يكن من تلقاء نفسه وكان من الغريب أن الجار وقتئذ كان يريد السفر ويترك فى المملكة ابنه على غيظه وعناده فكان هذا السفر يدل على أن الجار لم يكن يخشى عصيانا ولا تعصبا من ولده

وقبل أن يسافر الى النمسا وفرانسا ذهب لعيادة ولده لانه كان مريضا او متمرضا فتلقاه ألكسيس وهو على الفراش واقسم له بالايمان المغلظة أنه يريد العزلة فى دير من الاديار فأمهله الجار مدة ستة اشهر ليتروى فيها ويراود نفسه ثم تركه وسافر مع زوجته

فبمجرد وصوله الى مدينة كوبنهاغ بلغه أن الكسيس (كما كان يمكن أن يظنه به) لا يجتمع الا بأناس ممن لا يحبهم حال ابيه وقد اظهروا له التأثر على ما هو فيه من الغم والتنغيص فكتب له الجار اما أن تختار الترهب فى الدير او ولاية العهد والجلوس بعدى على سرير الملك فان اخترت الخلافة فاحضر الى بمدينة كوبنهاغ فما كان من اخصائه الا انهم افهموه وأثبتوا عنده أن من الخطر عليه أن يكون بعيدا عن نصحائه بين والد غضبان عليه وزوجة اب شأنها

الجفا والقسوة فأصغى الى كلامهم واظهر أنه يريد السفر لابيه فى كوبنهاغ وقصد مدينة ويانه بقصد الاقامة عند صهره كرلوس السادس ايمبراطور النمسا حتى تنقضى حياة ابيه

وهذا قريب مما وقع من لويز الحادى عشر (احد ملوك فرانسا) حين كان ملقبا بالدوفين (اى ولى العهد) حيث ترك ديوان ابيه كرلوس السابع (ملك فرانسا) وذهب الى دوق برغونيا ولكن كان خطأ ابن ملك فرانسا اشد من خطأ ابن چار الموسقو فان لويز تزوج قهرا عن ابيه وجمع عليه جيوشا وقصد الاقامة عند امير هو بالطبع عدو لوالده ولم يرجع الى ديوان فرانسا اصلا مع الحاح ابيه عليه فى طلب العود اليه

واما ألكسيس فكان بعكس ذلك فانه لم يتزوج الا باذن ابيه ولم يحصل منه قيام عليه ولم يجمع جيوشا ولم يلتجئ الى عدوه وعاد تحت اقدامه بمجرد ما كتب له بطلب حضوره اليه وذلك أن بطرس بمجرد مابلغه أن ولده كان بمدينة ويانه ثم انتقل الى بلاد تيرول بارض النمسا ثم الى نابلى وكانت اذ ذاك تحت حكومة الايمبراطور كرلوس السادس ارسل له احد ضباط الغارديا المسمى رومنزوف وأحد المشيرين المسمى تولستوى واعطاهما كتابا حرره بيده فى مدينة اسپا تاريخه ٢١ من شهر يوليه سنة ١٧١٧ من الميلاد على حسب التقويم الجديد فوجدا الامير ألكسيس فى سراية سنت ايلم بمدينة نابلى فناولاه كتاب ابيه فاذا فيه قد كتبت اليك كتابى هذا وهو آخر كتاب منى اليك لاخبرك بأنك مجبور على طاعتى وامتثال ما آمرك به على لسان كل من منزوف وتولستوى فان اجبت بالسمع والطاعة فأقول لك ولا اقول الاحقا انى قد اشهدت الله على انى لا اعاقبك وانك ان رجعت فزت منى بدوام المحبة والاقبال والا عاملتك من حيث الابوة بالغضب المؤبد حسبما يقتضيه ما جعله الله لى عليك من القوة والاقتدار واما من حيث كونى ملكك وولى امرك فلى فى عقابك طرق كثيرة وانى اسأل الله تعالى الاعانة وارجوه أن يتولى امر

هذه الدعوى التى لم أحد فيها عن الحق
وبالجملة فتفكر أنى لم اضيع لك حقا ولم اظلمك فى شئ وهل كنت مضطرا الى تخييرك حين وكلت لك الامر فى اختيار ما تشاء او ليس انى اقدر على الزامك بما اريد وهل على فى ذلك الا مجرد الامر الذى لا شك فى اجرائه وتنفيذه انتهى

ثم ان عامل الامبراطور على نابلى حسن لالكسيس العود الى ابيه فكان ذلك ادل دليل على أن امبراطور النمسا لم يقصد أن يكون بينه وبين ألكسيس مطلق ارتباط او معاهدة وأنه برىء مما اتهمه به الجار فى هذا المعنى وكان ألكسيس قد استصحب معه فى السفر عشيقته افروزينة فاخذها معه فى عودته

ولا مانع أن ايثار هذا الامير السفر الى مدينة بج ونابلى على السفر الى كوبنهاغ عند ابيه كان ناشئا عن طيش الشبوبية واغواء المفسدين فان كان لم يرتكب الا مجرد هذا الخطا الذى لا يخلو عنه كثير من امثاله من الشبان فهو امر هين يتساهل فيه ويغضى عن مثله لا سيما ووالده قد اشهد الله على نفسه أنه زيادة على الصفح عنه يفوز منه بدوام المحبة والاقبال فمن ثم سافر ألكسيس معتمدا على هذا الالتزام الصحيح ووائقا بهذا الاخبار المؤكد ولكن الظاهر أنه كان فى كلام السفيرين اللذين بعثهما لاحضاره بل وفى مكتوب الجار نفسه ما يفيد الزام ألكسيس من طرف ابيه بالافصاح عن مشيريه ونصحائه وبأن يبر فى يمينه التى حلفها على أنه ينزل عن ولاية العهد

فلذا كان يظهر أنه يتعذر او يتعسر الجمع بين حرمان هذا الامير من الوراثة واليمين التى حلفها له ابوه فى مكتوبه أنه ان رجع فاز منه بدوام المحبة الا أن يقال انه تعارضت عند بطرس مقتضيات الابوة وبواعث الامارة الملوكية فلذا اقتصر على أن يحب ولده منقطعا فى دير من الاديار وربما كان يؤمل بما افاده لولده ألكسيس من ضياع تاج الملك منه أنه يعود الى ما يجب عليه من البر والطاعة بحيث يصير أهلا للولاية من بعده اذ لا يبعد فى مثل هذه

الاحوال

الاحوال النادرة الصعبة المؤلمة أن يعتقد أن قلبى الجبار وابنه اللذين هما وقتئذ على حدّ سواء فى النفرة والغيظ كانا قبل ذلك على الالفة والاتحاد

ثم ان الامير ألكسيس حضر الى مدينة موسكو فى ثالث فبريه سنة ١٧١٨ من الميلاد (على حسب التقويم الجديد) وكان الجبار يومئذ بها فخرّ على ركبتى ابيه وقبلهما وتحادثا طويلا فاشاع الخبر فى المدينة انهما اصطلحا ونسيا ما كان بينهما ولكن فى صبيحة اليوم الثانى صدر الامر بتسليح ألايات الغارديا وضرب الناقوس الاكبر بالمدينة المذكورة (وكانت هذه علامة عندهم على حصول امر مهم) وبعث للبويار (وهم اكابر الدولة واعيانها) ولارباب الديوان العالى أن يحضروا فى السراية واجتمع فى الكنيسة الكبرى القسوس ورؤساء الديورة واثنان من طائفة منت بازيل كانا يعلمان العقائد وجىء بالامير ألكسيس الى السراية مجرّدا عن سيفه كالمسجون حتى تمثل بين يدى والده وخرّ له ساجدا وناوله وهو يبكى كتابا مضمونه الاعتراف بما فرط منه فى حق والده من الخطا والاقرار بأنه ليس اهلا للولاية بعده ولم يطلب منه سوى الابقاء عليه وحقن دمه

فأقامه الجبار من الارض وأدخله فى خزنة هناك وسأله عدة اسئلة وهدده بضرب عنقه اذا هو كتم شيأ من الامور التى تخص هروبه وفراره ثم أتى به الى المحل المنعقد فيه المشورة وتلى على اربابها ما سطره الجبار من الاعلان فى حق ابنه وكان هذا الاعلان مكتوبا قبل عقد المجلس

وقد لام الجبار ابنه فى هذا الاعلان على ما صدر منه مما اسلفناه تفصيلا فلامه على عدم اعتنائه بالتعلم ومخالطاته للمخالفين الذين يميلون الى العوايد القديمة وعلى قبح سلوكه مع زوجته حيث قال انه نقض عهود الزوجية وخان الفراش بميله وحيازته لبنت من الرعاع فى حياة زوجته نعم وان كان الجبار ايضا طلق زوجته رغبة فى امرأة مسبية الا انها كانت ذات فضل وعقل وافر وكان هو فى الواقع ونفس الامر قد سئمت نفسه من زوجته الاولى التى هى من رعاياه لعدم ملايمة طباعها لطباعه فكان معه الحق فى ذلك بخلاف ألكسيس فانه

اهمل زوجته رغبة فى شابة مجهولة الاصل لم يكن لها من الفضل سوى الجمال
ثم ان ماذكر الى هنا لم يظهر منه الاهفوات وقعت من شاب يلزم أن اباه يلومه
عليها او يسوغ له مسامحته منها والاغضاء عنها
ثم لامه بعد ذلك على ذهابه الى مدينة ويانه ودخوله تحت حماية ايمبراطور
النمسا وذكر أنه هتك حرمة والده باخباره للايمبراطور المذكور بأنه مظلوم
وانه كان فى دولة الموسقو يجبر على النزول عن ولاية العهد ثم لامه ايضا
على كونه ترجى ذلك الايمبراطور فى أن يحميه من ابيه بالحرب والقوة
العسكرية
ثم انه لايتصور أن الايمبراطور بهذا السبب يحارب جار الموسقو
وكيف يمكنه أن يجعل لنفسه مدخلية فى هذه المادة الا بالتوسط بالمعروف
بين أب غضبان وولد عاق بان يوقع الصلح بينهما فلذا اقتصر الايمبراطور
المذكور على تعيين محل يأوى اليه ألكسيس ثم بعثه الى والده حين بلغه هذا
الخبر وطلبه
وقد ذكر بطرس ايضا فى هذا الاعلان المبنى على القساوة والجفا أن
ألكسيس أدخل فى آذان الايمبراطور أنه اذا عاد الى بلاد الموسقو لايكون
آمنا على نفسه وقد تحقق ذلك بما صدر من الجبار فى حقه من الحكم
عليه بالموت بعد عودته لاسيما وكان ذلك بعد ماوعده بالعفو والمسامحة
ولكن سيأتى لنا السبب الحامل للجبار على حكمه بعد ذلك على ابنه
بهذا الحكم الجدير بتخليد الذكر وبالجملة فقد حصل فى هذا المجلس العظيم
امر عجيب وهو أن ملكا مطلق التصرف تخاصم مع ابنه وحاول اثبات
الحق عليه
فقال بطرس هاهو ابننا قد حضر بهذه الكيفية فهو وان استحق
القتل لهروبه والخوض فى عرض والده الا أن شفقة الابوة حملتنا على الصفح عنه
ومسامحته من هذه الذنوب ولكن بالنظر الى ماصدر عنه من العيب الفاحش
والسلوك القبيح لايمكن أن تسمح نفسنا له بارث الملك بعدنا لما نتوقعه فيه من أنه

بعد موتنا يذهب قبح سلوكه بفخار الملة الموسقوبية وفتوحاتها الكثيرة التى استرجعناها بأسلحتنا ولابد اننا نتحسر ونتأسف على رعايانا اذا أضررنا بهم وتركناهم فى حالة اقبح مما كانوا عليه اولا بجعل ألكسيس ملكا عليهم بعدنا

فبالنظر لمالنا من قوة الابوة التى بمقتضاها وبمقتضى قوانين دولتنا يسوغ لكل انسان ولو من رعايانا أن يحرم ولده من ارثه كما يشاء وكذلك بالنظر لما فينا من الصفة الملوكية ولما فيه نجاة اهل ملكنا قد حرمنا ولدنا ألكسيس من ارثه لنا واستيلائه على سرير دولة الموسقو بعدنا لما ارتكبه من الذنوب ووقع منه من العيوب فهو ممنوع من الولاية بعدنا ولو انقرضت عائلتنا عن آخرها ولم يبق منها سواه

وقد جعلنا ولاية العهد على دولة الموسقو لابننا الثانى بطرس وهو وان كان صغيرا الا انه ليس لنا وارث اكبر منه

(وبطرس هذا هو ابنه من الايمبراطورة كاترينة الذى مات فى ١٥ شهر ابريل سنة ١٧١٩ من الميلاد كما تقدم)

واذا ادعى ولدنا ألكسيس فى اى زمن من الازمنة وراثة الملك بعدنا اوتطلبها لنفسه فقد عقنا واستحق غضبنا ونؤمل من رعايانا اهل الطاعة والامانة قسوسا وعوام وغيرهم ومن كافة الملة الموسقوبية انهم بمقتضى قوانيننا وارادتنا يذعنون لابننا بطرس المذكور الذى عيناه لولاية العهد ويعتبرونه الوارث للملك بعدنا ارثا شرعيا * وبمقتضى امرنا هذا نطلب ايضا من رعايانا المذكورين انهم يحلفون أمام محراب الكنيسة المقدسة على الانجيل المقدس وهم يقبلون الصليب أن يعملوا بمقتضى هذه القوانين ولا يخالفوها

وكل من عارض منهم فى اى وقت من الاوقات رأينا هذا وتجاسر من الآن فصاعدا على أن يعتبر أن ابننا ألكسيس المذكور هو ولى عهدنا ووارث ملكنا اويعينه على ذلك فهو خائن لنا وللوطن وقد امرنا بأن هذا الاعلان

ينشر فى سائر الجهات بحيث لا يمكن لاحد دعوى جهله وعدم العلم به *وقد حرر هذا بمدينة موسقو فى ١٤ شهر فبرية سنة ١٧١٨ من الميلاد بمقتضى التقويم الجديد ووضعت عليه علامتنا بيدنا وختم بختمنا انتهت

والظاهر أن هذه الصورة كانت مكتوبة من قبل اوأنها كتبت مع غاية السرعة فان عود الامير ألكسيس كان فى ١٣ من الشهر والحكم بحرمانه من الارث والانعام به على ابن كاترينة كان فى ١٤ من ذلك الشهر وقد وضع ألكسيس اسمه على هذه الصورة واعترف بأنه اسقط حقه فى ولاية العهد حيث قال مامعناه أعترف أن ماصنعه والدى بى من حرمانى من ولاية العهد هو فى محله وهو من باب العدالة والانصاف وانى مستحق لذلك بما وقع منى من العصيان والمخالفة واقسم بالله القدير انى بهذا الامر لجدير وقد اذعنت لكل ما تعلقت به ارادة ابى انتهى

ولما تمت هذه الصورة بوضع الامضاآت عليها ذهب الجار الى الكنيسة الكبرى وامر بقراءتها ثانيا ووضع جميع القسوس علامة الصحة والامضاء على نسخة اخرى منها ولم يسبق حرمان امير من الولاية على وجه صحيح بهذه المثابة مثل حرمان هذا الامير بل كثير من الدول لا يعتبر مثل هذا الامر بالكلية ولكن كانت قوانين كل من الموسقو وقدماء الرومان تجعل للوالد الحق فى حرمان ولده من ارثه ولا شك أن هذا الحكم فى حق الملك اقوى منه فى حق غيره من الرعايا لا سيما اذا كان مثل بطرس الاكبر

ومع ذلك كان يخشى أن يأتى يوم يقوم فيه من حرض ألكسيس على ابيه وأشار عليه بالهروب والفرار ويبذلون معه جهدهم فى ابطال نزوله عن الولاية لأنه انما نزل عنها بالاكراه والاجبار ويردون الى هذا الابن البكرى التاج الذى سلب منه واعطى للابن الثانى الذى هو من زوجة الجار الثانية وكان يتوقع من ذلك نزاع داخلى وحرب اهلى يفضى بلا شك الى ابادة جميع ماابدعه بطرس فى دولة الموسقو من التحسينات العظيمة والامور

النافعة

النافعة الجسيمة وبالجملة فكان يلزم انهاء هذه القضية اما بمراعاة مصلحة نحو ثمانية عشر مليونا من الاهالى الذين كانت تحتوى عليهم دولة الموسقو اذ ذاك او مصلحة شخص واحد لم يكن كفؤا لحكمهم والولاية عليهم فلذا كان من المهم معرفة المفسدين وتعيينهم ومن هنا هدد الجار ثانيا ولده بالقتل اذا هو كتم عنه شيأ واستجوبه بنفسه استجوابا جاريا على مقتضى الاصول والقوانين ثم عين لاستجوابه جمعية مخصوصة

ومن جملة اسباب الحكم على ألكسيس بالقتل مكتوب حرر بمدينة بترسبورغ من طرف بيير احد وكلاء ايمبراطور النمسا بدولة الموسقو بعد هروب ألكسيس يتضمن أن العساكر الموسقوبية المجتمعة بمكلامبورغ حصل منها قيام وعصيان وأن عدة ضباط من العساكر المذكورة يتصادقون فى وضع الجارة الجديدة كاترينة مع ابنها فى السجن الذى كانت به الجارة المطلقة ويتكلمون فى تولية ألكسيس على سرير الملك اذا وجدوه * نعم كان قد حصل اذ ذاك فتنة وعصيان فى تلك العساكر لكن قمعها الجار فى اقرب مدة ولم يترتب على لغطهم المذكور أدنى خلل ولم يكن فى وسع ألكسيس تحريضهم على هذا العصيان ولا اعانتهم عليه فذكر الوكيل المذكور لهذا الامر فى مكتوبه ليس الا لكونه اجنبيا يفيد دولته بما يعثر عليه من الاخبار والحوادث ولم يكن ذلك المكتوب خطابا لألكسيس ولا وقع منه تحت يده الانسخة ارسلت له من مدينة يج

وقد اتهم ألكسيس ايضا بتهمة اعظم من السابقة وهى أنه عثر على مسودة مكتوب حررها بيده فى مدينة يج خطابا لارباب مشورة السنت واساقفة الموسقو سلك فى عباراته مايؤدى الى الاساءة والغضب وصورته ان المعاملة السيئة الجارية فى حقى على الدوام بدون مقتض أستحقها به الجأتنى الى الهروب والفرار ولم يكن على سجنى فى دير من الديورة الا القليل فالذين كانوا سببا فى سجن والدتى ارادوا أن يصنعوا بى كما صنعوا بها وانى الآن تحت حماية

ملك عظيم الشان وأرجو منكم أن لا تتركونى الآن انتهت فكلمة الآن هذه التى يمكن اعتبارها كلمة تعصب وجدت فى المسودة المذكورة قد ضرب عليها ثم كتبها ثانيا بيده ثم ضرب عليها فهذا دليل على أن هذا الشاب كان مضطربا متحيرا وانه كان مغيظا متندما فى آن واحد ولم يحصل العثور من مكاتباته الا على المسودات التى لم تصل الى من حررها اليهم وذلك لأن ديوان مدينة بج حجزها ولم يوصلها الى اربابها وهذا من اقوى الادلة على أن الديوان المذكور كان لا يريد ايقاع الفتنة والتفاقم بينه وبين ديوان الموسقو ولا محاماة ابن الجبار من ابيه بالقوة الحربية

وقد اتى بالشهود ليشهدوا عليه فى حضوره فشهد أحدهم المسمى أفاناسيف انه سمعه يقول أخبر القسوس بشئ يقولونه للخوريين وهم يقولونه لاهالى اخطاطهم فيولونى الحكم على الدولة ولو قهرا عنى

وشهدت عليه ايضا نفس صاحبته المسماة افروزينة ولكن جميع التهم التى اتهم بها كانت مبهمة حيث لم يعمل بما اتهم به ولم يتبع دسيسة من الدسائس ولم يحصل منه تعصب ولا تحزب ولم يظهر منه تجهيزات تدل على الاستعداد لمثل ذلك وانما غاية ما يقال فيه انه غلام من عائلة مكدر الخاطر فاسد الاخلاق يتشكى من ابيه ويهرب منه ويتمنى موته غير أنه بالنظر لكونه هو الوارث لاعظم الدول واوسعها كان ما يصدر عنه من المساوى يعد من الذنوب الكبيرة

وكما اتهمته صاحبته المذكورة اتهم ايضا بأنه كان بينه وبين امه الجبارة القديمة واخته الاميرة مارية اسرار ومكالمات فقد قيل انه استشار والدته فى امر الهروب وتكلم فى ذلك ايضا مع اخته المذكورة فقبض على اسقف من اساقفة روستو كان امين اسرار هؤلاء الثلاثة واستشهد على ذلك فشهد بأن الاميرتين المسجونتين فى الدير كانتا تؤملان حصول تغيير فى الدولة يكون سببا فى تخلية سبيلهما وأنهما اشارتا على الامير المذكور بالهروب * وبالجملة فبقدر ما كان الحقد فيهم طبيعيا كان امره خطرا عليهم وسيأتى آخر الفصل

ما يعرف

مايعرف به حال هذا الاسقف وكيف كان سلوكه

وقد أنكر ألكسيس فى مبدأ الامر عدة تهم من هذا القبيل فصار بانكارها عرضة للهلاك لأن أباه كان يهدده بالقتل اذا هو لم يعترف بما وقع منه اعترافا صحيحا

ثم آل امره أن اعترف ببعض كلام يتضمن عدم اعتبار والده واساءة الادب عليه واعتذر عن ذلك بالغيظ والسكر

ثم ان الجبار كتب بنفسه اسئلة اخرى لولده وكان مضمون السؤال الرابع منها ما معناه انك عند اطلاعك على مكتوب بير المتضمن أن جيش مكلامبورغ حصل منه قيام وعصيان فرحت لذلك وانشرح صدرك واظن انه كان لك فى ذلك اغراض وما آرب وانه لو دعاك العصاة اليهم لاجبتهم وانخرطت فى سلكهم ولو فى حال حياتى انتهى

ويؤخذ من هذا السؤال أن الجبار كان يريد أن يعرف ما كان قائما بقلب ولده من الاغراض الباطنية التى يمكن أن يعترف بها الانسان لأبيه فيزيلها من قلبه بالنصائح وينكرها من الحاكم لأنه لا يحكم الا بمقتضى الظاهر *

ومن المعلوم أن الامور الباطنية والمقاصد القلبية لا تقام فى شأنها دعوى ولا يترتب عليها حد ولا جزاء فكان يمكن لألكسيس انكارها ويسهل عليه كتمانها اذ هو غير مجبور على كشف ضميره واظهار ما فى باطنه ولكنه أجاب بالكتابة عن هذا السؤال بما صورته لو دعانى العصاة اليهم فى حال حياتك لكنت غالبا اجيبهم وانضم الى حزبهم متى كنت واثقا منهم بالقوة والشدة

ولا يتصور أن هذا الامير اجاب بذلك من تلقاء نفسه ومن الغريب ولو عند أهل اوروبا فقط أن يحكم عليه بمجرد اعترافه بخطور امر فى باله معلق تنجيزه على شئ لم يحصل وزيادة على اعترافه الغريب بهذا الامر الباطنى الذى اضمره ولم يتجاوز سره اقيمت عليه ادلة غير مقبولة ولا يعمل بها فى كثير من محاكم البشر العادلة

وذلك أن هذا الامير لما ضاق به الخناق وغشيه ما غشيه من اليأس وحله

الخوف على قول الصدق بداهة اعترف بأن الذنب جنيته ومحله طويته قاصدا بذلك تأييد ما يمكن أن يؤدى الى اتلافه حيث اقرّ أنه عند الاعتراف على يد القسيس باكس قال ماصورته اذا سئلت بين يدى الله اعترف بأنى تمنيت موت ابى وأن القسيس المذكور قال له ماصورته المولى يسامحك نحن جميعا نتمنى مثل ماتمنيت

وجميع مايستنبط من هذا الاعتراف لايعمل عليه بمقتضى قوانين الكنيسة القاثوليقية لأن ذلك انما هو سرّ بين العبد وربه يعترف به من ندم على مافرط منه من الخطايا* وايضا قوانين كل من الكنيسة اليونانية واللاطينية تمنع أن مابين العبد وربه تناله احكام المحاكم البشرية الا أن يقال ان هذه القضية كانت تتعلق بالدولة والملك ثم انه شدّد على القسيس باكس فاعترف بأن ماأقرّ به ألكسيس صحيح ومن الغريب أن نرى فى مثل هذه الدعوى أن قسيس الاعتراف يتهمه المذنب المعترف على يده كما أن هذا تتهمه صاحبته ويمكن أن يزاد على غرابة هذه القضية أن المطران دوريزان وصل اليه شئ من هذه التهم وذلك انه كان سابقا فى اوائل غضب الجبار على ابنه قد خطب خطبة اظهر فيها المساعدة والمراعاة لجانب الامير ألكسيس فلما اقيمت الدعوى كان من جملة اجوبة هذا الامير اعترافه بأنه كان معتمدا على هذا المطران مع أن المطران المذكور كان رأس القضاة القسيسية الذين استشارهم الجبار فى هذه القضية المتعلقة بذنب ولده وسيأتى ذكر مايتعلق بذلك عن قريب

وهنا امر مهم ينبغى التنبيه عليه فى هذه القضية الغريبة التى لم تذكر على ماينبغى فى التاريخ الغير المألوف الذى ألفه نستيزورانوى المدعى انه بويار (اى من اكابر اهل الموسقو) فى شأن بطرس الاكبر وهاك نصه فى هذه المادّة

من جملة الاجوبة التى اجاب بها ألكسيس عن اول سؤال من اسئلة ابيه له انه اعترف بأنه لما كان بمدينة يج لم يجتمع بالاميراطور فعرض امره

على

على قونتة دوشونبرن حاجب ذلك الايمبراطور فقال له اعلم أن الايمبراطور لا يتركك بل يساعدك عند الحاجة يعنى انه بعد موت ابيك يسعى فى توليتك على سرير الملك بالقوة العسكرية قال ألكسيس فقلت له ليس هذا مرامى وانما اروم حمايته الايمبراطور انتهى ويتراءى على هذا الاعتراف انه بديهى غير مصطنع وانه اخبار بالواقع ولو طلب ألكسيس من الايمبراطور جيوشا لاجل عزل ابيه والاستيلاء بعده على الملك لكان ذلك منه محض جنون بل لا يمكن لاحد أن يتجاسر على الامير اوجين وكيل الايمبراطور ولا على مشورة الايمبراطور ولا على الايمبراطور نفسه ويعرض عليهم مثل هذا الامر المحال * ثم ان هذا الاعتراف صدر من ألكسيس فى شهر فبراير وبعد ذلك بأربعة شهور أعنى فى غرة شهر يوليه اشير على هذا الامير فى اثناء مدة اقامة الدعوى وفى اواخرها أن يكتب فى اجوبته الاخيرة ما معناه

حيث انى لا اريد أن اتبع والدى ولا انسج على منواله فى اى شئ كان بحثت عن أن اخلفه على الملك باى طريقة كانت ما عدا الطريقة الشرعية الجارية فى مثل هذا الامر فلذا اردت أن اخلفه بواسطة مساعدة ومعونة اجنبية ولو نلت هذا الامر ونجز الايمبراطور ما وعدنى به من كونه يجلسنى على تخت دولة الموسقو ولو بالقوة الحربية لما توقفت فى بذل شئ مما يوصلنى الى نيل هذا الغرض فلو طلب منى الايمبراطور مثلا جيوشا من دولة الموسقو فى مقابلة جيوشه التى اعاننى بها ليستعين بها على اعدائه او طلب مبالغ جسيمة من النقود لاجبته الى ما طلب بل وكنت اعطى وزراءه وجنرالاته هدايا جسيمة وتحفا عظيمة واجعل على طرفى مصاريف الجيوش التى يساعدنى بها على الاستيلاء على دولة الموسقو وبالجملة فكان لا يعوقنى عائق عن تنجيز كل ما خطر ببالى من الاغراض والمآرب

والظاهر أن هذا الاقرار الاخير كان بطريق الاجبار والاكراه لانه يظهر منه أن هذا الامير قهر نفسه على نسبة الذنب اليه وايضا ما نسبه الى الايمبراطور

من وعده اياه بالتولية على الدولة الموسقوبية بالقوة والسلاح غير صحيح لأن قونتسة دوشونبرن انما اوقع فى رجائه أن الامبراطور يمكن أن يساعده بعد موت ابيه على اخذ حقه من وراثة الملك بعده واما الامبراطور نفسه فلم يعده بشئ وايضا هذه القضية لم يكن لها تعلق بعصيانه وقيامه على والده وانما كانت فى خصوص ارثه للملك بعد أبيه

وماذكره ألكسيس فى هذا الاقرار الاخير هو ما كان يظن انه يفعله اذا نوزع فى وراثة الملك بعد والده لانه لم يكن نزل عن حق الوراثة نزولا شرعيا قبل سفره الى ويانة ونابلى ويؤخذ من ذلك أن هذا الاقرار الاخير لم يكن فعل مضمونه فلا مؤاخذة عليه فيه بمقتضى الشرائع والقوانين وانما هو امر خطر بباله وكان يمكن أن يعمل بمقتضاه عند الحاجة ومجرد الخطور بالبال لا يؤاخذ به شرعا فقد عرفت أن ألكسيس افصح مرتين عما كان فى سره مما خطر له أن يفعله فى المستقبل ولم يسبق قبل ذلك فى الدنيا بتمامها أن انسانا حكم عليه لاجل امور خطرت بباله لم يترتب عليها ثمرة ولم يفشها لاحد وليس فى اوروبا بتمامها محكمة تسمع دعوى انسان يدعى على نفسه بذنب حدثته به نفسه بل من المأثور أن الله تعالى لا يؤاخذ من هم بسيئة مالم يصر على فعلها

ويمكن أن يجاب عن هذه الملاحظات بأن ألكسيس هو الذى اثبت لابيه الحق فى معاقبته حيث انكر جماعة ممن شاركه فى ذنب الهروب باغرائهم له على ذلك واما عفو والده عنه فكان معلقا على اعترافه اعترافا عاما بجميع ما صدر منه وهذا انما حصل منه بعد فوات الوقت وقصارى الامر انه بعد ما حصل فى هذه المادة ما حصل يستبعد بمقتضى الطبع البشرى أن ألكسيس يسلم لاخيه فيما حرم منه لاجله من وراثة المملكة فلذا قيل ان معاقبة هذا المذنب اولى من جعل الدولة بتمامها فيما بعد عرضة للخطر فصعوبة الاحكام فى هذه المادة وافقت مصلحة الدولة

ولا ينبغى أن يحكم على ملة من الملل بقوانين وعوايد ملة اخرى فللجار

بموجب قوانين المملكة حق صحيح وان كان من الحقوق المشؤومة فى معاقبة ابنه بالقتل بالنظر لذنب الهروب فقط كما يفصح عن ذلك نص الاعلان الذى عرضه الجار فى هذه القضية على جمعية القسوس والقضاة وهو

ان الشرائع الالهية والقوانين البشرية لاسيما قوانين الملة الموسقوبية تمنع الاهالى أن يحكم الوالد منهم على ولده فيما هو من وظائف القضاة والحكام *

واما نحن فلنا القوة المطلقة فى الحكم على ماوقع من ابننا ألكسيس من الذنوب حسبما تقضيه ارادتنا بدون أن نطلب فى ذلك رأى احد ولكن حيث كان الانسان لايعرف مصالحه الخصوصية حق المعرفة كما يعرف مصالح غيره فان الطبيب ولوماهرا لايخاطر بمداواة نفسه بنفسه عند مرضه بل يدعو لمعالجته طبيبا آخر وكنت اخشى شغل ذمتى وعدم براءتها بارتكاب بعض المحظورات عرضت لكم هذه الحالة الواقعة بينى وبين ابنى طالبا منكم دواء هذا الداء فانى اذا كنت لااعرف دائى واردت أن اعالج نفسى بنفسى رغبة فى شفائى اخشى أن يفضى بى ذلك الى البوار والخلود فى النار لاسيما بالنظر لكونى حلفت بالاحكام الربانية على العفو عن ولدى فى شأن هذه القضية والتزمت له ذلك بالمكاتبة ثم اكدته بعد بالمشافهة والمخاطبة اذا هو أفصح لى عن حقيقة الحال ولم يكتم عنى شيأ فى المقال

ومع أن ابنى هذا قد أخلف وعده لكن لاجل أن لااحيد فى حقه عن شئ مما يجب على ارجوكم أن تتفكروا فى هذه القضية وتمعنوا فيها النظر بالكلية حتى يظهر لكم مايستحقه ولا تتملقوا لى ولا تخشوا انكم ان حكمتم عليه بعقاب خفيف ظهر لكم انه لايستحق غيره لم يأت حكمكم هذا على طبق مرامى بل اقسم بالله العظيم واحكامه الربانية أنه لاخوف عليكم فى ادنى شئ من ذلك

ولا يلحقكم غم ولا تعكير من كونكم تحكمون على ابن ملككم بل احكموا بالعدل والانصاف بدون أن تميلوا فى الحكم الى غرض اوتراعوا خاطر أحد ولاتسلكوا فى ذلك مافيه هلاككم ونجاتى وبالجملة فالمامول أن تكون

ذمتنا برئة يوم الموقف المهول وان لا يحصل لوطننا ادنى شئ يضر به انتهى كلامه

وقد صدر من الجار مثل هذا الاعلان تقربيا لطائفة القسوس فكان كل ما حصل منه فى هذه القضية جاريا على طبق الاصول وقد سلك فيها مسلكا يؤذن بشهرتها وعلمها عند الخاص والعام وهذا دليل على انه محرص على العدل والانصاف

وقد مكثت هذه الدعوى التى اقيمت على وارث دولة الموسقو بتمامها من آخر شهر فبريه الى خامس شهر يوليه بمقتضى التقويم الجديد (وذلك اربعة اشهر وبعض ايام) وقد سئل ألكسيس عدة مرات واعترف بجميع ماطلب منه الاعتراف به وقد ذكرنا من ذلك الاهم

وفى غرة شهر يوليه كتب القسوس ماظهر لهم فى هذه القضية من الآراء لأن الجار فى الواقع لم يطلب منهم الارأيهم فى ذلك لا الحكم على ألكسيس ومقدمة ما كتبوه فى هذا المعنى حرية بأن يطلع عليها اهل اوروبا وهاهى صورتها

هذه القضية لاتعلق لها بالاحكام الدينية اصلا ولا تسلط لرأى الرعية على القوة الملوكية المطلقة التصرف ببلاد الموسقو بل الملك وحده هو الذى له التصرف المطلق والحكم كيف يشاء بدون أن يكون لاحد من رعيته مدخل معه فى ذلك انتهت وذكروا بعد هذه المقدمة أن التوراة نصت على أن من عق والده او والدته يقتل وذكروا أن هذا الحكم الصعب نقله متى فى انجيله من التوراة وبعد أن ذكروا عدة شواهد اخرى من هذا القبيل ختموا كلامهم بهذه العبارة المستحسنة ونصها

ان اراد حضرة الجار عقاب المذنب على حسب ذنبه فله فى ذلك اسوة مسطورة فى كتب العهد القديم وان اراد الصفح والمسامحة فله ايضا اسوة بعيسى عليه السلام حيث قبل توبة الولد الجانى النادم على مافرط منه وعفا عن الزانية التى استحقت الرجم بمقتضى الشريعة فانه عليه السلام كان يؤثر

العفو

العفو على العقوبة وله كذلك اسوة بداود عليه السلام فانه اراد الابقاء على ولده أبشولم الذى خرج عن طاعته حيث قال لقواده وكانوا يريدون قتاله أبقوا على ابنى ولا تقتلوه فها هو الاب قد اراد الابقاء على ابنه وان كان الحكم العدل انفذ فيه حكمه وها هو قلب الجار بيد مولاه فليختر ما يصرفه اليه انتهى

وختمت هذه الصورة باختام ثمانية من الاساقفة واربعة من رؤساء الديورة واثنين من مدرسى القسوس واول من ختم منهم مطران دوريزان الذى كان له اختلاط وارتباط بألكسيس كما تقدم

ثم عرض هذا الرأى فى الحال على الجار ويؤخذ من منطوقه أن القسوس كانوا يريدون استمالة الجار الى الصفح عن ابنه فما ألطف ما ذكروه فى كتابة رأيهم من المقابلة التى جعلوها نصب عين والد يريد الحكم على ولده حيث قابلوا حلم عيسى عليه السلام وفرط رأفته بصعوبة ما فى التوراة وشدته

وفى هذا اليوم سئل ألكسيس ايضا وكان ذلك اخر سؤال له فأجاب بالكتابة معترفا بما معناه انه كان فى زمن صغره من اهل الاوهام الفاسدة وانه كان بينه وبين القسوس والرهبان ألفة ومخالطة وانه صحبهم فى مجالس شرابهم وسرت اليه منهم كراهة القيام بواجبات الدولة بل وواجبات والده انتهى

فان صح أن هذا الاعتراف صادر عن ألكسيس من تلقاء نفسه دل على انه لم يكن له علم بما صدر عن القسوس الذين اشركهم معه فى التهمة من نصيحتهم لأبيه وحلهم له على العفو ودل ايضا على أن الجار غير أخلاق قسوس دولته وعوايدهم تغييرا بينا حيث ترقوا من دركة الخشونة والجهالة فى اقرب وقت الى درجة امكنهم فيها انشاء مثل هذا التقرير الذى لو اطلع عليه اعظم اهل خرقتهم لأذعنوا اليه واستحسنوا ما فيه من الحكمة والفصاحة

وفى هذا الاعتراف ذكر ألكسيس ايضا ما اسلفناه من انه كان يريد أن يخلف

والده على المملكة بأى طريقة كانت غير الطريقة الشرعية
ويظهر من الاعتراف المذكور أن ألكسيس كان يخشى أن ما اعترف به في اعترافاته الاولى لا يكفي في نسبة الذنب اليه ويظهر منه ايضا انه انما وصف نفسه بقبح الطباع وفساد المقاصد وبكونه تعلقت آماله بأشياء يفعلها لو استولى على دولة الموسقو ليبحث بذلك مع الجهد والمعاناة عما يجعله مستحقا للقتل الذى سيحكم به عليه وقد حكم عليه بذلك فى خامس يوليه وستأتى صورة هذا الحكم تفصيلا فى آخر هذا التاريخ ويكفى أن نذكر هنا للقارئ أن تلك الصورة مبتدأة بمقدمة مثل المقدمة التى اثبتها القسوس فى اعطاء رأيهم فان مضمونها أن مثل هذا الحكم لا تعلق له بالرعية اصلا وانما هو من خصوصيات الملك الذى ليس فوق قوته الا القدرة الالهية ثم ذكر فى ذلك الحكم جميع ما اتهم به الامير ألكسيس وبعد ذلك ذكر أرباب المجلس ما معناه * ماذا يقال فيما قصده ألكسيس من العصيان الذى لم يسبق بمثله فى الدنيا لا سيما اذا انظر مع ذلك الى عزمه على قتل رجل هو بالنسبة اليه ملكه من حيث كونه رئيس الدولة وابوه من حيث النسب فهو بالنظر لذلك قد عزم على قتل نفسين انتهى
ولعل هذه العبارة وقع فيها غلط عند ترجمتها من صورة هذه القضية التى امر الجار بطبعها ونشرها اذ لا بد وأن يكون حصل فى الدنيا عصيان اعظم من هذا العصيان ولم يظهر من افعال هذا الامير ما يدل على عزمه على قتل ابيه ولعلهم عنوا بكلمة قتل ما اقر به عند قسيس الاعتراف من كونه تمنى قتل ابيه وملكه ولكن الاقرار السرى بأمر باطنى وقت الاعتراف لا يصح أن يقال فيه انه عزم على قتل نفسين
وقصارى الامر أن الآراء اتفقت على الحكم عليه بالقتل بدون أن يصرح فى صورة الحكم بنوع مخصوص من انواع القتل وعلى كثرة الحاكمين بقتله الذين كانوا مائة واربعا واربعين نفسا لم يتفكر واحد منهم فى عقاب آخر دون القتل وقد ظهر فى ذلك الوقت من الكتابات الانكليزية ما انتشرت به هذه العبارة

الآتية

الآتية وهى لو اقيمت هذه الدعوى فى مجلس البرلمان بانكلترة لما وجد فى المائة والاربعة والاربعين من يحكم على ألكسيس بادنى عقوبة وهذا ادل دليل على اختلاف الازمنة والامكنة ألا ترى أن منليوس (احد قناصل الرومانيين) كان يمكن بمقتضى قوانين انكلترة أن يحكم على نفسه بالموت نظرا الى كونه قتل ولده مع أن الرومانيين مع جبرهم وقسوتهم احترموه ولم يعاقبوه وايضا قوانين انكلترة لم تعاقب على الهروب برنس دوغالس (اى ولى العهد) لانه من حيث كونه ولى عهد الدولة لا حرج عليه بل يذهب حيث يشاء بخلاف قوانين الموسقو فانها لا تسوغ لابن الملك أن يخرج من المملكة قهرا عن ابيه وكذلك خطور الخطيئة بالبال بدون فعل لا يعاقب عليه صاحبه فى انكلترة ولا فى فرانسا ويمكن أن يعاقب عليه عند الموسقو والمخالفة اذا تعمدها الانسان وأدمن عليها وتكررت منه لا تعد عند الفرنساوية الا من باب السلوك القبيح الذى يلزم ردع مرتكبه وقمعه ولكن عد ذلك عيبا عظيما وذنبا جسيما لصدوره من ولى عهد دولة عظيمة عصيانه يفضى الى الدمار ويجر الى البوار فان ابن الجبار كان مخطئا بالنسبة للموسقو جميعا حيث اراد أن يوقعهم فى الظلمات التى اخرجهم منها ابوه

فانظر الى الجبار مع ما كان له من التصرف والقوة المطلقة المعروفة التى كان يمكنه بها أن يقتل ولده على ذنب العقوق والخروج عن الطاعة بدون استشارة احد كيف فوض النظر فى قضيته لوكلاء الملة فمن ثم كان الحاكم على هذا الامير بالقتل انما هو الملة الموسقوبية ثم ان بطرس كان واثقا من نفسه بأنه فى هذه المادة قد سلك جادة الانصاف حيث امر بترجمتها وطبعها ونشرها وعرض نفسه بذلك لما يحكم به فى شأنه اهل الدنيا

وقد منعنا قانون التاريخ فى حكاية هذه الحادثة الفظيعة أن نخل بشىء منها او نذكره على خلاف ما هو عليه ولا يدرى فى اوروبا اى الشخصين احق باللوم من صاحبه هل هو الامير الشاب الذى اتهمه والده ووقع الحكم عليه

بالقتل من طرف ملة كان يلزم أنه يتولى عليها فيما بعد وتصير رعية له او ابوه الذى كان يعتقد أنه مجبور على قتل ولده لمصلحة دولته

وقد شاع فى عدة كتب أن الجبار احضر من اسبانيا صورة قضية دون كرلوس الذى حكم عليه بالقتل ابوه فيليبش الثانى (وكان من امر دون كرلوس المذكور أنه اغضب والده بعقوقه وسوء اخلاقه وافراطه فى السخرية فلما رآى من ابيه الحنق والغيظ انضم الى عصبة الفلمنك فعثر على ما قصده من الاغراض واقيمت عليه الدعوى وحكم عليه بالموت ولا يدرى اى نوع حكم به عليه من انواع القتل (وكان ذلك سنة ١٥٦٨ من الميلاد) ويقال ان غيرة فيليبش كان لها فى ذلك مدخلية عظيمة لأنه كان له زوجة يقال لها ايزابيلة دى فرانسا فأحبها ولده وكان قد وعد بنكاحها قبل عقد أبيه عليها) ولكن كون دون كرلوس اقيمت عليه دعوى باطل لا اصل له بل ما سلكه بطرس الاول (جار الموسقو) مباين بالكلية لما سلكه فيليبش الثانى (ملك اسبانيا) ولم يعرف من طرف دولة اسبانيا بأى سبب قبض فيليبش على ابنه ولا بأى كيفية قتله وانما كتب فى هذا المعنى للبابا ولا يمبراطورة ذلك العصر مكاتيب متناقضة بالكلية وقد اتهمه على رؤوس الاشهاد برنس دورنجة (وهو لقب لولى عهد دولة الفلمنك) المسمى غليوم بأن الغيرة افضت به الى قتل ولده وزوجته وذكر أن وصف كونه نصرانيا كاملا دون وصف كونه زوجا ذا غيرة وقسوة ودون وصف كونه أبا جافيا لا شفقة عنده ولا رأفة ودون وصف كونه قاتلا لابنه فاغضى عن ذلك فيليبش ولم يعارض هذه التهمة بخلاف بطرس فانه فى قضيته مع ولده لم يعمل شيأ الا ويظهره للخاص والعام فأشاع ما ملأ البقاع أنه يؤثر الملة الموسقوبية على ولده وفوض امر الحكم عليه للقسوس واعيان الدولة فجعل بذلك اهل الارض قاطبة يحكمون بما يرونه فى شأنه وشأنهم

ومما اشتمل عليه ايضا هذا القدر المحتوم من الامور الخارقة للعادة أن الجبارة كاترينة مع كراهة ألكسيس لها وظهور شقائها وسوء حظها

إذا

اذا صار الامر اليه لم نسمع فى شئ من نكبته وسوء حظه ولم يثبت عن احد من سفراء الدول الذين بدولة الموسقو أنه اتهمها اوظن بها أنها سعت ادنى سعى فى ضرر هذا الامير مع انه ابن زوجها من غيرها وكانت منه على خطر نعم لم يقل احد انها سعت له فى طلب العفو وانما وقائع ذلك العصر لاسيما وقائع قونتة دوباسوويتز كلها متفقة ومصرحة بأنها كانت ترثى لحاله

وبيدى الآن كتابات لوزير من وزراء الدول عثرت فيها على هذه العبارة ونصها قد كنت حاضرا حين اخبر الجبار دوق دوهولستين أن كاترينة كانت ترجته أن يأمر بمنع قراءة ورقة الحكم بالموت على ألكسيس وقالت له يكفيك فى عقابه أن تلبسه ثوب الرهبانية وتنظمه فى سلك الرهبان فان اعلان الحكم عليه بالموت يعود على حفيدك بالخزى والمعرة انتهى

فلم يحقق الجبار رجاء زوجته ولم يقبل منها فى ذلك صرفا ولا عدلا بل ظن أن الاهم أن يقرأ الحكم على ألكسيس علانية على رؤوس الاشهاد حتى لايمكنه بعد ذلك أن يناقض هذا الحكم الذى اقره بنفسه ورضى به ولا أن يطلب اصلا تاج الملك حيث انه بهذا الحكم يصير فى حكم الاموات ولكن لو قام لمساعدة ألكسيس بعد موت ابيه حزب قوى فهل الموت الحكمى يمنعه من الولاية والحكم

ثم ان ورقة الحكم قرئت على الامير المذكور ووجدت فى الوقايع المذكورة ما يفيد أنه اصابه تشنج الاعصاب حين سمع هذه العبارة وهى ان الشرائع الالهية والقوانين القسيسية والملكية والجهادية تحكم بالموت بدون رأفة ولا شفقة على من تجاهر بعقوق والده واساءة ابيه وملكه انتهت ويقال ان هذا التشنج انقلب معه بداء السكتة فحاولوا افاقته فلم يفق بعد المشقة الا قليلا فطلب وهو على هذه الحالة التى كان فيها بين الحياة والموت أن يحضر اليه والده لينظره فأتى اليه الجبار فبكى الاثنان وتحدرت منهما الدموع وطلب الابن من ابيه الصفح والعفو فصفح عنه على رؤوس الاشهاد ثم مسح هذا الامير المحتضر

مع الاحتفال المسمى الاخيرة (اى مسحة الموت وهى احدى شعائر سبعة دينية معلومة عندهم) ثم خرجت روحه بحضور اهل الديوان جميعا فى ثانى يوم من قراءة الحكم عليه بالموت فحمل اولا الى الكنيسة الكبرى على نعش مكشوف وأبقوه فيها اربعة ايام لينظره الناس ثم دفنوه فى كنيسة القلعة بجوار زوجته وشهد جنازته كل من الجبار والجبارة

ثم ان الانسان مجبور بالضرورة على أن يقلد الجبار فى مثل هذه المادة اذا صح اطلاق التقليد على مثل ذلك بأن يجعل جميع الوقائع التى أدينا ها كما هى حرفا بحرف عرضة لامتحان الآراء العامة ونقدها بالفكر الصائب وبمثل هذا النقد يمتحن ايضا جميع ما تواتر فى هذا الشأن من الاخبار وتداولته الالسنة فى هذا المعنى من قيل وقال وكذلك جميع ما كتبه فى هذه المادة ثقاة المؤلفين وطبعوه وذلك أن المؤلف لنبرتى الذى هو أبعد المؤلفين عن التصاميل والاغراض وأدقهم ومن عادته التحرى فى نقل العبارة برمتها كما هى من محال تحصيلها من دواوين مصالح اوروبا يتراءى منه أنه حاد فى هذه المادة عن جادة الانصاف وعدل عما يعهد فيه من تمييز الغث من السمين حيث قال ان الجبارة كانت دائما تخشى على ولدها فلم تأل جهدا حتى حملت الجبار على اقامة الدعوى على ولده البكرى والحكم عليه بالموت ومن الغريب أن الجبار بعد أن عاقبه بنفسه بعقاب الكنوت (وهو عبارة عند الموسقو عن كون المعاقب يضرب بالسوط على ظهره حتى يتمزق جلده) ضرب عنقه بنفسه وطرحت جثته فى محل بحيث يراه العام والخاص وكان قد وضع رأسه عليها وضعا محكما حتى ان الناظر لا يظن انهما منفصلان عن بعضهما فاتفق أن ابن الجبارة مات بعد ذلك بمدة وتأسفا عليه غاية الاسف حتى ان الجبار تعكر مزاجه وتغيرت اخلاقه لكونه قطع رأس ولده بيده وتذكر الآن انه بموت هذا صار أبتر لا عقب له وقد بلغه فى هذا الوقت أن الجبارة كان بينها وبين الامير منز يقوف امور سرية غير مرضية فكان هذا بانضمامه الى تذكر أنها كانت سببا فى كونه قتل بنفسه ابنه البكرى باعثا له

على

على أن عزم أن يحلق رأسها ويحبسها فى دير من الديورة كما صنع بزوجته الاولى التى كانت لم تزل فى الدير الى ذلك الوقت وكان من عادته أنه اذا تفكر فى امر اوعزم على غرض قيده فى صحائف صغيرة لاجل تذ كاره فقيد ما عزم عليه فى شأن الجارة وكانت قد استمالت اليها بالمودة جماعة من غلمان الجار المختصين بخدمته وكان احدهم قد تعوّد على اخذ تلك الصحائف من طاولة الجار المعتدة لتزينه وتحسين هيئته ليطلع عليها الجارة فأخذ الصحائف التى قيد بها الجار غرضه فى شأنها وناولها اياها فلما قرأتها اخبرت بذلك منزيقوف وبعد ذلك بيوم اويومين عرض للجار مرض شديد لم تعرف حقيقته فأفضى به الى الهلاك فقيل ان هذا الداء ليس الا السم لأن المرض اصابه بغتة مع غاية الشدة وذلك لا يكون الا من السم ومثل هذا الامر على ما يقال جار ببلاد الموسقو انتهى

وماذكره لنبرتى فى كتاباته من مثل هذه التهم قد انتشر فى اوروبا وشاع فى سائر بقاعها ولم تزل منها جملة عظيمة ما بين مطبوع ومكتوب بخط اليد لا مانع أن الخلف يقولون بها ويعتقدون صحتها

والذى اراه انه يجب على أن اورد هنا ما وقفت عليه فى هذا المعنى فأقول ولا اقول الا حقا ان الذى نقل عنه لنبرتى هذه النادرة الغريبة هو فى الواقع ونفس الامر مولود ببلاد الموسقو ولكن عائلته غير موسقو بية ولم يكن مقيما بهذه الديار حين حلت النكبة بابن الجار بل كان غائبا عنها منذ عدة سنين وكان قد سبق لى به معرفة وكان اجتماعه بالمؤلف لنبرتى فى مدينة نيون الصغيرة (من بلاد السويسة) وكان هذا المؤلف قد التجأ اليها وقد ذهبت الى هذه المدينة غير مرة واجتمعت فيها بالذى نقل عنه لنبرتى فقال لى انى لم اخبر لنبرتى الا بما كان حاصلا اذ ذاك من اللغط والقيل والقال

ومثل هذا يدل على انه كثير ما كان فى الصدر الاول ان الانسان بمفرده يسهل عليه أن يوقع فى اذهان الناس منقصة غيره ومذمته فانه قبل ظهور فن الطباعة كانت كتب التاريخ المنسوخة بخط اليد لا يحوزها

اذ ذاك الا القليل من الناس فلم يكن هنالك طريق لنشرها بحيث يحصلها العام والخاص ولم يكن ثم من المعاصرين من يعارضها ويتعقبها فلم تكن وقتئذ عرضة للمناقشة من كل احد كالآن فكان فى ذلك العصر يكفى فى جعل الملك مكروها مذموما عند اهل الارض وفى تأبيد مذمته وتناقل فضيحته خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل أن يكتب فى ذلك مثل تاسيت وسويتون سطرا واحدا بل كان يكفى ذلك ولو فى السير المطولة والتواريخ المبسوطة

وكيف يمكن أن الجبار يضرب عنق ولده بيده * ومن الذى مسح المسحة الاخيرة بحضور اهل الديوان جميعا فهل كان بلا رأس حين مسحوا رأسه بالزيت * وفى اى وقت خيط رأسه بالجثة حتى التصق بها * كلا بل هذا الامير منذ تلى عليه الحكم بالموت الصادر فى شأنه لم يحصل تركه ولا مفارقته لحظة واحدة حتى مات

وما قيل من أن اباه قتله بالسلاح يبطل ما قيل انه قتله بالسم نعم وان كان من البعيد النادر الوقوع جدا أن الشاب يموت من اختلال مزاجه على حين غفلة من قراءة حكم عليه بالموت لاسيما وهو يعلمه وينتظره الا أن الاطباء قالوا ان مثل ذلك ممكن لا يبعد حصوله

ولو صح ما ذكره كثير من المؤلفين أن الجبار سم ولده لكان ما فعله فى اقامة هذه الدعوى المشؤمة لاثبات أن له الحق فى عقابه عند دول اوروبا عبثا لا ثمرة له ولا طائل تحته بل تكون حينئذ الاسباب التى بنى عليها عقوبته محلا للريبة ويكون هو محلا للقدح والتشنيع والواقع أنه لو اراد قتل ابنه لاجرى الحكم عليه بالموت اوليس انه السيد المتصرف وهل يظن بملك ذى تبصر وحزم كان مطمح الانظار سائر الاقطار أن يرتكب ما يؤذن بضعفه وجبنه من سم ولده مع أن فى وسعه قتله بسيف العدالة وهل يليق بمن يسهل عليه اجراء ذلك من غير أن يوصف عند الخلف الا بمجرد الوصف بالحاكم المشدد أن يرضى تدنيس نفسه بسلوك طريق اخرى فى اجراء هذا الامر تكون سببا فى وصفه بالسام الغادر بابنه

وينتج

وينتج مما اسلفناه على ماهو الظاهر أن بطرس غلب فيه وصف الملوكية على وصف الابوة فانه من حيث كونه مؤسسا ومقننا للقوانين اقتدى مصلحة نفسه ومصلحة اهل ملته ببذل مهجة ولده واتلاف ثمرة كبده اذ لولا سلوكه هذا المسلك الصعب لسقط الموسقو فى مهاوى التبربر والخشونة التى نشلهم من اوحالها واخرجهم من غياهبها ولم يسع فى اهلاكه كما هو ظاهر رعاية لخاطر زوجة اب شأنها الجفاء والقسوة ولا رعاية لابنه منها لانه كان يهدده بحرمانه من ارث المملكة بعده قبل أن يولد له منها هذا الولد الذى كان اختلال صحته على صغره دليلا على انه لا تطول حياته وكان الامر كذلك فانه مات بعد ذلك بقليل ولو فعل بطرس هذه الفعلة العظيمة لمجرد ارضاء خاطر زوجته لكان ضعيف الرأى سخيف العقل جبانا والواقع انه كان على خلاف ذلك قطعا فانه تبصر ونظر فى عاقبة ماتؤول اليه احداثاته وتأسيساته التى ابتدعها وما يصير اليه اهل ملته اذا هم استمروا محافظين على اقتفاء اثره والنسج على منواله فقد وقع ما اخبر به من تحسين مشروعاته وتحيز اغراضه وتكميل مقاصده حتى صارت ملته شهيرة محترمة عند دول اوروبا بعد أن كانت عنها بمعزل ولو بقى ألكسيس وتولى بعده لزال كل ذلك وصار الى حيز العدم وبالجملة فتذكر نكبة هذا الامير تقشعر له قلوب اهل الرأفة والشفقة وتركن اليه قلوب اهل الجفوة والقساوة

وهذه الحادثة الجسيمة الهائلة التى هى ايضا فى وقتنا هذا قريبة عهد بالحصول فى الاذهان يتكلم عليها الناس غالبا مع التعجب والاستغراب حتى اوجب ذلك الرجوع الى ماذكره مؤلفو ذلك العصر فى شانها والنظر فى عباراتهم بعين المتأمل الناقد الذى مرامه الوقوف على الحقيقة فمن هؤلاء المؤلفين الجياع الذين لا يتحرون الغث من السمين ويتجاسرون على الاتصاف بوصف مؤرخ بدون استحقاق مؤلف ذكر العبارة الآتية فى كتابه الذى اهداه الى قونتسة دوبرول اكبر وزراء ملك له وعنونه باسمه حتى يكون له اعتبار وقبول ونص العبارة المذكورة ان الموسقو جميعا يجزمون بأن ابن الجار

لم يعتب الا بالسم الذي اعدته لتبيدها زوجة ابيه الجافية القاسية انتهى وهذه التهمة يبطلها اقرار الجار لدوق دوهولستين أن الجارة اشارت عليه أن يحبس ولده هذا المحكوم عليه بالموت فى دير من الاديار (كما سبق)

واما دعوى كون هذه الجارة سمت زوجها بطرس فهى ايضا واضحة البطلان بمجرد النظر الى قضية الغلام والصحائف فانه لا يعقل أن انسانا يكتب فى صحيفة لاجل تذكاره ما صورته يلزم أن اتذكر أنى عزمت على حبس زوجتى وهل ذلك من الامور التى تنسى حتى يضطر الانسان الى تقييدها لاجل التذكر ولو صح أن كاترينة سمت زوجها وابن زوجها لصح أن ينسب اليها ارتكاب غير ذلك من الذنوب والخطايا لكنها لم يعهد عليها اصلا انها ارتكبت من القساوة والجبر ما يتوجه به عليها ادنى لوم بل لم تعرف الا بالرفق ولين الجانب والاغضاء عن الهفوات

فمن الواجب حينئذ أن نبين هنا السبب الاصلى فى سلوك ألكسيس وهروبه وموته وموت شركائه فى الذنب الذين قتلوا بيد الجلاد فنقول ان السبب فى ذلك كله هو الخطأ فى الديانة واعتقاد ما ليس بدين دينا الناشئ ذلك من القسوس والرهبان فانهم اصل لكثير من المضار والمصائب كما يفصح عنه بعض اقرارات ألكسيس السابقة ولاسيما عبارة الجار التى ذكرها فى مكتوب كتبه لابنه وهى سيعدل بك طوال اللحى الى اغراضهم

ولنذكر لك هنا ما كتبه فى هذا المعنى بعض سفراء الدول الذين كانوا بمدينة بترسبورغ وصورته ان عدة قسوس لم يزالوا محافظين على عوايدهم القديمة الخشنية ومحترصين اشد الحرص على ما كان لهم من الشوكة ونفوذ الكلمة وكانت تلك العوايد والشوكة تضيع منهم كلما تمدنت الملة يرغبون كل الرغبة فى تولية ألكسيس حيث كان يعدهم بأنه يعيدهم الى ظلمات هذه الجهالة العزيزة عندهم ومن جملتهم اسقف دوروستو المسمى دوزيته فانه زعم ان الماردومتريوس اتى اليه واخبره عن الله تعالى أن بطرس لايعيش

ثلاثة اشهر وأن اودوكسيا المسجونة فى دير سوسدال التى ترهبت وسميت باسم هيلانة كالاميرة مارية اخت الجبار تجلس مع ابنها (ألكسيس) على سرير المملكة وتتولى معه الاحكام فصدقتاها هذا القول الزور لضعف رأيهما ونقص عقلهما وصار هذا عندهما محققا لاشك فيه حتى ان هيلانة خلعت ثوب الرهبانية فى الدير واسترجعت اسمها الاصلى وهو اودوكسيا وأمرت أن تخاطب بالحضرة الملوكية وأن لايذكر اسم ضرتها كاترينة فى صلواتهم العامة وصارت لاتلبس الاثيابها الاولية التى تلبسها الجبارات عادة فى المحافل والتشريفات فعارضتها فى ذلك خازندارة الدير فقالت لها اودوكسيا ان بطرس قدعاقب الاستزليج على اساءتهم لامه وكذلك ألكسيس يعاقب كل من اساء امه وحبستها فى صومعتها ثم دخل الدير احد الضباط المسمى اصطفان غليبو فجعلته اودوكسيا واسطة فى تنجيز اغراضها واستمالته اليها بالتودد والاقبال عليه فنشر فى مدينة سوسدال الصغيرة وفيما حولها ما اخبر به دوزيتة الذى يزعم انه اوحى به اليه فمضت الثلاثة اشهر ولم يصب بطرس شئ فلامت اودوكسيا على الاسقف المذكور حيث ان الجبار لم يزل على قيد الحياة فقال دوزيتة ان السبب فى ذلك خطايا والدى وهو الآن فى المطهرة (اى هو المحل الذى تكفر فيه السيأت) وهو الذى اخبرنى بذلك فاكثرت عند ذلك اودوكسيا من عمل القداس والترحيم للموتى وقال لها دوزيتة ان هذا القداس حاصل منه تأثير ونفع ثم جاءها بعد شهر وقال لها ان رأس والدى قد طهر وصار خارج المطهرة واخبرها بعد الشهر الثانى انه خرج منها الى وسطه ثم اخبرها بعد ذلك انه لم يبق منه فى المطهرة الاقدماه ومتى خلصتا وان كان خلوصهما اصعب من غيرهما مات الجبار بلاشك

واما الاميرة مارية التى كانت لم تزل معتقدة صحة خبر دوزيتة فانها فوضت امرها بالكلية الى هذا الاسقف بشرط أن يخرج والده من المطهرة

فى اسرع وقت ويتم امر الوحى ثم ان غليبو لم يزل على مخالطته للجارة القديمة
فكان هذا النبا اعظم باعث لالكسيس على الهروب فذهب الى البلاد الاجنبية ينتظر فيها موت ابيه فعما قليل ظهر الامر وانكشف الحال وقبض على دوزيتة وغليبو وقرئت مكاتيب الاميرة مارية الى دوزيتة ومكاتيب هيلانة الى غليبو على ارباب مجلس السنت وحبست مارية فى دير سلوسلبورغ ونقلت الجارة القديمة الى دير اخر واما دوزيتة وغليبو وجميع من وافقهم على هذه الدسيسة الباطلة الناشئة عن الاوهام الفاسدة فأذيقوا اشد النكال والعذاب وكذلك من اسرتهم ألكسيس على هروبه فقدمات فى العقوبة والعذاب كل من قسيس اعترافه وناظر تربيته والاوده باشى انتهت
ومن هذا تعلم ما بذله بطرس الاكبر فى شراء السعادة التى جلبها الى اهل ملته من الثمن الغالى الذى يحزن النفوس فكم مانع عمومى كان لا بد له من الظهور عليه وعائق سرى يلزمه الظفر به وهو مع ذلك فى حرب طويل كثير المشاق والاخطار فان اعداءه فى خارج المملكة كانت كثيرة والتعصبات عليه فى داخلها كانت صعبة خطيرة كيف ونصف عائلته كان قائما عليه واغلب طائفة القسوس كان متحزبا على مشروعاته مع غاية العناد بل مكثت معظم الملة الموسقوبية بتمامها الا ما قل وهى مغتاظة منه على ما فيه صلاحها وحسن حالها حيث كانت وقتئذ لم تصل الى درجة ادراك منفعة ذلك ولم يكن فى وسعها أن تحس بثمرة سلوك تلك المسالك وكم من اوهام فاسدة كان لا بد من ازالتها من اذهان الامة الموسقوبية واعتقادات كاسدة يلزمه محو اثرها بالكلية وكم من غموم كان يلزمه أن يكشف عن الصدور ضبابها ويميط عن القلوب حجابها فكان لا بد له من خلق جديد يعتنى بتربيته ويهتم بتحسين نشأته حتى يتمكن مما كان يخطر له من المشروعات وينجز ما كان يعن له من حسن الابتداعات التى توجب السعادة والفخار وتوصل الى الاعتبار وعلو المقدار مما لم يمكن

لاسلافهم

لاسلافهم أن يتحملوه ولم يستطع آباؤهم أن يقبلوه

(الفصل الحادى عشر)*

فى ذكر ما ابدعه بطرس من الاشغال والمصالح فى نحو سنة ١٧١٨ من الميلاد ومابعدها

لما حصلت هذه الحادثة المحزنة المهولة ظهر أن بطرس ليس الا ابا وطنه وأنه كان يعتبر ملته مثل عائلته * وما كان مجبورا عليه من عقاب بعض اهالى الملة الموسقوبية الذى كان يحاول منع البعض الآخر من سلوك طريق السداد حتى يكون له الحظ الاوفر فى السعادة كان فدية لكافة الملة حيث اقتضت ذلك ضرورة تتوجع منها النفوس وتتأثر لها القلوب

ففى سنة ١٧١٨ ميلادية وهى السنة التى حرم فيها ولده البكرى من ولاية العهد وحق وراثة المملكة ومات فيها جلب الجبار لرعاياه منافع جمة وجدد لهم مصالح كثيرة مهمة حيث انشأ فيهم مالم يكن يعرفونه قبل ذلك من حسن النظام والاصلاح العام بجدد بالانشاء او الاصلاح الفنون والصنائع على اختلاف انواعها والفبريقات وجدد ايضا فى دولته فروعا من التجارة التى اخذت فى الرواج وحفر خلجانا وصلت بين الانهار والبحار واوقعت الوصلة والمخالطة بين الاهالى بعد أن كانوا منفصلين بمقتضى اوضاع بلادهم ومواقع اراضيهم * وكل هذا لا يعد من الاحداثات العجيبة التى اذا اطلع عليها عامة القارئين تعجبوا كل العجب ولا يعد من تزوير الدواوين الذى يسر خاطر اهل الشر ولا من التقلبات العظيمة التى تسر رغبة العامة فى العادة وانما حق ذلك أن يعد من الامور التى يترتب عليها سعادة اهل دولته بتمامها وينظر اليها اهل الحكمة والعقل بعين الاستبصار والتفكر

فجعل للدولة بتمامها اميرا كبيرا ضابطا عليها فيما يخص الضبطية الداخلية وعين اقامته بمدينة بترسبورغ رئيسا على محكمة مامورة بيقاء الانتظام والضبط والربط بدولة الموسكو من اولها الى آخرها ومنع مع التشديد استعمال الزينة فى الملابس وكذا لعب القمار الذى هو اشد خطرا من الزينة

وانجز تأسيس مدارس حساب بجميع مدن دولة الموسقو كان قد امر باحداثها سنة ١٧١٦ ميلادية وكذا المارستانات المخصصة للايتام واللقطة التى كان قد ابتدأ فى انشائها قبل الآن ولم تتم فانه تممها ورتب لها ما يلزم من المصاريف وامتلأت من الايتام واللقطة

ولنذكر هنا ايضا جميع الاحداثات النافعة التى كان قد عزم على تجديدها فى اول الامر ثم انتهت وكملت بعد عدة سنين فمنها أنه عتق جميع المدن الكبيرة من الجم الغفير الكائن فيها من الشحاذين المبغوضين الذين لا يريدون أن يتخذوا لهم صنعة اخرى سوى قلق اهل الصناعة والشغل فبهذه المثابة يعيشون على طرف غيرهم معيشة مستحقرة تورث الخزى والخجل ومثل هذا الخلل لم تزل تقاسيه دول اخرى غير دولة الموسقو

وجبر الاغنياء على بناء بيوت منتظمة بمدينة بترسبورغ على حسب غناءهم وسهل ذلك عليهم بسياسة مستحسنة وهو انه امر ان تنقل مهمات البناء الى مدينة بترسبورغ بدون اجرة بواسطة السفن والعربات التى كانت تعود قبل ذلك الى المدينة المذكورة فارغة من الاقاليم المجاورة اليها بعد اخراج ما فيها من الوسق وقد عين مقادير الاوزان والمقاييس والمكاييل وجعلها منتظمة مستوية فى جميع الاماكن لا تغيير فيها ولا تبديل كما انه جعل الشرايع والقوانين مستوية وهذه التسوية المرغوبة بدون طائل فى دول متمدنة منتظمة من مدة مديدة قد ترتبت وجرى عليها العمل بدولة الموسقو بدون صعوبة ولا لغط من الاهالى فالظاهر لنا ان هذه المصلحة الخيرية يشق اجراؤها ببلاد فرانسا وقد سعر اثمان البضائع اللازمة للأكل ثم ان الفوانيس التى كان لويز الرابع عشر اول من اخترعها لمدينة باريس لم تزل الى الآن مجهولة بمدينة رومة ترتبت بمدينة بترسبورغ وصارت تنير حاراتها مدة الليل وكذا الطلمبات لاطفاء الحرايق وكذلك ابواب المدينة المبطلة الحارات مع المتانة وجميع الاشياء التى تخص الأمن والنظافة والانتظام والضبط وتسهيل التجارة الداخلية والمزايا للاجانب والاغراب

والقوانين التى تمنع ارباب هذه المزايا من تجاوز الحد كل ذلك حصل بكل من مدينة موسقو وبترسبورغ على نسق جديد حديث

وقد حسن الجار تحسينا زائدا فبريقات الاسلحة سيما الفبريقة التى كان احدثها على البعد من مدينة بترسبورغ بعشرة اميال وكان هو اول ملاحظ فى الفبريقة المذكورة فكثيرا من الشغالة كانوا يشتغلون فيها أمامه وهو يلاحظ اشغالهم وكان يذهب بنفسه لاجل أن يأمر بجميع متعهدى طواحين الحبوب والسحق ونشر الاخشاب ويأمر ايضا نظار فبريقات الحبال والقلوع ودق الطوب وجر الأردواز وكذا نظار فبريقات الاقمشة بما يلزم وكان يأتى اليه من دولة فرانسا كثير من العملة الشغالين فى كل فن وكان هذا ثمرة ارتحاله الى البلاد الاجنبية

واحدث مجلس تجار وجعل نصف اربابه من اهل دولته والنصف الآخر من الاغراب حتى تكون المساعدة للشغالة وارباب الحرف والصنائع مع المساواة والعدالة اهالى كانوا اواجانب وقد احدث احد الفرنساوية بمدينة بترسبورغ فبريقة المرائى بامدادات الامير منزيقوف وآحدث فرنساوى آخر شغل السجادات والبسط القائمة السداه حسبما يشتغل بفبريقة غوبلان الشهيرة التى بمدينة باريس وهذه الفبريقة لم يزل يشتغل فيها الى الآن مع غاية الاجتهاد والترغيب وقد احدث ايضا فرنساوى ثالث فبريقة لشغل القصب المتخذ من الذهب والفضة ونجح فى ذلك وامر الجار بأنه لايشتغل فى هذه الفبريقة فى السنة الا اربعة آلاف مركة (والمركة مقدار من الذهب اوالفضة يساوى ثمانية اواق) وذلك لئلا تنقص الفضة اوالذهب من ممالكه وبلاده

وقد اعطى ثلاثين ألف روبلة اعنى مائة وخمسين ألف فرنك من نقود فرانسا وكذا جميع الادوات والآلات اللازمة للذين شرعوا فى احداث فبريقات الجوخ وغيره من اقمشة الصوف فترتب على هذا البذل النافع ان صار فى وسعه ان يلبس عساكره من الجوخ المصنوع ببلاده بعد ان كان يجلب اليهم

من مدينة برلين وغيرها من البلاد الاجنبية
فكان يصنع ببلاده الموسقو اقمشة نفيسة تضاهي اقمشة بلاد الفلمنك وعند موته وجد في مدينتي موسقو وجارسلان اربعة عشر فبريقة من فبريقات النيل والكتان
ولا شك أنه كان لا يخطر ببال احد قبل حين كان يباع الحرير في بلاد اوروبا بزنته ذهبا انه بأي اوان يحدث بالجهة التي خلف بحيرة لادوغا الكائنة تحت قطر بارد ذي ثلج في برك مجهولة مدينة ذات ثروة وغناء يصطنع فيها الحرير العجمي صناعة جيدة كما يصنع في مدينة اصفهان ففعل بطرس هذا المشروع ونجح فيه كل النجاح * ثم ان معادن الحديد كانت تستخرج بدولة الموسقو استخراجا جيدا وذلك انه لما حصل لاستكشاف بعض معادن الذهب والفضة صار احداث مشورة تخص المعادن لاثبات وتحقيق ما يستخرج هل ينتج منه مكسب وربح اكثر من المصاريف التي تصرف عليه
وقد رأى انه لاجل أن تنتشر انواع الصنائع والفنون وغيرهما لا يكتفي في ذلك بمجرد وضع امضائه على فرمانات رخصة الصنائع والحرف ونصب مفتشين على ذلك بل اقتضى نظره في اول الامر أن يشتغل هو بيده ويباشر بنفسه كما كان يفعل اولا في انشاء السفن ونظم شراعاتها وتسييرها وعند حفر الترع في الاراضي المتوحلة التي يكاد يعسر العبور عليها كان في بعض الاحيان يقود العملة الشغالة ويحفر معهم الارض ويحمل التراب بنفسه
وفي هذه السنة بعينها اعني سنة ١٧١٨ من الميلاد رسم صورة ترعة بحيرة لادوغا وسدودها وضر امه بذلك اتصال نهر فوا بنهر آخر قابل لأن تسير السفن فيه ليسهل بذلك وصول البضائع الى مدينة بترسبورغ ويجتنب بعد المسافة مع الطوف حول محيط بحيرة لادوغا التي هي عرضة للفرطونات وعواصف الرياح وفي الغالب يتعسر سير السفن فيها فعمل بنفسه تسوية ارض تلك الترعة ولم تزل الآلات التي استعملها في حفر الارض ونقل الاتربة محفوظة الى الآن وتأسى بفعله هذا جميع اهل ديوانه وقد اسرع في اشغال

هذه

هذه المصلحة وكان يتراءى انها من حيز المستحيل وقد تمت بعد موته وكذا باقى مشروعاته التى عزم عليها واعترف خلفه بعد مماته من الممكنات قد تمت ايضا

ثم ان ترعة مدينة كرونستادت الكبيرة التى يمكن تجفيفها مع السهولة وفيها تقلفط السفن البحرية قد ابتدأ فى حفرها فى اثناء الزمن الذى كانت تقام فيه دعوى ابنه

وبنى فى السنة المذكورة مدينة جديدة سماها مدينة لادوغا الجديدة وعما قليل تمم مجرى ترعتها التى توصل بحر الخزر بخليج فنلندة والبحر المحيط فكان فى اول الامر تأتى السفن الصاعدة فى نهر ولغا (اى نهر الاتل) الى النهرين الصغيرين المذكورين اللذين وصلهما ببعض ومنهما تذهب بواسطة ترعة اخرى الى بحيرة ألمن ثم بعد ذلك تدخل فى ترعة لادوغا ومنها تنقل البضائع بواسطة البحر المحيط الى جميع اجزاء الدنيا

وبينما كان بطرس مشتغلا بهذه الاشغال الجسيمة التى كانت تنجز بمباشرته وصلت همته الى بحيجزيرة كمجتقا فى نهاية المشرق وانشأ قلعتين بتلك الجهة المجهولة الحال من منذ زمن طويل لباقى اهل الارض وكان جماعة من المهندسين الذين كانوا بمدرسة البحرية التى احدثها سنة ١٧١٥ ميلادية يسيرون بجميع اقاليم دولة الموسقو لرسم خرطاتها مع غاية الضبط والصحة لكى يطلع سائر الناس على الاراضى الموسقوبية المتسعة التى اكسبها بطرس التربية والرفاهية والغناء والثروة

(الفصل الثانى عشر فى التجارة)

التجارة الخارجية كادت أن تنقرض بالكلية ببلاد الموسقو قبل عهد بطرس فأحياها المذكور واعادها ومن المعلوم أن التجارة تغيرت عن عادتها الاولية وطريقتها الاصلية فى جميع الاقطار فان الجهة الشمالية من بلاد الموسقو كانت قبل تيمورلنك (وهو سلطان التتار) مركز تجارة بلاد اليونان بل وبلاد الهند ايضا واهل مدينة جنويزة هم اول من اتجر بهذه الجهة ثم ان كلا من نهر

طنانس (ويقال له اوزى صويى) والبورستين (ويقال له تن صويى) كان مشحونا بمحصولات بلاد اسيا ولكن لما فتح تيمورلنك فى اواخر القرن الرابع عشر بلاد القرم وصار لآل عثمان الولاية على بحر ازاق انقرض ذلك الفرع التجارى الجسيم من تجارة الدنيا فاراد بطرس احياءه من بعد أن كان فى حيز العدم باستيلائه على بحر ازاق ثم ان واقعة نهر البروث المنحوسة اعدمته مدينة ازاق وبها خابت جميع ما آربه التجارية بواسطة البحر الاسود فاضطر أن يفتح بواسطة بحر الخزر طريق تجارة ليست فى الاتساع اقل من التجارة الاصلية المفقودة وكان فى القرن السادس عشر وابتداء السابع عشر قد سعى الانكليز فى احياء تجارة ارقحل ولكن خاب سعيهم فى ذلك بالكلية فلم يجد شيأ وقد ذكرنا سابقا أن والد بطرس الاكبر كان انشأ باعانة فلمنكى سفينة لاجل أن تذهب من مدينة ازدراهان الى سواحل العجم بقصد التجارة وقد حرق هذه السفينة استنكورازين العاصى الخارج عن الطاعة فمن وقتئذ خابت جميع المقاصد التجارية التى كان يؤمل اهل الموسقو حصولها بينهم وبين العجم مع الاستقامة والرشاد فمن ذلك قبل بطرس الارمن الذين هم وكلاء التجارة بسواحل بلاد العجم فى مدينة ازدراهان وجبر أهل الموسقو على أن يسلموا لهم فى جميع المزايا التجارية ومثل ذلك يفعله اهل الهند ببلادهم مع طائفة البنيان وكذا دولة آل عثمان وكثير من دول النصارى بهذه المثابة مع اليهود فان من ليس له الاجهة واحدة يكتسب منها تحوجه الضرورة الى أن يتقن تلك الجهة الضرورية لمعاشه كل الاتقان * ويلاحظها دائما بعين العرفان * وما عداه من الامم والدول يكون محتاجا اليه مضطرا لاستخدامه لمعارفه اللازمة فى بلاده

فجبر بطرس هذا الخلل الحاصل بدولته حيث عقد مشارطة مع شاه العجم مضمونها ان جميع الحرير الغير المعد لفبريقات العجم يعطى لارمن مدينة ازدراهان لاجل ان ينقلوه الى بلاد الموسقو ولكن ما حصل ببلاد العجم من الفتن والاضطراب منع عنها قريب اجراء هذه المشارطة وسيأتى لنا

بيان

بيان ماوقع من حسين شاه العجم حين هدده المتعصبون وضيقوا عليه فطلب من بطرس الامداد والمساعدة وسيأتي ايضا بيان ماحصل من بطرس بعد أن قاوم كلا من آل عثمان والاسوج في حروب شاقة صعبة ثم ذهب الى بلاد العجم ليستولى منها على ثلاثة اقاليم وليس المقصود هنا ذكر شيء سوى التجارة وانما سيأتي ذلك في محله

ثم انه كان يظهر أن حصول التجارة بين كل من دولتي الموسقو والصين مشروع عظيم يعود بالنفع على كلتا الدولتين وذلك لانهما دولتان عظيمتان ملتصقتان ببعضهما تملك احداهما ما هو مفقود في الاخرى فكان يفهم أن كلا منهما محتاج بالضرورة للآخر في المعاملة والاخذ والعطا لما في ذلك من المنافع للطرفين لاسيما من منذ الصلح الذي صار اعلانه بين الدولتين المذكورتين سنة ١٦٨٩ من الميلاد

وكان مبدأ احداث هذه التجارة سنة ١٦٥٣ من الميلاد وذلك انه ترتب على نهر طبول جمعيات تجارية من اهل اقليم سبير ومن عائلات تتارية من بلاد بخارى مستوطنة بسبير فمر هؤلاء القوافل بسهول القلموق (الكلماكية) ثم اجتازوا الصحارى حتى وصلوا الى بلاد التتار الصينية وفازوا بمكاسب شتى غير أن ما حصل من التقلبات والفتن ببلاد القلموق وما حصل بين اهالي دولتي الموسقو والصين من النزاع والجدال في شأن حدود هاتين الدولتين كان سببا في التنغيص والتعكير على تلك المشروعات التجارية

فكان من البديهي أن هاتين الدولتين بعد الصلح الذي وقع بينهما سنة ١٦٨٩ من الميلاد يتفقان على محل معلوم بثغورهما يكون حدا لا تختص به احداهما دون الاخرى لتجلب فيه البضائع فان اهل سبير وكذا من عداهم من الامم كان احتياجهم لاهل الصين اكثر من احتياج الصينيين لهم فلذا طلب الموسقو الاذن من صاحب الصين في ارسال قوافل الى مدينة بكين ونالوا منه ذلك مع السهولة في اوائل قرننا هذا

وممـا اشتهر وشاع أن كهى صاحب الصين اذن ببناء كنيسة موسقوبية
فى بعض ضواحى مدينة پكين يخدمها بعض قسوس من سبير وجعل
مصاريفها على خزينة الدولة الصينية وانما اذن البادشاه المذكور
ببنائها مراعاة لخاطر عائلات من بلاد سبير الشرقية كان
بعضهم قد اسر ببلاد الصين قبل الصلح الذى حصل سنة ١٦٨٩
من الميلاد وكان البعض الآخر من الهاربين التاركين لاوطانهم المنضمين لاهل
الصين وقت الحرب ولم يرض احد منهم أن يعود الى وطنه بعد صلح نيشو
فان قطر مدينة پكين ولين جانب اهل الصين وسهولة تحصيل عيشة راضية
بيسير من الشغل كل ذلك حملهم على الاقامة ببلاد الصين والاستيطان بها
ثم ان وجود كنيستهم الصغيرة اليونانية المذكورة لم يكن مضرا بالدولة
بخلاف كنائس اليسوعيين فانها كانت مضرة وايضا كان البادشاه كهى
يساعد على حرية الديانة اى اباحة التدين بأى دين كان وهذه الاباحة كانت
ببلاد آسيا بتمامها فى جميع الاعصار بل وفى عموم الدنيا فى سالف الازمان
واستمرت الى عهد الايمبراطور الرومانى تاودسيوس الاول ولما امتزجت
هذه العائلات الموسقوبية بالعائلات الصينية رفضت هذه العائلات
الموسقوبية دين النصرانية لكن لم تزل كنيستهم المذكورة باقية
واستقر الرأى على أن القوافل السبيرية التى ترد على مدينة پكين وتجلب
اليها الفرا وغيرها من البضائع التجارية يرخص لها فى التعبد فى هذه الكنيسة
وذلك لما أن مدة الذهاب والاياب والاقامة كانت تستغرق ثلاث سنين وقد
مكث الامير غاغرين حكمدار سبير رئيسا على هذه التجارة مدة عشرين
سنة وذلك لأن القوافل فى بعض الاحيان كانت كثيرة الاشخاص جدا وكان
يصعب ضبط رعاع الناس الذين كان يتكون منهم اغلب اهل القوافل
وكانت تمر هذه القوافل على اراضى اللما (وهو لقب لرئيس ديانة التتار) وهو
كناية عن ملك قاطن على نهر اورخون المسمى ايضا لونوكس وهذا الرئيس
هو احد نواب اللما الاكبر الذى جعل نفسه فى زمرة الملوك المستقلين القائمين

بانفسهم

بانفسهم لكونه نسخ شيأ فى المذهب القديم الهندى القائل بتناسخ الارواح ولا يمكن تشبيه هذا الحبر بشئ اعظم من تشبيهه بقسوس النصارى اللوثريان اهل مدينتى لوبك واسنابروك ببلاد النمسا (وهم المعتزلة اصحاب لوتير) الذين خلصوا انفسهم من اسر البابا بتشيعهم وخروجهم عن طاعته فاساء القوافل الادب فى حق هذا الحبر المذكور التتارى وكذلك اساؤا اهل الصين فعاد الاختلال ثانيا لهذه التجارة من هذا السلوك القبيح فهدد الصين الموسقو بأنهم يغلقون ابواب دولتهم على القوافل المذكورة ان لم يتداركوا هذا الخلل وكانت تجارة الموسقو مع الصين اذ ذاك من الامور التى يعود منها عظيم النفع على اهل الموسقو لما كانوا يجلبونه من بلاد الصين من الذهب والفضة والجواهر فان اعظم حجر من حجارة الياقوت جلب من بلاد الصين ووقع بين يدى الامير غاغرين ثم بين يدى الامير منتزيقوف وهو الآن من جملة زينة التاج الايمبراطورى ببلاد الموسقو

ثم ان مسلك الظلم والطغيان الذى كان يسلكه الامير غاغرين اضر بهذه التجارة التى كانت سببا فى غناه ضررا جسيما ولكن انتهى الامر بأن صار هذا الظلم الصادر منه سببا فى اهلاكه واعدامه حيث اتهم واقيمت دعواه بمجلس العدل الذى احدثه الجار وحكم عليه بضرب عنقه بعد الحكم على ابن الجار بالموت بسنة واغلب من كان بينه وبين الامير المذكور مخالطة حكم عليه بالقتل ايضا

وفى هذا الزمن بعينه احس كمهى بضعف بدنه ولما كانت التجربة اكسبته اعتقاد أن علماء الرياضة من الافرنج اعلم من علماء الرياضة من الصينيين اعتقد ايضا أن اطباء الافرنج امهر من اطباء دولته فترجى الجار بواسطة الانجلية الموسقوبية الذين عادوا من بكين الى مدينة بترسبورغ ان يرسل له طبيبا فوجدوا بالمدينة المذكورة طبيبا جراحا انكليزيا عرض نفسه لهذا الغرض وسافر مع ايلجى جديد من بلاد الموسقو وهو لورنت لنج الشهير الذى الف رحلة فى هذه السفرة ولما وصلوا اقو بلوا بالتبجيل

والتعظيم ثم وجد الجراح المذكور ان البادشاه كهى فى حالة الشفاء التام واشتهر بأنه طبيب ماهر وقد اكتسبت القافلة الموسقوبية التى تبعت هذه الارسالية مكاسب شتى غير أن ما حصل من التعدى والاساءة من الموسقو فى حق الصينيين اغضبهم غضبا زائدا حتى انهم طردوا لنج الذى كان اذ ذاك الجى الچار عند بادشاه الصين وطردوا معه ايضا جميع التجار الموسقوية

فلما مات البادشاه كهى وخلفه ابنه يونتشير وكان فى العقل وحسن التدبير كأبيه بل يزيد عليه فى الثبات والحزم حيث طرد اليسوعيين من ملكه كما أن الچار فعل بهم كذلك سنة ١٧١٨ من الميلاد وعقد مع بطرس مشارطة مضمونها أن القوافل الموسقوبية لا تجر الا على ثغور الدولتين ولا يدخل مدينة بكين من اهل الموسقو سوى وكلاء التجارة المرسلين من طرف الچار او الچارة وتكون اقامتهم فى المدينة المذكورة بمنزل هنالك متسع كان عينه كهى لاقامة رسل ايالة كورى ولما كانت دولة الموسقو منذ مدة مديدة لم ترسل قوافل ولا وكلاء بقصد التجارة بمدينة بكين ضعفت هذه التجارة لكن بهذه المشارطة كان قد قرب اوان احيائها بعد أن كانت كالعدم

فمن وقتئذ كان يرى اكثر من مائة سفينة من الدول الاجنبية تحضر كل سنة فى مينا المدينة الجديدة الايمبراطورية (اعنى مدينة بترسبورغ) وصارت تزداد هذه التجارة يوما فيوما وفى اكثر من مرة ما تحصل منها من الايراد للچار كل سنة كان يزيد على خمسة ملايين من فرنكات فرانسا وهذا الايراد زاد زيادة جسيمة على ربح الاموال التى صرفت على هذا المشروع التجارى وقد نقصت تجارة ارخنجل نقصا بينا بسبب هذه التجارة وكان هذا هو عين مرام بطرس لصعوبة الوصول اليها وبعدها عن جميع الملل وايضا فالتجارة التى تعمل نصب عينى ملك مشمر فى اموره عن ساعد الجد والاجتهاد يعود منها نفع جسيم جدا واما تجارة ليوونيا فقد مكثت على حالة واحدة لم يحصل فيها ازدياد

ولا نقصان

ولا نقصان وبالجملة فقد نجحت دولة الموسقو فى بيعها وشرائها واخذها وعطائها اذ فى كل سنة كان يرد على ميناتها من السفن التجارية الف سفينة فصاعدا الى الف ومائتين فانظر الى بطرس كيف جمع بين النفع والفخار

(الفصل الثالث عشر)
فى الاصول والقوانين

من المعلوم أن الاصول والقوانين الطيبة نادرة والعمل بها اندراذ كلما كانت الدولة متسعة واهاليها من ملل مختلفة تعسر جعلهم تحت قانون واحد وشريعة واحدة وكان والد بطرس الاكبر قد رتب قانوننامة وسماه اوليجينى بل وطبع وانتشر الا انه كان يلزم لكفايته لدولة الموسقو امور اخرى كثيرة من هذا المعنى

فلذلك جمع بطرس فى اسفاره من المواد ما يلزم لتشييد هذه العمارة الجسيمة التى آلت للسقوط من سائر الجهات بدولة الموسقو حيث جمع من دول دانيمرقه واسوج وانكلتره والنيمسا وفرانسا ما رآى انه يليق باهل دولته من الاصول والتعريفات وكان فى دولة الموسقو مجلس اربابه من البوزيارد تفصل فيه الخصومات ويحكم فيها اربابه الحكم الاخير الذى لا ينقض وكان لا يدخل فى زمرة اربابه الا من كان له درجة اعتبار وصاحب حسب ونسب مع انه كان يلزم فى ذلك النظر للعلم والمعرفة فلذا ابطل بطرس المجلس المذكور ونصب وكيلا عموميا فى المملكة وضم اليه اربعة نواب فى كل حكومة من الحكومات الاربعة التى بدولة الموسقو وناطهم بملاحظة سلوك القضاة الذين هم فرع من فروع مشورة السنت التى احدثها وكان بيد كل من هؤلاء القضاة نسخة من كتاب الشرائع والقوانين بعد تهذيبه وتحريره بالتغيير والتبديل والزيادة اللازمة وكان ما حصل فيه من التغيير المذكور امرا وقتيا حتى يتيسر وضع كتاب كامل فى الشرائع والقوانين

ومنع هؤلاء القضاة من اخذ المحصول على الدعاوى وكل من اخذ من ذلك شيأ كان عقابه الموت نعم وان كان المحصول ببلاد فرانسا شيأ جزئيا هينا الا أن

الاولى عدمه واما المصاريف الجسيمة التي تدفع فى فصل الدعاوى ببلاد فرانسا فانما هى اجر المحضرين ونحوهم من اهل المحكمة وعادة تكثير الكتابات التى هى عادة ثقيلة لاسيما فى الدعاوى الشرعية حيث يجعلون كل سطر مشتملا على ثلاث كلمات فقط هى مما يوجب ضعف وتوهين اموال الاهالى تمثل الاوراق الكثيرة التى تستدعيها كثرة الكتابة بالنسبة لاموالهم كمثل عبء ثقيل لايستطاع حمله فمن ثم اهتم الجار بجعل المصاريف المذكورة هينة جدا وباجراء العدل على وجه السرعة ورتب للقضاة والكتاب ماهيات من خزينة الدولة وصاروا بذلك لايشترون مناصبهم

وكان وضعه لهذه القوانين سنة ١٧١٨ من الميلاد مدة اقامة دعوى ابنه واغلب ماجلبه من القوانين كان مستمدا من شرائع مملكة اسوج وقوانينها ولم يتوقف قط فى أن يدخل فى محاكمه اسرى الاسوج العالمين باحكام بلادهم الشرعية الذين تعلموا اللغة الموسقوبية وارادوا الاقامة بهذه الدولة

ثم ان فصل خصومات اهل كل اقليم كان من وظائف حاكم ذلك الاقليم ونوابه وكان يسوغ لصاحب الدعوى أن يرفع دعواه الى مشورة السنت فاذا حكمت هذه المشورة على انسان وظن انه مغدور فى حكمها عليه فله أن يرفع امره الى الجار نفسه لكن يكون عقابه الموت فى حالة ما اذا ظهر أن شكواه من المشورة باطلة فى غير محلها غير أنه لاجل تخفيف هذا القانون الصعب نصب الجار باش عرضحالجى ليأخذ العرضحالات ممن لهم فى مشورة السنت وغيرها من المحاكم الصغيرة دعوى لم تنص عليها الشريعة بخصوصها

وقصارى الامر أن الجار تمم سنة ١٧٢٢ من الميلاد قانوننامة الجديد الذى رتبه ومنع جميع القضاة أن يعدلوا عنها وأن يعمل بمقتضى رأيه بدلا عن القانون العام والا عوقب مرتكب ذلك بالموت ونشر اعلانات بهذا الامر المخوف ولم يزل الى الآن فى جميع محاكم الدولة الموسقوبية

وبالجملة فاحداثات الجار عمت كل شئ حتى ان ايقاع الربط والاجتماع

فى دولته

في دولته كان بشغله واختراعه كيف لا وقد جعل الناس رتبا ودرجات على حسب وظائفهم وذلك من رتبة الاميرال (امير العساكر البحرية) والمارشال (امير العساكر البرية) الى رتبة البيرقدار ولم يلتفت في ذلك الى حسب ولا نسب ولما كان دائما في ذهنه أن الخدم في المصالح مقدمة على الحسب وكان يريد ادخال ذلك في اذهان اهل ملته جعل للنساء ايضا درجات معينة حتى ان كل من جلس في غير مجلسه المعد له عوقب بدفع غرامة

ووضع ايضا قانونا انفع من ذلك وهو ان كل عسكري ارتقى الى رتبة ضابط ينتظم في سلك ارباب الشرف وكل بويارد (اى شريف) ارتكب ما اوجبت بسببه القوانين ترذيله يصير بذلك من رعاع الناس وعامتهم

وبعد وضع هذه الاصول والقوانين ترتب ضرورة على اتساع دائرة التجارة وزيادة المدن واتساع الثروة واليسار وعمار الايمپراطورية بالاهالي والمشروعات الجديدة وتجديد الوظائف كثرة الامور الجديدة والحوادث التي لم تكن متوقعة الحصول وكان منشأ هذه الامور والحوادث كلها هو نجاح بطرس فيما احدثه في دوله من الترتيب والاصلاح العام

وقد تممت الايمپراطورة ايليزابيطة مجموع الاصول والقوانين الذي كان قد ابتدأه ابوها من قبلها وسرى لطف حكومتها الى تلك القوانين حتى زالت عنها وصمة الثقل والتشديد

﴿الفصل الرابع عشر﴾
في الكلام على الدين

قد اشتغل بطرس في هذا الوقت بعينه اكثر من غيره من الاوقات بتهذيب الطائفة القسيسية واصلاح حالها فابطل وظيفة البطرق ولم يترتب على هذه الفعلة الصادرة عن قوة النفوذ والشوكة ميل القسوس اليه ولا انعطاف قلوبهم عليه وكان يريد بذلك أن الادارة الايمپراطورية تكون لها الشوكة المطلقة وأن الادارة القسيسية تكون محترمة ومنقادة للاوامر الايمپراطورية وكان قد عزم على أن يجدد مشورة تخص الدين وتكون باقية على الدوام وتابعة للملك بحيث

لا ترتب للكنيسة من القوانين الا مايستحسنه صاحب الدولة التي هذه الكنيسة جزء منها واعانه على هذه العزيمة مطران من ولاية نووغرود يقال له تيوفان بروكوب ويسمى ايضا بروكوبوتز اى ابن بروكوب

وكان هذا المطران * كان من العلم والعقل * و باسفاره الى جهات مختلفة من اوروبا عرف ما فيها من المثالب والعيوب ولما كان الجبار قد عاين ذلك بنفسه كان له في جميع احداثاته مزية عظيمة وهي جلب ما فيه المنفعة واجتناب ما فيه المضرة بدون أن يعارضه في ذلك معارض وقد باشر الاشغال بنفسه مع هذا المطران فى سنة ١٧١٨ وسنة ١٧١٩ من الميلاد فرتب مجمعا مستمرا اعضاؤه اثنا عشر من الاساقفة ورؤساء الاديار انتخبهم هو بنفسه ثم زاد عددهم الى اربعة عشر

وقد بين الجبار الاسباب التي استند اليها فى احداث هذا المجمع فى خطبة خطبها قبل أن يذكر الغرض الاصلى المقصود له من هذه الخطبة فكان اقوى تلك الاسباب واهمها هو انه اذا كانت الطائفة القسيسية تحت ادارة مجمع مؤلف من عدة قسوس فلا يخشى فى هذه الحالة من القيام والفتن التي يمكن حصولها اذا كانت هذه الطائفة تحت ادارة رئيس واحد من القسوس وأن الامة التي تميل دائما الى الاوهام الفاسدة اذا رأت رئيسا على الدولة ورئيسا آخر على الكنيسة اعتقدت أن هناك شوكتين مستقلتين واستدل على ضرر ذلك بما وقع من التفاقم والشقاق بين الدولة وطائفة القسوس وترتب عليه سفك الدماء فى ممالك كثيرة

وكان بطرس يرى ويقول على رؤس الاشهاد ان القول بالشوكتين المبنى على رمز السيفين الموجودين عند الحواريين هو من الاقاويل الباطلة والاعتقادات العاطلة

وقد جعل الجبار لهذا المجمع الحق فى ترتيب ما يخص امر الضبط والربط فى النظام القسيسى وفى اختبار الاخلاق وانتقاد الاحوال وفى النظر فى صلاحية من يعينهم ولى الامر للوظائف الاسقفية وامتحانهم هل هم اهل

لتلك

لتلك الوظائف ام لا وفى الحكم على سبيل البت فيما يخص الامور الدينية التى كانت قبل ذلك ترفع للبطارق وفى معرفة ارادات الديورة وتوزيع الصدقات

وقد لقب هذا المجمع بالمجمع المقدس وكان قبل ذلك لقبا للبطارقة وبذلك اعاد الجار فى الحقيقة منصب البطرق وانما وزعه الى اربعة عشر قسما كلهم تابعون لولى الامر وبايعوه على الطاعة والانقياد بخلاف البطارقة فكانوا لا يبايعونه على الطاعة وكان لارباب هذا المجمع المقدس حال اجتماعهم ما لارباب مشورة السنت من المكانة وعلو المنزلة ولكنهم مع ذلك كانوا تابعين لولى الامر كاهل مشورة السنت المذكورة

ثم ان هذه الادارة الجديدة وقانون نامة القسيسى الجديد لم يجر العمل بمقتضاهما ولم يستقرا على حالة ثابتة الابعد ذلك باربع سنين اى فى سنة ١٧٢٢ من الميلاد وذلك أن بطرس فى مبدا الامر امر أن ارباب المجمع يعرضون عليه كل من راوا فيه اهلية اكثر من غيره لمنصب الاسقفية فصار هو ينتخب من يريد تقليده بهذا المنصب وارباب المجمع يلبسونه شعار ذلك المنصب وكان بطرس فى الغالب يحضر فى هذا المجمع بوصف رئيس الجمعية فاقتضى الحال ذات يوم أن يعرض عليه رجل لينتخبه لمنصب الاسقفية فأبدى ارباب المجمع انه الى الآن لم يعرض على الجار فى هذا المعنى الارجال جهلة فقال بطرس لاضرر وانما ينتخب الخيار فان الخيرية تساوى العلم

ومما ينبه عليه أن الكنيسة اليونانية لم يكن فيها من يسمى باسم رؤساء الرهبان الدنيويين (اى المجردين عن الزهد والتقشف) ولا اصغار رؤساء الرهبان بل كانت تعدهم من قبيل الهزء والسخرية وذلك من العبث وحيث ان كل ما كان فى الدنيا من هذا القبيل معدود من العبثيات فمن العبث ايضا عند هذه الكنيسة انتخاب الاساقفة من طائفة الرهبان وقد كان رهبان الصدر الاول دنيويين وكان بعضهم متدينا وبعضهم يتجاوز الحد فى الحمية الدينية وكانوا يختلون

للعبادة فى الصحارى ثم جمعهم المار بازيل وقنن لهم قانونا وألزموا انفسهم بالرهبانية والانقطاع اليها وصاروا فى آخر درجة من الدرجات القسيسية فكانت درجتهم هذه اول درجة لمن اراد الارتقاء منها الى مافوقها من المناصب والوظائف القسيسية ثم كانت بلاد اليونان واسيا مشحونة بالرهبان كما انهم كانوا فى بلاد الروسيا كالجراد المنتشر وكانوا بمكان من اليسار والاقتدار ومع بلوغهم فى الجهل النهاية كانوا حين تولى بطرس منفردين بمعرفة الكتابة لايعرفها غيرهم الا القليل ثم لما اخذ بطرس فى الاحداثات التى عمت كل شئ فى بلاده استعملوا الكتابة فى العبثيات (حيث استعملوها فى ذمه والتشنيع عليه) فانهم صاروا يستغربون ويستقبحون هذه الابتداعات فاضطر سنة ١٧٠٣ من الميلاد الى منع اعطاء الرهبان شيأ من المداد والاقلام فكان لايعطى احد منهم شيأ من ذلك الا بضمان رئيسهم واذنه

وقد اقتضى رأى بطرس أن هذا المنع لاينسخ وكان قد عزم اولا على انه لايدخل فى زمرة الرهبان الا من بلغ سنه خمسين سنة لكنه رآى أن هذا السن بطئ جدا لأن عمر الانسان قصير فلا يجد صاحب هذا السن فسحة يتعلم فيها مايصلح به لمنصب الاسقفية فعدل عن ذلك ورتب مع ارباب المجمع انه لايسوغ الدخول فى زمرة الرهبان الا لمن بلغ سنه ثلاثين سنة كاملة ومنع العساكر واهل الزراعة أن يدخل احد منهم فى الدير لاجل الرهبانية الا باذن صريح من الجار اوالمجمع وكذلك منع أن لايدخل الدير للرهبانية احد من المتزوجين ولو طلق زوجته الا اذا ترهبت هى بالطوع والاختيار ولم يكن معهما اولاد وكذا كل من كان فى خدمة الدولة لايجوز له الترهب الا باذن صريح ورتب ايضا أن كل راهب يجب عليه أن يباشر بنفسه عملا من الاعمال الصناعية وأن الراهبات لايسوغ لهن الخروج من الديورة اصلا وأنهن لايقصرن شعورهن الا فى سن خمسين سنة كما كان عليه الشماسات فى مبدأ دين النصرانية واذا طلبن الزواج قبل تقصير الشعر اجبن الى ذلك بل ينبغى ترغيبهن فيه ولاشك أن هذا القانون على غاية من الحسن فى مثل تلك البلاد

التى

التي هي احوج الى الاهالي من الترهب في الاديار

وقد اقتضى رأى بطرس ايضا أن هؤلاء البنات المترهبات السيئات الحظ اللاتي خلقهن الله لتكثير اهل دولته وتعمير بلاده وتسببن في قطع نسلهن بانقطاعهن في الديورة لما يزعمن انه عبادة يكون لهن ولو بعض نفع للملة التي غدرن بها بانقطاعهن عنها فامر أن يشتغلن جميعا باشغال يدية تناسبهن والتزمت الجارة أن تحضر من بلاد برابنت والفلمنك نساء صنايعية لاجل تعليمهن فلما حضرن وزعتهن على الاديار فعما قليل صنع في تلك الاديار ما تزينت به الجارة وغيرها من خواتين دائرتها

ولا مانع أن يقال انه لا شيء اعظم من هذه الترتيبات غير أن الجدير بان تلتفت اليه القرون كلها من ترتيبات الجار هو القانون الذي وضعه بنفسه وعرضه على المجمع سنة ١٧٢٤ من الميلاد وكان قد اعانه عليه تيوفان بروكوبوتز وتعرض فيه للترتيب القسيسي القديم فكشف الغطاء عن غوامضه وبين حقيقته ببيان العالم الخبير وشنع فيه على ما كان عليه الرهبان من الدعة والبطالة واقام على ذلك البراهين الجلية والادلة القوية ولم يقتصر فيه على التوصية والترغيب في العمل وترك البطالة بل امر بذلك على سبيل الالزام ونص على أن اهم الاشغال هو نفع الفقراء والقيام بشؤونهم فامر أن العساكر السقط يوزعون على الاديار وأن يعين لهم من الرهبان من يتعهدهم ويقوم بخدمتهم وأن اقوياء الرهبان يزرعون اراضي الاديار وامر بنظير ذلك في ديورة البنات فعين اقوياءهن لخدمة البساتين وغيرهن لخدمة المرضى من النساء والبنات اللاتي يؤتى بهن الى الديورة من المحال المجاورة لها وبين هذه الخدم بيانا شافيا وفصل ما جل منها وما قل اتم تفصيل وعين عدة اديار من اديار الذكور والاناث لدخول الايتام وتربيتهم فيها

ومن قرأ قانون بطرس هذا المؤرخ في ٣١ من شهر ينويه سنة ١٧٢٤ ميلادية ترآى له أن هذا القانون كأنما اشترك في وضعه أحد وزراء الدولة وأحد آباء الكنيسة

ثم ان عوايد الكنيسة الموسقوبية تكاد تكون كلها مخالفة لعوايد كنيسة رومة فان من رسوم كنيسة رومة أن الانسان متى صار نائب شماس حرم عليه الزواج فيأثم بسعيه فى تكثير اهل وطنه بخلاف الكنيسة الموسقوبية فان من رسومها أن الانسان بمجرد ما صار نائب شماس يؤمر بالزواج على سبيل الالزام ولا يمنعه ذلك من الترقى الى رتبة القسيس ورياسة القسوس وانما يلزم الترهب والعزوبة فى منصب الاسقفية

وقد منع بطرس الخوريين (والخورى امام المحلة) أن يشرك الخورى منهم معه فى خدمة الكنيسة اكثر من واحد من اولاده خوفا من أن كثرة عائلته تجحف بأهل محلته مالم يطلب ذلك اهل المحلة انفسهم وبالجملة فمن تأمل هذه القوانين القسيسية وجد أن كل مادة منها ولو هينة جدا لا تخلو عن مصلحة للدولة وأنه قد حصل استفراغ الوسع فيما تكون به خرقة القسوس محترمة غير خطارة ومجردة عن وصفى الخسة والقوة

وقد رأيت فى بعض اللوائح الغريبة لواحد من الضباط كان له عند بطرس الاكبر منزلة عظيمة أن الجبار قرئ عليه ذات يوم باب من التاريخ معنون بباب المتفرج الانكليزى يشتمل على المقابلة بينه وبين لويز الرابع عشر (ملك فرانسا) فقال بعد أن سمع هذا الباب انى لا استحق ما اثبتوه لى من تفضيلى على هذا الملك وانما لى الحظ الاوفر فى امر مهم تقت فيه عليه وهو انى ألزمت الطائفة القسيسية بالانقياد والاذعان والهدء وعدم التعكير بخلاف لويز الرابع عشر فانه اهمل فى ذلك حتى صار لها سلاطة عليه

ولا يخفى أن مثل هذا الملك الذى استغرق الايام فى مكابدة مشاق الحروب والليالى فى تقنين قوانين كثيرة واستغرق زمنه فى جلب التأنس والتمدن الى دولة متسعة جدا وفى ادارة اشغال كثيرة فى مملكته التى تبلغ مسافة ألفى فرسخ لابد له من ترويح نفسه لاسيما والحظوظ والمسرات كانت فى وقته ألطف واعظم مما كانت عليه قبل ذلك فلا غرو أن الجبار كان يتروح بموسمه المعروف بموسم الكردينالية الذى اسلفناه ذكره وببعض حظوظ اخرى من

هذا

هذا القبيل كان يقصد بها في بعض الاحيان السخرية من الكنيسة الرومانية
لانه كان يكرهها وذنبه في كراهتها مغفور نظرا الى انه كان متمسكا بشعائر
الكنيسة اليونانية والى انه كان يريد الاستقلال بالرياسة في بلاده وكان
يعمل ايضا العابا من هذا القبيل بقصد السخرية من قدماء رهبان وطنه واما
الرهبان المدينون فكان يقوم اودهم ويصلح شأنهم

قد سبق انه قبل اعلان قوانينه القسيسية ونشرها قلد احد المجانين الذين
كانوا عنده بمنصب بابا وانه عمل موسم الكردينالية وكان هذا المجنون
المسمى ستوف يبلغ من العمر اربعا وثمانين سنة فخطر للجار ان يزوجه
بامرأة تضاهيه في السن ويشهر نكاحهما شهرة عظيمة فناط بالدعوة اربعة من
الالكن وبزفافها شيوخا هرمى جدا وعين لاشغال الفرح التي تستدعي الخفة
وسرعة الحركة اربعة من اغلظ الموسقو واسمنهم وحمل الموسيقى على عربة
يجرها ادباب كانوا ينخسونها بمناخيس من الحديد فتعوي عواء يلايم الحان
تلك الموسيقى والذي دعا لهذين العروسين بالبركة في الكنيسة الكبرى قسيس
اعمى اصم ركبت له عيون من زجاج وبالجملة فكان الزفاف والزواج ووليمة
العرس ولباس نومهما ليلا واحتفال ادخالهما الى فراشهما كل ذلك كان من
الاضحوكات الملايمة لما قصده الجار من المباسطة والفكاهة

ومثل هذا الموسم يتراءى انه من الامور المنكرة التي لا يستحسنها العقل ولكن
اذا نظرت الى ما يفعله الافرنج في عيد الرفاع من المباسطات وتنزهات الليالي
وجدت هذا الموسم من هذا القبيل وهل ثم اظرف في المنظر والفرجة مما يصنع
في هذا العيد حيث ترى خمسمائة شخص عليهم الوجوه المستعارة البشعة
وملابس السخرية يستغرقون الليل كله وهم في طفور ووثوب في قاعة كبيرة
ملازمين للصمت الى الصباح

وهل المواسم القديمة ببلاد اوروبا المعروفة بموسم المجانين والحمار وراهب
الدليلة كانت اعظم من هذه المباسطة وهل كانت الالعاب المعروفة
بكوميديات الام تشتمل على ما يدل على الذكاء والفطنة اكثر من ذلك

(الفصل الخامس عشر)

في بيان المفاوضات والمذاكرات التي حصلت في جزيرة الاند وذكر موت كرلوس الثاني عشر وصلح نوستاد

ماسبق من اشغال الجار الجسيم وماذكرناه تفصيلا مما يتعلق بالايمبراطورية الموسقوبية وقضية الامير ألكسيس الحزنة كل ذلك لم تنحصر فيه اعمال الجار فانه في مدة اشتغاله بالاحداثات وتنظيم الامور الداخلية كان لابدله من الاحتراس والتحفظ من الدول الاجنبية حيث كان الحرب مع دولة اسوج لم يزل مستمرا وان كان حصوله مع الفتور والبطء وتراخي ايضا لما كان يؤمل من حصول الصلح عن قريب

وذلك انه في سنة ١٧١٧ من الميلاد كان كل من الكردينال ألبيروني وهو اعظم وزراء فيليبش الخامس ملك اسبانيا والبارون غورطز الذي استولى على عقل كرلوس الثاني عشر (ملك اسوج) اراد تغيير احوال اوروبا بالتوفيق بين بطرس وكرلوس المذكور وبخلع جورجي الاول ملك انكلترة عن سرير مملكة الانكليز وباعادة استانسلاس الى سرير مملكة بولونيا وبكون ألبيروني يقلد سيده فيليبش بنيابة فرانسا وكان غورطز كما تقدم قد أطلع الجار على ما في ضميره وكان ألبيروني قد افتتح المذاكرة في هذا المعنى مع الامير كوراكين سفير الجار بمدينة لاهاية وكان الواسطة بينهما ايلجي اسبانيا (بهذه المدينة) وكان يقال له بارتي لودي وكان في الاصل من مدينة مانتوه ثم هاجر منها وتوطن اسبانيا فهو نزيل اسبانيا مثل الكردينال ألبيروني

فكان هذان الاجنبيان (يعني غورطز وألبيروني) يريدان تغيير الاحوال من اجل سادتهما وان لم يكونا بحسب الاصل من رعيتهم بل الاولى أن يقال انما تصدى بالذلك من اجل انفسهما وقد استحسن كرلوس الثاني عشر بجميع اغراضهما واكتفى الجار بكونه يلاحظها ويختبرها هل توافق ام لا وكان منذ سنة ١٧١٦ من الميلاد لم يبذل في شأن قتال الاسوج الا

مجهودات هينة وكان جل غرضه من ذلك انما هو جبرهم على شراء الصلح معه بتسليمهم له مافتحه من اقاليمهم لانتهم اعيائهم واعجازهم
ثم ان البارون غورطز توصل بنشاطه ومهارته الى أن حمل الجبار على أن بعث وكيلين من طرفه الى جزيرة ألاند لاجل المفاوضة فى شأن هذا الصلح وكان وصول هذين الوكيلين وهما بروسه الايقوسى الذى هو الرئيس الاكبر على الطوبجية الموسقوبية والشهير اوسترمان الذى صار من وقتئذ بيده ادارة المصالح الى مجلس المذاكرة فى نفس الوقت الذى قبض فيه على ابن الجبار فى مدينة موسكو وكان غورطز وجيلانبورغ قد وصلا الى المجلس المذكور قبلهما من طرف كرلوس الثانى عشر وكان كل منهما يرغب كل الرغبة فى التوفيق بين كرلوس المذكور وبطرس وفى الانتقام من ملك انكلترة ومن الغريب انعقاد مجلس المذاكرة بدون عقد مهادنة بين الفريقين فان دونما الجبار كانت تطوف بسواحل الاسوج وتنهب ماتظفر به منهم وكان الجبار يظن أن هذا الاعتداء يحمل ارباب المجلس على المسارعة الى عقد صلح كان لابد منه للاسوج ويعود بالفخر التام على الظافر بهم (وهو الجبار)
ومع ما كان حاصلا الى ذلك الوقت بين الفريقين من حركات الحرب الهينة ظهر للصلح بينهما دلائل وعلامات دلت على قرب انعقاده فان مباديه كانت من اعمال المروءة وآثار الكرم فكانت اعظم موقعا من الامضاء ووضع القرار وذلك أن الجبار خلى سبيل المارشال رانشلد ومن عليه بدون فداء وكان هو الذى اسره بنفسه وكذلك ملك اسوج من على الجنرال تروبتسكوى والجنرال غولووين وردهما الى ديارهما وكانا اسيرين فى اسوج منذ وقعة نروة
وكانت مذاكرات الصلح قد قاربت الانتهاء وكانت احوال بلاد الشمال قد اشرفت على أن تستحيل كلها الى احوال اخرى فقد عرض غورطز على الجبار أن يشترى دوقية مكلانبورغ وكان دوقها المسمى كرلوس قد

تزوج احدى بنات الجبار ايوان اكبر اخوة الجبار بطرس وكان
اشراف هذه الدوقية قد قاموا على الدوق المذكور وخرجوا عن طاعته وكان
لبطرس جيش فى تلك الدوقية وكان يعد نفسه من حزب هذا الدوق لانه كان
يعده من اصهاره واما ملك انكلترة الذى هو منتخب هانورة فكان من
حزب هؤلاء الاشراف وكان مما رغم انف هذا الملك أن دوقية مكلانبورغ
تثبت لبطرس الذى كان اذ ذاك مستوليا على ولاية ليوونيا وكان قد
اشرف على أن يكون اقوى منتخب فى ألمانيا وكان من جملة ماحصلت فيه
المذاكرة أن يعطى لدوق مكلانبورغ فى نظير هذه الدوقية دوقية كورلندة
وجزء من بلاد البروسة وكان هذا مما يضر بمملكة بولونيا وأن يرجع الى
هذه المملكة ملكها استانسلاس وأن تكون دوقية برمة وولاية وردان
لدولة اسوج ولكن كان لا يمكن انتزاعهما من جورجى الاول ملك
انكلترة الابقوة السلاح فيؤخذ من ذلك أن غورطز كان مرامه كما ذكرنا
أن بطرس وكرلوس الثانى عشر لا يقتصران على مجرد الصلح بل يتحالفان
على الحرب وشن الغارات ويبعثان جيشا من طرفهما الى ايقوسيا وكان
مما تذاكروا فيه ايضا أن كرلوس الثانى عشر بعد أن يفتح مملكة نروج
يذهب بنفسه الى ابريطانيا الكبرى وكان كرلوس يطمع أن يجعل عليها
ملكا جديدا بعد أن يصنع بمملكة بولونيا مثل ذلك والتزم الكردينال
ألبيرونى لبطرس وكرلوس أن يمدهما بالاموال وكان يظهر أن نكبة الملك
جورجى تجر الى نكبة حليفه نائب فرانسا لانه متى تجرد عن النصير صار
تحت قبضة دولة اسبانيا الظافرة وفرانسا القائمة العاصية

وكان ألبيرونى وغورطز يظنان انهما قد اشرفا على تغيير احوال اوروبا
من اولها الى آخرها ولكن خاب ظنهما حيث انعكست جميع هذه المقاصد
بكلة رميت بالصدفة من مدفع كبير فى ابراج فريدريشال بمملكة نروج
فقتلت كرلوس الثانى عشر وهزم الانكليز الدونمة الاسبانيولية وظهر
امر العصبة التى كانت ثائرة بفرانسا وتبددشملها وطرد ألبيرونى من

اسبانيا

اسبانيا وضربت عنق غورطز فى مدينة استخلم ولم يبق على قوته من هذا الحزب المهول الذى كان قد اخذ فى اسباب الاجتماع والتحزب الا الجار بطرس فانه لما لم يتعرض لمضرة دولة من الدول اجرى قوانينه واحكامه على الدول المجاورة له

وبعد موت كرلوس الثانى عشر تغيرت جميع التدابير فى أسوج وذلك أن هذا الملك كان مطلق التصرف فى دولته فلم ينتخبوا اخته اوليريقه للولاية بعده على المملكة الا بشرط أن لا تكون مطلقة التصرف مثله وكان كرلوس قد اراد أن ينضم الى الجار ليكونا معا على انكلترة وحلفائها فلما تولت اخته انضمت دولة اسوج الجديدة الى حلفائها وتحزبوا جميعا على الجار

وفى الواقع أن مجلس المذاكرة الذى انعقد فى جزيرة ألاند لم ينفسخ غير أن دولة اسوج لما تحزبت مع دولة انكلترة املت أن بعض الدونمات الانكليزية تذهب الى بحر بلطق وتسعى لها فى صلح يكون اتم نفعا واعظم فائدة فدخلت عساكر هانورة (من طرف دولة الانكليز) فى بلاد دوق مكلانبورغ فطردتها منها عساكر الجار (وكان ذلك فى شهر فبريه سنة ١٧١٩ من الميلاد)

وكان للجار ايضا فرقة عسكرية فى بولونيا (لهستان) كان يخشى بأسها كل من حزب اغسطوس واستانسلاس وكان ايضا قد أعد للاسوج دونمنا لتشن الغارة على سواحلهم او تجبر دولتهم على أن لا تسعى فى تعطيل مجلس ألاندة عما انعقد بصدده وكانت هذه الدونمنا عبارة عن اثنتى عشرة سفينة كبيرة مما يسمى قباقا وعدة سفن من النمرة الثالثة ما بين فرقتين وغراب وكان الجار نفسه نائبا عن اميرالها (اى قبودانها) المسمى ابركسين وكان الجار دائما يقود العساكر البحرية تحت اوامره

ثم ان فرقة من هذه الدونمنا حازت فى مبدأ الامر الشهرة والامتياز فى قتال

فرقة من الدونما الاسوجية حيث سلبت من سفن الاسوج بعد القتال الشديد سفينة وفرقتين فانعم بطرس على ضباط هذه الفرقة بستين ألف فرنك من النقود الفرنساوية وبقطع من الذهب تعرف بالمداليات واكثرلهم من علامات الشرف والامتياز وكان من عادته دائما تشجيع الدونما التى احدثها بجميع ما يمكنه من الوسايط والطرق

وفى هذا الوقت بعينه دخلت الدونما الانكليزية بحر بلطق لاعانة الاسوج وكان قائدها الاميرال نوريس وكان بطرس واثقا كل الوثوق بدونماه الجديدة فلم يقع فى قلبه للانكليز هيبة ولا خوف بل تجارى على أن شغل البحر بسفنه حتى سد عليهم المسالك وبعث الى الاميرال الانكليزى يسأله هل قدومه لمجرد كونه من احباء الدولة الاسوجية اوقدم معاديا للدولة الروسية فاجابه بأنه الى هذا الوقت لم يرد اليه امر بشئ معين ومع هذا الجواب المبهم لم يزل الجار شاغلا للبحر

والواقع أن الانكليز لم يقدموا الاليروا انفسهم للجار فيبعثه ذلك على أن يصالح الاسوج على شروط مقبولة وفى شهر يوليه سنة ۱۷۱۹ ميلادية ذهب الاميرال نوريس الى كوبنهاغ واغار الموسقو بعض اغارت فى بلاد الاسوج قريبا من مدينة استكلم التى هى قاعدة ملكهم واتلفوا فيها مصانع الحديد واحرقوا من مساكنهم نحو خمسة عشر ألف بيت وفعلوا معهم من الاساءة والمضرة ما يحملهم على تمنى انعقاد الصلح بدون تراخ ولا مهلة

والواقع أن ملكة اسوج عجلت بتجديد المفاوضة والمذاكرة فى شان الصلح حتى ان اوسترمان نفسه بعثه الجار بهذا الصدد الى مدينة استكلم ومكثت الامور على هذه الحالة مدة سنة ۱۷۱۹ بتمامها

(سنة ۱۷۲۰ ميلادية)

ولما صار فى السنة التى بعدها امير هيسة زوج ملكة اسوج ملكا على هذه المملكة من نفسه لكون زوجته كفت يدها عنها كان اول ما بدأ به حكمه هو أنه بعث من طرفه رسولا الى مدينة بترسبورغ لاجل تعجيل

هذا

هذا الصلح المرغوب فيه كل الرغبة غير انه في اثناء المفاوضات كان الحرب لم يزل مستمرا
وانضمت الدونغا الانكليزية الى الدونغا الاسوجية ولكن لم يحصل منهما في هذه المرة ايضا حرب ولم يكن حصل بين دولتي الانكليز والموسقو اعلان بالمقاطعة والعداوة فلذا عرض الاميرال نوريس أن سيده يريد التوسط في الصلح بين الاسوج والموسقو ولكن كان عرضه هذا مصحوبا بالقوة والعنفوان فكان ذلك سببا في تعطيل المفاوضة وتأخيرها وكانت سواحل اسوج وسواحل الاقاليم الجديدة التي للموسقو على بحر بلطق على حالة بحيث كانت الاولى يسهل الاغارة عليها والثانية يصعب الوصول اليها وقد ظهر اثر ذلك (في شهر يوليه سنة ١٧١٩ من الميلاد) حيث كشف نوريس غطاء المداراة وانضم الى الاسوج وشنوا جميعا الغارة على جزيرة صغيرة للبحار من ولاية استونيا يقال لها نرجان واحرقوا منها كوخا (وهو بالضم بيت من القصب) واما الموسقو فانهم في هذا الوقت شنوا الغارة قريبا من وازا (وهي قلعة على اربعة فراسخ من مدينة استخلم) واحرقوا من قرى تلك الجهة احدى واربعين قرية ومن المساكن اكثر من آلف بيت واوقعوا في جميع البلاد من المضار ما تقصر عنه العبارة وضبط الامير غالتزين من سفن الاسوج على اربع فرقتينات واركبها عساكره فكأن الامير الانكليزي لم يات الا ليعاين درجة الهول والصولة التي وصل اليها البحار الدونغا الموسقوبية فانه تقريبا لم يصنع شيأ سوى كونه اظهر نفسه في تلك البحار التي ذهب منها الموسقو بالفرقتينات الاربعة الاسوجية علامة على نصرتهم الى مينا كرونسلوت تجاه مدينة بترسبورغ وبالجملة فالذي يظهر في حق الانكليز هو أن يقال انهم ان كانوا في تلك الحركة متوسطين في الصلح بين الاسوج والموسقو فقد افرطوا وان كانوا معادين للموسقو فقد فرطوا
وقصارى الامر أن ملك أسوج الجديد طلب (في شهر نومبر سنة

١٧٢٠ من الميلاد) المتاركة والمهادنة فلم يجد طلبه ذلك نفعا لما وقع من دولة انكلترة فى هذا المعنى من الارهاب والتهديد لدولة الموسقو فتوسل الى نيل مطلوبه بدوق اورليان نائب مملكة فرانسا وجعله واسطة فى الصلح فبعث هذا الامير من طرفه وكيلا مرخصا يقال له كمبريدون الى مدينة بترسبورغ ومنها الى مدينة استخلم وفى شهر فبريه سنة ١٧٢١ من الميلاد انعقد المجلس لاجل المفاوضة فى الصلح بمدينة نوستاد وهى مدينة صغيرة من اقليم فنلندة غيرأن الچار امتنع من المتاركة حتى يشرف ارباب المجالس على بت الامر وعقد الصلح ووضع القرار عليه فكان له جيش فى فنلندة مستعد للاستيلاء على بقية هذا الاقليم واستمرت دونماء على تهديد الاسوج وارهابهم فلزم أن لا ينعقد الصلح الاعلى مقتضى رأيه واغراضه وقصارى الامر انه لم ينحط قرار الصلح الاعلى ما اراد فقد نزلت له دولة الاسوج نزولا مؤبدا عن كل ما فتحه من بلادهم وذلك من حدود كورلندة الى نهاية جون فنلندة وماوراء ذلك من ممتد بلاد ككسهولم بل وحاشية فنلندة الممتدة من أكناف ككسهولم الى جهة الشمال فثبت له بهذه المشارطة التملك على ولايات ليوونيا واستونيا وانغريه وكارليه وبلاد ويبورغ والجزائر المجاورة لها التى تمكن بها ايضا من الاستيلاء على البحر كجزائر ويزيل وداغو ومونه وكثير من الجزائر الاخرى وكانت مسافة الجميع تبلغ اطوالها ثلثمائة فرسخ معتاد فى عروض مختلفة وقد تكون عساكر مملكة كبيرة بذل فى تحصيلها من الجهد والمشقة ما استغرق عشرين سنة

وكان وضع القرار على هذا الصلح المعروف بصلح نوستاد فى عاشر سبطمبر سنة ١٧٢١ من الميلاد وكان توقيع هذه المشارطة على اسلوب فى الكتابة حديث ونسق فى الانشاء جديد والذى وضع الامضاء عليها اوسترمان وزير الچار والجنرال بروسه

وقد سر بطرس لذلك غاية المسرة حيث رأى انه بهذا الصلح قد تخلص من

ضرورة

ضرورة ابقاء جيوش كبيرة جهة اسوج ومن شغل باله بدولة انكلترة وماجاوره من الممالك فرأى حينئذ انه صار في وسعه التفرغ للاصلاح والتحسين في ايمبراطوريته وقد كان اولا شرع في هذا الاصلاح شروعا جيدا وابتدأه ابتداء حسنا ورأى ايضا أنه صار يمكنه التفرغ لان يجعل الفنون والتجارة التي صرف الهمة في ادخالها ببلاده مع كثرة اشغاله على حالة بحيث تكون زاهية زاهرة

وفي ابتداء نشوة فرحه كتب لوكيليه المذكورين مامعناه انكم حررتم مشارطة الصلح تحريرا وقع منا موقعا حتى كأننا نحن الذين حررناها وبعثنا بها اليكم ليضع الاسوج عليها القرار والامضاء فنحن لانزال لهذا الامر الفاخر ذاكرين ولانبرح لحسن موقعه متفكرين

وماحصل وقتئذ في سائر اجزاء الايمبراطورية الموسقوبية لاسيما مدينة بترسبورغ من الاعياد والمواسم على اختلاف انواعها كان دليلا على فرح الاهالي وطيب خاطرهم فان ماصنعه الجار من مواكب النصرة في ايام الحرب لم يوازما تسابق اليه الآن جميع الاهالي مع غاية الفرح والمسرة من المواسم المذكورة التي كانت محظوظيتها حاصلة مع الهدء والسكون وبالجملة فكان هذا الصلح اعظم فخار للجار كيف لا وقد فعل ماهو اعظم مسرة من تلك المواسم الفاخرة وهو العفو العام عن جميع المذنبين المسجونين وابطال ماعلى الناس من المغارم لخزينته في سائر اجزاء ايمبراطوريته الى يوم الاعلان بالصلح فاطلق من المحبوس عددا عظيما من المساكين ماعدا اللصوص والقاتلين والمذنبين في حق ذاته الملوكية

وفي هذا الوقت لقبته مشورة السنت والجمع بهذه الالقاب وهي عظيم وايمبراطور وابو الوطن وبعد أن تكلم القنجلير (ديوان افندي) المسمى كولفكين في الكنيسة الكبرى على لسان طوائف الدولة كلها صاح ارباب مشورة السنت قائلين ثلاثا ابقى الله ايمبراطورنا وابانا ثم صاح الاهالي بعدهم بمثل ذلك وفي هذا اليوم هناه سفراء فرانسا والمانيا والهستان

ودانيمرقه والفلمنك ولقبوه بالالقاب المذكورة واعترفوا له بلقب الايمبراطور الذى كان قد حصل الاعلان بتلقيبه به فى بلاد الفلمنك عقب وقعة بلطاوا وكان لقب اب ولقب عظيم من الالقاب الفاخرة التى كان لا يمكن لاحد فى اوروبا منازعته فيها ومزاحمته عليها واما لقب ايمبراطور فهو لقب تشريفى جرت به العادة لايمبراطور ألمانيا كلقب ملك الرومان الذى يلقب به لمجرد التشريف ثم ان مثل هذه الالقاب يستدعى مدة طويلة حتى يجرى استعمالها رسميا فى اقلام قنجليريات الدواوين لما انه ينظر فيها لمجرد الرسوم دون الفخار الذى هو بالنسبة اليها شئ آخر مغاير للامور الرسمية فلذا اعترف لبطرس بلقب ايمبراطور بعد ذلك بمدة جميع دول اوروبا ماعدا دولة لهستان فان التفاقم كان دائما يوقع فيها الاختلاف وعدم الاتحاد وماعدا البابا ايضا فانه منذ فقد ديوان رومة سطوته وقوة شوكته بتقدم الملل فى المعارف وتنورها بانوار العلوم على التدريج صار رأيه كلا شئ بحيث لا يتوقف عليه امر من الامور

(الفصل السادس عشر)
(فى فتوحات الجار ببلاد العجم)

ليعلم أن بلاد الروسيا على حالة بحيث لابد لها من مراعاة مصالحها مع جميع الامم القاطنة بموقع الدرجة الخمسين من العرض وحين كانت هذه البلاد رديئة الحكومة كانت بالتعاقب مغنما للتتار والاسوج واللهمية ثم صارت مخوفة عند جميع الملل لما قويت حكومتها وصارت ذات ثبات ومتانة وكان بطرس فى اوائل حكمه قد عقد مع دولة الصين مشارطة فيها نفع لدولته وقاتل الاسوج والعثمانية معا وآل الامر الى أن قاد جيوشه الى بلاد العجم

وكانت بلاد العجم اذ ذاك قد شرعت فى السقوط والانحطاط الى الحالة السيئة التى لم تزل عليها الى وقتنا هذا وان اردت أن يكون لك المام بما اصابها من النكبات الشنيعة فتخيل ماوقع فى ألمانيا من الحرب المعروف بحرب

الثلاثين سنة وماوقع ايضا فى فرانسا من حرب الفروند (اى المقلاع) ويوم سنت برتلمى (الذى ذبح فيه البروتستان بمدينة باريس) ونذكر ايضا ايام الملك كرلوس السادس وايام الملك يوحنا بمملكة فرانسا وكذلك حروب انكلترة الاهلية وطول مدة تخريب التتار لبلاد الموسقو بتمامها وتخريبهم ايضا لبلاد الصين

ويكفى فى ايقاع مملكة بتمامها فى مثل هذه المصائب والنكبات أن يكون ملكها ضعيفا غير مهتم بالمصالح واحد رعيتها ذا اقتدار واقدام وجرأة وذلك أن حسينا الصفوى شاه العجم الذى هو من ذرية الشاه عباس الاكبر كان فى ذلك العصر ملكا على بلاد العجم وكان منهمكا على التنعم والرفاهية وكان لضعفه مقرا وزيره على ما ارتكبه من المظالم والجبر والقساوة فهذا هو اصل المقتلة التى استغرقت اربعين سنة

ولا يخفى أن دولة العجم كالدولة العثمانية لها اقاليم مختلفة الحكومة فتجد لها رعايا يحكمها الملك مباشرة وعمالا وامراء خراجيين بل واتما تدفع لها الدولة خراجا بعنوان مرتب او اعانة كامم غاغستان القاطنين على فروع جبل قوقازة فى غربى بحر الخزر وكانت بلاد هذه الامم فى قديم الزمان جزأ من ألبانيا القديمة ويقال لهم الآن اللزجية وذلك لان جميع الامم تغيرت اسماؤهم وحدود بلادهم وهؤلاء الامم جبليون والاولى أن يقال فى حقهم انهم تحت حماية دولة العجم لا تحت حكمهم فان هذه الدولة كانت تدفع لهم اعانات من النقود فى نظير محافظة الحدود وحماية الثغور

وكان امير قصبة القندهار فى الطرف الآخر من سلطنة العجم جهة بلاد الهند وكان قائدا على عساكر أغان وكان من عمال دولة العجم كما أن ويوودات الافلاق والبغدان من عمال الدولة العثمانية وليست عمالته متوارثة بل هى اشبه شئ بالالتزامات القديمة التى احدثها فى اوروبا التتار على اختلاف اصنافهم الذين قلبوا نظام الايمبراطورية

الرومانية * وعساكر الاغان الذين يحكمهم الامير المذكورهم عساكر الالبنا الذين يسكنون سواحل بحر الخزر بجوار الداغستان وهم اخلاط من الجركس والجورج كقدماء المماليك الذين تغلبوا على مصر وتسميتهم بالاغان فيها تحريف وتغيير وكان تيمور المعروف ايضا بتيمورلنك قد اخذهم وتوجه بهم الى بلاد الهند فاستوطنوا اقليم القندهار وكان هذا الاقليم تارة يعد من ملحقات الهند واخرى من ملحقات العجم وهؤلاء الاغان واللزجية هم منشأ الفتنة والخروج عن الطاعة ببلاد العجم

وذلك أن نقيب اقليم القندهار المعروف باسم ميرويتز او ميريويتز كان منوطا بخصوص جباية الخراج فقط فقتل امير هذا الاقليم وحرض عساكر الاغان على القيام وتغلب على الاقليم حتى مات سنة ١٧١٧ من الميلاد فخلفه عليه اخوه بدون أن يحصل فى ذلك ادنى حركة ولا اضطراب لكونه دفع لدولة العجم خراجا هينا غير أن ابن ميرويتز كان فى الطمع كابيه فعدا على عمه فقتله واراد التشبث بفتح البلاد وكان يسمى مير محمود الا انه لم يعرف فى بلاد اوروبا الا باسم والده الذى هو اول من سن بتلك الجهة سنة العصيان والخروج عن الطاعة ثم ان محمودا ضم الى من معه من عساكر الاغان كل من امكنه جمعه من الجويبر (ويقال لهم ايضا كبر) وهم طائفة من قدماء الفرس بدد شملها عمر (بن الخطاب رضى الله عنه) فى ايام خلافته وهى دائما على دين المجوس الذى كان له ظهور ورونق فى عهد الملك قيروس وهم فى السر اعداء للعجم الحديثين * ثم ان محمودا سار فى مائة الف مقاتل داخل بلاد العجم

وفى هذا الزمن حين راى اللزجية أن دولة العجم لا يسوغ لها المماحل بها من مصائب الدهران تدفع لهم النقود المرتبة لهم على سبيل الاعانة نزلوا من جبالهم متسلطين على هذه الدولة فاشتعلت نيران الحرب بها من طرفيها حتى سرت الى تختها

فخرب اللزجية جميع البلاد الممتدة على الشاطئ الغربى من بحر الخزر

الى

الى مدينة دربند ويقال لها ايضا باب الحديد وفى هذه النواحى التى خربوها يوجد مدينة شماخى البعيدة من بحر الخزر بخمسة عشر فرسخا من الفراسخ المعتادة ويقال انها دار اقامة الملك قيروس قديما وسماها اليونان باسم قيروپوليس اى مدينة قيروس لان اوضاع هذه البلاد واسماها لا تعرف عندنا الا بواسطتهم ولكن حيث ان الفرس لم يكن لهم ملك حقيقى سموه قيروس كذلك لم يكن لهم مدينة تسمى قيروپوليس فمثل اليونان كمثل اليهود الذين تصدوا للتأليف حين استوطنوا بمدينة الاسكندرية فتخيلوا مدينة تدعى اسقوتوپوليس حيث تخيلوا أن الاسقوطية بنوا بقرب بلاد يهوذا مدينة فهل كان الاسقوطية وقدماء اليهود يعرفون اليونانى و يسمون المدن باسماء يونانية

ومدينة شماخى هذه كانت ذات ثروة وغنى وكان الارمن المجاورون لكورتها يتجرون فيها تجارة عظيمة وكان قد رتب بها بطرس الاكبر على طرفه جمعية تجار موسقوبية اخذت فى الرواج فهجم اللزجية على المدينة المذكورة على حين غفلة ونهبوها وذبحوا جميع من بها من الموسقوبية ممن كانوا يبيعون ويشترون تحت حماية شاه حسين وسلبوا جميع حواصلهم التجارية التى بلغت قيمة ما فيها نحو اربعة ملايين من الريالات الموسقوبية

فارسل بطرس لشاه حسين وكان اذ ذاك ينازع فى اخذ تاج ملكه من الطاغى مير محمود الذى تغلب ظلما كما ارسل لمحمود المذكور يطلب رضا الخاطر الرسمى فى نظير ما حصل من الاساءة فى حق رعاياه فاعتذر حسين شاه بانه لا يقدر على انصافه واما مير محمود فأبى وامتنع بالكلية فعزم بطرس على أن ينتصر لنفسه و ينتقم منهما فانتهز لذلك فرصة التقلبات التى كانت حاصلة وقتئذ ببلاد العجم

وكان مير محمود اذ ذاك لم يزل يجتهد و يسعى فى تكميل فتوحاته ببلاد العجم ولما بلغ الشاه حسين أن ايمبراطور الموسقو كان يتجهز للدخول ببحر الخزر لاجل أن ينتقم فى نظير قتل رعاياه الذين ذبحوا بمدينة شماخى ارسل اليه

سفيرا ارمنى الجنس يترجاه سرا أن يكون حضوره ببلاد العجم ليس لمجرد الانتقام بل لمساعدة العجم وانقاذهم من صولة ميرمحمود

وكان مطمح نظر بطرس منذ مدة مديدة الاستيلاء على بحر الخزر وأن يوطن فيه دونما جسيمة موسقوبية ويجعل تجارة بلاد العجم وبعض بلاد الهند تمر ببلاده وكان قد جس عمقه واختبر سواحله ورسم خارطات بذلك مع الدقة ثم سافر تلقاء بلاد العجم فى ١٥ شهر مايه سنة ١٧٢٢ من الميلاد وقد صحبته زوجته فى هذه السياحة على عادتها ونزل فى نهر الاثل حتى وصل الى مدينة ازدراهان ومن هنالك اسرع فى تشهيل عمليات الخلجان التى كان الغرض منها اتصال كل من بحر الخزر و بحر بلطق والبحر الابيض ببعضها وحصل ذلك فى عهده لكن بقى منه جزء انتهى فى عهد حفيده

وبينما كان بطرس يدبر هذه العمليات اذ حضرت جيوشه البيادة وكذا الذخائر على بحر الخزر فكان عنده فى هذه الغزوة اثنان وعشرون الفا من عساكر البيادة وتسعة الاف من الخيالة المسماة ازدراهان وخمسة عشر الفا من القوزاق وثلاثة آلاف من البحرية ارباب دراية بالحركات العسكرية لهم مقدرة على القتال حال الهجوم كالعساكر البرية فتوجه الخيالة برا من الصحارى الخالية عن المياه غالبا ولما اجتازوا هذه الصحارى وجب أن يعبروا بوغاز جبال قوقازه اى جبال الجراكسة الذى يقدر نحو ثلاثمائة شخص من اهلها أن يوقفوا جيشا بتمامه لكن عدم انتظام الحكومة ببلاد العجم اذ ذاك مما يسوغ التجاسر على ارتكاب امثال ذلك

وقد سار بطرس فى نهر الاثل المذكور من جنوب مدينة ازدراهان وقطع نحو مائة فرسخ حتى وصل الى المدينة الصغيرة المسماة اندر يهوف فحصل التعجب من اسم اندرى الذى يدل على معنى نصرانى على شاطئ بحر ارقانيا وليس ذلك بعجيب فان فرقة من الجرج الذين كانوا سابقا من النصارى بنوا هذه المدينة ثم حصنها العجم فاخذها بطرس مع

السهولة

السهولة ومن هذه الجهات توغل فى السير برا فى بلاد داغستان ونشر بها اعلانات محررة بالفارسية والتركية ولكن سلك فيها مسلك الادب مراعاة لخاطر الدولة العثمانية حيث كان من رعاياها غير الجركس والجرج المجاورين لتلك الجهات جملة من الحكام ذوى القوة والاعتبار خراجيين لها دخلوا عما قريب فى حمايتها

ومن جملة هؤلاء الحكام حاكم ذوشوكة كان يدعى محمودا اوتميخ كان سلطانا فتجاسر على الهجوم على جيوش ايمبراطور الموسقو فهزم هزيمة كلية وقد ذكر فى جرنال تلك الوقائع أن بلاده صارت شنلكا وسوارىخ (١٤ شهر سبطمبر سنة ١٧٢٢) وعما قريب وصل بطرس الى مدينه دربند ويسميها العجم والترك تيمورقپو اعنى الباب الحديد وسميت بذلك لان اهالى الواقع بابا من الحديد بجهتها الجنوبية وهى مدينة طويلة ضيقة متصلة من احد طرفيها بشعبة من جبل قوقازة صعبة المرتقى ومن الطرف الآخر متصلة اسوارها بامواج البحر الذى يعلو عليها فى اوان القرطونات ولا مانع من أن تعد اسوار هذه المدينة من جملة عجائب الاقدمين فان ارتفاعها اربعون قدما وعرضها است اقدام محصنة بابراج مرتفعة الشكل مسافة بعد البرج عن الآخر خمسون قدما ويظهر للناظر ان هذه المبانى كأنها قطعة واحدة لانها مبنية بالخافق المتخذ من حجر البلاط والودع المسحوق فنتج من ذلك جرم اكثر صلابة من الرخام ويمكن الدخول فيها من البحر واما من جهة البر فيظهر أنها حصينة منيعة ولم يزل الى الآن يوجد فى تلك الجهة آثار سور قديم يضاهى سور بلاد الصين الذى بناه الصينيون فى الازمان الخالية وامتداد ذلك السور من شواطئ بحر الخزر الى شواطئ البحر الاسود والظاهر أن الذى بناه انما هم قدماء ملوك العجم للذب عن ملكهم من هجوم الامم المتوحشة الساكنة بين هذين البحرين

ومن المتواتر بين الفرس أن مدينة دربند رمم بعضها الاسكندر وحصنه وقد ذكر كل من المؤرخ ارين وكينت كورس أن الاسكندر فى الواقع

ونفس الامر عمر هذه المدينة واعادها كما كانت ثم قد زعم هذا ان المؤرخان
ان هذا الترميم كان على شواطئ نهر تن صو يى غيرأن اليونان فى عهد
المؤرخين المذكورين كانوا يطلقون اسم تن صو يى على نهر قيروس الذى
يمر بقرب مدينة دربند فيكون بناء الاسكندر لباب بحر الخزر على
هذا النهر الذى مصبه فى بحر بنطش من الامور المنقوضة

وكان لبحر الخزر فى سابق الازمان ثلاثة ابواب او اربعة فى اماكن مختلفة
والغرض من بنائها واحد كما هو الظاهر لان الامم الساكنة فى غربى هذا البحر
وشرقيه وشماله كانت دائما تبربرة مهيبة عند من عداها من الامم ومن هذه
الجهات انتقل الجم الغفير من المغيرين اصحاب الفتوحات الذين استولوا على
كل من آسيا واوروبا

واذا ابيح لى أن ابدى هنا بعض ملحوظات فأقول كثيرما غش المؤلفون فى سائر
الازمان العامة واستحسنوا ايقاع الناس فى الخطأ وآثروا زخاريف الكلام
وفصاحته على الحقيقة فان كينت كورس نسب الى قدماء التتار خطبة
عجيبة مشحونة بالعدل والحكمة فأفاد أن تتار تلك الاقطار كانوا اهل حكمة
وعقل وان الاسكندر لم يكن من طرف دول اليونان لقتال ملك الفرس
الذى هو صاحب جزء عظيم من بلاد التتار الجنوبية وبلاد الهند
وكذلك فصحاء المؤلفين حيث ارادوا تقليد كينت كورس بذلوا جهدهم
فى افهامنا ان الامم المتوحشة سكان جبال قوقازة والصحارى المنهمكين
على السلب والقتل اهل عدالة وحق اكثر من غيرهم ووصفوا الاسكندر الذى
انتقم لليونان وغلب من اراد ان يسترقه انه من قطاع الطريق يطوف الدنيا
بدون موجب وبدون حق

ولم يتفكروا ان هؤلاء التتار لم يكونوا سوى مبيدين للامم ومخربين للبلاد
وان الاسكندر شيد مدنا فى نفس بلادهم فلذا يسوغ لى ان اتجاسر واشبه
بطرس الاكبر بالاسكندر فانه كان مثله فى الهمة والاجتهاد ومحبة الفنون
النافعة بل واشد منه اعتناء بوضع القوانين والشرائع واراد ان يغير مثله تجارة

الدنيا

وبعض واصلح من المدن بقدر ما بشاه ايسكندر

وحين قربت الجيوش الموسقوبية من مدينة دربند لم يرد حكمدارها اصلا المحافظة اما الكونه ظن انه لم يكن في طاقته الذب عن نفسه واما لكونه رأى أن حماية الايمبراطور بطرس الاكبر له اولى من حماية الطاغي مير محمود فاحضر مفاتيح المدينة ومفاتيح القصر الذي فيها وكانت من الفضة فدخلت الجيوش الموسقوبية بمدينة دربند صلحا ونصبت عراضيها على شاطئ البحر

ثم ان الطاغي محمودا الذي كان اذ ذاك يحكم على جزء عظيم من بلاد العجم اراد أن يتدارك الجار ويمنعه من الدخول بمدينة دربند لكن لم يجد سعيه في ذلك شيأ فهيج التتار المجاورة لتلك الجهة على ذلك بل و بادر بنفسه لمنع جيوش الجار لكن كان قد سبق أن مدينة دربند سلمت للموسقوبية

ولم يسغ لبطرس وقتئذ أن يتقدم في الفتوحات ببلاد العجم لما أن السفن الموسوقة بالذخائر والعساكر الجديدة والخيول قد غرقت بقرب مدينة ازدراهان وكان فصل الشتاء قد أقبل فعاد الى مدينة موسقو ودخلها بموكب حافل واخبر فيها على رؤس الاشهاد وكيله المسمى رومادونوسكي على حسب عادته بما حصل له في هذه الغزوة من اولها الى آخرها التي هي اشبه بحكاية نادرة غريبة جديرة بأن تحكى امام كافة ملوك الارض كما ذكر ذلك في مدح بطرس الاكبر في خطبة تليت في مدينة باريس بجمعية العلوم

ولم تزل دولة العجم الى ذلك الوقت منقسمة بين الشاه حسين والطاغي محمود وكان الاول يسعى في أن يتعضد بايمبراطور الموسقو واما الثاني فكان يخشى من أن الايمبراطور المذكور ينتقم منه ويسلب منه ثمرة خروجه وعصيانه فبذل محمود جهده لاجل تحريض الدولة العثمانية على قتال بطرس الاكبر حيث ارسل أيلجية الى الاستانة العلية لهذا الغرض وكان امراء داغستان الذين هم تحت حماية السلطان قد اساءتهم اهل الموسقو

بقوتهم الحربية وسلبوهم فطلبوا من الدولة العلية أن تنتقم لهم من الموسقو في تظير ما صدر منهم في حقهم وكان ديوان الدولة العثمانية اذ ذاك يخشى ايضا اغارة الموسقو على بلاد كرجستان التي يعدها آل عثمان من ملكهم

فاشرف السلطان على اشهار الحرب مع الموسقو لكن منعه من ذلك كل من ديوان مدينة ... وباريس حيث اعلن ايمبراطور النمسا بان الدولة العثمانية اذا هجمت على الدولة الموسقوية يصير هو مجبورا على الذب عنها وقد صدق ماركي دو بوناك ايلجي فرانسا باسلامبول بما صدر منه من الاعتمادات الرسمية على كلام النمسا للدولة العلية وافهمها أن من جملة مصالحها كونها لا ترضى أن انسانا عاصيا فاتحا على دولة العجم يسن طريقة عزل الملوك وأن ايمبراطور الموسقو أدى ما كان يجب على السلطان فعله

وبينما كانت المذاكرة حاصلة في هذه التدابير الصعبة اذ قدم مير محمود على ابواب دربند وخرب البلاد المجاورة لها وقصده بذلك أن الموسقو لم يجدوا ما يقتاتون به ونهب من ارقانيا القديمة الجزء المعروف الآن باسم جيلان فيئس اهله فدخلوا من تلقاء انفسهم تحت حماية الموسقو لما كانوا يرون انهم محتقروهم

فاقتدى اهل هذا الاقليم في ذلك بشاه حسين الصفوي فان هذا الملك السيء الحظ كان قد ارسل لبطرس الاكبر سفيرا من طرفه يطلب منه جهرة المساعدة والامداد فبينما كان هذا السفير في اثناء الطريق اذا استولى العاصي مير محمود على مدينة اصفهان وقبض على صاحبها وهو ابن شاه حسين الصفوي

فما كان من ابن شاه حسين المذكور الذي عزله الطاغي محمود واسره وكان يدعى طهماسب الا أن ابق من هذا الطاغي وجيش بعض جيوش وقاتله ولم تفتر همته بل فعل كابيه في المبادرة بطلب الحماية من بطرس الاكبر وارسل للسفير الذي كان ارسله والده لبطرس يخبره من طرفه بنقض

الاعلانات التي كانت من طرف والد ويشاه حسين

(شهر اغسطوس سنة ١٧٢٣) قبل وصول السفير المذكور المسمى اسماعيل بيك نجح الامر المرسل بصدده فانه لما رسي على مدينة ازدراهان علم ان الجنرال الموسقوبي المسمى ماتوفكين متهيئ للسفر بجيوش جديدة لامداد الجيوش الكائنة بداغستان ولم تكن تأخذ الموسقو الى ذلك الوقت مدينة باكو التي يضيف العجم بحر الخزر اليها فيسمونه بحر باكو فاعطى هذا السفير للجنرال المذكور مكتوبا من طرفه لاهل هذه المدينة يرغبهم فيه عن لسان سيدهم بانهم يسلمون انفسهم للايمبراطور الموسقو بدون توقف ثم توجه السفير المذكور تلقاء مدينة بطرسبورغ واما الجنرال ماتوفكين المذكور فانه ذهب الى مدينة باكو ليحاصرها فحاصرها واخذها فصادف وصول السفير المذكور لديوان الموسقو أن وصل خبر أخذه المدينة المذكورة

ومدينة باكو على القرب من مدينة شماخى التي ذبح فيها اللزجية التجار الموسقوبية وليست في العمار والثروة كمدينة شماخى لكنها شهيرة بما يخرج منها من النفط الى كافة بلاد العجم وقد تم عقد المشارطة المرسل بصددها اسماعيل بيك المذكور ولم يتفق عقد مشارطة بهذه المثابة في اقرب وقت

(شهر سبطمبر سنة ١٧٢٣) ولاجل أن ينتقم الايمبراطور بطرس في نظير قتل رعاياه ولامداد طهماسب الصفوى ومساعدته على الطاغى محمود وعد أنه سيحضر ببلاد العجم مع جيوشه فما كان من امر هذا الشاه الجديد الآن وعده في نظير ذلك بانه لا يكتفي باعطائه مدينة باكو ودربند بل يعطيه ايضا اقليم جيلان ومازندران واستراباد

ثم ان اقليم جيلان هو نفس بلاد ارقانيا الجنوبية كما اسلفنا ذلك واقليم مازندران المتصل بجيلان هو عين بلاد المرو واقليم استراباد متصل بمازندران وهذه الاقاليم الثلاثة هي الاقاليم الاصلية التي تقدم له ملوك

عراق العجم وادربيجان فبهذه المثابة رأى بطرس نفسه سيدا على أولى ممالك فيروس بمقتضى الشروط التى عقدت بينه وبين العجم

ولا بأس هنا أن نذكر انه فى بعض بنود هذه المشارطة قدروا اثمان ما يباع من المأكولات اللازمة من بلاد العجم للجيوش الموسقوبية فكان ثمن البعير الواحد لا يزيد عن ستين فرنكا من نقود فرانسا (وهذا عبارة عن اثنى عشر ربالا من عملة الموسقو) ورطل الخبز لا يصل الى خمسة ليارات (تسعة انصاف مصرية تقريبا) ورطل اللحم البقرى يساوى تقريبا ستة ليارات وهذا السعر هو أوضح دليل على أن محصولات تلك الجهات بلغت حد الكثرة وهذه المحصولات الارضية هى فى الواقع ونفس الامر اموال حقيقية ودليل ايضا على ندرة النقود التى ليست الا مجرد اموال عرفية بين الناس

فكان لسوء بخت بلاد العجم أن السيئ الحظ طهماسب الصفوى الذى كان ساعيا بملكه رجالا نزالا لاقتفاء العاصى محمود اثره بعد أن قتل والده شاه حسين واخوته اضطر الى أن يحالف مع كل من الدولة الموسقوبية والدولة العثمانية على أن يقبل كل منهما جزأ من ملكه لاجل بقاء الجزء الآخر له وحفظه

فاتفق كل من الايمبراطور بطرس والسلطان احمد الثالث والصفوى طهماسب على أن الدولة الموسقوبية تأخذ من بلاد العجم الثلاثة اقاليم التى اسلفنا ذكرها وأن تأخذ الدولة العثمانية اقليم كسبان وقرس وايروان زيادة عن ما كانت متشبثة بأخذه والتغلب عليه وقتئذ من الطاغى محمود فبهذه المثابة تمزقت دولة العجم الظريفة وتقاسمها كل من الموسقو وآل عثمان واهلها

فبهذه المثابة حكم الايمبراطور بطرس من بحر بلطق الى خلف الحدود الجنوبية من بحر الخزر الى ان مات واستمرت بلاد العجم على كونها عرضة للفشل والتدمير وآل امراؤها الذين كانوا قبل ذلك اهل ثروة وغناء

ولطف وادب الى أن جار عليهم حكم الفقر والخشونة بخلاف دولة الموسقو فانها انتقلت من حالة الفقر والخشونة الى الثروة والتمدن والادب بهمة شخص واحد لكونه كان ذا عقل قوى ثابت رفع وطنه بعد الانحطاط بخلاف ملك العجم فانه لكونه كان ضعيفا قليل الهمة اسقط وطنه بعد الارتفاع

والى الآن لم نقف جيدا على جميع تفاصيل المصائب التى دمرت بلاد العجم مدة مستطيلة فقد قيل ان الشاه حسين السيئ الحظ افضى به الجبن حتى اداه الى أن يضع بنفسه تاجه الملوكى على رأس الطاغى محمود ويقال ان محمودا هذا اختل عقله بعد ذلك فبهذه المثابة تصرف شخصان احدهما مغفل والآخر مختل العقل فى امراها الى دولة العجم الكثيرين ويقال ايضا لن محمودا فى وقت دور جنونه المنقطع قتل بيده جميع اولاد الشاه حسين واولاد اخوته وكان يبلغ عددهم مائة نفس وامر بأن يتلى على رأسه انجيل مارى حنا لاجل ان يخلص ويشفى وهذه الحكايات المتعلقة بشاه العجم المذكور نشرها القسوس الفرنساوية وطبعوها بمدينة باريس ثم أن هذا الطاغى الذى قتل عمه آل امره الى أن قتله ابن اخيه المسمى خسرو وهو فى القساوة والطغيان يضاهى محمودا

واما الشاه طهماسب فلم يزل يطلب المعونة من الدولة الموسقوبية وطهماسب هذا او طهماس هو بعينه الذى كان يساعده الشهير قولى خان واعاده الى منصبه ثم عزله بعد ذلك

ثم ان الفشل والحروب التى عادت الدولة الروسية فيها الدولة العثمانية وانتصرت عليها وتسليم الفرس الثلاثة اقاليم بعد تخليتها التى فقدت فيها الدولة الموسقوبية اكثر مما تحصل لها منها ليست من الحوادث التى تخص تاريخ بطرس الاكبر فانها لم تحصل الا بعد موته بعدة سنين وانما يكفى أن نقول ان بطرس المذكور انهى حروبه بضم ثلاثة اقاليم لدولته بالمشارطة مع دولة العجم بعد أن اخذ ايضا ثلاثة اقاليم اخرى من حدود مملكة اسوج

(الفصل السابع عشر)

في تتويج الايمبراطورة كاترينة الاولى وتبريك القسيس عليها بالمسحة وفي موت بطرس الاكبر

لما عاد بطرس من غزو بلاد العجم رأى نفسه انه الحكم المفوض ببلاد الشمال على الدوام فألزم نفسه بان يكون محاميا للعائلة نفس كرلوس الثاني عشر الذي كان عدوا له من منذ ثماني عشرة سنة فاحضر بديوانه دوق هلستين ابن اخت كرلوس المذكور وعين له بنته البكرية للزواج وجهز نفسه من هذا الوقت للمحاماة عن اثبات ما لهذا الدوق من الحقوق على دوقية هلستين سلويك (في شهر فبريه سنة ١٧٢٤ ميلاديه) بل ألزم نفسه بذلك في شروط محالفة عقدها مع مملكة اسوج

وتمادى بطرس في الاشغال التي ابتدأها بملكه الى آخر بحيجزيرة كمجتقا ولاجل حسن ادارة هذه الاشغال رتب بمدينة بطرسبورغ جمعية علوم فزهت بها الفنون وازهرت في ملكه بكل جهة وقويت الصنائع وصارت مرغوبة وزادت القوة البحرية وكذا الاعتناء بشأن الجيوش ولوحظت القوانين والشرائع فكان يتمتع مع الهدو والصلح بفخاره واراد أن يتقاسم هذا الفخار بطريقة جديدة مع كاترينة التي ساعدت بجبرها لخلل مصيبة هزيمة جيوشه بواقعة نهر البروث على حصول هذا الفخار له كما قاله بطرس المذكور

(١٨ شهر مايه سنة ١٧٢٤) وكان تتويج بطرس لزوجته كاترينة وتبريكها بالمسحة بمدينة موسكو بحضور كل من دوقيجة كورلاند بنت اخيه البكرى ودوق هلستين الذي اختاره صهرا له على بنته والاعلان الذي نشره في هذا الخصوص حرى بان يلتفت اليه فانه قد ذكر فيه ما صدر من عدة ملوك من ملوك النصارى في تتويج زوجاتهم ومثل بكل من بازيليد وجوستنيانوس وهيرقليوس وليون الفيلسوف قياصرة دولة بيزنطيا وبين ايضا تفاصيل المنافع التي صدرت من

كاترينة لدولة الموسقو سيما ماصدر منها فى حرب الموسقو مع آل عثمان من المداهنة والمداخلة لما آل امر الجيوش الى الاضمحلال والنقصان حتى وصلت اثنين وعشرين الف نفس واما مهم ممن يحاربهم من العساكر العثمانية ماينيف عن مأتى الف نفس كما قاله بطرس ولم يتعرض فى هذا الامر الصادر بالتتويج الى كون الايمبراطورة المذكورة يلزم أن تحكم دولة الموسقو بعده لكنه باتحافها بالتبجيل والاحتفال على هذا الوجه الذى لم تجر به العادة فى مملكته التى فى آذان الناس كونها مستحقة لان تخلفه فى الحكم ومما يسوغ اعتقاد ان كاترينة كانت معينة فى ذهنه اسرير الملك بعده هوان نفس الجبار سار امامها راجلا يوم تتويجها بصفة يوز باشى على فرقة جديدة سماها اورطة شوالية الايمبراطورة اى اورطة التشريف

ولما دخل الموكب الكنيسة وضع بطرس التاج على رأسها فارادت عند ذلك أن تقبل ركبتيه فمنعها من ذلك ولما خرجوا من الكنيسة امر بحمل عصا الملك والكرة الملوكية امامها فكان جميع مافعل فى هذا الموسم جديرا بان يصدر من مثل بطرس الاكبر فقد صدر منه فى بعض الاوقات فى مقام المواكب من الابهة والرونق والزينة بقدر الخمول والسازجية التى كان يستعملها فى معيشته الخصوصية

ولما توج زوجته عزم على تزويج بنته البكرية حانا يتروفنا بدوق هلستين وكانت هذه الاميرة اشبه بابيها فكانت رشيقة القد معتدلة القوام بارعة الجمال فتزوجت بالدوق المذكور لكن حصل ذلك بدون ابهة عظيمة وفرح جسيم فانه فى ٢٤ شهر نومبر سنة ١٧٢٤ ميلادية قد احس بطرس بحصول تغير عظيم فى صحته وكان به غم بدا اثره المتزايد وربما كان هيج هذا الغم الداء الذى مات به فبذلك صارت اواخر ايامه من الدنيا غير لائقة بابهة المواسم والافراح

وذلك ان كاترينة كان لها شاب حاجب يدعى موابانس دولاكروا مولود

ببلاد الموسقو من عائلة فلمنكية وكان جميل الصورة وكانت اخته مدام دوبلك ماشطة الامبراطورة وكان كل منهما يدير منزل الجار فوشي بما عنده فوضعهما فى السجن وامر بتحقيق قضيتهما بخصوص قبولهما الهدايا وكان قد منع من سنة ١٧١٤ ميلادية كل من كان ذا وظيفة من قبول الهدايا واعلن أن كل من حصل منه ذلك فعقابه بالجرسة والفضيحة والقتل وقد تجدد الامر باجراء ذلك مرارا

فحققت قضيتهما وحصل اقناءهما فى صحة ما اتهما به وذكر فى جرنال الحكم عليهما عدد من اعطوا الرشوة والبرطيل فى نظير تحصيل الوظائف والمناصب ماعدا الدوق دوهلستين ووزير ذلك الدوق المسمى لوكنت زوباسويتز فانه لم يذكر اسمهما فانه وان صدق العقل ان هذا الامير اعطى لمن ساعده فى نجاح زواجه ببنت الجار بعض هدايا لكنها لم تعد ذنبا

فحكم على الحاجب المذكور بضرب عنقه وحكم على اخته التى هى خصيصة الامبراطورة بان تضرب احد عشر سوطا بالسوط المسمى عند الموسقو كنوت وهو سوط عذاب عندهم وصار عزل ولدى هذه الماشطة الذى كان احدهما ايضا حاجبا والآخر من جملة الغلمان المختصين بخدمة الجار وارسالهما فى الجيوش الموسقوبية ببلاد العجم بوظيفة انفار

ثم ان مثل هذه القساوة التى تنفر منها طباع الفرنساوية ربما كانت ضرورية ببلاد الموسقو التى اجراء القوانين والشرائع فيها وحسن رعايتها كان يستدعى شدة تخويف وازعاج فطلبت الامبراطورة من زوجها العفو عن ماشطتها فأبى ذلك لغيظه وكسر عند تسلطن الغيظ عليه مرآة عظيمة من مدينة وندنيق وقال لزوجته هلا ترين انه لا يلزم سوى ضربة من يدى لاستحالة هذه المرآة الى التراب التى خرجت منه فنظرت اليه كاترينة عند ذلك بعين الحزن والشفقة وقالت له انت كسرت المرآة التى كانت مزينة لسرايتك فهل تظن ان السراية الآن اظرف مما كانت فخمد غضب هذا الامبراطور عند سماع هذه الكلمات وغاية ما امكن أن يسمح لها به من العفو

عن

عن هذه الماشطة هو كونها لاتضرب سوى خمسة بالكنوت عوضا عن احد عشر
وماتصديت لذكر هذه القضية الالكون القونتة دوباسويتز وزير دوق هلستين عاينها بنفسه بل واعطى هدايا لكل من الاخوين المذكورين وربما كان لهذا الوزير باعطائهما الهدايا مدخل فيما حل بهما من المصائب وسوء الحظ وهذه الحكاية كانت سببا في تجاسر ارباب الطويات السيئة بالحكم على الشيء بما هو منطو في طباعهم حيث اشاعوا ان كاترينة اسرعت في موت زوجها حيث كانت تخشاه لدى غيظه اكثر من أن تعترف له بالشكر في نظير ماله عليها من الآلاء والنعم
وايد هذه التهمة الصادرة من ارباب القلوب الجافية كون كاترينة قد بادرت باسترجاع ماشطتها عقب موت زوجها واقبلت عليها كل الاقبال ومما يجب على المؤرخ من حيث هو مؤرخ ذكر مثل هذه الاشاعات العامة التي شاعت وانتشرت في كل الاعصر والدول عند موت الملوك قبل حلول الاوان الطبيعي فكأنهم يعتقدون ان قدرة الله تعالى لاتقبض الانسان قبل العمر الطبيعي لكن مما يجب على المؤرخ ايضا أن يذكر للعامة ان اللغط بمثل هذه الامور واشاعتها كثيرا ما يكون من باب الرجم بالغيب وعدم مراعاة قانون الانصاف وثم فرق جسيم بين الغضب الوقتي الذي يمر وينقضي الناشيء من زوج ذي قساوة وبين اضمار السوء في كون الزوجة المذكورة تعطي السم لزوج وسيد له الفضل عليها في كل الامور ولو كان الامر كذلك لكان اضمار الشروع في هذا المشروع خطرا عظيما كارتكاب الذنب بالفعل وعند موت الجار ظهر حزب عظيم متعصب على كاترينة مساعدا ومنتصرا لحفيد بطرس ابن ألكسيس المقتول ويريد تقليده بالملك بعد جده ومع ذلك لم يتهم هذا الحزب بل ولا احد من رجال الدولة كاترينة بانها سمت الجار وانما هذا اللغط الفارغ الذي شاع لم يكن الاظن بعض الغرباء الجاهلين حقيقة الحيال الذين دأبهم المسرة بالشرور ولاعتقادهم بدون اصل صدور الكبائر ممن يظنون

ان لهم مصلحة فى ارتكابها وهذه المصلحة التى كان يظن انها تعود على كاترينة بعد موت الجبار بالمنفعة هى الحكم بعده مع ان كاترينة كانت لاتثق بذلك حيث لم تكن جازمة بانها تخلف الجبار فى الحكم على الدولة نعم انها قبل موته لبست تاج الايمبراطورة لكن هذا لمجرد كونها زوجة الايمبراطور لا برسم كونها تصير حاكمة على الملك بعده

والاعلان الذى اعلن به بطرس لتتويجها لم يعنون فيه موكب التتويج الا برسم كونه مجرد احتفال تفريح ولم يعنون ذلك بكونها لها حق فى الحكم بعده لاسيما وانه مذكور فى هذا الاعلان ما صدر من الايمبراطرة الرومانية الذين توجوا زوجاتهم ولم تحكم واحدة منهن على الدولة بعد زوجها وبالجملة ففى مدة مرض بطرس ظن جماعة كثيرون ان الاميرة حانا بترونا (بنت بطرس) هى التى تخلفه مع زوجها دوق هلستين اوأن بطرس يعين للخلافة بعده حفيده فحينئذ من البعيد كون كاترينة لها مصلحة فى موت الايمبراطور وانما مصلحتها التى كانت تحتاجها هى بقاؤه على قيد الحياة

ومن المحقق ان بطرس كان مصابا منذ مدة مديدة بدمل و بعسر البول وتسبب له من ذلك آلام شديدة وكان يتداوى بالاغتسال من مياه مدينة اولوتيتز المعدنية وغيرها ومع ذلك لم تجد نفعا فى شفائه فمن ابتداء سنة ١٧٢٤ ميلادية ظهر ان بنيته كانت تضعف ضعفا محسوسا وان اشغاله التى لم تفتر همته عنها زادت مرضه حتى جاء وقت انقضاء اجله وكان يظهر عليه علامات الموت عاجلا وفى شهر ينويه سنة ١٧٢٥ ميلادية احس بحرارة شديدة كانت سببا فى كونه يقضى اغلب اوقاته فى الهوس والتخريف وفى خلال الاوقات التى كانت تفارقه منها هذه الآلام اراد أن يكتب وصية لكن لم تستطع يده الا كتابة حروف عسرة القراءة جدا فلم يمكن أن يقرأ منها الا ما معناه باللسان الروسى اعطوا كل شئ الا

ثم صاح قائلا احضروا الاميرة حانا بترونا وكان مرامه بذلك أن يمليها لكن لما حضرت هذه الاميرة امام فراشه وجدت انه فقد قوة الكلام وصار يعالج

سكرات

سكرات الموت واستمر محتضرا ستة عشر ساعة ولم تكن تترك كاترينة
وسادته مدة ثلاث ليال وبالجملة فات الچار بين ذراعيها فى ٢٨ شهر ينويه
فى الساعة الرابعة بعد نصف الليل

ونقلوا جثته فى الايوان الكبير الذى بالسراية وكان وراءه جميع العائلة
الايمبراطورية وارباب مجلس الحكومة وجميع الذوات وكثير من الاهالى
وطرحوه على سرير كعادتهم وابيح لكل الناس الدنو منه وتقبيل يده
الى وقت تجهيزه للدفن وكان ذلك فى ١٠ شهر مارس سنة ١٧٢٥
ميلادية اوفى ٢١ من الشهر المذكور فى السنة المذكورة بحسب اختلاف
التقاويم الجديدة والقديمة

وقد ظن الناس انه اوصى لزوجته كاترينة بوراثة الملك بعده ونشر هذا
الامر وطبع لكن فى الواقع ونفس الامر لم يفعل الچار وصيتنامة ولم تظهر له
وصيتنامة وصدور هذا الاهمال من المقنن للقوانين عن مثل بطرس الاكبر
امر عجيب يدل على انه لم يظن ان داءه يفضى به الى الهلاك

وفى ساعة خروج روحه لم يعلم احد من يجلس على سرير الملك بعده وتقدمات عن
حفيده المسمى بطرس وهو ابن ألكسيس المقتول وعن بنته البكرية
دوقيجة هلستين (زوجة دوق هلستين) وكان هناك حزب عظيم
مساعد لحفيده الشاب فى وراثة الملك بعد جده ثم ان الامير منزيقوف
الذى كان متحدا دائما مع كاترينة تدارك جميع ما يمكن صدوره
من المتعصبين والمضمرين شيأ فى هذا الشان فانه لما قرب خروج روح بطرس
احضر منزيقوف كاترينة بايوان بالسراية وكان قد اجتمع فيه اصحابهما
وصار نقل الخزينة بالقلعة واستوثقوا من الخفر وقد رقى الامير منزيقوف
مطران نوغرود لاجل مساعدة الايمبراطورة فى تولية الملك فعقدت
كاترينة مع المجتمعين مشورة سرية وكان كاتب السر فيها انسان كتوم يحفظ
الاسرار يسمى مكاروف وحضرها ايضا وزير دوق هلستين

ولما خرجت كاترينة من هذه المشورة عادت لزوجها الذى كان يعالج

فى خروج الروح فخرجت روحه بين ذراعيها فعند ذلك بادر ارباب مشورة الحكومة والجنرالات بالحضور فى السراية فخطبت كاترينة خطبة ذكرت فيها ما ذكرت فاجابها منزيقوف عن لسانهم وتذاكروا فى شأن ولايتها مع عدم حضورها حسب الرسوم فاعترف المطران بان الايمبراطور بطرس قبل تتويجها قال انه لم يتوجها الا لتكون ولية عهده بعده فبايعها اهل المجلس وكتبوا صورة مبايعة نامة ووضع عليها جميع اهل الجمعية امضاءهم وخلفت كاترينة زوجها من يوم موته

وقد تأسف اهل الموسقو على موت بطرس الاكبر لما ابدعه فى الدولة من الامور النافعة واهل الجيل الذى اعقب المتمسكين بالعوائد القديمة من اهل الموسقو احبوا بطرس المذكور واتخذوه اباهم ولما راى اهل البلاد الاجنبية ان جميع محدثاته التى ابتدعها بدوا انه متينة مستديمة تعجبوا منه كل العجب واعترفوا بان ما فعله مما يعد من الامور العجيبة كان من باب حسن التدبير البليغ لا عن قصد فعل عظائم الامر لمجرد الرياء والسمعة وقد تبين عند اهل اوروبا بانه احب الفخار والسمعة وانه جعل جميع فخاره فى فعل الخير وان عيوبه لم تضعف صفاته الجيدة فمن حيثية كونه بشرا كان ذا عيوب ومن حيثية كونه ملكا كان عالى الهمة فغلب العوائد فى كل الامور اعنى عوائد رعاياه وعوائد نفسه فى البر والبحر لكن غلبها لاصلاحها وتحسينها فى الفنون التى غرسها بيده فى ممالكه وكان بعضها اذ ذاك وحشيا فاثمرت وشهدت له بزكاء عقله واوجبت تخليد ذكره والا يترآى انها متأصلة فى هذه البلاد التى جلبها اليها وقد تقوت وكملت على حسب اغراضه وما رتبه القوانين والاحكام والسياسات والتربية العسكرية والبحرية والتجارة والفبريقات والعلوم والفنون المستظرفة * ومن غريب ما اتفق ولم يسبق بمثله انه جلس بعد هذا الايمبراطور على سرير ملك الدولة الموسقوبية اربع نسوة على التوالى حافظن على العمل فى جميع ما ابدعه وكملن وحسن جميع ما شرع فى فعله

وقد حصل بعد موته بعض فشل فى السراية الايمبراطورية لكن لم يعد على

الحكومة

الحكومة من ذلك شيء قط وقد ازداد افتخار هذه الدولة فى عهد كاترينة الاولى فاجترأت الدولة المذكورة بعدها قتال آل عثمان والاسوج فى عهد حانا يترونا وفتحت البروسيا وجزأ من اقليم پومبرانيا فى عهد اليزابيطة وتمتعت الدولة المذكورة بالهدء والصلح وفى عهد كاترينه الثانية زهت العلوم بها واينعت

ومن وظائف المؤرخين من اهل الموسقو أن يبينوا جميع تفاصيل ما اسسه بطرس الاكبر بملكه من شرائع وقوانين وحروب ومشروعات فباشهارهم جميع الرجال الذين ساعدوا هذا الايمبراطور فى اشغاله الحربية والسياسية من ابناء الوطن يشوقون ابناء وطنهم ويحثونهم على الاقتداء بهم ويكفى من اجنبى مثلى متولع بهذا الايمبراطور خلى اغراض فى كتابة التاريخ كونه اجتهد واظهر ما صدر من هذا الرجل الجليل القدر الذى تعلم من كرلوس الثانى عشر ما غلبه به وخرج من ملكه مرتين لاجل أن يتعلم كيفية الاحكام على احسن حال واتم منوال واشتغل بيده فى اغلب الفنون الضرورية ليكون قدوة لرعاياه وحسبه انه كان مؤسس المملكة وابا الوطنه

وبالجملة فكأنه جعل ملوك الدول المتمدنة منذ مدة مديدة يقول بعضهم لبعض بلسان الحال اذا كان بالاقطار المنجمدة التتارية قديما هذا الانسان الذى لم يكن له مساعد سوى عقله فعل اشياء عظيمة جليلة فماذا ينبغى أن نعمل بممالكنا التى تكاثر بها مصنوعات عدة قرون وصيرت كل شيء سهلا علينا انتهى

(صورة الحكم على ألكسيس بالقتل)
فى ٢٤ شهر يونية سنة ١٧١٨ ميلادية

انه بمقتضى الامر الصريح الصادر من جناب الجار الموضوع عليه امضاؤه بخطه المؤرخ فى ١٣ شهر ينويه الاخير بخصوص تحقيق دعواه على ابنه ألكسيس پترويتز بما صدر منه من المخالفات لوالده الذى هو ايضا ولى امره وارتكاب الذنوب فى حقه كان من امر الواضعين امضاءهم فى هذا ادناه من وزراء وارباب مشورة الحكومة جهادية وملكية انهم بعد ان اجتمعوا عدة مرات بمجلس الحكومة بمدينة بطرسبورغ وسمعوا بانفسهم غير مرة قراءة نسخة الشهادات على ألكسيس وما هو ملخص منها سمعوا ايضا قراءة مكاتيب الموعظة المحررة من طرف الجار لابنه واجوبتها التى اجاب بها ألكسيس المذكور المحررة بخطه وغير ذلك من الاوراق المتعلقة بهذه القضية وما حصل من تحقيق ما صدر منه من الذنوب التى ارتكبها وكذا ما اعترف واقر به على نفسه مما هو بخطه او مما شافه به سيده ووالده وذكره ايضا امام الواضعين امضاءهم فى هذا الجرنال المعين من طرف الجناب الجارى لخصوص هذا التحقيق اعترفوا لدى المذاكرة بانه وان كان بمقتضى قوانين الدولة الروسية ليس لهم حق جملة كافية قطر النكونهم رعايا من اصل الخلقة للدولة الجارية فى تحقيق مثل هذه القضية المهمة التى حقها أن يفوض امرها للارادة الايمبراطورية المطلقة التصرف التابعة للارادة الالهية الفاعلة المختارة بدون شرط ولا قيد الا انهم امتثالا لذلك الامر الصادر من الدولة الجارية المستولية المفوضة لهم الرأى فى بت الحكم فى هذه القضية بعد أن تأملوا كل التأمل وتفكروا كل التفكر بذمة نصرانية بدون خوف ولا تملق ولا مراعاة لخاطر الدولة الجارية ولم يكن نصب اعينهم سوى ما يوافق هذه القضية من الاحكام الالهية المنصوصة فى التوراة والانجيل واناجيل الحواريين والاحكام الدينية والقوانين المجمع عليها فى المجامع الجمهورية بمعرفة المطارنة ورؤساء دين النصرانية وبعد أن استفتوا ايضا

من الاساقفة والقسوس المجتمعين بمدينة بطرسبورغ بامر الجار واجيبوا بما يوافق الاحكام القسيسة وراعوا قوانين الدولة الموسقوبية سيما القوانين الجديدة واستأنسوا بموافقة قوانين كثير من الدول مثل قوانين قدماء الايمبراطورة الرومانية واليونانية وغيرهم من ملوك النصارى استقر الرأى بين الواضعين امضاءهم فيه بدون مناقضة ولا مخالفة على ان ابن الجار الذى هو ألكسيس بتروبتز يستحق القتل وحكموا عليه بذلك نظرا لما ارتكبه من الكبائر المذكورة ولما صدر منه من الموبقات الجسيمة فى حق سيده ووالده حيث انه ابن للدولة الجارية ثم ان الذات الجارية وعدته بمقتضى الامر الموسل من طرفها اليه مع كل من مسيو تلستوى مشتار الجار والبيوزباشى رومانزوف المكتوب بمدينة اسبا المؤرخ فى ١٠ شهر يوليه سنة ١٧١٧ ميلادية المذكور فيه بان الجار يسامحه بما صدر منه من الهروب اذا عاد من المحل الذى كان به بالطوع والاختيار كما اعترف بذلك ألكسيس المذكور مع ما صدر منه من الشكر فى مكتوبه الذى حرره بمدينة نابلى فى ٤ شهر اوقطوبر سنة ١٧١٧ جوابا عن المكتوب المذكور وذكر فيه الشكر والثناء على الحضرة الجارية للعفو الذى حصل له منها عن هروبه فقط الا انه من ذلك الوقت صار غير مستحق للعفو المذكور لمعارضته لمقاصد والده ولما تجدد منه من العصيان واستمر عليه كما هو مذكور مع الاطناب فى الاعلان الذى نشرته الذات الجارية فى ٣ شهر فبريه سنة تاريخه وايضا صار غير مستحق العفو لكونه لم يرجع من تلقاء نفسه من المحل الذى كان فيه

ومع ان الذات الجارية يوم حضور الجار زاده بمدينة موسكو بتقرير يعترف فيه بجميع ما ارتكبه من الذنوب وطلب فى المدينة المذكورة العفو من والده عن هذه الذنوب رثت لحاله وشفقت عليه كما هو شأن الاب مع ابنه وفى الوقت الذى أذن له بان يستمع منه ما يخبره به فى ايوان بالقصر الذى بهذه المدينة فى نفس يوم حضوره بها وكان ذلك فى ٣ من شهر فبريه وعده

بانه

بان يسامحه من جميع ما صدر منه من العصيان وعدم الطاعة لكن لم يعده بهذا العفو الا بشرط صريح وهو أن يخبر على رؤس الاشهاد و يعترف بدون شرط ولا تعليق ولا كتمان بجميع ما ارتكبه وما اتفق على فعله من التعصبات على الذات الجارية لغاية اليوم المذكور وأن يخبر أيضا بجميع من اغراه من الناس على ارتكاب ذلك و بشركائه فى الذنوب و بالجملة ان يخبر بجميع من علموا بعض شئ من مقاصده وما ربه ودسائسه لكن اذا سكت عن بعض الناس او كتم بعض شئ من ذلك كان العفو الذى وعد به الجار ملغى كلا شئ فسمع وقتئذ ألكسيس كل ذلك ورضى به ولو ظاهرا وسالت عيناه بالدموع شكرا لوالده على صنيعه واقسم فى وعده أن يخبر بكل ما حصل منه بدون حفظ ولا كتمان ولتحقيق هذا الوعد وتأكيده لثم الصليب والكتب المقدسة الموجودة فى الكنيسة الكبرى

وكذلك الذات الجارية اكدت ما وعدت به ألكسيس من العفو حيث وقعت بخطها فى اليوم الثانى على بنود الاسئلة التى سئل عنها ألكسيس المذكور فى هذه القضية ما صورته

حيث صدر منى البارحة مسامحتك بشرط أن تخبرنى بجميع احوال هروبك وما يتعلق به ولكن اذا كتمت شيأ من ذلك حرمت من الحياة وحيث شافهتنى بالاقرار ببعض اشياء فلاجل اتمام رضاء خاطرى ولبراءتك ايضا يلزم أن تكتب ما شافهتنى به كما هو مبين ادناه

وفى آخر هذه الاسئلة كتبت له الذات الجارية بيدها فى البند السابع ما صورته

اخبرنى بجميع ماله تعلق بهذه القضية ولو لم يكن مذكورا هنا ونزه نفسك وخلصها كما يفعل الانسان حين الاعتراف لله تعالى بما ارتكبه من الذنوب لكن اذا كتمت شيأ واستبان فيما بعد فانت الجانى على نفسك فلا تنسب الى شيأ مما يحل بك لانى قد تعهدت لك البارحة امام الخاص والعام بانه ان صدر منك ذلك فالمسامحة التى حصلت لك تكون ملغاة لا يعبأ بها

ومع ذلك فاذ كره الجار زاده فى اجوبته واعترافاته مجرد عن الاخلاص والصداقة بالكلية حيث لم يكتف بكتم أناس كثيرين بل ارتكب ايضا كتم امور جسيمة وكتم ماصدر منه من العصيان ايضا لاسيما مقاصده التى كان متشبثا بها لاجل الخروج عن طاعة والده وسيده والخروج عليه وماصدر منه من الافعال السيئة التى دبرها واستمر عليها مدة مستطيلة لاجل بذل جهده فى اغتصاب سرير ملك والده ولو مدة حياته بسلوك طرق مختلفة قبيحة محتجا فى ذلك بحجج رديئة وكان مؤسسا امله وعشمه فى قتل والده وسيده على اقرار رعاع الاهالى ومساعدتهم له فى ذلك

وقد استكشف والده كل ذلك فيمابعد وظهر لدى تحقيق هذه الدعوى بعد ان ابى ألكسيس من أن يقر هو بنفسه كما ظهر ذلك اعلاه

ومن المعلوم انه بمقتضى ماصدر من الجار زاده من السلوك ومن التعهدات التى تعهدها على نفسه كتابة ومشافهة لاسيما التعهد الذى تعهد به اخيرا فى ٢٢ شهر يونية سنة تاريخه انه تخلى عن ولاية العهد وأن يكون وارثا لتاج الملك بعد أبيه بالشروط التى اراد والده ان يشترطها حسب اصول العدالة والاحكام الالهية لكنه بعد أن تنازل عن هذا الامر رغب فيه ونوى الوصول اليه ولو فى حال حياة والده وسيده قهرا عنه ولم يكتف فى سعيه لتحصيل ذلك بما اضره من تقديم العصاة المتحزبين على والده بل استعان بايمبراطور ألمانيا كرلوس السادس له واستغاث بجيوش اجنبية واضمر ان يجعلها تجيبه الى نيل مقصوده ولو ازم على ذلك خراب الدولة الموسقوبية والتبرع بجميع مايطلب منه من الدولة المذكورة فى نظير هذه المساعدة والامداد

فاذا استبان مماذكرناه تفصيلا ان ألكسيس بكتم جميع مقاصده الخطرة المضرة وسكوته عن بيان كثير من الاشخاص الذين كانوا متفقين معه على الخروج كما صدر منه ذلك الى آخر تحقيق هذه القضية والى وقت اقناعه كل الاقناع فى جميع دسائسه لم يزل محرضا فى ذلك الوقت على اضمار طرق

يستعملها

يستعملها فى المستقبل لاجل انالة مقصوده عند انتهاز الفرصة فى رجوعه الى انهاء اغراضه وما ربما الشنيعة التى نوى على فعلها فى حق والده وسيده بل وفى حق جميع الدولة الموسقوبية

فبذلك صار ألكسيس غير مستحق لحلم والده وسيده وللسماح الذى وعده به وقد اعترف بنفسه امام كل من الذات الجارية وكافة القسوس على اختلاف درجاتهم وبحضور اهل الجمعية المجتمعة لهذه القضية واعترف ايضا كتابة ومشافهة امام الواضعين امضاءهم المعينين للحكم عليه من طرف الذات الجارية بان ماصدر منه مما هو مذكور اعلاه هو صحيح ظاهر بمقتضى ماثبت من الحوادث

فحينئذ حيث ان الشرائع الالهية والقوانين القسيسية التى اسلفنا ذكرها بل والقوانين الجهادية والملكية لا تقتصر فى الحكم بالقتل على من صدر منه البحث عن قتل والده وسيده وثبت تعاطى اسباب ذلك عليه بمقتضى امور ظاهرة بل تحكم ايضا بالقتل على من صدر منهم اضمار ذلك لمجرد العصيان او لمجرد نية قتل الملك او اغتصاب ملكه فما بالك بقصد العصيان الصادر من ألكسيس الذى لم يسبق بمثله فى الدنيا وانضمام ذلك الى مقصد شنيع وهو قتل والده وسيده فهذا ذنب مضاعف اذ الجار ابو ابنه من جنبتين احداهما انه ابوه من جهة الوطن والاخرى انه ابوه بمقتضى البشرية (وهو ايضا قد ادى الابوة حقها حيث ربى ابنه من وقت ما كان فى المهد مع غاية الهمة الزائدة عن الهمة الابوية مع ما يظهر من رقة القلب والرأفة فى جميع الاحوال وبذل جهده فى تعليمه وتربيته وافادته ما يلزم للانسان المعد للحكم على الملك وكذا فى تعليمه مع غاية المشقة والعناء واجتهد كل الاجتهاد معه فى فن العسكرية ليكون بذلك ذا اهلية لان يخلفه فى الدولة الموسقوبية الجسيمة) فهل صاحب مثل هذا المقصد لا يستحق أن يحكم عليه بالقتل عقابا له من جميع الاوجه

فبقلب حزين وعيون فائضة بالدموع قد قضينا مع كوننا خدمة ورعايا بهذا الحكم معتقدين انه ليس من وظيفتنا بهذا الوصف أن يكون لنا مدخل

فى فصل مثل هذه القضية العظيمة والحكم فيها لاسيما وان هذا الحكم هو على ابن مولانا الجبار الذى هو ملك عظيم القدر كثير الحلم والرأفة ومع ذلك حيث ان ارادته اقتضت أن تفصل هذه القضية فنعلن فى هذه الخلاصة رأينا الصحيح ونحكم هذا الحكم بذمة خالصة مسيحية ونعتقد انه فى وسعنا الاجابة عنه ان سئلنا بين يدى الله العادل المتنزه عن الاغراض فى يوم الحشر العظيم الذى هو يوم هول وفزع

ومع ذلك فيعرض هذا الحكم الصادر منا على الارادة الحاكمة الجارية صاحب العفو والسماح ليطلع عليها ويجرى ما تقتضيه ارادته الملوكية

(صورة الامر الصادر من الايمبراطور بطرس الاول)

• فى شأن تتويج زوجته الايمبراطوريجة كاترينة

من الحضرة الايمبراطورية المتولية على جميع الدولة الموسقوبية الخ الى جميع الطوائف القسيسية والضباط الملكية والجهادية والاهالى الروسية من الرعايا الموصوفين بالامانة لا يخفى على احد منكم العادة المستمرة الجارية بالممالك النصرانية التى بمقتضاها يتوج الملوك زوجاتهم كما هو جار الآن وكما صدر عدة مرات فى الازمان الخالية من ملوك النصارى التابعين للديانة اليونانية الاصلية كالقيصر بازيليد الذى توج زوجته زينوبيا والقيصر يوستنيانوس الذى توج زوجته لويسينا والقيصر هركليوس الذى توج زوجته مرتينا والايمبراطور ليون الفيلسوف الذى توج زوجته ماريا هم وكذا جماعة غيرهم من القياصرة قد وضعوا التاج الايمبراطورى على رؤس زوجاتهم لا نذكرهم هنا ولو ذكرناهم لطال شرح ذلك

ومن المعلوم اننا اطالما خاطرنا بنفسنا واقتحمنا شدائد الاهوال مدة الحرب الاخير الذى مكث احدى وعشرين سنة على التوالى لحفظ وطننا وقد أنهينا هذا الحرب بعون الله تعالى مع الشرف الكامل والمنفعة الزائدة لدولتنا و بالصلح الذى لم يسبق بمثله للدولة الروسية ولم تحز من الفخار قدر

ما حازته

ما حازته بهذا الحرب وحيث ان الايمبراطورة كاترينة التى هى زوجتنا العزيزة قد حصل لنا منها كل المساعدة والاعانة فى الخلاص من ربقة هذه الاخطار فى هذه الحرب كما ساعدتنا ايضا فى غزوات اخرى صحبتنا فيها بالطوع والاختيار بالنصح والاشارة على قدر الامكان مع ما جبلت عليه النساء من الضعف سيما فى الواقعة التى حصلت بيننا و بين الدولة العثمانية على نهر البروث حيث قد اضمحل فيها حال جيوشنا وآل امره الى اثنين وعشرين الف مقاتل وكانت عساكر الجيوش العثمانية المقاتلة مائتين وسبعين الفا فقد اظهرت الايمبراطورة فى هذه الحالة الكريهة التى كان لا يؤمل فيها النجاح غيرة عظيمة بما صدر منها من الشجاعة الزائدة عن طاقة النساء كما هو معلوم عند جيوشنا و بدولتنا فبالنظر لذلك و بمقتضى التصرف والنفوذ الموهوب لنا من الله تعالى قد عزمنا على تشريفها بالتاج الايمبراطورى شكرا لصنيعها ومكافأة لها فى نظير ما كابدته من المشاق و بمنه تعالى يصير انجاز هذا التتويج فى فصل الشتاء من هذه السنة بمدينة موسقو وهذا اشعار منا فى شأن هذا الامر الذى عزمنا عليه لرعايانا المحبين ارباب الامانة الذين لم تزل محبتنا الايمبراطورية لهم بدون نقص ولا تغيير

(ذكر نوادر فى مناقب بطرس الاكبر)

بطرس الاول لقب بالاكبر لانه شرع فى فعل امور جسيمة وفعلها وكان لا يخطر ببال احد من سلفه فعل شىء منها وكان اهل ملته قبله مقتصرين على الصنائع الاولية البسيطة التى كانت تبعثهم على فعلها الاحتياجات الضرورية ولا يخفى ان ما تعود عليه الناس تسلطن عليهم وتطبعوا به ومن الصعوبة ازالته منهم فلا تشتاق انفسهم الى مزاولة ما لا يعرفونه وايضا عقول البشر لا تتسع الا مع الصعوبة وتتعطل قوتها الفاعلية عند وجود ادنى مانع لذلك ومما يتصوره العقل مع التسليم ان جميع الملل مكثت فى حالة الخشونة وعدم التمدن مدة آلاف قرون واستمرت على ذلك حتى ظهر فيها اناس مثل الجبار بطرس وكان ظهورهم فى الاوان الذى يلزم حضورهم فيه

فقد اتفق بالصدفة ان شابا من مدينة جنيوره كان يدعى لوفورت وكان بمدينة موسقو بمعية الجى من مملكة دانيمارقة فى سنة ١٦٩٥ ميلادية وكان عمر الجار بطرس اذذاك تسعة عشر سنة فاجتمع بهذا الشاب وكان قد تعلم فى يسير من الزمن اللسان الروسى وكان يتكلم بجل ألسن اوروبا فاعجب هذا الشاب الجار ودخل فى خدمته وعما قريب صار من اخصائه فافهمه هذا الشاب ان هناك طريقة اخرى فى المعيشة وفى الحكم خلاف الطريقة السيئة الجارية فى جميع الازمان بمملكته المتسعة فلا مانع من ان دولة الموسقو كانت تمكث فى حالة الخشونة وعدم التمدن لولا وجود هذا الشاب الجنيورى المولد

فلابد ان هذا الجار مولود مع علو الهمة حتى انه صدق من اول وهلة ما اخبره به انسان اجنبى و يترك العقائد الفاسدة المتطبع بها هو ورعيته وقد ادرك الجار بانه يجب عليه تمدين دولته وتعليم رعيته لكن لم يكن عنده ما يستعين به على هذا الامر فنوى من وقتئذ على الخروج من ملكه والذهاب الى البلاد الاجنبية لاستعارة المعارف واقتباسها من الخارج لاحياء وطنه كما يحكى عن برومتى فى الجاهليه انه صور صورا من التراب والماء واراد أن ينفخ فيها الروح بنار سماوية فذهب بطرس الى بلاد الفلمنك ليجلب منها ما يحيى به اجسام اهل ملكه من المعارف وكانت تلك البلاد الفلمنكية مثل البلاد الموسقوبية مجردة عن المعارف قبل ذلك بثلاثة قرون لكن لم يمكنه أن يبادر باجراء هذا المشروع بمجرد ما نوى عليه لما ان الحال كان مقتضيا وقتئذ لان يحارب و يقاوم آل عثمان التتار وكان ذلك سنة ١٦٩٦ ميلادية فتجلد حتى غلبهم ثم خرج من مملكته ليتعلم بنفسه جميع الفنون التى كانت اذذاك مجهولة الحال ببلاد الموسقو واقام نحو سنتين بمدينة امستردام وقرية سردام ببلاد الفلمنك و يسمى نفسه بالاسطى بطرس ميخايلوف واشتهر بهذا الاسم وكان ينادى به وقيد نفسه بمجرة امستردام الشهيرة التى كانت تعطى السفن لاغلب ممالك اوروبا وكان يشتغل بالبلطة البيكار

وعند فراغ شغله من المنجرة كان يطالع علم الجغرافيا والهندسة والتاريخ
وفى اوائل اقامته بالقرية المذكورة كانت تزدحم عليه الناس فكان
فى بعض الاحيان ينهر منهم من يتثاقل عليه فكانوا يتحملون منه ذلك على
خلاف عادة الفلمنكية واول لسان تعلمه من الالسن الاجنبية هو اللسان
الفلمنكى وبعده اجتهد فى معرفة اللسان النمساوى حيث ظهر له انه لسان
عذب الالفاظ واراد أن يكون لسان ديوانه
وقد تعلم ايضا شيأ من اللسان الانكليزى فى مدة سياحته الى لندرة ولم
يتشبث بتعلم اللسان الفرنساوى جملة كافية ومع ذلك فقد صار لسان اهل مدينة
بطرسبورغ فى عهد الايمبراطورة ايليزابيطة عقب تمدن دولة الموسقو
وكان بطرس الاكبر طويل القامة يلوح على صورته علامة الشمم
والهيبة والوقار لكن كانت صورته تتشوه تارة بما كان يحدث فى جسمه من
تشنج الاعصاب حيث كان يغير تقاطيع وجهه ويقال ان هذا الداء الذى كان
يعترى اعضاءه متسبب عن تحرك سم اعطته له اخته صوفية لكن فى الواقع
ونفس الامر ليس السم الذى كان بجسمه غير ما كان يتعاطاه من النبيذ والعرقى
ويشرب منه مقدارا زائدا على الحد غالبا معتمدا فى ذلك على قوة بنيته
وكان يميل طبعا للمحادثة مع ارباب الفنون وكان يميل ايضا الى مكالمة امراء
الجيوش فلم يكن فى طبعه كانسان خشنى لا يفرق بين مقامات الناس ولا كملك
مخالط ومواس لكل الناس يريد أن يتحبب الى رعاياه ويستميلهم كان يخالط
لمجرد تحصيل المعارف وكان يألف النساء بقدر ما كان خصمه كرلوس
الثانى عشر ملك اسوج ينفر منهن وكان يستوى عنده القبيح والحسن
فى المطعم والمنكح وكانت بغيته كثرة الشرب بدون أن يهتم بجودة المشروب من
النبيذ ويقال ان مقننى القوانين والملوك ينبغى لهم اجتناب الغضب ومع ذلك
فليس ثم انسان منهم غضوب قليل الشفقة كبطرس الاكبر وهذا العيب
اذا كان فى ملك من الملوك لا يعد من العيوب التى تسامح اذا اقترنها واعترف على
انه كان مقرا بان فيه هذا العيب حتى انه قال لحاكم من بلاد الفلمنك مدة

سياحته الثانية انى هذبت اخلاق رعيتى ولم يمكنى أن اهذب اخلاق نفسى ثم ان القساوة التى كان يلام عليها بطرس الاكبر كانت قد جرت بها العادة بديوان الايمبراطور بمدينة موسقو كما جرت بها فى ديوان سلطان فاس فلم يكن من الغريب كونه قد شوهد انه ضرب بيده الملوكية مائة سوط بالسوط المتخذ من عصب الثور احد اكابر الضباط المختصين بخدمته الخصوصية على اكتافه وهى عريانة واحدى النساء ربات الوظائف بالسراية الملوكية جزأ لما صدر منهما من التقصير فيما يجب عليهما من الخدمة فى حال سكرهما وليس ايضا من الغريب كونه شوهد انه جرب سيفه فى عنق انسان استحق القتل فضربه فطار رأسه فى الهواء وقد صدر من بطرس بعض افعال مثل هذه الافعال الشائعة ببلاد الموسقو لكن كان لوفورت بعض الاحيان يصده عن أن يضرب بنفسه لما كان له من نفوذ الكلمة لديه غير أن لوفورت لم يكن مع الجار على الدوام

ثم ان سياحته ببلاد الفلمنك وكذلك ميله الزائد للفنون كان سببا فى حصول بعض تهذيب لاخلاقه لان من خواص العلوم والفنون تحسين اخلاق الناس وكان يذهب فى الغالب عند احد علماء الجغرافيا يرسم معه خارطات بحرية وكان يمضى اياما كاملة عند الشهير هو يسك الذى هو اول من اخترع حقن المجارى البدنية بالمائعات وترتب على ذلك تقدم علم التشريح وازالة الامور الكريهة التى كانت تشمئز منها النفوس وكان هذا الايمبراطور يربى نفسه بنفسه وعمره اثنان وعشرون سنة تربية كتربية اب من ارباب الصنائع من اهل الفلمنك . لا بن له يتوسم فيه الاستعداد والذكاء وهذا التعليم لم يسبق بمثله لملوك الروسيا وكان يرسل فى هذا الزمن شبانا موسقوبية يسيحون فى جميع بلاد اوروبا ويتعلمون بها العلوم والفنون ولم ينجح فى هذه الارسالية الاولى حيث ان التلامذة فيها لم يتأسوا بملكهم حتى ان من ارسل الى مدينة ونديق لم يخرج قط من الاودة التى كان بها مدة اقامته بهذه المدينة خشية أن يلام على مشاهدة بلاد اخرى خلاف بلاد الموسقو

وهذا الوهم الذى هم عليه سرى لهم حتى زعم القسوس الموسقوبية أنه من الكبائر كون نصرانى يسافر الى البلاد الاجنبية قياسا على ما هو مذكور فى التوراة من أنه لا يباح لاهل فلسطين أن يتعودوا بعوائد من جاورهم من الامم ممن هو اغنى وأمهر منهم

وفى سنة ١٦٩٨ ميلادية توجه الجار من مدينة امستردام الى بلاد الانكليز لا كنجار من المشتغلين بانشاء السفن ولا كملك بل بوصف بوايار (مثل البيك) يجوب البلاد ليتعلم العلوم والفنون وقد شاهد الجار كل شئ هنالك حتى انه ذهب للاطلاع على الكومدية الانكليزية (العاب هزلية) مع انه لم يفهم منها شيأ لعدم معرفته اللسان الانكليزى بالكلية اذ ذاك ووجد فيها لاعبة تسمى مدموازيل غروفت احبها وواصلته غير انه لم يصلها بجزيل العطاء

وقد جهز له غليوم ملك الانكليز بيتا قابلا لسكنى مثله ومثل هذا البيت عظيم شئ بالنسبة للبيوت فى مدينة لوندره لان السرايات ليست كثيرة بها مع اتساعها حيث اكثر بيوتها واطية خالية من الحيشان والبساتين ضيقة الابواب كأبواب دكاكين فرانسا ومع ذلك فقد وجد هذا البيت اطرف من أن يسكن فيه فنأى عن السكنى به وسكن بحارة النوتية ليسهل عليه التقدم فى فن البحرية حتى انه فى اغلب الاحيان كان يتزيا بزى نوتى ليخالط البحرية ويستخدمهم فى مملكته

وقد رسم فى مدينة لوندره بنفسه صورة ترعة توصل نهر الاثل بنهر تن صوبى حيث صمم على ذلك بل كان مرامه أن يوصل نهر دوينا بهذين النهرين بواسطة ترعة يجددها ايضا وبذلك يتواصل البحر المحيط والبحر الاسود وبحر الخزر ببعضها ومن احضرهم معه من المهندسين الانكليزية لم يخدموه بنصح فى هذا المشروع العظيم وكذا آل عثمان اخذوا منه بحر ازاق سنة ١٧١٢ ميلادية وتعرضوا له تعرضا زائدا فمنعه عن تجهيز هذا المشروع الجسيم

وقد نفدت منه النقود وهو بمدينة لوندره فذهب اليه جماعة من التجار وعرضوا عليه مائة الف ايكو (قطعة من النقود) ليأذن لهم بادخال الدخان فى بلاد الموسقو فكان هذا من جملة الاحداثات الكبيرة فى هذه الدولة حتى ان ذلك عاد على الديانة الموسقوبية بالمنفعة فان البطريق الموسقوبى كان قد حكم بحرمان كل من شرب الدخان لما ان آل عثمان الذين هم اعداء الموسقو يشربونه وطائفة القسوس كانت ترى انه من جملة المزايا العظيمة لها منع الملة الموسقوبية من شرب الدخان فاخذ الچار مبلغ المائة ألف ايكو وتكفل بتكليف خرقة القسوس ايضا بشرب الدخان وكان مضمرا لهم على احداثات خلاف ذلك

ثم انه من رسوم الملوك مهاداة مثل هذا السياح فاتحفه الملك غليوم بتحفة ظريفة لائقة بالجانبين وهى سفينة صغيرة ذات خمسة وعشرين مدفعا من أعظم السفن مذهبة المقاعد كأنها محراب من محاريب هيا كل رومة وفيها الزاد والذخيرة على اختلاف اصنافهما واراد من فيها من البحرية بالطوع والاختيار أن يكونوا من جملة التحفة فعاد الى بلاد الفلمنك راكبا هذه السفينة وجعل نفسه اول نوتى فيها واجتمع فى هذه البلاد بتجار يه المشتغلين بانشاء السفن ثم توجه الى مدينة ڤيچ (وبانة تحت مملكة النمسا) وكان ذلك فى اثناء سنة ١٦٩٨ ميلادية وكان عازما على أن يقيم بهذه المدينة مدة دون التى اقامها بمدينة لوندرة لما أن ديوان المهيب ليوپولد ايمپراطور النمسا كان كثير الاحتفال وحفظ الرسوم وكانت قاعدة ملكه خالية من الامور التى يلتفت اليها فى التعليم وبعد أن شاهد مدينة ڤيچ كان مرامه الذهاب الى مدينة وندیق ثم الى مدينة رومة لكنه جبر على الرجوع الى مدينة موسقو على جناح العجلة لما بلغه من حصول فتنة داخلية بمملكته متسببة عن غيابه وعن ترخيصه شرب الدخان وذلك ان وجاق الاستراليچ وهم قدماء جنود الموسقو كانوا غير منتظمين واشبه بوجاق الانكشارية فى اضرام نيران الفتن وعدم الانتظام ودونهم فى الشجاعة ومثلهم فى الخشونة

فلهذا اثاروا الخروج والعصيان بواسطة بعض قسوس ورهبان نصفهم يونانى والنصف الآخر روسى حيث قالوا ان الله تعالى قد اشتد غضبه من شرب الدخان ببلاد الموسقو فاوقعوا بذلك الفتنة والعصيان بالدولة وكان قد تدارك الچار ما يمكن وقوعه من الرهبان والاسترليج واعد نفسه لقمعهم فكان عنده جيش منتظم متكون اغلبه من العساكر الاجنبية المرتب لهم ماهيات جسيمة وكانوا دائما متسلحين ومستعدين للقتال وكانوا يشربون الدخان بمقتضى اوامر الجنرال غردون لهم وكان ينتظر هذا الجنرال الحرب ولا يحب الرهبان وقد قصر السلطان عثمان فى تجهيز نفسه واستعداده مثل ذلك حين اراد أن يهذب اخلاق عساكره الانكشارية مثل بطرس الاكبر حيث لم يمكن لهذا السلطان أن يتعرض لهم فى ادنى شئ ولم يهذب اخلاقهم بل خنقوه

وقد ترتبت جيوش الچار وقتئذ كجيوش ملوك اوروبا وقد انشأ سفنا بمعرفة من بخدمته من الانكليز والفلمنك فى مدينة ويرونيتز الكائنة على نهر تن صويمى بالبعد من مدينة موسقو باربعمائة فرسخ وكان يشتغل بتحسين المدن وتنظيمها ويفعل ما فيه اطمئنانها وراحة العباد والبلاد ويجدد طرقا عظيمة امتدادها خمسمائة فرسخ وينشئ فبريقات لتشغيل جميع الانواع ومما يدل على شدة جهل اهل الموسقو فى ذلك الوقت هو أن اول فبريقة حدثت عندهم هى فبريقة الابر والدبابيس مع انه الآن يصطنع بمدينة موسقو القطيفة المنقوشة وأقمشة المقصب والمفضض فانظر كيف يكون لانسان واحد سطوة عظيمة ونفوذ قوى اذا كان رئيسا حسن الادارة والرأى

ثم ان حربه لكرلوس الثانى عشر ملك اسوج لاسترجاع الاقاليم التى كانت اخذتها مملكة الاسوج سابقا من الدولة الموسقوبية لم يمنعه وان لم ينجح فيه من أن يستمر على تغيير واصلاح عوائد اهل مملكه وديانتهم وفى اواخر سنة ١٦٩٩ ميلادية امر بان العام القادم يكون ابتداؤه

شهر نوبه لاشهر سبطمبر وقد تعجب اهل الموسقو حيث كانوا يعتقدون ان الله تعالى خلق الدنيا فى شهر سبطمبر من أن جارهم له اقتدار عظيم على تغيير صنع الله تعالى وقد ابتدأ هذا التغيير فى صدر القرن سنة ١٧٠٠ بموسم عظيم عينه الجبار بنفسه وكان قد ابطل منصب البطريقية وكان يفعل بنفسه الامور المنوطة بصاحب هذا المنصب وما يقال من أنه امر بوضع بطريق الدولة الموسقوبية بمارستانات المجانين بمدينة موسقو فهو غير صحيح وكان من عادته اذا اراد أن ينشرح وقت عقاب انسان يقول له هذه العبارة قد جعلتك مجنونا فالذى يلقب بهذا اللقب الجونى كان مجبورا ولو كان من أعظم اكابر الدولة على حمل قضيب الجنون بما فيه من الاشياء الهزيئة ولبس ثوب قصير بحيث يكون على ركبتيه و يعلق فى رقبته جلاجل و يحط اهل الديوان برسم كونه مجنون الذات الجارية ولم يقلد بطرس البطريق بهذه الوظيفة اصلا بل اقتنع بنسخ رتبة البطرقية لان كل من تولاها الى ذلك الوقت يتجاوز الحد حتى كان يصدر منه جبر جارات الموسقو على أن يمشوا أمامه مرة فى السنة قابضين على عنان حصان البطريق وقد تخلص بطرس الاكبر من فعل هذا الاكرام للبطارقة

ولاجل أن تكثر اهالى مملكته اراد أن يكون بها قليل من الرهبان فامر بانه من الآن فصاعدا لا يمكن لانسان الدخول بدير لاجل الرهبانية الا اذا بلغ من العمر خمسين سنة فمن ذلك حصل ان فى عهده قل بمملكته الرهبان دون غيرها من الممالك لكن بعده قد كثر هذا الجنس الذى كان قد قطع دابره وسبب كثرته سخافة عقول رؤساء الدين وهو كونهم يريدون ازدياد اهل خرقتهم وهنالك سبب اخر وهو ايضا الضعف القائم بالحكام وسخافة عقولهم من كونهم يتحملون هذه الخرقة الرهبانية

وقد وضع الجبار قوانين محكمة لخصوص الموظفين بالكنائس ولتهذيب اخلاقهم وان كانت اخلاقه لا تخلو من الفساد والشذوذ لكن كان يعلم أن ما يتساهل فيه الملك لا ينبغى أن يتساهل فيه لقسيس ثم ان النساء قبل بطرس

كنّ لا يظهرن على الرجال ولم يكن يسمح بدولة الموسقو ان خاطبا شاهد قبل عقد الزواج مخطوبته بل كان لا يعرف الزوج مخطوبته الا فى الكنيسة ومن جملة هدايا العرس التى يرسلها الزوج لمخطوبته مقدار من العصى بقدر قبضة اليد ايقاظا لها بانه عند اول فرصة توجب عقابها ينالها من زوجها تأديب خفيف وكان من قانون المملكة اذا قتل الرجل امرأته لا يقتل فيها واما الزوجات اللاتى يقتلن ازواجهن فانهن يدفن احياء

وقد ابطل بطرس عادة ارسال هذا المقدار من العصى وحرم قتل الرجل زوجته ولاجل حصول الوفق بين الزوجين ودفع مضار الزواج احدث ببلاد الموسقو عادة اكل الرجال مع النساء وان تعرض الرجال على البنات قبل اشهار الزواج وبالجملة فانه احدث كل شئ وأبدعه بملكه حتى جمعيات المسامرة والتوادد فانه معلوم عند الناس القانون الذى وضعه بنفسه لاجل الزام اكابر دولته رجالا ونساء بعمل جمعيات عندهم وكل من صدر منه بهذه الجمعيات شئ يخل بالادب الموسقوبى فجزاؤه شرب قدح عظيم من العرقى بحيث جميع اهل الجمعية المحترمين كانوا يرجعون منها سكارى مجردين عن تهذيب الاخلاق وانما احدث مجالس المسامرة عند اهل الموسقو الذين كانوا لا يعرفونها اصلا هو امر جسيم حتى انه كان يلعب فى هذه الدولة فى بعض الاحيان ألعاب تياترية فان الاميرة ناتاليا احدى اخوات بطرس ألفت باللسان الروسى مقامات تياترية من هذا القبيل تتعلق بذكر الحوادث المحزنة وكانت اقرب شبها بما ألفه الشهير ساكسبيار الانكليزى فان موضوع تلك الالعاب حكاية سير الظالمين وتقليد أحوال الماجنين وآلات الالحان الموسيقية هى الكمنجات الموسقوبية التى كانت تضرب بعصب الاثوار وصار الآن فى مدينة بطرسبورغ استاوات يلعبون التياترو من الفرنساوية ومن الطليانية باللغتين فقد حلت الظرافة والرقة فى كل الامور ببلاد الموسقو محل الخشونة والتبربر الذى كان عندهم ومن جملة المشروعات الشاقة الصعبة التى أبدعها هذا المؤسس فى ملكه تقصير ثياب رعاياه وحلق لحاهم وقد كان ذلك

في مبدئه سببا في حصول لغط جسيم وضجر عظيم منهم والواقع أن من اعجب ماوقع كونه ألزم الملة بتمامها يلبس ملابس كملابس اهل ألمانيا وجبرهم على تشغيل الامواس في لحاهم دفعة واحدة وقد اجرى ذلك بوضع خياطين وحلاقين على ابواب المدن لاجل قص ثياب وحلق لحا الذين يدخلون من الابواب المذكورة وكل من حصل منه توقف وعدم تسليم في ذلك يدفع مغرما يساوي تسعة قروش من القروش المصرية فعما قريب رضي الناس بفقد لحاهم دون فقد دراهمهم وقد صدر من النساء مساعدة الچار في هذا الاصلاح والتحسين اذ كن يكرهن من الرجال لحاهم فلا يحببون الا الامرد اوالاجرد وكن ايضا شاكرات صنيع الچار على كونه منع عنهن ضرب الرجال لهن وجعلهن يجلسن في الجمعيات مع الرجال وعلى كونه كان السبب في كونهن صرن يتزوجن بالصور الحسنة عندهن بخلوها من الشعر

وفي اثناء ما كان مشتغلا بما يوجب انشراح خاطره بابداع هذا التحسين بمملكته والاصلاح جسيما كان اويسيرا وكذا في اثناء الحرب المهول الذي كان بينه وبين كرلوس الثاني عشر وكان موجب الاشتغال فكره قد وضع أساس كل من مدينة بطرسبورغ وميناها وكان ذلك سنة ١٧٠٤ ميلادية في وسط بركة لم يكن بها وقتئذ من المباني خص واحد وقد اشتغل بطرس بنفسه في بناء اول بيت أسس بهذه المدينة ولم تكل همته في ذلك من شئ قط اذ جبرت العملة على أن تحضر بهذا المحل الذي هو شاطئ بحر بلطق من بعيد كثغور ازدراهان وشواطئ البحر الاسود وبحر الخزر فهلك في بناء هذه المدينة اكثر من مائة ألف نفس بالاشغال الشاقة والقحط الذي حل بهم لكن قد تمت المدينة المذكورة وهي الآن موجودة على احسن حال وقد انشأ ايضا مينات ارفنجل وازدراهان وازاق وورونيتو

ولاجل ابداع كثير من المصالح الجسيمة ببلاد الموسقو وتحصيل دونمات بحر بلطق وتجديد مائة ألف عسكري من الجيوش المنتظمة كان يلزم صرف مبالغ جسيمة مع ان الدولة الموسقوبية لم يكن لها من الايراد اذذاك

الانحو وعشرين مليونا من الفرنكات وقد شاهدت دفتر ذلك مع انسان كان الجيا بمدينة بطرسبورغ ولكن اجر العملة الذين كانوا يشتغلون بمدينة بطرسبورغ كانت على النسبة لايراد الدولة ويلزم أن يعترف الانسان بان تكاليف بناء اهرام مصر لم يتكلف على ملوكها سوى ما كان يأكله العملة من البصل مدة اشتغالهم بتشييدها وأقول ان الملوك لا يتكلف عليهم الشئ فى الحقيقة سوى ارادة فعله والامر به ولا يأمرون به بين

ولما اخرج الجبار رعاياه بالتربية من العدم الى الوجود رأى انه يباح له فعل ما كان يميل اليه من عقد النكاح على معشوقته كاترينة التى صاحبته وكانت جديرة بأن تكون زوجته فعقد عليها على رؤس الاشهاد باطلاع الخاص والعام سنة ١٧١٢ ميلادية واصل كاترينة الشهيرة انها كانت بنتا يتيمة ولدت بقرية رنجبان باقليم استونيا وكفلها قسيس هرطيق من اتباع لوتير يدعى غلوك وكان يطعمها من الصدقات ثم تزوجت برجل عسكرى من اقليم ليونيا فأسرها بعد زواجها بيومين جماعة من العساكر فدخلت فى خدمة كل من الجنرال بوير وشيرمتوف ثم فى خدمة منزيقوف وهو شاب صبى فطاطرى اغتنى وصار من الاكابر ثم من الامراء ولقب بلقب برنس ونال الحظوة فى الدولة حتى صار اول رجل من رجال الدولة الموسقوبية فانتهى الحال الى أن صارت كاترينة المذكورة زوجة لبطرس الاكبر ثم بعد موت هذا الجبار خلفته على سرير الملك وصارت ايمبراطور بجهة الدولة الموسقوبية وصاحبتها بالوراثة وهى جديرة بذلك فقد حسنت كثيرا اخلاق زوجها وكان على يديها تخليص كثير من الناس من الضرب بالكنوت (سوط عذاب عند الموسقو) وخلصت من القتل بالبلطة اكثر مما نجا على يد لوفورت فكانت محبوبة مكرمة عند اهل الموسقو وهذه المرأة لو عرضت على احد من به حسب ونسب من آحاد اشراف ألمانيا او على احد من وكلاء حاكم من حكام ألمانيا لما رضى بزواجها الكن بطرس الاكبر لم يكن يعتقد أن فضل الانسان يلزم له اثنان وثلاثون طبقة من انساب

الشرف فان الملوك يعتقدون أن لا اشرف من الرتبة التي يشرفون بها اتباعهم وان جميع الناس تستوى درجاتهم أمام الملوك ومن المحقق ان الحسب لا يقتضي الفرق بين درجات الناس في الانسانية كما انه لا فرق بين حارين احدهما كان ابوه يحمل النجاسة والاخر كان ابوه يحمل الاشياء التي يتبرك بها من آثار الصالحين وانما الحرى تمييز درجات الناس انما هو الادب وحسن التربية وكذا المعارف تجعل فرقا عظيما بين العالم والجاهل لكنها دون المال فهو عظيم وقد تربت كاترينة عند القسيس المذكور الذي هو من اقليم استونيا تربية عظيمة كتربية جميع اكابر النساء الموسقوبية اللاتي بمدينة موسقو وارقحيل وكانت من اصل الفطرة صاحبة ذكاء وفطنة قابلة لكسب المعارف وعالية الهمة اكثر من فانها نظمت كلا من بيت الجنرال بوير وشرمتوف أحسن نظام بدون أن تعرف القراءة والكتابة والغالب ان الانسان الذي يعرف أن يدير بحسن الادارة منزلا جسيما يقتدر على ادارة مملكة بتمامها ولو يخاطر للانسان ان هذا الامر من اغرب الامور ولكن في الواقع ونفس الامر ان العقل المدبر لمائة نفس يمكنه أن يدبر ايضا عدة آلاف من الانفس

ثم ان ألكسيس الجار زاده الذي يقال انه تزوج كابيه بجارية وتغرب مثله مرتا لم يحصل له في هذين المشروعين نجاح كما حصل لابيه بل ترتب على ذلك اعدامه لكونه اقتدى بابيه اقتداء في غير محله وما حل به من القتل عبرة عظيمة في القساوة التي لم يصدر مثلها من ملك من الملوك في حق ابنه لكن مما يشرف سيرة الايمبراطوريجة كاترينة هو انها لم يكن لها مدخل قط في المحنة التي حصلت لهذا الامير الذي هو ابن الجار من زوجة غيرها ولم يكن يحب شيأ قط مما كان يحبه ابوه ولم تتهم كاترينة بأنها فعلت بألكسيس ما شأنه أن يصدر من زوجة الاب التي شأنها القساوة والجفاء على ابن زوجها وأعظم ذنب ارتكبه هذا الامير هو أنه كان محرصا كل الاحراص على بقاء طباع اهل الموسقو وانه كان يكره ما كان يصدر من ابيه من

الامور

الامور الجسيمة التى تخلد ذكره لفخر الملة الموسقوبية وقد سمع ألكسيس ذات يوم بعض اناس من الموسقوبية يشكون من الاشغال التى تنكل عنها القوى مما اقتضاه الحال لانشاء مدينة بطرسبورغ فقال لهم صبرا فان هذه المدينة لا تمكث مدة طويلة ولما كان يلزم الحال لان يتبع اباه فى اسفاره البعيدة التى كان يسافرها فى اغلب الاحيان وبعده عن المملكة بخمسمائة فرسخ فاكثر كان يتمارض ويأخذ من المسهلات مقادير جسيمة لتخفيف هذا المرض الذى فى الواقع ونفس الامر لم يكن قائما به وكذلك وجود الاطباء حوله وما كان يتعاطاه من العرقى بكثرة كل ذلك تسبب عنه تغيير فى صحته وعقله وكان فى اول امره له ميل طبيعى لتحصيل المعارف فكان له وقوف على الهندسة والتاريخ وكان قد تعلم اللسان النمساوى لكنه لم يكن يحب الحرب وهذا ما كان يلومه عليه ابوه كل اللوم وقد تزوج هذا الامير بالاميرة ولفانبوتيل اخت الايمبراطورة زوجة كرلوس الرابع ايمبراطور النمسا سنة ١٧١١ ولم يقع بين الزوجين راحة لانه كان يهجر الامير المذكور فراش هذه الاميرة حيث كان منهمكا على الفسق وعلى شرب العرقى كان مصاحبا معشوقته افروزينة وهى بنت من اقليم فنلندة طويلة القامة لطيفة الشكل مألوفة وقد زعم بعضهم ان الاميرة زوجة الجار زاده افضى بها الغم الى الموت ان كان الغم يقتل وان الجار زاده المذكور تزوج افروزينة فى السر سنة ١٧١٣ حين ما وضعت كاترينة غلاما من الجار صار اخاله وكان غنيا عنه لانه يخشى أن يعكر عليه فى ولاية الملك بعد ابيه

وقد اشتد الغيظ على مدى الايام بين كل من الجار وابنه حتى ان الجار من سنة ١٧١٦ هدد ابنه بأنه يحرمه من وراثة الملك بعده فاجابه ابنه بأنه يريد أن يكون راهبا

وفى سنة ١٧١٧ قد جدد الجار سياحاته لغرض سياسى ولمشاهدة ما كان متولعا بمشاهدته بالبلاد الاجنبية وانتهى الحال بانه ذهب الى مملكة

فرانسا فلو كان مرام ابنه العصيان عليه او كان هنالك في الواقع ونفس الامر حزب مساعد له على ذلك لكان وقتئذ فرصة ظهور هذا الحزب واشتعال نار العصيان والخروج على ابيه لكن عوضا عن أن يمكث الجارزاده ببلاد الموسقو مدة غياب ابيه ويستميل قلوب اناس لاجل التحزب معه خرج من الديار الموسقوبية وكابد ما كابد في تحصيل بعض آلاف من الريالات الموسقوبية اقترضها في السر والتجأ عند الامبراطور كرلوس الرابع الذى كان عديله ومكث بمدينة يح مختفيا مدة من الزمن ثم توجه الى مدينة نابلي وأقام بها نحو سنة ولم يكن يعلم الجار ولا غيره من اهل الموسقو المحل الذى التجأ به هذا الامير

ومذ كان الجارزاده مختفيا بهذه الجهات كان ابوه بمدينة باريس التى صار تلقيه فيها بنظير الاحترام الذى حصل له بغيرها من البلاد التى ذهب اليها لكن كان هذا التلقى مع التلطيف والاكرام الذى لا يتيسر وجوده سوى في مملكة فرانسا فكان اذا ذهب ليتفرج على فبريقة من الفبريقات ورأى بعض الاشياء المصطنعة فيها وأعجبه وأحدق بصره اليه اكثر من غيره اهدى له منها في الغد وقد اتفق انه مضى للعشاء عند دوق دنتين في سرايته التى على البعد من باريس بثلاثة فراسخ فأول شئ رآه في السراية هو صورته عند هذا الدوق مرسومة بالرسم الكبير وعليها الكسوة التى كانت عليه وقتئذ ولما ذهب الى ضربخانة التذكارنامة ضربوا أمامه من كل انواعها وأهدوه بها حتى انهم ضربوا قطعة من هذه النشانات وألقوها على قدميه ليلتقطها فتناولها فاذا فيها صورته منقوشة بأكمل حال ومرسوم على احدى جهتيها ما معناه بطرس الاكبر وعلى الاخرى صورة تمثال الشهرة (المذكورة في خرافات القدماء) وعلى دائرة هذه القطعة منقوش بعض كلمات من كلام الشاعر ورجيل ومعناها

* كلما مشى وسار * اكتسب القوة والفخار *

ولا شك ان عنوان هذا التلميح يصدق عليه * ويدل على انتماء الفخار اليه

لان

لان هذا الملك كان يزيد فى فضل نفسه فى الواقع ونفس الامر باسفاره فى المسالك واطلاعه على غرائب الممالك

ولما رأى فى باريس قبر الكردينال دوريشليو وتمثاله المصطنع صناعة جيدة تليق بهذا الوزير الذى كان شكله على شكل هذا التمثال تنهد وتنفس الصعداء وقال عبارة لا تصدر الامن اناس مولودين ليكونوا ابطالا عظاما اذ صعد على القبر ولثم التمثال وقال يا ايها الوزير العظيم القدر لو وجدت فى عهدى لاعطيتك نصف ملكى كى أتعلم منك تدبير النصف الآخر فكان ثم انسان من الحاضرين اقل حماسا من الچار فسأل عن معنى هذه الكلمات التى قالها باللسان الروسى فأفهموه معناها فاجاب بأنه لو أعطاه نصف مملكته بالطوع والاختيار لم يبق له النصف الآخر زمنا طويلا

وبعد أن طاف الچار بمملكة فرانسا التى كل ما فيها يحسن الاخلاق ويعلم الحلم والتغاضى عاد الى وطنه ورجع الى ما كان عليه من الجفا والقساوة فدعى ابنه للعود من مدينة نابلى الى بطرسبورغ ومن هذه المدينة اتى به الى مدينة موسقو واحضر أمام والده الچار وابتدأ بحرمانه من وراثة سرير الملك وولاية العهد بعده وألزمه بأن يكتب على نفسه وثيقة أمام الخاص والعام ويضع عليها امضاءه بأنه تنازل عن وراثة الملك بعد ابيه وفى آخر شهر ينويه سنة ١٧١٨ وعده ابوه بانه لا يقتله حيث انه أسقط حقه فى ولاية العهد

ولما كان العقل لا يستبعد ان مثل هذا الاسقاط يلغى ولا يعمل به ذات يوم من الايام فلاجل تقويته نسى بطرس حقوق البنوة وتذكر انه مؤسس لدولة جديدة يخشى عليها من ابنه اذا حكم بعده أن يغمسها ثانيا فى بحار البربرة والخشونة التى اخرجها ابوه منها فامر الچار بان يجرى على رؤس الاشهاد تحقيق قضية ابنه هذا حيث كتم فى اعترافه الذى ألزم به فى اول الامر بعض امور كان حقها الافشاء

وقد وجد القسوس والاساقفة والمدرسون العالمون بعلم اللاهوت الذين اجتمعوا

اذ ذاك للحكم على ألكسيس بما صدر منه فى التوراة ان من عق والديه جزاؤه قتله وان داود عليه السلام سامح ولده ابشولم الذى خرج عن طاعته لكن لم يسامحه الله تعالى بل أنفذ حكمه فيه فهذا ما ابدوه من غير أن يحكموا عليه بشىء اصلا لكن ماذكروه هذا هو فى الواقع ونفس الامر كناية عن الحكم على ألكسيس بانه يستحق القتل وفى الحقيقة لم يعق ألكسيس والده اصلا ولم يخرج عن طاعته كما خرج أبشولم حيث لم يخن فراش ابيه بجهرة وانما سافر بدون اذن والده وكتب لاصحابه مكاتيب ذكر فيها انه يؤمل أن يتذكروه ذات يوم ببلاد الموسقو ومع ذلك فالمائة واربعة وعشرون قسيسا الذين تخصصوا للحكم على ألكسيس لم يظهر من بينهم واحد الاوحكم بقتله ومن لم يعرف يكتب اسمه منهم أذن بالكتابة عنه على جرنال الحكم عليه بالقتل ومما شاع ببلاد اوروبا وطبع فى كثير من التآليف هو أن الجبار امر بان يترجم له من اللغة الاسبانيولية الى اللغة الموسقوبية جرنال الحكم على دن كرلوس ولى عهد مملكة اسبانيا حيث وضعه ابوه فيليبش الثانى فى السجن ولبث به حتى مات صبرا ولم يعلم بأى كيفية كان موته هل مات حتف انفه او بالقتل ولم يكن بطرس الاكبر الذى هو أعظم الملوك رخصة فى الاحكام وتصرفا فى اجراء النقض والابرام مفتقرا للتأسى فى قتل ابنه باحد من السالفين ولا بسلوك منهاج غيره من المتقدمين ومع ذلك فمن الثابت المحقق فى التواريخ ان ابنه قضى عليه فى فراشه ثانى يوم الحكم عليه بالقتل وان الجبار كان عنده بمدينة موسقو اجزاخانة من أعظم اجزاخانات اوروبا ولكن الظاهر ان الامير ألكسيس حيث انه ولى عهد اكبر دولة فى الدنيا واتفقت كلمة رعايا والده الذين كان يحتمل أن يصيروا رعاياه ذات يوم على الحكم عليه بالقتل انما مات بما اعترى جسمه من التغير حين بلغه الحكم عليه بالقتل وهو حكم غريب ومهول وقد ذهب ابوه لمشاهدته فى حال احتضاره ويقال انه بكى وزرفت عيناه بالدموع ومع ذلك فقد صار تعذيب احباب ألكسيس الذى حكم عليهم الجبار بالقتل معه بالتقطيع

بالجلات

بعجلات القتل وامتلأت تلك العجلات من قطعهم وقد امر بضرب عنق صهره قونتة لابوشين وهواخ زوجته اودوكيا الابوشين التى طلقها وخال الامير ألكسيس وكذا قسيس الاعتراف الذى كان يعترف ألكسيس على يده قد ضرب عنقه نعم ان دولة الموسقو قد تمدنت ولكنها اشترت التمدن باغلى ثمن

ثم ان مابقى من عمر الجبار بعد قتل ولده لم يصرفه الا فى تكميل اغراضه العظيمة ومآربه الجسيمة واشغاله الملكية واعماله العسكرية التى كان يظهر منها انها محت ما كان عليه من القساوة المفرطة التى لا مانع من أنها كانت ضرورية ببلاد الموسقو وكان فى الغالب يخطب اهل ديوانه واهل مشورته و يعظهم وقد قال فى خطبة من خطبه أنه اعدم ولده لاجل سلامة مملكته وانقاذ البلاد والعباد

وبعد الصلح الذى عقده مع مملكة اسوج واورث الفخار لدولة الموسقو واستولى به على اقليم ليونيا واستونيا وأنجرمانيا ونصف كاريليا وويبورغ لقبه اكابر الموسقو بلقب الاكبر وابى الوطن وايمبراطور وكان الوكيل عن هؤلاء الاكابر المذكورين فى ذلك مشورة السنت (مشورة الحكومة) فاعطته هذه المشورة الالقاب المذكورة عن لسان الاعيان على رؤس الاشهاد بحضور كل من قونتة دوكينسكى سفير ايمبراطور النمسا ومسيو كمبرودن سفير فرانسا بدولة الموسقو وألچية مملكة البروسيا والفلمنك ثم تعوّد ملوك اوروبا شيأ فشيأ على تلقيب ملوك الموسقو بلقب ايمبراطور لكن هذه الرفعة لا تمنع من كون ألچية فرانسا مقدمين فى التشريفات على ألچية الموسقو فى سائر دواوين الملوك

ولا شك أنه يجب على اهل المملكة الموسقوبية اعتقاد أن الجبار أعظم جميع الناس فانه من بحر بلطق الى ثغور مملكة الصين فعل ما يوجب أن يكون به بطلا همامًا ولكن هل يعد من الابطال عند الفرنساوية وهل يضاهى فى الجسارة والشجاعة ابطال هذه المملكة من امثال كندى

وويلار وهل يشابه فى المعارف والعقل والاخلاق لاحد من الرجال
الموجودين بفرانسا فى عصرنا هذا وجواب ذلك انه ليس من هذا القبيل
وانما كان ملكا غير مهذب ولا مؤدب الا انه قد فعل ما لم يكن فى طاقة ألف ملك
لو حلوا محله أن يفعلوا ما فعله اذ كان متصفا بقوة النفس التى من شأنها أن تجعل
الانسان متسلطنا على ما كان حوله من الاوهام الفاسدة التى كانت موجودة
ببلاد الموسقو قبله فغلبها وقمعها فمثله كمعمار بنى ببلاد الموسقو ما بناه بالطوب
والقراميد ولو كان فى غيرها لبنى بالرخام اذ لو حكم بطرس بمملكة فرانسا
لاوصل الفنون من الحالة التى عليها الى اعلى الدرجات فكان يتعجب منه لكونه
كان له ببحر بلطيق خمس وعشرون سفينة من كبار السفن بخلاف ما اذا كان
هذا الجبار بمملكة فرانسا فلو كان بها لكان له بمينائها مائتا سفينة
فانظر ما فعله الجبار بمدينة بطرسبورغ فما بالك لو كان بمدينة باريس
ماذا يكون فعله بها والذى اتعجب منه كل العجب هو قلة رجاء النوع البشرى
فانهم كانوا لا يصدقون بظهور انسان بمدينة موسقو مثل الجبار بطرس
فان الانسان كان يرضى أن يراهن على ان مثل هذه القريحة المخالفة لقرائح
اهل الروسيا لا توجد فى انسان من اهل هذه البلاد بشرط أن يدفع فى حالة
ما اذا وجدت هذه القريحة مبلغا يساوى عدد من عمروا بلاد الموسقو
فى جميع الازمنة وأن يأخذ من غريمه القائل بالوجود واحدا فقط وكان
الانسان يرضى ايضا يراهن غيره على أن يدفع له ستة عشر مليونا عدد اهل
الموسقو اذ ذاك ويأخذ واحدا من الآحاد على ان الجبار بطرس يتصف
بهذا العقل وحسن التدبير لا يجد من يراهنه على ذلك ومع ذلك فقد اتصف
الجبار بما كان يعد من قبيل المستحيل على مثله ولا غرابة فى ذلك فانه قبل
اختراع المحراث مضى احوال عديدة وتوارت الحوادث فى مدد مديدة
وتداولت القرون والعصور والازمنة والدهور حتى أوجد مدبر الكائنات
لحسن القوت مخترع هذه الآلة الزراعية لتقى الخلق من المجاعة كما أوجد ايضا
مخترع فن الحياكة القماشية للملابس البرية والآن حيث داخل بلاد الدولة

الموسقوبية التمدن بالتدريج لا يتعجبون من تقدمهم فى الفنون والصنائع
فانهم تعودوا عليها فى دون خمسين سنة بل من رأى بلادهم وما هم عليه
الآن لا يقول الا يكون هذه الصنائع قديمة عندهم متوارثة عن سلفهم
والى عهدنا هذا لم يزل باقطار افريقية المتسعة الارجاء ممالك يفتقر اهلها الى
رجل عظيم يدخل فيها الحضارة والعمران كما فعل بطرس الاكبر فيما حكمه
من البلدان ولا مانع أنه يظهر فيها مثله ولو بعد الوف من السنين لان الشئ
المطلوب يتأخر حصوله ولو بعد حين

يقول مترجمه من الفرنساوية الى العربية احمد محمد عبيد افندى الطهطاوى *
بعد حمد غافر المساوى * قد صرفت فى ترجمته على صعوبته الهمه * وسهرت
فى مطالعته وفهمه الليالى المداهمه * واستعنت فيما حواه من المشكلات *
وما اشتمل عليه من المعضلات * بمراجعة صاحب الرفعة رفاعة بيك ناظر
قلم الترجمة * وتصحيح غالبه بمعرفة العلامة الشيخ محمد قطة العدوى فجاءت
ترجمته على حسب الطاقة متقنة محكمة * ولا اقول مع ذلك انه خلى من الخلل *
او عرى من الخطل * فان ذلك ليس فى طاقة الانسان * الجامع فى اشتقاقه
حروف النسيان * لاسيما مثلى فانه غريب فى ذلك اللسان * مع ما يضاف الى
ذلك من كون هذا التاريخ معدودا من التواريخ السياسية * المشحونة
بالوقائع والحوادث البوليتيقية * وان مؤلفه من كبار المتفلسفين من العيسوية
* ومن عظام فصحاء الدولة الفرنساوية * ومن ذا الذى يجهل خطابة ولتير
الشهير * وان له فى كل فن تأليفا يعجز عن فهمه الصغير والكبير * والحمد لله قد تم
على اكمل حال * وأعظم منوال * فى ايام الآصفى الاكرم * الصدر الاعظم *
ولى النعمة * ورب الهمم الجمة * من انجلا بطاعته ظلام الظلم وتلاشى *
سعادة افندينا الحاج عباس باشا * بلغه الله تعالى ما يشا وما شا * وانعش
بفائض جوده وجود المعارف انتعاشا * امين فهو جدير بان يتلى عند ذكر
جنابه الشريف * وتلاوة اسمه المنيف * بقول الشاعر

انا لنبنى على ما شيدته لنا * اباؤنا الغر من عز ومن كرم

انى وان كان قومى فى الورى علما * فاننى علم فى ذلك العلم

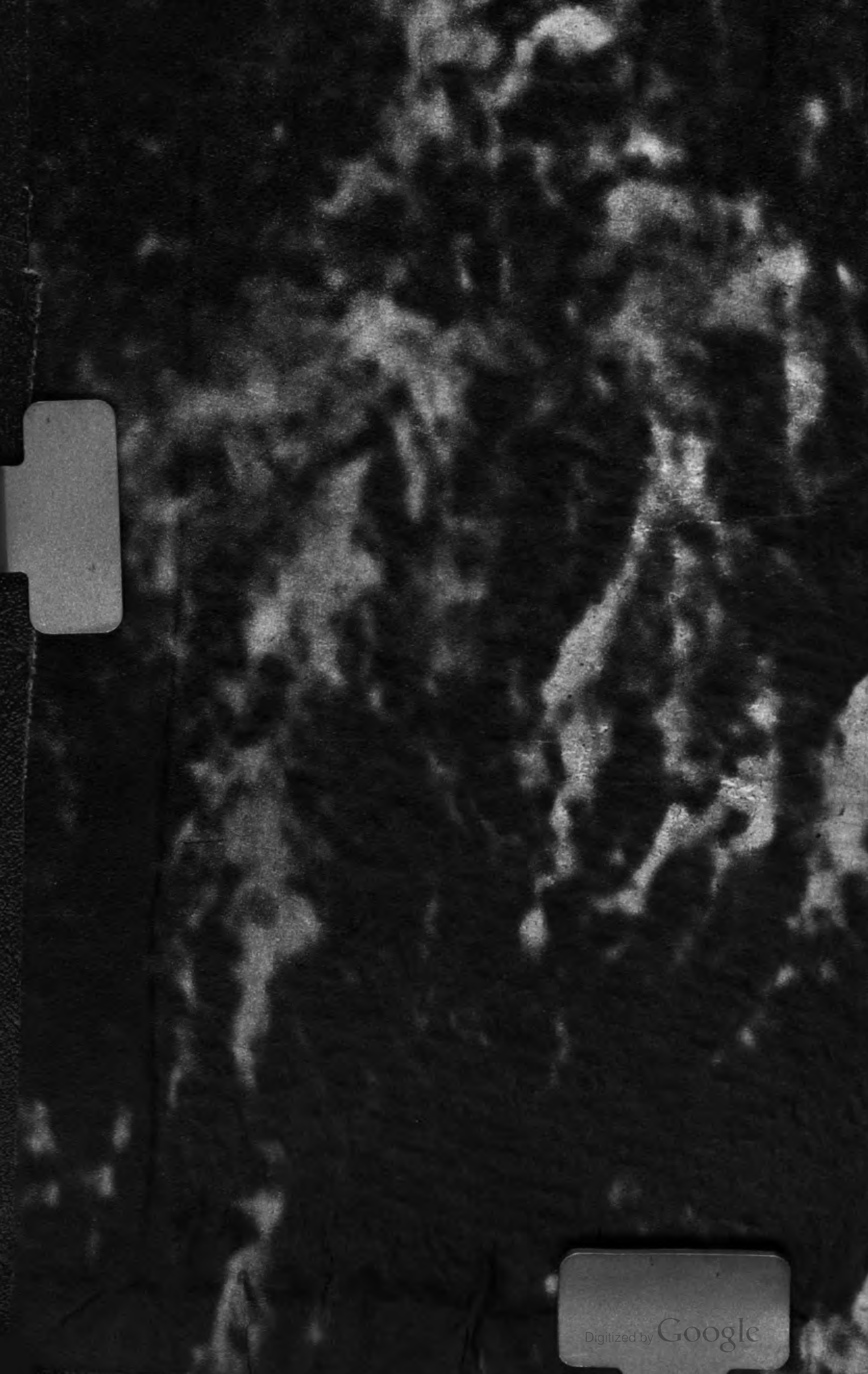
حفظه الله وادامه * وخلد ايامه وابد احكامه * وحفظ الهامه واسدل على سائر الرعية انعامه * بجاه ختام المرسلين * صلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين *

وقد كمل اتمامه بالطبع الجميل * وحسن الرسم والتمثيل * بدار الطباعة العامرة * الكائنة ببولاق مصر القاهرة * فى اول العشرة الاواخر * من شهر ربيع الآخر * سنة ست وستين ومائتين بعد الالف * من هجرة من كان يرى من الامام كما يرى من الخلف * صلى الله وسلم عليه * وعلى آله واصحابه المنتمين اليه فى مدة ناظرها المتوكل على مولاه المعيد المبدى * على جودة افندى * فرحم الله من نظر فيه واليه * وستر على ما عثر عليه *

تم

104






HDI
HW 72K1 -